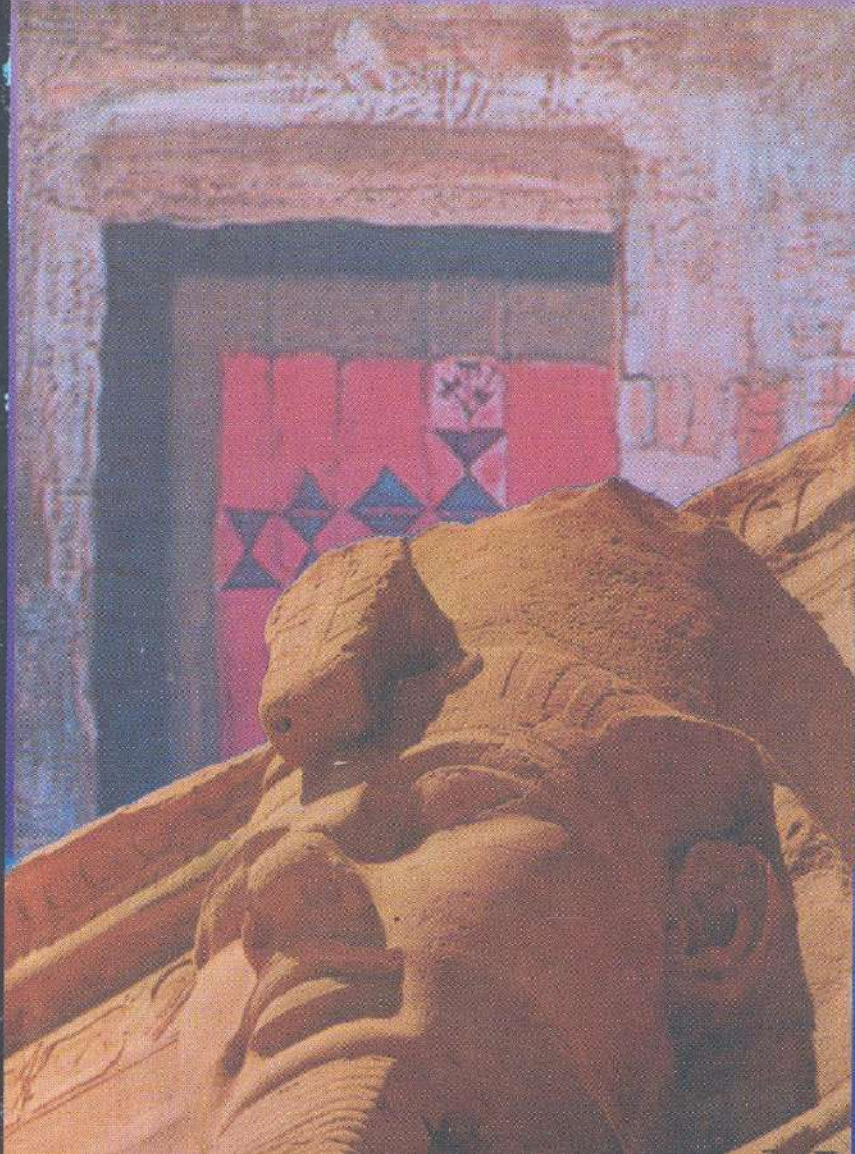


ميراث الترجمة

رولتر إمري

مصر وبلاد النوبة

ترجمة: تحفة هندوسة
مراجعة: عبد المنعم أبو بكر
تقديم: خليل كلفت



مصر وبلاد النوبة

المركز القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة

المشرف على السلسلة : طلعت الشايب

– العدد : ١١٢٢

– مصر وبلاد النوبة

– وولتر إمري

– تحفة حنفوسة

– عبد المنعم أبو بكر

– خليل كلفت

– ٢٠٠٨

هذه هي الترجمة العربية لكتاب :

EGYPT IN NUBIA

by : Walter B. Emery

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة .

شارع الجبلية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo

e.Mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

مصر وبلاد النوبة

تأليف : وولتر إمري
ترجمة : تحفة هندوسة
مراجعة : عبد المنعم أبو بكر
تقديم : خليل كلفت



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

إمرى ، ولتر
مصر وبلاد النوبة / تأليف : ولتر إمرى ؛ ترجمة : تحفة خندوسة ؛
مراجعة : عبد المنعم أبو بكر ؛ تقديم : خليل كلفت -
القاهرة : المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٨ (المركز القومى للترجمة)
٣٢٤ ص ؛ ٢٤ سم (المشروع القومى للترجمة)
١ - النوبة - تاريخ
(أ) خندوسة، تحفة (مترجم)
(ب) أبو بكر، عبد المنعم (مراجع)
(ج) كلفت، خليل (مقدم)
(د) العنوان

٩٦٢,٥

رقم الإيداع ٢٠٠٨/١٠٠٣٤
الترقيم الدولى 3 - 744 - 437 - 977 I.S.B.N.
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

تقديم

بلاد النوبة، كما نعرفها اليوم، منطقة تمتد جنوب مصر وشمال السودان، بين الشلال الأول جنوبى أسوان والشلال السادس شمالى الخرطوم، وهناك أيضاً جبال النوبة فى كردفان. والنوبيون، كما نعرفهم اليوم، أعنى الناطقين باللغة النوبية (أو بالأحرى باللغتين النوبيتين الموجودتين فى وادى النيل)، يعيشون على أرض هذه البلاد، فى منطقتين متميزتين: النوبة السفلى أو المصرية، والنوبة العليا أو السودانية.

على أن هذا التطابق بين منطقة جغرافية تحمل اسم النوبة منذ وقت طويل، وسكان يحملون اسم النوبيين وينطقون باللغة أو اللغات النوبية الحالية، لم يكن موجوداً منذ فجر التاريخ، بل إنه لم يتحقق إلا منذ القرون الأولى بعد ميلاد المسيح. وقبل ذلك كانت المنطقة تسمى النوبة أو "تاسيتى" Ta-Seti : "كوش" للنوبة السودانية الحالية، و"واوات" للنوبة المصرية الحالية. وكان السكان نوبيين نسبة إلى اسم المنطقة الجغرافية، غير أنهم لم يكونوا ناطقين بلغة تمثل اللغة أو اللغات النوبية الحالية امتداداً لها، بل كانوا يشكلون مجموعات سكانية متباينة إثنيًا وقوميًا ولغويًا لا يزال رسم خريطة لتعاقبها الإثنى أو القومى أو اللغوى أمراً بعيد المنال.

وتتمثل المجموعة الإثنية ethnic group أو الإثنوس ethnos فى جماعة من البشر تكونت تاريخياً تجمعها وحدة اللغة والثقافة والأرض، وتميز نفسها باسم إثنى ethnonym خاص بها. وعلى هذا يمكن القول إن النوبيين الحاليين يشكلون مجموعة إثنية أو قومية تشمل بصورة خاصة النوبيين النيليين بخلاف النوبيين الجبليين الذين لا تجمعهم بالنوبيين فى الوادى وحدة الأرض كما يختلفون عنهم من نواح ثقافية ولغوية ولهجية متعددة.

وإذا كانت بلاد النوبة قد شهدت، وفقاً لعلماء الآثار، تعاقب أربع مجموعات بشرية منذ الأسرة الأولى في العصر التاريخي المبكر حتى نهاية الأسرة العشرين والدولة الحديثة في مصر القديمة، واستمرت إحداها، الأخيرة، حتى القرون الميلادية الأولى، فإن النوبيين الحاليين ليسوا امتداداً إثنيّاً أو قومياً أو لغوياً لتلك المجموعات البشرية التي لا يمكن إلا افتراض اختلاف وتباين حضاراتها وثقافتها ولغاتها فيما بينها من جهة وبينها وبين المجموعة الإثنية النوبية الحالية من جهة أخرى، ولا سبيل إلى الآن، وربما إلى الأبد، لاكتشاف التسلسل الزمني للغاتها على وجه الخصوص.

وفي مقابل هذا التاريخ الغامض للطابع الإثني ethnicity للمجموعات السكانية التي تعاقت على منطقة النوبة، نجد الاتصال التاريخي الطويل الأمد بالنسبة للجماعة الإثنية المصرية التي استمرت آلاف السنين؛ ذلك أن اللغة المصرية القديمة استمرت آلاف السنين، على الأقل منذ أن قام ما يسمى بجنس الأسرات بغزو مصر (٢٤٠٠ ق. م)، حية منطوقة لكل سكان مصر، مكتوبة بالهيروغليفية أو بالهيراطيقية أو بالديموطيقية أو بالقبطية ذات الأصل اليوناني مع التعديلات المصرية، ولم تترك مكانها للغة أخرى (اللغة العربية) إلا بعد الفتح العربي، وبصورة تدريجية للغاية استغرقت قروناً طويلة، من خلال عملية غسيل دم لغوي شامل، ولكن في إطار نفس المجموعة الإثنية المصرية الواحدة المستمرة طوال هذا التاريخ الممتد، مهما كانت بوتقة لانصهار وامتزاج شعوب وثقافات أخرى معها، مع قدوم فاتحين جدد من الجنوب النوبي (الكوشى)، أو الشمال الأوروبى (الإغريقى أو الرومانى)، أو الشرق الهكسوسى أو الأشورى أو الفارسى أو العربى أو التركى، أو حتى الغرب الليبي.

وبطبيعة الحال، فإن فكرة استمرار جماعة إثنية أو قومية واحدة منذ فجر التاريخ إلى الآن، رغم إحلال اللغة العربية محل اللغة المصرية القديمة في مرحلتها القبطية، ورغم إضافة الانتماء الجديد إلى الثقافة العربية، تشير إشكالية حقيقية. وربما وجدت هذه الإشكالية حلاً في حقيقة أن هذه التطورات والتبدلات لم تحدث من خلال إبادة أو تهجير شعب وإحلال شعب آخر محله، بل حدثت في إطار استمرارية نفس الجماعة

الإثنية التي اكتسبت لغة جديدة وثقافة جديدة؛ مما أدى إلى تراكم طبقات الانتماءات الثقافية والقومية داخل الجماعة البشرية الأصلية الواحدة؛ حيث لا يستبعد التكوين الأصلي الانتماءات الجديدة (العربية) التي لا تستبعد بدورها خصائص وخصوصيات إثنية طويلة الأمد.

ولعل ما سبق أن يكون مفيداً في محاولة استيعاب عنوان هذا الكتاب، في علاقته بموضوعه، بعيداً عن أى التباس ممكن.

والحقيقة أن عنوان الكتاب في أصله الإنجليزى، وهو Egypt in Nubia أى "مصر في النوبة (أو في بلاد النوبة)"، يختلف بعض الشيء عن عنوانه في الطبعة العربية "مصر وبلاد النوبة". وقد نفهم من العنوان الأصلي للكتاب (ما دام المؤلف عالم مصرياً) أنه يتناول آثار الحضارة المصرية في منطقة النوبة في العصور القديمة، غير أن الكتاب يتناول إلى جانب ذلك حضارات نوبية مستقلة: حضارات كوش في ممالك كرما (كرمة) karmah أو Kerma ، وناپاتا Napata ، ومروى Meroë ، وحضارة المجموعة x (س) النوبية المجهولة، وحضارة نوبية مستقلة بالمعنى المتطابق إثنيًا ولغويًا مع النوبة الحالية، وذلك في النوبة القبطية، بل تعود بنا الدراسات الأحدث إلى الوراء، إلى حضارة قديمة في منطقة النوبة في فجر التاريخ (وما قبل التاريخ) ربما كانت نقطة انطلاق الحضارة في وادى النيل في زمن سابق حتى على أقدم عهود حضارة المجموعة الإثنية المصرية. على أن عنوان الطبعة العربية لا يقدم حلاً يزيل هذا الالتباس؛ ذلك أنه يوحى بأن موضوع الكتاب يتناول مصر كما يتناول النوبة، على حين أنه لا يتناول الحضارة المصرية في الواقع إلا من حيث آثارها وتاريخها في منطقة النوبة، السفلى والعلية، في مختلف عهود التاريخ المصرى القديم.

ومهما يكن من شيء، فإننا إزاء حضارة واحدة متفاعلة الأجزاء امتدت على ضفاف النيل بين الشلال السادس شمالى الخرطوم والبحر الأبيض المتوسط شمالاً، طوال عدة آلاف من السنين، وهي حضارة واحدة مهما تعددت مراكزها وقواها المركزية الطاردة، ومهما تعددت الهجرات الكبرى لسكانها شمالاً وجنوباً، ومهما تعددت

الفتوحات والتوسعات الإمبراطورية في الاتجاهين، ومهما تعددت إسهامات المجموعات الإثنية التي سيطرت الواحدة منها على الأخرى أو خضعت الواحدة منها للأخرى، في هذا العصر التاريخي أو ذاك، مع التسليم بأن المجموعة الإثنية المصرية الواحدة كانت هي الصانعة الكبرى لحضارة أو حضارات وادي النيل في أغلب مراحلها. ويكفي دليلاً على هذا التفاعل الحضاري الكبير احتمال أن حضارة "قسطل" النوبية (المجموعة A ألف) قد تكون نقطة انطلاق حضارات وادي النيل، وكذلك واقع أن حضارات كوش كانت في كثير من مراحلها من صنع مجموعات نوبية متمصرة ثقافةً ودينًا وأحيانًا لغة وكتابة.

ويقدر ما يتعلق الأمر بالحضارة أو الحضارات النوبية، فإن المقصود بها يتمثل في الحضارات التي تعاقبت على إقليم أو أرض أو بلاد النوبة، والتي أقامها المصريون مباشرة، أو أقامتها مجموعات سكانية ربما كانت لا تختلف إثنياً عن الجماعة الإثنية المصرية، أو بناها سكان يمكن أن نسميهم نوبيين باعتبارهم سكان النوبة رغم أنهم كانوا يتمثلون في مجموعات إثنية أو قومية متباينة إثنياً تعاقبت على تلك الأرض، ولم تكن الحضارة بمعنى أن النوبيين الحاليين يشكلون امتدادها القومي إلا في النوبة القبطية وما تلاها.

ويقع الكتاب في ثلاثة أقسام، أو بالأحرى أبواب وفقاً للطبعة العربية. الباب الأول مقدمة (فصلان)، والثاني حول التنقيبات الأثرية في منطقة النوبة (أربعة فصول)، والثالث بعنوان موجز تاريخ النوبة (عشرة فصول).

والحقيقة أنه لا مناص من أن يستحوذ على قارئ الكتاب ذلك الإحساس غير العادي الذي كان يسيطر على المؤلف نفسه وهو يكتب عن النوبة باعتبارها موشكة على الفرق، أو حتى "الموت" كما يقول، متحسراً على حياتها الجميلة التي كانت توشك على الاختفاء، متعاطفاً مع أهلها، مدفوعاً بقوة هائلة إلى الغوص في أعماق الأسرار التاريخية والحضارية التي أخذت تتكشف مع تواصل التنقيبات الأثرية، في محاولة مستميتة للتحقق من تاريخ موجز دقيق يقدمه لهذه المنطقة، رغم النواقص والثغرات والألفاظ بحكم حدود المعطيات الأثرية المتوفرة.

ويبدأ الكتاب في مقدمته بعرض صورة عامة عن النوبة التي يقول إنها "كانت من أهم مناطق الصراع الرئيسية في العالم القديم؛ حيث كان الصراع مستمراً بين الأجناس المختلفة، البيضاء منها والسوداء، للوصول إلى السيادة في شمال أفريقيا" بحثاً عن الذهب والعاج والأبنوس والأخشاب والنحاس والحديد والديوريت والزمرد ومختلف منتجات كوش، وهو الاسم القديم لشمال السودان، وبين سكان كوش، العدو الجنوبي لمصر القديمة، الذين "نزحوا نحو الشمال إلى الأراضي الأكثر خصوبة من وادي النيل حتى شاطئ البحر المتوسط".

كما تعرض المقدمة لحياة النوبيين الحاليين وعاداتهم ولغتهم، غير أنه يؤكد أن "الصلة التي تربط سكان النوبة الحاليين بسكان العصر القديم أمر مشكوك فيه"، وأنه "يبدو أنه وجدت على الأقل فترة واحدة كانت النوبة السفلى فيها غير مسكونة"، على أنه يعود فيشير إلى أن "بعض العادات والفنون والحرف" النوبية الحالية "تؤيد الفكرة القائلة بأن النوبيين الحاليين ينحدرون إلى حد كبير من نسل هؤلاء الذين عاشوا في هذه المنطقة من وادي النيل في عصر فراعنة الدولة الوسطى". ويقدم المؤلف، حول حياة وعادات وحرف النوبيين الحاليين، معلومات وملاحظات واستنتاجات سريعة، بالإضافة إلى أنها متسعة، لا يبرر الموضوع الحقيقي للكتاب التعليق عليها.

وفي الفصل الثاني من المقدمة يتناول المؤلف مشروع بناء السد العالي الذي اتخذت التنقيبات الأثرية في المنطقة النوبية، المصرية والسودانية، ذلك الحجم الضخم الهائل بسبب تهديده بإغراق الآثار التي كان من الضروري إنقاذها والكشف عن المزيد منها قبل الطوفان. ويشير المؤلف إلى مفارقة حقيقية تتمثل في أننا ندين لبناء خزان أسوان (١٨٩٩-١٩٠٢)، وتعليته الأولى (١٩٠٧-١٩١٢)، وتعليته الثانية (١٩٢٩-١٩٣٤)، وأخيراً بناء السد العالي الذي توج هذه الإنشاءات التي دمرت آثار النوبة وحياتها، بمعرفتنا ومعلوماتنا عن آثار وتاريخ النوبة. فلو لا التهديد المتعاقب بالدمار الذي تعرضت له منطقة النوبة بسبب مشروعات الري هذه لما حدثت تلك التنقيبات والمسوح الأثرية على ذلك النطاق الواسع في سباق مع الزمن "الآن أو أبداً"، كما يقول.

ويتعاقب البابان الثانى (التنقيبات) والثالث (موجز تاريخ النوبة) ليرويا نفس القصة الواحدة ولكن بطريقتين مختلفتين؛ ففي فصول الباب الثانى يروى المؤلف قصة التنقيبات التى قامت بها بعثات أثرية حكومية وغير حكومية مختلفة، قبل كل من التعلية الأولى لخزان أسوان (المسح الأثرى الأول) والتعلية الثانية (المسح الأثرى الثانى)، بمختلف مواسمهما، فى مختلف مناطق النوبة المصرية والسودانية، ثم التنقيب العالمى الواسع النطاق استجابة لنداء اليونسكو قبل بناء السد العالى فى أوائل الستينات.

وفى سرد هذه القصة فى هذا الباب لا وجود لتسلسل زمنى لتاريخ النوبة، بل تتتابع الكشف الأثرية مع تقدم أعمال المسح؛ حيث يلقى هذا الكشف أو ذاك الضوء على فترة أقدم أو أحدث من تاريخ المنطقة. ولا يقوم المؤلف بتقديم معلومات إدارية وتنظيمية عن البعثات وخطط عملها بطريقة تقريرية جافة، بل يقف عند هذا الكشف الأثرى أو ذاك لتوضيح طبيعته والحضارة التى ينتمى إليها والضوء الذى يلقى على التاريخ، وكذلك اللغز الذى قد ينطوى عليه، فتتكشف هذه المعلومات والأسرار والألغاز بترتيب التوصل إليها، والذى لا يتطابق بطبيعة الحال مع تعاقب مراحل تاريخ المنطقة.

وإنما فى الفصل المعنون "موجز تاريخ النوبة" سنجد القصة نفسها مسرودة بالتسلسل الزمنى لمختلف مراحل هذا التاريخ، بالاعتماد على الكشف الأثرية وبالعودة المتواصلة إليها بالإضافة إلى مختلف مصادر التاريخ المكتوب.

ولا شك فى أن القارئ سيجد إلى جانب المعرفة التاريخية والحضارية متعة غير متوقعة إلا فى رواية شائقة، خاصة فى باب التنقيبات الأثرية؛ ذلك أن هاجس "الآن أو أبدا" الذى تمت به تلك التنقيبات على أيدي مختلف بعثات وفرق المسوح الأثرية ينتقل، من خلال السرد الحى، من المؤلف إلى القارئ؛ حيث يعيش مع الكتاب دراما حقيقية. ذلك أن الخيار الذى كان مطروحا أمام مصر كان قاسياً حقاً: بناء السد العالى (وقبله بناء خزان أسوان وتعليته مرتين) بحكم الضرورة الاقتصادية القصوى، وبالتالى التضحية بكل ما لا يمكن إنقاذه من الآثار والتاريخ والماضى، أم العكس؟ أى التضحية بالحاضر؟ وكما يقول المؤلف، فإن "الحاضر لا يمكن أن يُضحى به من أجل الماضى".

وكان لا مناص من الاختيار: بناء السد العالى مع إنقاذ ما يمكن إنقاذه. ونحن نعرف ما تم إنقاذه، ونعرف جانباً مما تم دماره، ولكننا لا نعرف بالطبع كل ما تم دماره، فهناك آثار وأسرار ضاعت إلى الأبد، كما ضاعت حياة خاصة حميمة عاشها الإنسان النوبى فى تلك المنطقة كموطن تاريخى، ولكن ربما ليس إلى الأبد، فربما حقق المستقبل نبوءة المؤلف الذى يقول إن كثيراً من هؤلاء النوبيين سيرجعون إلى هذه الأراضى".

أما المادة التى يقدمها موجز تاريخ النوبة، وهو موضوع الفصول العشرة التى يتألف منها الباب الثالث، فإنه يمكن تصنيفها إلى:

أولاً، وقبل كل شىء، الآثار المصرية منذ فجر التاريخ وطوال التاريخ المصرى القديم فى النوبة السفلى (واوات) والنوبة العليا (كوش)، وما تدل عليه هذه الآثار، وكذلك مصادر التاريخ الأخرى بشأن الفتوحات والحروب المصرية (وكذلك الآشورية والفارسية والبطلمية والرومانية) فى النوبة. ولا شك فى أن هناك فارقاً حقيقياً بين منطقتين نوبيتين متميزتين؛ فالنوبة السفلى ليست مركز حضارة مصر، كما أنها ليست مركز حضارة كوش، كما أنها فى أكثر الأحيان ليست مركزاً لحضارة مستقلة، بل كانت ساحة صراع بين الحضارتين المصرية والكوشية، وهو صراع يمتد فى أكثر الأحيان جنوباً إلى أعماق كوش من كرما إلى نپاتا إلى مروي، كما يمتد فى بعض الأحيان شمالاً إلى الحدود الجنوبية لمصر وحتى إلى أعماق أعماقها فى طيبة ومنف وحتى البحر المتوسط.

ثانياً، حضارة كوش فى ممالك كرما ونپاتا ومروي، التى امتدت منذ بداية الدولة الوسطى فى مصر حتى القرن الرابع الميلادى.

ثالثاً، حضارة المجموعة (س) النوبية المجهولة، أى حضارة بلانة (وقسطل)، فى القرون الميلادية الرابع والخامس والسادس.

رابعاً، حضارة نوبية مستقلة يعتبر النوبيون الحاليون جميعاً فى النوبة الحالية (المصرية والسودانية معاً) امتداداً مباشراً لمجموعتها الإثنية اللغوية، والمقصود بذلك حضارة ممالك النوبة القبطية الثلاث من القرن السادس الميلادى إلى القرن الرابع عشر الميلادى، وهى المجموعة المستمرة بعد ذلك إلى الآن.

على أننا سنشير فى النهاية إلى حضارة قسطل (المجموعة "A ألف") التى ربما كانت أقدم حضارات وادى النيل كما سبقت الإشارة.

ويقدم الكتاب هذا التاريخ من خلال استعراض مراحل على أساس المجموعات السكانية النوبية التى عاصرت مراحل تاريخ مصر القديمة، وهى - كما يقرر علماء الآثار - أربع مجموعات، ويمكن تلخيصها من قائمة وردت فى الكتاب كما يلى:

١ - المجموعة النوبية الأولى: وقد عاصرت فى مصر العصر التاريخى المبكر - الأسرات ١-٢ (٢٢٠٠-٢٦٨٠ ق.م).

٢ - المجموعة النوبية الثانية: وقد عاصرت فى مصر الدولة القديمة - الأسرات ٤-٦ (٢٦٨٠-٢٢٥٨ ق.م) وعصر الانتقال الأول - الأسرات ٧-١٠ (٢٢٥٨-٢٠٥٢ ق.م).

٣ - المجموعة النوبية الثالثة: وقد عاصرت فى مصر الدولة الوسطى - الأسرتان ١١ و ١٢ (٢٠٥٢-١٧٨٦ ق.م) وعصر الانتقال الثانى - الأسرات ١٣-١٧ (١٧٨٦-١٦٠٠ ق.م).

٤ - المجموعة النوبية الرابعة: وقد عاصرت فى مصر - الأسرات ١٨-٢٠ (١٦٠٠-١٠٨٥ ق.م).

على أننا سنرى أن هذه المجموعة النوبية الأخيرة عاصرت أيضاً العهد التاريخى المتأخر - الأسرات ٢١-٣١ (١٠٨٥-٣٣٢ ق.م) ومنها: أسرة ليبية (٢٢)، وأسرة كوشية (٢٥)، وأسرتان فارسيتان (٢٧ و ٣١)، كما عاصرت العصرين البطلمي والرومانى، واستمرت حتى نهاية مملكة مروي فى القرن الرابع الميلادى.

ويقدم الباب الثالث موجزاً لتاريخ النوبة فى مسارين؛ يتمثل أحدهما فى رسم صورة صارت أوضح ، بفضل الكشف الأثرية خلال القرن العشرين، لانتشار حضارة مصر فى مختلف مناطق النوبة (المعابد، الحصون، مناجم الذهب والنحاس والحديد،... إلخ)، وكذلك معارك وحروب السيطرة على النوبة أو التصدى لاعتداءاتها.

ويتمثل المسار الآخر في محاولة لاستكشاف المجموعات البشرية التي شغلت أرض النوبة، بحثاً عن حضاراتها وثقافتها وديولها وممالكها وإمبراطورياتها من حيث خصائصها وأسرارها وقيامها وانهارها. وسأحاول رسم "هيكل عظمى" لتعاقب المجموعات السكانية الأربع السالفة الذكر، بما يساعد القارئ على استيعاب المادة الغنية التي يقدمها المؤلف.

حضارة المجموعة النوبية الأولى : يؤكد المؤلف أن سكان هذه المجموعة الأولى، وهي التي عاصرت العصر التاريخي المبكر في مصر القديمة "لا يختلفون في مميزاتهم الجسدية عن المصريين فيما قبل الأسرات، وفي الحقيقة لا شك أنهم هم السكان أنفسهم الموجودون في بيئة لا اختلاف بينها". ولأن النوبة كانت قليلة السكان قبل أن يغزو جنس الأسرات مصر (٢٤٠٠ ق.م)، ثم شهدت زيادة السكان وبخول حضارة جديدة، فإن الاحتمال الوحيد – كما يرى المؤلف لتفسير هذه الزيادة السكانية – هو "تسرب عدد كبير من سكان ما قبل الأسرات منسحبين تحت ضغط الشمال نتيجة غزو المتقدمين من فراعنة مصر الأول". وقد تمتع "قوم" المجموعة الأولى في النوبة السفلى بعصر انتعاش نسبي، كما يقول. على أن حضارة المجموعة الأولى لم تتطور فيما يبدو تحت السيطرة المصرية؛ لأن اختفاءها يعاصر غزو المصريين الأوائل للمنطقة واستعمارها. وقد حدث الاختفاء المفاجئ لحضارة المجموعة الأولى عند غزو النوبة في أواخر عصر الأسرة الثانية.

حضارة المجموعة النوبية الثانية : مع أن المجموعة الثانية كانت تنحدر إلى حد ما من المجموعة الأولى، فإنها كانت تنطوي على نواحي اختلاف كثيرة ربما كانت ترجع إلى تدهور عام أو إلى ظهور عناصر سلافية جديدة آتية من الجنوب. وقد عاصرت هذه الحضارة الفقيرة الدولة القديمة في مصر، وكذلك عصر الانتقال الأول. وفي هذا العصر "ضاعت قوة الحكم المركزي، وأعقب ذلك عصر فوضى في الوطن؛ مما أدى إلى نتيجة حتمية وهي أن مصر ضيعت كل ممتلكاتها في الجنوب". وبالتالي نشأت حضارتان هما حضارة المجموعة النوبية الثالثة وحضارة المجموعة النوبية الرابعة.

حضارة المجموعة النوبية الثالثة : أعطى الفراغ الناشئ عن انسحاب القوة المصرية من النوبة، في العصر الانتقالي الأول، الفرصة للنوبيين لكي يُنشئوا حضارة مستقلة عُرِفَت بالمجموعة الثالثة عاصرت الدولة الوسطى والعصر الانتقالي الثاني. ولا يزال اسم هؤلاء المهاجرين وأصلهم غير معروف، ولكن يبدو أن لهم علاقة – من ناحية الشكل والحضارة – بسكان النوبة السفلى الأوائل. فالمهاجرون والسكان القدامى ينتمون أساساً إلى المميزات الزنجية في المادة التشريحية المكتشفة في مقابرهم". على أن هذا العنصر الزنجي القليل جعل السكان الجدد يختلفون تشريحياً عن سكان المجموعتين الأولى والثانية إلا أنهم ورثوا حضارة أجدادهم، وعملوا على تنميتها". ذلك أن فخار المجموعة الثالثة يشبه إلى حد كبير فخار مصر في عصر ما قبل الأسرات، ولعل هذا يمكننا من أن نرى في حضارتهم الرعوية ما يمكن أن يكون تطوراً للحضارة 'النيوليثية' [حضارة العصر الحجري الحديث] المتأخرة التي وُجِدَت في كل وادي النيل الشمالي، إلا أن هذه الحضارة سرعان ما انتهت بغزو المصريين في آخر الألفية الرابعة ق.م.، ولكن "ما زالت معرفتنا بهؤلاء الناس قليلة، ومع أننا نستطيع أن نتقصى آثار تطور حضارتهم منذ أقدم عصورها في عصر الانتقال الأول (٢٢٥٨ ق.م.) حتى انتهائها في أوائل الدولة الحديثة (١٥٧٠ ق.م.)؛ فهناك سؤال حيوى عنهم لم يجد جواباً، وهو حدود حضارتهم الجنوبية: هل انتهت عند الجندل الثانى أم امتدت فى النوبة العليا، وإن كانت قد امتدت جنوباً فالى أى مدى وصلت؟ وترجع أهمية الإجابة عن هذا السؤال إلى أنها سوف تجلو لنا ستمائة عام من تاريخ النوبة الغامض". وقد وصلت حضارة المجموعة الثالثة إلى ذروة نضجها، فى النوبة السفلى (واوات)، التى لم يشملها النشاط العسكرى المصرى للدولة الوسطى، فظلت بعيدة عن تأثير الحضارة المصرية. وكان أهل النوبة السفلى عندئذ "أكبر عدداً منهم فى أى عصر أثناء الحكم المروى أى بعد حوالى ألف سنة"، ومع أن بقايا المجموعة الثالثة "تشبه ما عثر عليه فى كرما [أولى ممالك وعواصم كوش] إلا أنها تختلف تماماً عنها، وتنسب إلى قوم آخرين".

وبعد تحرير مصر من الهكسوس بدأ أحمس (الأسرة الثامنة عشرة) الحروب الجنوبية التى أسفرت عن استعادة السيطرة على النوبة وتعمير المصريين لها. وبتأثير

المرور المتواصل الطويل للجيش المصري عبر النوبة السفلى فى طريقها إلى ساحة القتال مع كوش فى الجنوب، إلى جانب زيادة عدد المستعمرين المتصلين بالجيش والمحطات التجارية، على معتقدات وأسلوب حياة سكان هذه المنطقة اختفى كل ما تبقى من حضارة المجموعة الثالثة. وهكذا، فإن "النوبة، بعد غزوها، كان يسكنها جنس فقير يعتمد على الأشياء الرخيصة المستوردة من مصر"، ولم تكن لهم ثقافة خاصة بهم. ولم يرد ذكر للنوبة السفلى (واوات) فى سجلات الحملات المصرية باعتبارها عدوة، "ومن الواضح أن هذه الأرض كانت تعتبر جزءاً من مصر، وكان أهلها متمصرين إلى حد كبير، وكان لزعمائهم ونبلائهم أسماء مصرية".

حضارة المجموعة النوبية الرابعة (كوش) : أظهرت الحفائر الأثرية فى "كرما"، فى النوبة العليا، "حضارة نوبية أخرى تشبه حضارة المجموعة النوبية الثالثة، وفى الوقت نفسه تختلف عنها وتتنمى إلى شعب آخر" - "ولم نعرف بعد حدودها الجغرافية ولا تتابعها التاريخي، مثلها فى ذلك مثل حضارة المجموعة الثالثة". وقد صار من الممكن بفضل الكشف الأثرية "تأكيد الصلة بين حضارة أصحاب المقابر 'الناقوسية' وأهل 'كرما' واستبعاد صلتهم بحضارة المجموعة الثالثة. وبذلك يظهر أن الفرق السمرء التابعة للجيش المصرى [أى أصحاب المقابر الناقوسية] كانت تأتى من النوبة العليا". ويضيف المؤلف أنه "يبدو أن المجموعة الثالثة لم تكن قد انتشرت جنوباً حتى الجندل الثانى، ولكنها اقتصررت (على) النوبة السفلى (واوات) تاركة النوبة العليا (كوش) لجيرانها المحيين للحروب. والتشابه الشديد بين الحضارة المعروفة بالمقابر 'الناقوسية' فى مصر العليا والمادة التى عُثر عليها فى كرما واختلافها الواضح عن المجموعة الثالثة تجبرنا على أن نصل إلى نتيجة هى: أن المصريين لم يجمعوا المرتزقة من النوبة السفلى، وأن 'واوات' و'كوش' كانتا مختلفان جنسياً وحضارياً. وعلاوة على ذلك، فإن المادة التشريرية فى المقابر الناقوسية المصرية زنجية العنصر، أكثر بلا شك، من المجموعة الثالثة النوبية".

إذن، فيما بعد الشلال الثانى، فى النوبة العليا، وأثناء الفترة التى ساد فيها الضعف فى مصر، "تكونت قوة عسكرية هائلة فى الجنوب سماها المصريون 'كوش'

ومنذ ذلك الحين أصبحت كوش قوة دائمة التهديد للحدود الجنوبية - ولصر نفسها - إلى درجة أنه عندما اتحدت مصر مرة أخرى تحت حكم فراعنة الأسرة الثانية عشرة العظام، وجد حكامها أنه من المحتم إنفاق جزء كبير من الثروة القومية في بناء مواقع حماية كبيرة.

ويؤكد المؤلف أن الإشارة إلى عدو مصر الجنوبي باعتباره "الزنجي" كانت مضللة؛ لأن أهل كوش لم يكونوا زنجياً، وكان المصريون يستعملون كلمة "زنجي" (نحسى) للإشارة إلى كل قاتمي اللون الذين يأتون من الجنوب مهما كانت أجناسهم.

ويعبر المؤلف عن اعتقاده أن ما عُثر عليه في المقابر الناقوسية في مناطق عسكرية متفرقة من مصر "يرجع قطعاً إلى أهل كرما ولا صلة له بحضارة المجموعة الثالثة".

ومن الجلي أن المجموعتين الثالثة والرابعة متعاصرتان خلال مرحلة طويلة وليستا متعاقبتين كما قد يبدو من الترتيب العددي في تسميتهما، غير أنهما مختلفتان جغرافياً، فقد كانت إحداهما (الثالثة) في النوبة السفلى (واوات) بينما كانت الأخرى (الرابعة) في النوبة العليا (كوش). على أن حضارة المجموعة الثالثة اختفت، على حين استمرت حضارة المجموعة الرابعة، التي لم تكن على كل حال المجموعة الإثنية الأخيرة، فمع تطور واستمرار حضارة كوش في كرما ثم نباتا ثم مروى، ومع هجرات وغزوات لكوش من الغرب (النوباتاي) والشرق (أكسوم)، وفي سياق انهيار حضارة مروى، تآتى مجموعات إثنية متعددة ستكون أشهرها مجموعة البليمي Blemmae (أو البليمز Blemmyes) كما ترد في هذه الترجمة وفقاً للصيغة الإنجليزية) ومجموعة النوباتاي Nobatae اللتين يختلف علماء الآثار حول مسألة كون هذه أو تلك هي المجموعة النوبية المجهولة (س) التي أقامت حضارة "بلانة" في النوبة السفلى خلال القرون الميلادية الرابع والخامس والسادس.

ومنذ أواخر الأسرة الثانية عشرة (الدولة الوسطى) تسرب الهكسوس إلى مصر ومع ضعف الأسرة الثالثة عشرة قاموا بغزوها، وامتد نفوذهم فيها حتى "قوص" جنوباً،

وصارت مصر كلها تحت حكم ملوك الهكسوس، بينما اتخذ الحكام الأصليون في الجنوب من طيبة عاصمة لهم وحكموا محلياً دافعين الجزية للمتصر الأجني في الشمال. وهكذا لم تبق لمصر قوة في النوبة العليا فامتدت سلطة الحكام الكوشييين إلى منطقة واسعة من النوبة، مع أن جزءاً كبيراً من النوبة السفلى (واوات) كان لا يزال تحت السيطرة المصرية أو تحت تأثير المصريين إلى حد كبير ولم يمتد إليها سلطان كوش، فيما يعتقد المؤلف استناداً إلى "تبنى أهل المجموعة الثالثة لطقوس الدفن المصرية التي ترجع إلى ذلك العصر" إلى درجة أن هذا "يمكن أن يدل على وجود عدد كبير من المهاجرين المصريين الذين هربوا من ضغط الهكسوس". أما كوش فقد صارت نصف مستقلة، وفي نباتا تكونت حكومة منفى في عام ٩٥٠ ق. م.، عندما كانت مصر تحت سيطرة ملوك الأسرة الثانية والعشرين الذين كانوا من أصل ليبي، وترعرعت الحضارة الكوشية المصرية، وأصبح لها طابع مميز، وانقلبت الأوضاع وكانت كوش هي التي ستغزو مصر.

وقد توطد سلطان ملوك الأسرة المالكة الكوشية قبل أن يحاولوا تأكيد سيادتهم على مصر، واستقبلت الجبانة الكبرى في "كورو" موتاهم منذ عام ٨٦٠ ق.م. أي قبل قيامهم بغزو الشمال بأكثر من مائة سنة. على أن أسلاف الأسرة الخامسة والعشرين الكوشية التي حكمت مصر في العصر التاريخي المتأخر (الفترة بين نهاية الدولة الحديثة وبداية الحكم البطلمي) يمتون بالصلة إلى جماعة أخذت بالحضارة المصرية مع أنها تنحدر من أصل كوشي، لعله يرجع إلى رؤساء مدينة كرما. وكانت "الطبقة الحاكمة في كوش قد أصبحت بصفة عامة منذ عصر 'كاشتا' والد 'بعنخي' مصرية الفن والعمارة والديانة والثقافة والجنس؛ إذ نتجت روابط وثيقة بزواج أجيال من المستوطنين المصريين بأهل المنطقة".

وكما هو معروف؛ فقد دخلت مصر، بعد نهاية الدولة الحديثة، عهد العصر المتأخر، التي شهدت تدهور الحضارة المصرية وانهارها، وقلَّت فيها فترات الازدهار. وخلال الألفية الأولى قبل الميلاد، وحتى الفتح العربي، تعاقب على مصر والنوبة فاتحون كثيرون:

الليبيون (الأسرة الثانية والعشرون الليبية ٩٥٢-٧٤٩ ق.م)، والكوشيون (الأسرة الخامسة والعشرون الكوشية ٧١٥-٦٧٢ ق.م)، والآشوريون الذين غزوا مصر، وهزموا الأسرة الكوشية، ووضعوا نهاية لحكمها فى القرن السابع قبل الميلاد، والفرس (الأسرتان الفارسيان السابعة والعشرون ٥٢٥-٤٠٤ ق.م والحادية والثلاثون ٣٤١-٣٣٢ ق.م)، ثم جاء المقدونيون (فتح الإسكندر الأكبر مصر وطرد منها الفرس فى ٣٣٢ ق.م) ثم الرومان (٣٠ ق.م) واستمر حكم البطالمة (٣٣٢-٢٣ ق.م) والرومان (٣٠ ق.م-٦٤٢ م) على مدى قرابة ألف سنة منذ الفتح المقدونى فى القرن الرابع قبل الميلاد حتى الفتح العربى فى القرن السابع الميلادى.

وفيما يتعلق بكوش فقد كانت حضارة مملكة مروي مرحلتها الأخيرة، وقد دامت هذه المملكة قرونا عديدة؛ فقد انتقلت عاصمة كوش جنوباً إلى مروي بعد أن قضى الغزو المصرى على العاصمة نياتا فى عام ٥٩١ ق.م. وإن كانت نياتا قد استمرت كمركز دينى. ويقول المؤلف إن الحضارة المصرية فى الجنوب تقهقرت وحلت محلها حضارة غير أصيلة سماها الأثريون باسم العاصمة الجديدة مروي. ومع أن التأثير المصرى الدينى والفنى بقى هو الغالب على الحضارات المروية الجديدة إلا أن التأثير الأفريقى والإغريقى كانت لهما مكانة أيضاً". وكان الهيروغليفية ظهرت "هيروغليفية المروية مكتوبة بخط مختصر، وأصبحت فيما بعد طريقة الكتابة فى لغة أهل المنطقة. وهذه الكتابة المروية 'المختصرة' حُلِّها بعد جهد كبير عدة علماء، ولكنها لم تنل غير معروفة لنا؛ لأنها كُتبت فى لغة غير معروفة أيضاً". ومع نمو إمبراطورية مروية قوية بقيت النوبة السفلى - رغم أنها صارت تحت حماية الرومان - جزءاً منها فى الوقت نفسه. وبعد أن صارت مصر ولاية رومانية مُنيت الإمبراطورية المروية بهزيمة ساحقة لم تفق منها على أيدى الرومان فى عام ٢٣ ق.م. على أن مملكة مروي بقيت قروناً أخرى إلى أن استولى جيش أكسومى على مدينة مروي ودمرها؛ فأنهى بذلك الوجود المستقل للمملكة.

حضارة المجموعة النوبية (س) أو حضارة بلانة : مع أن النوبة السفلى تمتعت بفترة من الرخاء تحت حكم الرومان والحكم الاسمي لمملكة مروي في الجنوب، جاءت فترة تغير كبير، وهي الفترة التي احتلتها فيها مجموعتان من المحاربين، والتي شهدت أيضاً النزاع الأخير بين المسيحية والوثنية، وتُعرف حضارة هذه الفترة، التي انحدرت من الحضارة المروية، عند رجال الآثار، بالمجموعة (س) [X-Group]؛ لأننا ما زلنا لا نعرف إلى أي من الشعبين المقاتلين ترجع هذه الحضارة.

ولا شك في أنه حتى أواسط القرن الثالث الميلادي كانت النوبة جزءاً من الإمبراطورية المروية المتدهورة. ومع ذلك فقد كان يحتل جزءاً كبيراً منها شعب عرفهم الرومان باسم البليمي أو البليميين Blemmae (بالإنجليزية Blemmyes). "ولا زالت معرفة أصل هؤلاء الناس وكيف دخلوا النوبة ومن أين أتوا موضوع جدل".

وفي العصر الواقع بين القرنين الرابع والسادس الميلاديين الذي انتعشت فيه حضارة المجموعة (س)، كان يحتل النوبة شعبان مختلفان هما البليمي والنوباتاي. ورغم أن الرأي السائد هو أن المجموعة (س) يجب اعتبار أنها تنتمي إلى "النوباتاي"، فإن المؤلف يرى أن هذه الحضارة كانت تنتمي إلى خصومهم "البليمي". ويقول المؤلف إن "جنس النوباتاي غير مؤكد، ولا يمكننا إلا أن نرضى بما يقوله 'بروكوبيوس' من أنهم كانوا قوماً محاربين يحتلون منطقة الواحة (الخارجة) في الصحراء الغربية. ويرجح البعض أنهم فرع من قبائل 'النوبا' الذين انتقلوا من كردفان، وطنهم الأصلي، نحو الشمال قبل بداية العصر المسيحي بقليل. فاستقروا في الواحة تاركين الجزء الأكبر من جنسهم يغزو منطقة الجزيرة ويقضى في النهاية على الإمبراطورية المروية في القرن الرابع الميلادي. وبالإضافة إلى ذلك فقد عُرفوا بالبربر الليبيين كما اعتُبر أنهم من نياتا العاصمة الأصلية لكوش". وهناك نظرية (توردها مصادر أخرى) تقول بأن النوباتاي أو النوبا غزاة متنقلون قادمون من الغرب فرضوا ثقافتهم ولغتهم على الشعوب المستقرة، كما توجد نظرية أخرى تقول بأنهم سكان محليون في منطقة نياتا تحت سيطرة مروي لعدة قرون، وأن كلمة "نوباتاي" Nobatae مرتبطة مباشرة باسم مدينة "نياتا" Napata .

ومهما يكن من شيء فقد هزم شعب النوباتاي شعب البليمى فى عام ٥٤٠ م عندما تحول ملك النوباتاي إلى الدين المسيحى، فكانت النتيجة المحتومة هى الحرب ضد البليمى، الذين اختفت بهزيمتهم المعتقدات الدينية الفرعونية. ويضيف المؤلف: "وإذا اعتبرنا أن المجموعة (س) هم 'البليمز' [أى: البليمى أو البليميين بالصيغة الإنجليزية] فيلاحظ أنه فى وقت غزو [الملك النوبى] 'سلكو' تشير الأبحاث الأثرية إلى أن حضارة هذه المجموعة كانت تتقهقر، واختفت أخيراً واستُبدلت بالحضارة النوبية المسيحية التى اختلفت عنها تماماً".

ويعود المؤلف إلى "سؤاله المحير": "من هم أهل المجموعة (س) 'البليمز' أم 'النوباتاي'؟"، ويستدرك قائلاً "ليس فى نيتى أن أكتب بالتفصيل عن هذا الموضوع الذى لا يزال موضع جدل لكثير من رجال الآثار. وهو موضوع يمكن أن تطراً عليه دلائل جديدة فى أى وقت عن طريق معول الحفار". على أنه يفحص عدداً من نتائج الحفائر الحديثة المتصلة بأهل هذه المجموعة، منها: انحدار أجناسهم من أصل مختلط قريب من المرويين، ولكن من عنصر زنجى أقوى، واحتلالهم الجزء الأكبر من النوبة العليا والنوبة السفلى فى الفترة ٢٥٠-٥٥٠ م، وطريقة دفن ملوكهم فى بلانة وقسطل، وكونهم وثنيين عبدوا آلهة مروى ومصر القديمة، ومجىء حضارتهم بعد حضارة مروى مباشرة وعدم الشك فى انحدارهم منها، واتخاذ ملوكهم تيجان ورموز الملكية المروية، وعلاقة تصميم مقابرهم بالشكل المروى، وتأثر فخارهم بالفخار المروى، وتأثر أثاثهم بالطراز المروى والبيزنطى، ونوع أسلحتهم، وعدم معرفتهم الكتابة، وغير ذلك. وينهى المؤلف كتابه مؤكداً نظريته: "وفى تقريرى الرسمى عن كشف المقابر الملكية فى 'بلانة' وقسطل، والذى نُشر فى عام ١٩٣٨ وضحت أسبابى لاعتبارى مجموعة (س) أنهم 'البليمز' والحفائر فى عام ١٩٦٢-١٩٦٣ فى جبانة (ابريم) 'بريمس' لم تعطنى أى سبب لتغيير رأيى. ونظراً لأن الإسهاب فى هذا الموضوع بعيد عن هذا الكتاب فإنى أعتقد أن الحقائق التى أجملتها فيما سبق هى فى نظرى، الدليل لاعتبار حضارة المجموعة (س) تابعة للقوم الذين سماهم الرومان 'البليمز' الذين يعتبرهم المؤلف الأبطال الأخيرين للعقائد الدينية البائدة لمصر القديمة.

الحضارة النوبية القبطية : وقد امتدت هذه الحضارة أو الثقافة بين القرنين السادس والرابع عشر؛ ذلك أنه بحلول القرن السادس الميلادى تكونت ثلاث ممالك مسيحية نوبية جديدة على الأراضى التى كانت تحت سيطرة مملكة مروى، وهى مملكة نوباتيا Nobatia وهى معروفة أيضاً باسم بلانة، وكانت عاصمتها فرس، ومملكة المقررة أو المقررة Maqurra وعاصمتها دنقلا القديمة، وألوا (أو: علوة) Alwa فى عمق مروى القديمة فى الجنوب وعاصمتها سوبا، وفى الممالك الثلاث جميعاً حكمت الأرستقراطية المحاربة سكاناً مروييين. أما البجة Beja الذين كان البليميون (البليمى) أسلافهم فقد طردهم ملوك النوبة إلى الصحراء حوالى عام ٤٥٠ م.

وكانت هذه الدول ناطقة باللغة النوبية التى كانت تكتب بالحروف القبطية المعدلة عن الحروف اليونانية مع إدخال تعديلات نوبية عليها (إضافة حروف تقابل الأصوات اللغوية النوبية الزائدة عليها وحذف حروف تقابل الأصوات اللغوية غير الموجودة فى النوبية)، ويبدو أن المروية وكتابتها قد اختفتا تماماً.

وقد بلغت هذه الحضارة أوج ازدهارها فى القرنين التاسع والعاشر. وكما هو معروف فقد تحول سكان النوبة إلى الإسلام بصورة تدريجية، ولم يشكل المسلمون الغالبية الدينية إلا فى القرن الخامس عشر أو السادس عشر.

وبطبيعة الحال، فإن هذه الحضارة أو الثقافة النوبية هى التى تتميز وحدها بالصفة النوبية؛ بمعنى أننا إزاء جماعة لغوية واحدة مستمرة إلى الآن. ومن المحتمل بالطبع أن هذه الجماعة اللغوية كانت موجودة منذ زمن طويل للغاية قبل فترة ظهور النوباتاي منذ العصر الرومانى فى مصر والنوبة. على أننا نجد أنفسنا أمام لغز كبير: إذا كان النوباتاي، أى أسلاف النوبيين الحاليين، جماعة لغوية مختلفة تماماً عن الجماعة اللغوية التى تمثلها حضارة كوش وعن اللغة المروية التى يُعتقد أنها كانت لغة الممالك المتعاقبة لحضارة كوش، فكيف حدث أن حلت اللغة النوبية محل لغة حضارة كوش أو اللغة المروية فى كل المنطقة النوبية السودانية؟ هل حدث هذا من خلال غسيل دم لغوى شامل للشعب المروى بالطريقة التى حلت بها اللغة العربية محل اللغة المصرية

القديمة فى مرحلتها الأخيرة: القبطية؟ وإذا صحت، على العكس من ذلك، فرضية أن اللغة النوبية هى ذاتها اللغة المروية، فكيف تفسر هذا العجز المتواصل عن فك شفرة الهيروغليفية المروية بافتراض أن الحروف اليونانية القبطية حلت محلها كما كانت قد حلت قبل ذلك محل الهيروغليفية (فى شكلها المعاصر لفترة التحول إلى الكتابة القبطية) فى مصر؟

عودة إلى حضارة المجموعة النوبية الأولى : استعرضت فى الصفحات السابقة المجموعات النوبية الأربع التى يتحدث عنها علماء الآثار، كما يقدمها الكتاب الذى بين يدى القارئ. والحقيقة أن هذا ليس بالتصنيف الوحيد للمجموعات النوبية، وفى أكثر الأحيان يتركز حديث علماء الآثار على المجموعتين النوبيتين "ألف" A-Group و"ج" C-Group اللتين تناظران المجموعتين الأولى والثالثة فى تصنيف الكتاب الحالى؛ فأين المجموعة "ب" B-Group التى تناظر المجموعة الثانية فى هذا التصنيف؟ إنها مجموعة افتراضية عند علماء الآثار لملاءمة الفجوة الزمنية بين المجموعتين الأولى والثالثة (أو "ألف" و"ج") ولإيجاد استمرارية بينهما ومن المحتمل أنها لم توجد أصلاً باعتبار أن النوبة السفلى كانت خالية من السكان خلال مئات السنين التى استغرقتها هذه الفجوة الزمنية بين اختفاء المجموعة الأولى وظهور الثانية. ويتحدث الكتاب، كما رأينا، عن مجموعة نوبية رابعة تختلف ثقافتها عن الثالثة عاصرت حضارتها فى النوبة العليا حضارة المجموعة الثالثة فى النوبة السفلى، واستمرت بعدها طويلاً حتى نهاية مملكة مروي. غير أن أغلب المصادر لا تتحدث عن مجموعة رابعة أو مجموعة "د" D-Group، بل تتحدث فقط عن مجموعة ثالثة أو "ج" تشمل حضارتها النوبة العليا (كوش) والسفلى (واوات) معاً باعتبارها حضارة شعب واحد. وهكذا تتنوع التصنيفات والآراء، وتتسع الخلافات أحياناً بين العلماء حول تصنيف المجموعات المعنية، وقد سبقت الإشارة إلى الخلاف حول المجموعة (س) X-Group فى النوبة السفلى بين القائلين بأنهم شعب النوباتاي والقائلين بأنهم شعب البليمي.

وإذا عدنا إلى المجموعة الأولى (أى المجموعة "ألف") فقد أضافت المعطيات الجديدة المكتشفة فى أوائل الستينات قبيل بناء السد العالى حضارة مملكة قسطل التى كانت حضارة متطورة فى إطار دولة ملكية أعلى من مستوى الحضارة النيوليثية، وقد عاصرت أقدم مراحلها الحضارة النيوليثية فى كل من مصر والسودان، وكانت أقدم من أقدم عهود الحضارة المصرية فى عصر الأسرات، وربما كانت نقطة انطلاق مختلف حضارات وادى النيل. وبالتالى يبرز احتمالان لا يستبعد أحدهما الآخر، الأول إسهام حضارة قسطل فى نشأة الحضارة الفرعونية فى مصر العليا قبل توحيد مصر، والاحتمال الثانى هو هجرة حضارة قسطل إلى النوبة العليا مع هجرة المجموعة الأولى من النوبة السفلى إلى النوبة العليا تحت ضغط الغزو المصرى فى عصر الأسرات للنوبة السفلى، وبالتالى الإسهام الذى قدمته المجموعة النوبية الأولى فى تكوين حضارة كوش فى كرما رغم الفجوة الزمنية بين اختفاء حضارة المجموعة الأولى فى النوبة السفلى وبداية حضارة كرما الكوشية فى النوبة العليا.

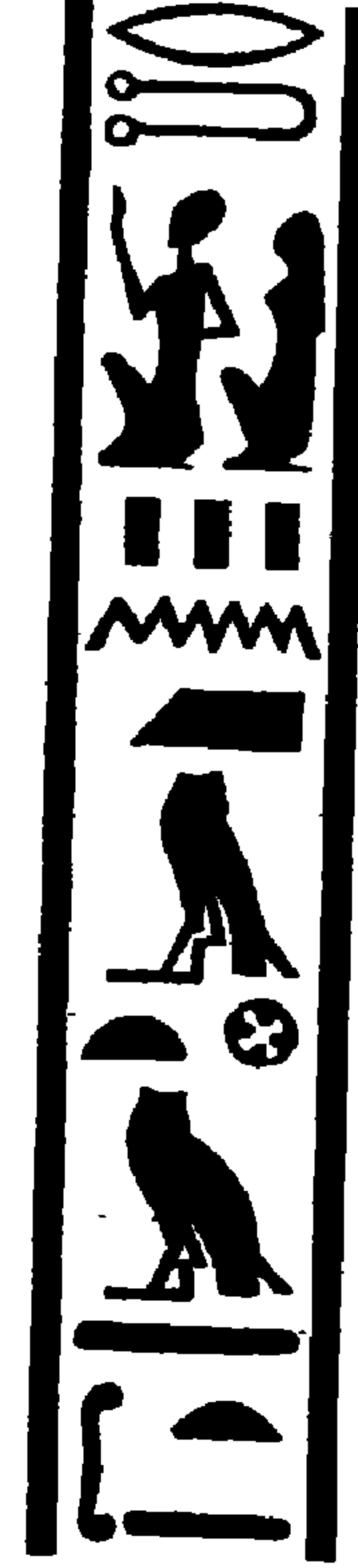
وهذا الكتاب، الذى ترجمته بدقة واقتدار أستاذة المصريات الدكتورة تحفة حندوس، من تأليف والتر برايان إيمرى Walter Bryan Emery (يوليو ١٩٠٣ - مارس ١٩٧١) الذى كرس حياته بكاملها، باستثناء ست سنوات فى الجيش البريطانى أثناء الحرب العالمية الثانية، وأربع سنوات فى السلك الدبلوماسى بالقاهرة، لتنقيب المواقع الأثرية على طول وادى النيل. وقد عمل فى مجال التنقيبات الأثرية فى مصر منذ ١٩٢٣، وساعد فى تنقيب تل العمارنة (مدينة أخناتون). وفى ١٩٢٤ أصبح المدير الميدانى لتنقيبات السير روبرت موند Mond التابعة لجامعة ليقرپول فى طيبة، وبين ١٩٢٤ و ١٩٢٨ عمل مديراً ميدانياً لبعثة موند فى تنقيبات النوبة والأقصر وطيبة. وفى ١٩٢٩ عُيِّن مديراً ميدانياً للمسح الأثرى للنوبة تحت إشراف مصلحة الآثار المصرية لاستكشاف وتنقيب كل المواقع القديمة فى النوبة، والتى كانت توشك على الغرق فى مياه التعلية الثانية لخزان أسوان. وعمل فى قبان وبلانة وقسطل، وقام بتنقيب مقابر المجموعة (س)

المجهولة المألوفة. وانتهى عمله فى النوبة فى تلك الفترة بتتقيقاته فى حصن بوهن، ثم صار مديراً للمسح الأثرى فى الأقصر وأرمنت. وبين عامى ١٩٣٥ و ١٩٣٩ عمل مديراً للمسح الأثرى للنوبة. وخلال تلك الأعوام قام إمرى أيضاً بتتقيب عدة مقابر للأسرات المبكرة فى سقارة؛ حيث قام هناك باكتشافه البارز لحديقة حيوانات لبقايا حيوانية محنطة. وفى أعقاب سنوات من الانقطاع بسبب الحرب وخدمته كدبلوماسى عمل إمرى فى السودان (بوهن، قصر أبريم). وفى ١٩٦٤ عاد مرة أخرى إلى سقارة حيث اكتشف حظيرة الحيوانات المقدسة. وفى ١٩٧٠ جاء إعلان اكتشاف ضريح للبقرة المقدسة، وهو أحد أهم الاكتشافات فى حوايات علم المصريات.

وقد عمل إمرى أستاذاً للمصريات بجامعة لندن ١٩٥١-١٩٧٠، واختير لزمالة الأكاديمية البريطانية فى ١٩٥٩. ومؤلفاته الرئيسية هى: المقابر العظيمة للأسرة الأولى Great Tombs of the First Dynasty (ثلاثة مجلدات) ١٩٤٩-١٩٥٨، مصر العتيقة Archaic Egypt ١٩٦١، مصر وبلاد النوبة Egypt in Nubia ١٩٦٥.

وأخيراً، فإنه لم يكن بوسعى أن أتحدث عن خصائص الحضارات النوبية المعنية، وقد اكتفيت بالحديث عن إشكالية المجموعات السكانية التى تنتمى إليها تلك الحضارات. وبهذا أعفيت نفسى من مهمة شاقة فوق قدراتى، وأعفيت القارئ من عرض مبتسر لا حاجة إليه لمن يقرأ هذا الكتاب البالغ الأهمية.

خليل كلفت



مِصْرُ وِبلادِ النُّوبَةِ

تأليف : "دولترامرى"
ترجمة : تحفة عندوسه
مراجعة : د. عبد المنعم أبوبكر

فهرس

الموضوع الصفحة

تمهيد ٥

● الباب الأول ● مقدمة

الفصل الأول :

ساحة قتال فى العالم القديم ٩

الفصل الثانى :

السد العالى ١٩

● الباب الثانى ● التنقيبات

الفصل الأول :

المسح الأثرى الأول ٣١

الفصل الثانى :

المسح الأثرى الثانى ٤٣

الفصل الثالث :

بلانة وقسطل ٥٧

الفصل الرابع :

التنقيبات الحرة ٩١

الفصل الخامس :

نتائج نداء اليونسكو ٩٧

● الباب الثالث ●

موجز تاريخ النوبة

الفصل الأول :

عصر ما قبل الأسرات والدولة القديمة ١٢٥

الفصل الثاني :

عصر انتقال الأول والأسرة الحادية عشرة ١٣٦

الفصل الثالث :

الأسرة الثانية عشرة ١٤٥

الفصل الرابع :

عصر الاضمحلال الثاني ١٧٣

الفصل الخامس :

الأسرة الثامنة عشرة ١٧٩

الفصل السادس :

الأسرة التاسعة عشرة ٢٠١

الفصل السابع :

الأسرة العشرون ٢١٣

الفصل الثامن :

الأسرة الخامسة والعشرون ٢١٧

الفصل التاسع :

العصر البطلمي المروي ٢٣١

الفصل العاشر :

عصر عهد المجموعة المجهولة ٢٤١

المراجع ٢٦١

تمهيد

هذا الكتاب يهدف الى تزويد القارئ العادى بصورة عامة عن بلاد النوبة ، التى ستتختفى سريعا تحت أمواج المياه المتلاطمة لتلك البحيرة الممتدة التى ستتكون بإنشاء السد العالى عند أسوان •

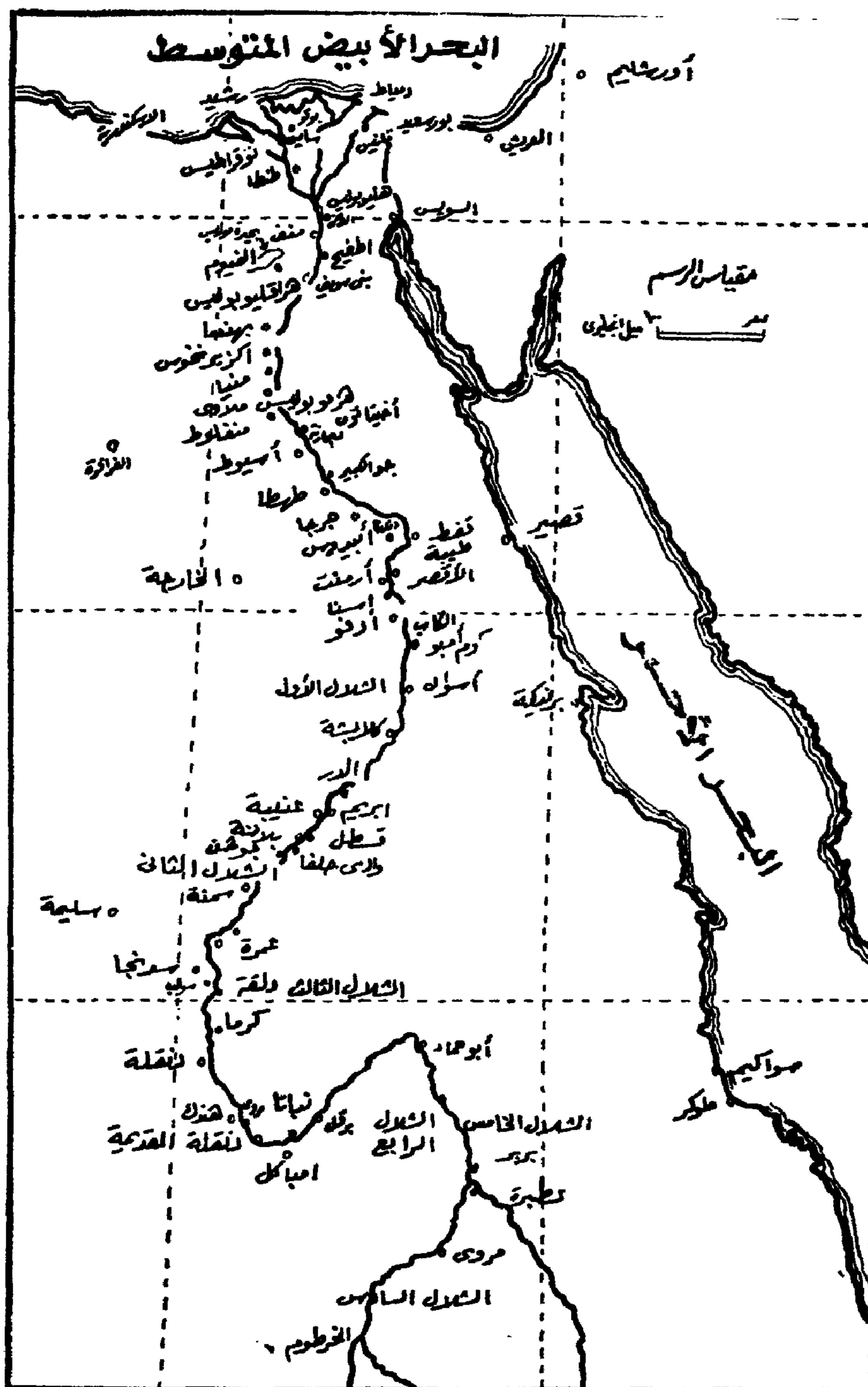
ولعل المتخصص لا يجد ما يفيد فى هذا الكتاب الذى يقوم على اعطاء تلخيص للجهود التى بذلت للكشوف الأثرية مع موجز لتاريخ النوبة الذى نستلمه من الكشوف ومن بعض المصادر الأخرى من النوبة نفسها ومن مصر •

ولقد اعتمدت كثيرا على النصوص التاريخية التى ترجمها « جيمس هنرى برستد » ونشرها فى كتابه : **Ancient Records of Egypt**

و • ل امرى

الباب الأول

مقدمة



الفصل الأول

ساحة قتال في العالم القديم

إن النوبة ، تلك البلاد القديمة التي بقيت آلافًا من السنين من أهم مناطق القارة الأفريقية قد أصبحت الآن مهددة بالموت ومع أنها إذا قورنت بمناطق أخرى من وادي النيل فسوف نجد أنها منطقة جدياء إلا أن التاريخ سطر على أرضها صفحات من فصوله الحية ، مسجلة بذلك كثيرا من الأحداث التاريخية الهامة التي عرف بعضها وما زال بعضها الآخر قيد البحث والدراسة ، ولقد كان لهذه الأحداث تأثيرها الحاسم والكبير على تطور الحضارة فإن التاريخ ينبئنا بأن !نوبة كانت من أهم مناطق الصراع الرئيسية في العالم القديم حيث كان الصراع مستمرا بين الاجناس المختلفة ، البيضاء منها والسوداء ، للوصول الى السيادة في شمال افريقيا . فان المصريين القدماء الذين كانوا يمثلون أرقى الحضارات حينئذ كانوا يتوغلون جنوبا لاستغلال مناجم الذهب وللتجارة في العاج والاششاب الثمينة ومنتجات «كوش» وهو الاسم القديم لشمال السودان . أما سكان الجنوب ، الذين بدأنا نتعرف على حضاراتهم من خلال الحفائر والابحاث المعاصرة والذين كانوا مهملين فلقد نزحوا نحو الشمال الى الاراضى الأكثر خصوبة من وادي النيل حتى شاطئ البحر المتوسط .

ولقد شاهد هذا الطريق المؤدى الى ساحة معارك جيوش الشمال والجنوب مؤشر النصر يتأرجح من ناحية الى أخرى وكانت بلاد النوبة تتمتع بسلام ورخاء في الفترات التي كانت تقع فيها تحت نير القوى المناوئة وكان هذا بين الحروب المتقطعة ومرور الجيوش فيها . ولم تدم عادة فترات الحروب هذه طويلا فتاريخ المنطقة دائم التغير ، أما الآن فان التغير الاكبر وشيك الحدوث فمن أجل مستقبل كله رخاء في شمال وادي النيل والدلتا سوف تختفى بلاد النوبة تحت مياه الخزان الكبير الذي سيقام وراء السد العالي في أسوان .

فاذا ما طرح أمامنا السؤال التالي : أين تقع بلاد النوبة ؟ فسوف نقع في عجب وحيرة شديدين عندما نجد أن مثل هذا السؤال غير واضح حتى عندما يرد عليه أكثر الناس معرفة . وذلك لان حدودها ليست محددة تماما على خريطة فتاريخها عبارة عن سجل واسع لتحركات الجيوش لذلك لم تصل النوبة أبدا الى أن تستقل بنفسها . ومع أن سكانها الحاليين لهم جنسية مميزة فهم يرتبطون ارتباطا وثيقا عن طريق الدم والاسلوب الواحد في الحياة الا أن وطنهم مقسم بين الشمال والجنوب - فالنوبة السفلى تمتد بين الشلال وادن دان وتعتبر جزءا من مصر أما النوبة العليا فتمتد بين أدندان ودنقلة وتعد جزءا من السودان . (صورة رقم ٢)

وكلمة نوبة نفسها غامضة الاصل ، فيقول « استرابو » نقلا عن « اراتوسثينيس » : يعيش النوبيون على الشاطئ الغربي للنيل في ليبيا وهم شعب متعدد الافراد وتمتد بلادهم من مروي وتصل الى منحني النهر ومن المغربى حقا أن نجد في اسم هؤلاء الناس كلمة نوبة ولكننا اذا تعرفنا على انحناءات النهر حتى منطقة دنقلة ، فسوف نجد أن هؤلاء الناس قد سكنوا جزءا من الوادي يقع كله جنوبي النوبة التي نعرفها - ومما يجب علينا ألا ننقله هو أن المصريين القدماء أطلقوا على الذهب كلمة «نوب» وأن هذه المنطقة التي نعرفها الآن بالنوبة كانت بلاد الذهب . ومع أن هذا قد جاء بمحض الصدفة الا أنني أشعر أنها نظرية معقولة لأصل كلمة نوبة .

ومن بين الاسماء الكثيرة التي أطلقها المصريون القدماء على النوبة بل أكثرها شيوعا « تا - كنس » أى « الأرض المقوسة » أو « أرض القوس » ولكن لم يكن هذا الاسم الا تعبيرا عاما ، اذ أنهم فرقوا بين النوبة العليا والنوبة السفلى بتسمية الجزء الشمالى الذى يقع بين الجندل الأول والجندل الثانى « واوات » . وتسمية الجزء الجنوبي الذى يقع جنوبي الجندل الثانى « كوش » . وعلى قدر ما نستطيع أن نعتمد على الآثار الموجودة نجد أن أهل واوات وكوش كانوا من جنسين مختلفين مع أن بينهما قرابة . ويبدو من

هذا أن سكان منطقة واوات كانوا عادة لا يميلون للحرب بينما أهل كوش كانوا محاربين ، لذلك استعان بهم المصريون في النوبة عندما أصبح الحكم الاستعماري ثابتا فجندوا في الجيش الفرعوني في عصر الامبراطورية .

والتوبيون يختلفون في لغتهم حتى عصرنا هذا - ونجد أن الحدود اللغوية لا تتفق مع الحدود الجغرافية للنوبة العليا والسفلى . فبينما نجد سكان المنطقة الواقعة ما بين «اسوان» و«السبوع» يتكلمون حتى اليوم اللهجة المعروفة باسم «كنوز» ومن كورسكو حتى الشلال الثالث يتكلمون «المحسى» نجد أن سكان الجنوب يتكلمون «دقلى» ولو أن هذه اللهجة ليست الا شكلا آخر للكنوز . واللغة النوبية التي تنتمي الى نوع خاص من اللسان الافريقي لا تكتب ولذلك تعتمد على العربية في الكتابة ، فالعربية تستعمل في كل أنحاء البلاد .

والصلة التي تربط سكان النوبة الحاليين بسكان العصر القديم - أمر مشكوك فيه لان منطقة كهذه قاست كثيرا من الغزو الاجنبى يصبح المزج فيها بين الاجناس أمرا لا بد منه . ويبدو انه وجلت على الاقل فترة واحدة كانت النوبة السفلى فيها غير مسكونة وبالرغم من ذلك نجد أن تخلف بعض العادات الجنائزية والفنون والحرف تذهب بنا بعيدا لتؤيد الفكرة القائلة بأن النوبيين الحاليين ينحدرون الى حد كبير من نسل هؤلاء الذين عاشوا في هذه المنطقة من وادى النيل في عصر فراعنة الدولة الوسطى ، وكما كان الحال في العصور القديمة نجد أن النوبى المعاصر يختلف جنسيا عن المصرى ومع أن جزءا كبيرا من السكان يقضون معظم سنى عمرهم في مصر الا أنهم يبقون كجنس منفصل على حدة الى حد كبير اذ أنهم من النادر أن يتزوجوا بمصريات . وعقيدتهم أن الوطن والزوجة والعائلة يجب أن تبقى في النوبة وحتى الآن وبعد أن تغيرت معالم النوبة ببناء السد العالى فانها بقيت بالنسبة اليهم أحب الأراضى في العالم كله فاليها سيرجعون بلا شك فى كل فرصة سانحة . ونجدهم اذا مرضوا أو تقدمت بهم السن فان أملهم الوحيد هو الرجوع الى أرضهم التي وهبتهم الحياة .

ونحن نتساءل عن السبب الذى يدفع هؤلاء الناس الى ترك وطنهم الذى يكونون له هذا الحب ويعيشون بعيدا عنه لفترات طويلة فنجد ان هناك سببين ، أولهما سبب اقتصادى لأنه حتى قبل بناء خزان أسوان لم تكن النوبة تكفى سكانها - والسبب الآخر هو أن النوبيين على عكس المصريين يحبون السفر والتجوال وعندهم حب استطلاع ليس له نهاية لمعرفة بلاد جديدة وشعوب جديدة . ولقد قابلت نوبيين عاشوا فترة في

أمريكا عملوا فيها كيميائيين وطهاة على البواخر ، وعرفت آخر أمضى
بضع سنين كسائق لقاطرة في الهند - ولكنى لم أسمع مطلقا عن أحدهم
وقد استقر فعلا في بلاد غربية بمحض ارادته .

ان الاراضى الزراعية النوبية محدودة ولا تنتج ما يكفى لغذاء قلة من
سكانها فنظرا لهذا ولعدم قيام صناعات بالمنطقة كان لزاما على الرجال
الأشداء والشباب أن يبحثوا لهم عن مهنة في المدن المصرية أو السودانية
الكبيرة . وهكذا نجد أن النوبيين قد اكتسبوا عيشهم من أعمالهم كخدم
أو بحارة بالسفن الشراعية في نيل مصر العليا ويعتبرون في هذه الاعمال
« ممتازين » فأحسن الخدم أو الطهاة في مصر وأكثر البوابين ثقة عند
أصحاب المنازل والعمارات الكبيرة بالقاهرة وفي الفنادق والمكاتب يأتون
دون استثناء من جنوب أسوان .

ولقد كان النوبيون يتمتعون بنظام قبل انشاء مكاتب العمل واهتمامها
بمصالح العمال في مصر . ولقد وفر لهم هذا النظام حماية لا نجد لها نظيرا
في أوروبا الا عن طريق نقابة قوية . فقد كان لكل قرية نوبية كبيرة كانت
أو صغيرة ممثل في القاهرة أو في إحدى المدن المصرية الكبرى ويعمل هذا
الممثل في معظم الاحيان بوابا لعمارة أو هيئة حكومية أو ما شابه ذلك ،
وعليه تقع مسئولية سعادة ورفاهية أبناء قريته الذين يعملون في منطقة
عمله ، وإذا ما كبر أحد الصبية في القرية يبعث به الى أحد أقاربه الذين
يعملون بمصر . ومع ذلك يقدم نفسه لممثل قريته الذى يلحقه بعمل اذا
احتاج الأمر ، كما يضعه تحت رعايته ، وبعد تدريبه كصبي مطبخ
أو ما يشبه ذلك لمدة سنتين تقريبا ، يرقى الى وظيفة مساعد خادم (سفرجى)
أو مساعد طاه ويحصل على مرتب . ومن ثم يدفع نسبة مئوية من مرتبه
لهذا الممثل كتأمين ضد البطالة يؤمن له المسكن والطعام في الظروف
العصيبة . والواقع أن أى ساكن جديد في القاهرة وغيرها يحتاج الى خادم
يسلك مسلكا حكيما بطلبه من بواب مسكنه خادما آمينا ، وبهذا يعتبر
البواب هو المسئول أيضا عن عدم رضا المخدم . وهذا نظام ناجح وفعال،
ويلاحظ عادة أن عددا كبيرا من الخدم في مبنى واحد ينتمون الى قرية نوبية
واحدة ، ولذلك يعيشون متحدين يساعد بعضهم بعضا وفي الوقت نفسه
تسهل الحياة بالنسبة للمخدوم .

والنوبى ، بالاضافة الى كونه خادما من الدرجة الاولى ، نجده أيضا
بحارا عظيماء ، فجميع المرشدين بالبواخر النيلية يأتون من النوبة السفلى،
وبالرغم من أن السفر نيليا ما بين الدلتا والشلال الاول أصبح وصيلة
قديمة ، وإلى جانب انتشار السفر بالطائرة فالتنقل بين الشلال الاول

ووادى حلفا يعتمد على بواخر الحكومة السودانية لعدم وجود خط سكة حديد فى هذه المنطقة . فطاقم جميع البواخر النيلية من النوبة ، هذا الى جانب أن عددا كبيرا منهم يعملون على المراكب الشراعية أو التجارية التى تنقل البضائع بين مصر العليا والقاهرة فالعائلات النوبية اتخذت من النهر مهنة لأجيال ، فالأب يدرّب ابنه عن طريق قصص قديمة ارتبطت بالنيل ولا تعتبر المعلومات مهارة لديهم وإنما هى خبرة نتجت عن تراكم عدة خرافات على مر السنين فى القصص النيلية . وعلى كل فالبخارة النوبيون منظمون مثلهم فى ذلك مثل زملائهم خدم المنازل . فإذا أردت أن تستأجر طاقم باخرة مثلما اضطررت أنا اليه عندما كانت لى باخرة فى النيل ، فيجب عليك أن تذهب الى مقاه مخصصة يتجمع فيها البخارة الذين ينتظرون من يطلبهم وهناك أسعار محددة لأنواع مختلفة من البخارة ومما يجدر الإشارة اليه هو ارتباطهم الوثيق بعضهم مع بعض فإن أى ظلم يقع على أحدهم يعتبر ظلما للجميع ، وسرعان ما يجد صاحب الباخرة نفسه فى القائمة السوداء ان لم يمثل لقانون وعادات الطاقم المشهورة ، وأظن أن هذا بالإضافة إلى التعصب للعشيرة هو الذى أساء الى سمعة النوبى بين الرحالة الأوائل الذين جابوا بلاده . وفى الحقيقة ان من يتعمق فى التعرف على عاداتهم وتحيزهم هذا يجد فيهم الصديق الوفى الذى لا ينسى الجميل أبدا .

وبناء على ما ذكرناه سابقا فإن معظم الرجال الأشداء القادرين على العمل يعملون خارج النوبة ، فسكانها الآن هم كبار السن والسيدات والاطفال وهؤلاء يقومون باستثمار الاراضى الزراعية وهى محدودة ، هذا ماعدا مناطق معينة مثل وادى حلفا وعنيبه . وبلاد النوبة لا تصدر الا التمر والفاكهة من مناطق حلفا - أما محاصيلها القليلة فهى لا تكفى السكان فى المناطق الشمالية . ولذلك فانه عندما تغمر مياه السد العالى الجديد ما تبقى من الاراضى الزراعية يتحتم على سكان النوبة من انسان وحيوان أن ينتشروا فى أماكن أخرى من وادى النيل ولكنى أعتقد أن كثيرا من هؤلاء سيقفون على الحوافى الجدية يعتمدون على المأكولات التى يبعث بها أقاربهم الذين يعملون فى مصر والسودان . أما فى المرحلة المتأخرة عندما يرسب النيل طميه الحصب فى المناطق الممتدة وراء « أبو سمبل » و « سيالة » و « دندور » فإن كثيرا من هؤلاء النوبيين سيرجعون الى هذه الاراضى .

ان الارض النوبية صعبة الوصف فى فقرات محددة فهى تبدو للزائر الذى يمر عليها سريعا عن طريق النهر كسلسلة ممتدة لمناطق زراعية ضيقة ومتعاقبة ، ومناطق صحراوية قاحلة تتخللها تلال صخرية ، فهى أرض

متنوعة التكوين اذ يعترض الوادى حاجز من الجرانيت ما بين خط عرض ١٤ و ١٨ شمالا مكونا الحدود الاولى بين مصر الخصبة والاراضى القاحلة فى الجنوب وحتى فى الشمال عند اسنا نجد ان السهل الجبرى الذى يحد الوادى قد تقهقر لتحل محله تلال غير منتظمة من الحجر الرملى وبالرغم من هذا فان الاراضى على جانبي النهر لا تزال خصبة خضراء الى أن يظهر الحاجز الجرانيتى فيظهر حينئذ الطابع الموحش للنيل الافريقى .

وعند الشلال توجد آخر محطة للسكك الحديدية المصرية كما أننا نجد ميناء نهريا للسفن والبواخر السودانية التى بوساطتها يصل المسافر عن طريق النوبة السفلى الى وادى حلفا ومن ثم يستقل المسافر القطار مرة أخرى ليصل الى الخرطوم . ولقد بقى أثر ضئيل من العمار عند الشلال لا يتعدى بضعة أكواخ بالاضافة الى محطة السكة الحديد ورصيف لرسو السفن ولكنى عند زيارتى له سنة ١٩٢٩ لأول مرة كانت قرية مبعثرة واسعة كبيرة المساحة يحيط بها من كل جانب صخور جرانيتية عالية وكأنها احترقت واسودت من حرارة الشمس . وبعد ذلك ارتفع منسوب مياه النيل بعد تعلية خزان أسوان سنة ١٩٣٤ ولم يبق فى القرية الا عدد قليل من سكانها ، ومما يجدر ذكره انها تعتبر من أشد المناطق النوبية حرارة وأقلها هواء ، اذ تبلغ درجة الحرارة فيها ١٢٠ درجة فهرنهايت لأن التلال الجرانيتية المحيطة بها تمنع عنها تلك التيارات الهوائية المثلثة القادمة من الصحراء . ونجد أن مجرى النهر يتسع عند الشلال والى الجنوب من الجندل الاول ثم يتخلله عدة جزر صخرية لا ترى بعضها الا بعد انخفاض منسوب المياه الى مستواه الطبيعى عندما يفرغ الخزان فى الصيف . وقوق « فيلة » احدى الجزر الكبيرة نجد معبد « ايزيس » المشهور والمهدد بالتهديم الكامل بعد المشروع الجديد . ولذلك فهو أحد الأهداف الهامة التى تهتم بها اليونسكو لانقاذ الآثار النوبية القديمة وحتى الآن لا نستطيع أن نتمتع بجمال وروعة هذه الدرة المعمارية الا فى أواخر الصيف ، لأن المياه تنمرها تماما طوال بقية شهور السنة .

ولقد تركت على التلال المجاورة علامات المهاجر القديمة ، وسجلت عليها تواريخ ترجع الى أقدم العصور الفرعونية حتى العصر المسيحى . فالى الغرب من جزيرة « فيلة » ، نجد « بيجة » حيث شيد عليها معبد صغير من عهد بطليموس الثالث عشر (٥١ - ٨٠ ق.م) ولم يبق منه الا القليل . ولقد اعتبرت « بيجة » مكانا مقدسا قبل العصر البطلمى بكثير . وقد عثر فيها على آثار ترجع الى الأسرة ١٨ كما عثر على آثار تدل على وجود قلعة من هذا العصر . ومع أن معظم الآثار القديمة لهذه الجزيرة المشهورة بجمالها الطبيعى

قد اختفت تحت المياه، الا انها أخفت تكتسب أهمية كبيرة من جديد كاحدى النقاط الهامة فى مشروع انقاذ وترميم معبد فيلة الذى سأشرحه فيما بعد .
فبعد التعليق الاولى لحزان أسوان سنة ١٩١١ غمرت المياه منطقة النوبة جنوبا حتى « وادى السبوع » ومع ذلك لم يشوه جمالها . كما أن المناطق الزراعية العالية التى لم تغمرها المياه قد بقيت كما هى . وفى عام ١٩٢٩ عندما رأيت لأول مرة هذه القرى النوبية الطابع ماثلة فى « دابود » كانت تبدو من النهر عبارة عن قرى مشيدة على حافة خط رفيع من الزراعة الخضراء تحتضنها تلال جبلية ورملية شاحبة . لقد كان المنظر جميلا للغاية ويستحق التصوير لان المنازل النوبية التى شيدت من الطين ذات الجدران البيضاء والأسقف التى على هيئة قباب ، والأبواب المزخرفة ، لها طراز معمارى يفوق فى روعته ما نجده فى أية قرية مصرية . أما معابد دابود وقرطاس وطافا وكلبشة والدكة فكانت لا تزال موجودة ومرئية حتى عند ما كانت المياه عالية . وبالرغم من أن مناطق مثل كلابشة قد أصبحت قاحلة الا انه كانت توجد قرى صغيرة مبعثرة هنا وهناك بها بقع زراعية يرتفع فى وسطها النخيل .

وفى الجنوب بعد وادى السبوع ، وفى مآمن من المياه المدمرة لم تتغير النوبة هناك . وكم كنت محظوظا لأننى رايتها كما رآها الرواد الأوائل من الرحالة منذ زمن بعيد ، فبين وادى السبوع وحدود النوبة السفلى عند وادى حلغا تتغير المناظر على جانبي النهر ، فالنهر يمر بين الصخور التى لا تصنع للبيئة السكنية ، ماعدا المنطقة التى عند المالكى حيث نجد هناك قرية واسعة تحيط بها غابات كثيفة من النخيل . وأخيرا نصل الى « كورسكو » حيث يبدأ الانحناء الكبير للنيل ، ولقد كان الشاطئ الغربى كله تقريبا بين كورسكو وتوماس قاحلا تتخلله تلال رملية تصل الى حافة النهر ، هذا بينما نجد أن الشاطئ الشرقى يتميز بشريط ضيق من الارض الزراعية المحصبة تتسع عند « الدر » التى كانت فى ذلك الوقت مقرا للحكومة وكان بها مركز للشرطة ومدرسة . أما أكبر منزل فى النوبة فقد كان هو منزل الكاشف ويقع فى الطرف الشمالى للمدينة وقد كان الكاشف حاكما نصف مستقل للمنطقة كلها حتى وقت قريب . ومن يرى « الدر » ومعبد « رمسيس الثانى » المنحوت فى الصخر ، والذى يختفى وراء أشجار النخيل والجميز يرى جمالا باهرا حيث النباتات المورقة النضرة . ولقد اختفت الآن هذه الخضرة تحت المياه ، وحتى فى الاوقات التى ينخفض فيها منسوب المياه فلا نجد الا منظرا قاحلا يعطى لمن رآه من سمين مضت رمزا حيا لمأساة النوبة .

لقد كانت الأراضي الصالحة للزراعة كلها جنوبى « الدر » فى الناحية الغربية - بينما كان الشاطئ الشرقى عبارة عن صحراء ذات صخور قليلة الارتفاع وتصل الى حافة النهر ، وعند «توماس» كانت هناك جزيرة ذات أرض خصبة ، كما كان بالشاطئ الغربى غابة كثيفة من النخيل ذات تمر له شهرة كبيرة حتى فى مصر - أما جنوبى «توماس» فتتضاءل الأراضي الزراعية حتى « عنيبة » مقر المدينة القديمة «ميعام» ومقر الحاكم الجنوبى ومركز الحكومة فى عصر الفراعنة فى الدولة الحديثة (١٥٧٠ - ١٠٨٥ ق م) . وبالرغم من أنها كانت قاحلة فى الناحية الغربية عندما زرتها لأول مرة سنة ١٩٣٠ بعد التعلية الأولى ، إلا أنها ، فى سنة ١٩٣٤ ، أصبحت مكتظة بسكانها الذين ما لبثوا أن زرعوا أراضيها - وأصبحت لوجودها أعلى من مستوى المياه مقرا جديدا للحكومة بعد « الدر » التى زالت . والآن يجب أن نضحى بعنيبة أيضا لأن مياه السد الجديد ستغطي سهولها الخصبة وتصل حتى تلك التلال الرملية المحيطة بها . أما على الشاطئ الشرقى والى جنوب عنيبة فنجد جبال «أبريم» العالية والتى شيد فوقها الحصن القديم الذى بدأنا التنقيب فيه سنة ١٩٦٣ . وفى المنطقة جنوبى «أبريم» و « عنيبة» تتضاءل الحضرة والنباتات على الشاطئ - حتى تلتحم الصحراء بالنهر فى نقط متعددة . أما فى أبى سمبل فتتسع الرقعة الزراعية حيث يسكن عدد كبير من الناس يعيشون فى تلك الأرض الخصبة على الشاطئ الشرقى والغربى مثلما كان فى الزمن القديم . وعلى الضفة الغربية نجد أعظم آثار النوبة - المعبد المنحوت فى الصخر واللذين شيدهما « رمسيس الثانى » - وفى سنة ١٩٣١ كان المعبدان بعيدين عن النيل وأمامهما رقعة واسعة من الأرض المزروعة - أما الآن فإن مياه النهر على بعد بضعة أقدام من التماثيل الكبيرة التى تتكون منها واجهة المعابد ، والتى تعمل هيئة اليونسكو على نقلها وانقاذها من الغرق (١) .

كانت البلاد ، على ضفتى النهر، فيما بين أبى سمبل والحدود السودانية فى «ادن دان» مسطحة ليس فيها ما يأخذ بلب الرائي ، فالمناطق المزروعة فيها محدودة والجبال البعيدة فى الصحراء الشرقية مخروطية الشكل ، هذه المنطقة الجدياء غنية فى آثارها القديمة ومن أهمها تلك المدينة المحصنة فى «عدا» ، والمقابر التى يعلوها كومة للملوك النوبيين من العصر المتأخر والتى عثر عليها فى «بلانه» و «قسطل» سنة ١٩٣٢ - وأثناء تنقيبنا وحفائنا فى

(١) لقد تم المشروع وقامت الحكومة المصرية بافتتاح المعبد فى مكانهما الجديد فى سبتمبر سنة ١٩٦٨ فى احتفال كبير اشترك فيه ممثلون عن منظمة اليونسكو والجمهورية العربية المتحدة .

«بلانة» عثرنا على الطبقة الطميية الحصبة تحت الرمال الصخرية - وبوساطة طرق الرى الحديثة توصلت الحكومة المصرية الى تحويل هذه المساحة الجدياء الى اكثر المناطق الزراعية خصوبة .

هكذا كانت النوبة السفلى منذ خمس وعشرين سنة مضت أرضا متباينة الألوان ، جبال فى لون البن القاتم تتعاقب مع صبرة رمال الصحراء - وخضرة المناطق الزراعية ولكن هذا كله قد تغير كثيرا ، لان التعلية الثانية لخزان أسوان سنة ١٩٣٤ قد غيرت بل ودمرت الى حد كبير تلك اللوحة الطبيعية ، فأصبحنا منذ ذلك الحين لا نرى غابات النخيل الصغيرة فى «توماس» و«الدر» - ولكننا نرى بحيرة كبيرة عندما يكون الخزان ممتلئا ، كذلك نرى مسطحات طميية هنا وهناك عندما تقل المياه فى الشهور الاخيرة من الصيف ، وقد اختفت تلك القرى الجميلة ببيوتها الجذابة البيضاء الملفتة للنظر فأصبحت لا ترى منها سوى مجموعات منعزلة بعضها عن بعض مثل البقع الصغيرة من الاراضى المزروعة فوق واد ضيق تحده صخور رمادية كالحة ترتفع فوق سطح الماء .

والنوبة العليا ومعظم المناطق جنوبى أبى شمبل تقع فوق مستوى الفيضان للخزان الحالى ولذا فهى تشبه المنطقة جنوبى وادى السبوع قبل سنة ١٩٣٤ اذ لم يصبها تلف ولم تتغير كثيرا عما كانت عليه قديما حينما كانت تتلاحم القوى المتحاربة الشمالية والجنوبية .

ان ما يعرف باسم منطقة وادى حلفا على الضفة الشرقية من «دبيرة» حتى أوائل الشلال الثانى فهى من أخصب المناطق فى تلك البلاد وبها عدد كبير من السكان عدا التجار والموظفين والمهندسين الذين تستخدمهم الحكومة السودانية فى الترسانة وورش السكك الحديدية .

وجنوبى وادى حلفا نجد الحاجز الجرانيتى الثانى الذى يخترق النيل (الجنبدل الثانى) وهو يمتد بمياهه المتدفقة على مسافة ٩٠ ميلا وهذه المنطقة هى المعروفة «ببطن الحجر» وهى أكثر مناطق النوبة جدبا - وفيها النيل لا يصلح للملاحة لاعتراض تلك الصخور الجرانيتية مجراه . حيث تكون ارجبيلا يتكون من أكثر من ٣٥٠ جزيرة صغيرة خمسون منها مأهولة بالسكان ولهم فيها زرع وثمر .

وهنا فى هذه المنطقة النيلية القاحلة شيد المصريون القدماء سلسلة من الحصون لأن الطبيعة الموحشة الوعرة التكوين وصعوبة الملاحة جعلت المنطقة لها حدود طبيعية تستعمل قاعدة للدفاع وموقعا استراتيجيا للهجوم . ان سلسلة تلك الحصون الحربية تبدأ فى الشمال عند «بوهن» التى كانت فى

غالباً مركزاً للقيادة ، وتنتهى فى أقصى الجنوب من الشلال بالحصنين «سمنه» و «قمه» . ان هذه الابنية القديمة قد شيد بعضها على حافة النهر كما شيد البعض الآخر على جزر يصعب الوصول اليها - وهى الى الآن تمثل تحدياً كبيراً لكل مهتم بالآثار ، لأنها عظيمة الحجم ولم تنقب كلها . وعندما يتم بناء السد العالى سوف تختفى تلك الحصون تحت مياه النهر . وجمعية التنقيب المصرية قد أتمت حفائرها فى حصن «بوهبن» أمام «وادي حلفا» - وهذا العمل قد أظهر نتائج على جانب كبير من الأهمية سنتناولها فيما بعد فى هذا الكتاب - وبناء على نداء اليونسكو قامت مصلحة الآثار السودانية وبعثات أخرى أجنبية تمثل معاهد علمية فى أوروبا ، تنقيبات فى قلاع ومناطق أثرية أخرى فى بطن الحجر .

هذا الجزء من التوبة الذى يمتد جنوباً حتى دنقلة ، يتميز بأهمية خاصة بالنسبة لكل أثرى لأنه كان يحوى بلاد «كوش» القديمة التى لانعرف عن تاريخها وحضارتها الا القليل . فالمنطقة لم تفحص جيداً من قبل الأثريين . وانى أعتقد أن التنقيبات الكبيرة التى شرع فيها بسبب الخوف من فيضان النيل بعد السد العالى ، ستظهر اكتشافات ذات أهمية تاريخية كبيرة وربما تغيرت كلية فكرتنا عن خصائص وقوة العدو الجنوبي لمصر القديمة .

الفصل الثاني

السراىالى

لعله من الغريب حقا أن نكون مدينين لمشروعات الرى المتتالية ، التى هدمت فيما مضى وسوف تهدم فى عصرنا هذا آثار وعمائر النوبة ، بمعرفتنا ومعلوماتنا عن آثار هذا الجزء من نهر النيل وتاريخه • فلولا التهديد المتعاقب بالفناء ما قامت المجموعات المتقبة بأعمالها منذ بناء خزان أسوان بين ١٨٩٩ و ١٩٠٢ • ان الحفر فى النوبة صعب ، بسبب بعدها وعزلتها علاوة على أن ما يسفر عنه الحفر من قطع أثرية ليس مجزيا الا أنه يعطينا معلومات علمية قيمة ، لذلك فمعظم الحفائر كانت نتيجة للضرورة ولم تكن اختيارية ولا شك أن الجزء الأكبر للكشوف المهمة قد تم بتأثير التهديد القائل « الآن أو أبدا » •

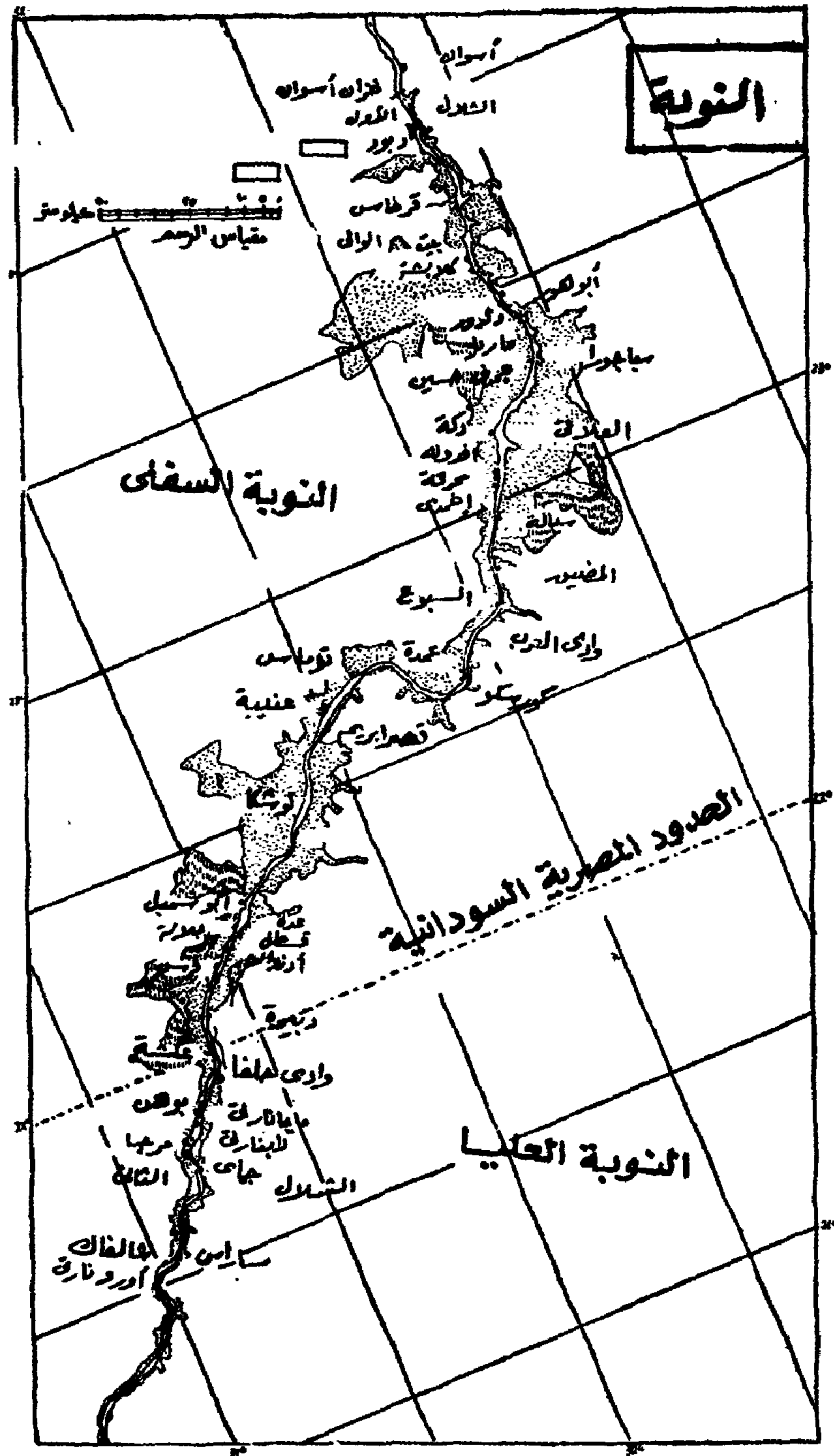
والآن يجب على رجل الآثار أن يواجه التهديد الاخير • فالحاضر لا يمكن أن يضحى به من أجل الماضى ومع أن بعض العمائر الضخمة ستحفظ الا أن المواقع القديمة للمدن والجبانات التى تحوى الاسرار وتسجيلات الأجيال القديمة يجب أن تدمر • فمرة أخرى يتسابق المنقبون،

الذين يأتون من عدة بلاد ، مع الوقت ، ليغتصبوا من أرض النوبة القاحلة ما تبقى من أسرار تاريخها الطويل .

وبعد غزو السودان مرة أخرى في عام ١٨٩٨ والهدوء الذى عم منطقة نهر النيل العليا ، اتجه المهندسون واخصائيو الري الى غزو النهر نفسه . فسكان مصر يتزايدون باستمرار وأصبح توسيع رقعة الأرض الزراعية فى الدلتا ضرورة ملحة عاجلة والتوسع الزراعى يعتمد على المياه المأخوذة من النيل . فمصر ، حتى فى نهايتها الشمالية ، بلاد متعطشة للمطر ، لذلك كان فيضان النيل السنوى هو منبع الحياة الوحيد فيها . ومنذ أقدم العصور اتخذت كل الوسائل لمنع هبوط المياه السريع ، فبنيت أحواض لحزنها . ولكن - حتى مع وجود تلك الطريقة كانت كمية كبيرة من المياه تضيع فى البحر . ولضبط بعض هذا التبذير على الأقل ، بدى فى تشييد خزان عند الجندل الاول جنوبى أسوان فى عام ١٨٨٩ وانتهى منه فى عام ١٩٠٢ وكان الغرض منه هو التحكم فى مجرى النهر بتخزين المياه فى نوفمبر وديسمبر عندما يكون الماء فائضا وتترك هذه المياه فى مايو ويونيو ويوليو عندما تحتاج الاراضى الزراعية لكمية أكثر من المياه لا يمكن لمجرى النيل الطبيعى أن يعطيها .

ويمتد خزان أسوان أكثر من ميل فى الطول ويعلو مائة قدم وكان يخزن تسعمائة وثمانين مليون متر مكعب من الماء فى بحيرة صناعية تمتد جنوبا مسافة مائة وأربعين ميلا . ويعتبر الخزان تحفة فى علوم الهندسة حتى وقتنا هذا . ومع ذلك فلم يكن الا تجويرا للتصميم الاصلى الذى قدم للحكومة المصرية فى عام ١٨٩٣ . اذ أن التصميم الاصلى كان يرفع منسوب المياه سبعة وعشرين قدما عن منسوب الخزان الحال . ونتيجة لهذا الارتفاع غمر جزء كبير من معبد «فيلة» . فاستقبل المشروع باحتجاجات ونقد . وبعد جدل طويل انحنى المسئولون أمام العاصفة وخفض ارتفاع الخزان الاصلى . ومع أن بعض أبنية المعبد كانت تغمرها المياه لفترة قصيرة من السنة الا أن العماثر الاساسية بقيت فوق مستوى المياه . ومع ذلك ، وخوفا من الرطوبة ، قويت الاساسات ورممت كل نقاط الضعف فى البناء .

وبعد بناء السد ظهرت محاسنه ومنافعه حتى أن احتجاجات رجال الآثار والفنانين قد نسيت ، وبين عام ١٩٠٧ ، ١٩١٢ زيد فى ارتفاع السد ستة عشر قدما فارتفعت مياه الخزان حتى وصلت الى منطقة وادى

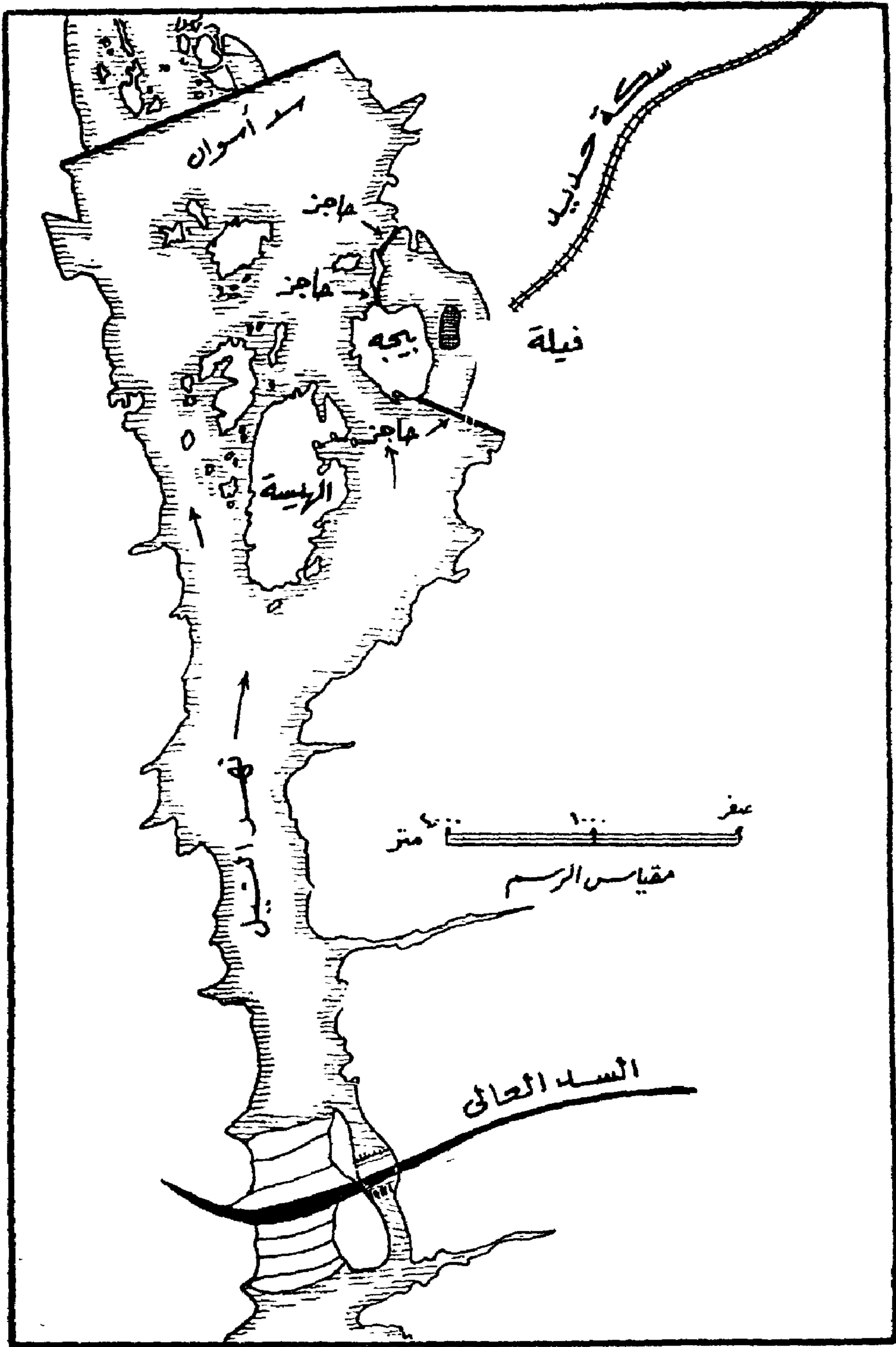


الشكل ٢ - النوبة

السبوع أى أن طوله قد امتد الى خمسة وأربعين ميلا (شكل ٢) وأصبحت سعته ألفين وأربعمائة مليون من الامتار المكعبة من المياه . وهذه البحيرة الصناعية التى امتدت مائة وخمسة وثمانين ميلا كانت تغمر جزءا من فيلة ومعابد أخرى متعددة كما أنها هددت عدة مستعمرات وجبانأت قديمة . ولم يكن رجال الآثار ليسكتوا على ذلك فقبل أن يتم العمل فى السد فى عام ١٩٠٢ كانت الحكومة المصرية قد نظمت المسح الأثرى الأول الذى كشف وسجل كل البقايا القديمة التى كانت ستهدمها المياه بعد تعلية الخزان .

ولكن ما زالت الأراضى المصرية المتعطشة غير راضية ومرة أخرى بين عام ١٩٢٩ وعام ١٩٣٤ زيد فى علو السد ثلاثين قدما وامتد الخزان مائتين وخمسة وعشرين ميلا حتى وادى حلفا وأصبحت سعته خمسة آلاف مليون متر مكعب من الماء . وأرسلت الحكومة المصرية بعثة للمسح الأثرى الثانى لانقاذ الآثار المهددة فى النوبة والكنوز التى لا تقدر بثمن فى « بلانه » و « قسطل » ، والتى سأكتب عنها فيما بعد .

واليوم ، بعد أن زاد سكان البلاد كثيرا ، أصبح من الصعب على مصر أن تطعم نفسها وإلى جانب احتياجها لأراضى منتجة للطعام يجب عليها أن تتجه نحو انتاج صناعى وبعد هذا يأتى احتياجها للقوى . والنيل هو المصدر الوحيد الذى يمكن أن يرضى هذه المطالب . لذلك بدىء فى واحد من أكبر المشروعات الهندسية العالمية ألا وهو بناء السد الجديد ذى الحجم العظيم فى النهر عند نقطة تبعد أربعة أميال جنوبى السد الاصلى . ويعرف بالسد العالى . والغرض منه هو الاستفادة من كل مياه النيل حتى « لا تضيع نقطة واحدة من مياه النهر فى البحر » . وهذه العمارة الجبارة ستصل فى ارتفاعها الى مئتين وخمسة وعشرين قدما وعرضها أكثر من ثلاثة أميال (شكل ٣) أما الخزان فيصل طوله الى ثلاثمائة ميل على مساحة ألف ومائة وخمسين مترا مربعا ومحتويا فى أقصاه حوالى مائة وثلاثين ألف مليون متر مكعب من الماء . ومن المنتظر أن يضيف السد العالى الى الأراضى الزراعية فى مصر ما يقرب من نصف المساحة الحالية وحتى فى النوبة فسوف تكون هناك أراضى زراعية بعد أن يترسب الطمى فيها وبعد امتصاص الجو لعدد كبير من ملايين الامتار المكعبة من المياه نتيجة لحزارة الجو فى الأشهر الصيفية . فضلا على ذلك فإن المياه التى سوف تخرج من السد أثناء الفيضان ستستعمل لتحريك توربينات قوتها تصل الى مليونى حصان وانتاج سنوى ما بين عشرة آلاف واثنى عشر ألف كيلووات من الكهرباء فى الساعة سنويا . اذن فالمنافع التى ستجنى عظمة بحيث لا يمكن التضحية بها فى سبيل التاريخ ، والكنوز الفنية مهما كانت قيمتها . هذه الحقيقة



الشكل ٣ - فيلة والسد العالي

الصعبة وغير المقبولة يعترف بها رجل الآثار ولكن فى الوقت نفسه يرى أيضا مسئولياته فى انقاذ ما يمكن انقاذه من التدمير نتيجة تحقيق هذا المشروع الضخم للأجيال القادمة •

ان العبء الضخم فى ايجاد طرق عملية لانقاذ معبدى أبى سمبل ومعبد فيلة وفك وإعادة بناء معابد أخرى وتسجيل الجدران المنقوشة بل وأكثر من هذا ، تنقيب المناطق التى لم يسبق فيها الحفر وخاصة فى النوبة العليا ، كانت أكبر من الموارد المالية والفنية المصرية والسودانية • لذلك التجات الحكومتان الى اليونسكو تطلبان مساعدة عالمية لحفظ تلك الكنوز القومية التى تعتبر أيضا تراثا لكل البشرية • وقبل اليونسكو الطلب وفى افتتاح « الحملة العالمية لانقاذ آثار النوبة » ، التى أقيمت فى باريس فى ٨ مارس عام ١٩٦٠ قال المدير العام ، حينئذ ، السيد « فتورينو فيرونيز » :

« لقد بدأ العمل فى سد أسوان العظيم • وفى مدى خمس سنوات ستصبح منطقة وداى النيل الوسطى بحيرة كبيرة • وسوف يترتب على ذلك أن تصبح آثار رائعة تعتبر من بين أعظم ما على الأرض ، معرضة لخطر الزوال تحت المياه • ان السد سيجلب خصوبة لأراض صحراوية واسعة • ولكن خلق مجالات جديدة لعمل الجرافات وتخزين قوة كهربائية لمصانع المستقبل الجديدة تهدد بدفع ثمن رهيب •

« حقا ، عند ما تكون سعادة البشر المعذبين فى خطر ، يجب التضحية بلا تردد بالصور المصنوعة من الجرانيت والبورفير • ولكن أى فرد مضطر لأن يختار لا بد له من أن يتأمل فى ضيق ضرورة العملية • أنه من الصعب الاختيار بين تراث الماضى ورفاهية الناس الذين يعيشون الآن فى ظل أبهر أرث فى التاريخ • وليس من السهل الاختيار بين المعابد والمحاصيل واني لأشعر بالحزن لأى شخص يطلب منه اتخاذ قرار فى هذا الشأن – أيا كان هذا القرار – دون أن يشعر بالندم •

لذلك ، فليس غريبا ، أن تطلب حكومتا الجمهورية العربية المتحدة والسودان من جهة عالمية ، هى اليونسكو ، لتحاول انقاذ الآثار المهددة • ان هذه الآثار ، التى يمكن فقدانها قريبا جدا ، لا تخص هذين البلدين فقط ، فالعالم كله له الحق فى أن يراها دائما باقية • فهى جزء من تراث مشترك يضم رسالة «سقراط» ولوحات «الأجانتسا» وجدران «أو كسمال» العالمية • ان التحفة الجميلة تزداد جمالا عندما يشترك الناس فى الاستمتاع برويتها ، أما اذا فقدوا هذه المتعة ، فانهم يفقدون الكثير •

« وفضلا عن ذلك ، فليست المسألة فقط هي حفظ شيء سيفقد .
وانما هي اظهار كنز لم يكشف عنه بعد يمكن أن يستفيد منه الجميع .
ومقابل مساعدة العالم ستفتح حكومتا القاهرة والخرطوم كل بلادها للحفائر
الأثرية وستعطى نصف القطع الفنية التى سيكشف عنها علميا أو بالصدفة
للمتاحف الأجنبية . وستوافق أيضا على نقل بعض الآثار النوبية . وهكذا
سيفتح عصر جديد فى حقل الآثار المصرية . فبدلا من حرمان العالم من
جزء من عجائبه ، تأمل البشرية أن تظهر عجائب لم تعرف بعد .

ان قضية نبيلة كهذه تستحق ردا لا يقل عنها نبلا . لذلك أدعو بكل
ثقة الحكومات والمعاهد والمؤسسات العامة أو الخاصة والرجال ذوى الارادة
القوية من كل مكان ليسهموا فى نجاح مهمة ليس لها مثيل فى التاريخ .
اننا فى حاجة الى الخبرة والمعدات والمال . وهناك طرق متعددة يمكن
الاسهام بها . انه لمن المناسب واللائق أن ينبع من بلد كانت فى كل الأجيال
مسرحا لمشاجرات وأطماع متعددة برهان مقنع لتضامن عالمي .

« ان مصر هبة النيل » . وكانت هذه العبارة لطلاب عديدين ، الجملة
الأولى باليونانية التى تعلموا ترجمتها . فليأتمر العالم ليضمن أن النيل ،
بعد أن أصبح موردا أكبر لحضوية وقوة كهربائية ، لن يدفن تحت مياهه
عجائب ورثناها اليوم من أجيال زالت من زمن بعيد .

ان اشارة المدير العام لهيئة اليونسكو الى العهد الجديد فى ميدان علم
الآثار بعد اعلان القاهرة والخرطوم أن المنقب له الحق فى نصف حصة نتائج
العمل ، لم تقع على أذن صماء ومن ثم كانت الاستجابة للنداء مهتجة للغاية .
ويبدو محزنا أن تكون الاستجابة السريعة بسبب المكافأة الموعودة ، ولكن
فى الحقيقة لم يكن الأمر هكذا كما سنرى فيما بعد ، من دراسة اقتصاد
البحث الأثرى فقد كان قانون الآثار فى مصر ، فى عام ١٩٢١ أى قبل
العثور على مقبرة « توت عنخ آمون » يقضى بأن المنقب يجب أن يعطى نصف
حصة الأشياء التى وجدها وكان هذا شرطا حيويا فى تنظيم بعثات أجنبية
متعددة تنوى أن تقوم بحملات تنقيبية واسعة المدى لأن هذه البعثات
كانت تعتمد على تبرعات ادارات المتاحف أو المؤسسات التى تتمنى أن
تزود مجموعات الأثرية المصرية بمتحف جديدة ، وفى الحقيقة ، نظمت
المتاحف الأجنبية بعثاتها الخاصة الى وادى النيل بغرض زيادة المعرفة
التاريخية والأثرية واكتساب قطع جديدة لمجموعاتها .

وبدأت واحدة من أهم البعثات وأكثرها إنتاجا فى مصر على أيدي
موظفين تابعين لمتحف كبير . وهذان الموظفان كانا فى رحلة لشراء بعض

القطع ثم أقنعا مجلس أمنائهما بأن مجموعتهم ستزيد من المحصول العلمى للحفائر أكثر مما تزيد بالشراء من تجار الآثار . وأظهروا أن قيمة القطع الجميلة فى الفن القديم تزيد بمعرفة أصلها ، واستعمالها وتاريخها الحقيقى . فمن الصعب تأريخ قطع عثر عليها عن طريق سرقة المقابر . ولقد أدرك علماء الآثار المصرية أن الأدلة الأثرية تضيع سنة بعد سنة بسبب سلب ونهب عملاء التجار الذين اذا سرقوا مقبرة أو موقع أثرى ، أضاعوا مادة علمية لا تقدر بثمن . لذلك بدأ الجامع يعتمد على العالم الأثرى أكثر مما يعتمد على التاجر حتى أسفر الأمر عند رصد اعتمادات واسعة لحساب البحث العلمى فى الحقل . واقتنت متاحف العالم فى كل سنة كمية كبيرة من القطع نتيجة للحفائر الواسعة فى مصر . ولكن بعد الضجة التى نتجت عن اكتشاف مقبرة «توت عنخ آمون» وتأثرا بعدد من بلاد البحر الأبيض المتوسط، عدلت الحكومة المصرية فى هذا الوقت قانون الآثار بحيث لم يعد للمنقب الحق فى أى شىء مما يجده وأصبحت كل الآثار تخص الدولة . حقا انه فى السنين الأولى لصدور هذا القانون كان المنقب يعامل معاملة سخية وكان يعطى قطعا مزدوجة على أساس تبادل المنفعة . ولكن بعد فترة وعن طريق النقد الصحفى أصبحت المسألة شاقة ووجدت المتاحف الأجنبية صعوبة فى تمويل حفائر البعثات العلمية والمنظمات التى كانت تصرف بسخاء . وبالتدريج أصبح عدد البعثات الأثرية الأجنبية قليلا فى وادى النيل وتقهقر علم الآثار المصرية فى ميدان الحقل العمل .

لقد ظلت بعض المؤسسات الأثرية تعمل وتبحث فى مصر مثل جمعية التنقيب المصرية وكانت تقوم بعملها بصعوبة وكانت تترك مشروعات كثيرة لتمويلها المحدود . ومن المضحك أن المخازن فى الطابق السفلى لمتحف القاهرة والمخازن الموجودة فى منطقة الحفائر مثل سقارة كانت تحشىد بالقطع المزدوجة التى لا قيمة لها لتوضع بين المجموعات المهمة فى القاهرة ، بينما كانت لها قيمة كبيرة اذا ما وضعت فى متحف أجنبى . ولعلها كانت تساعد الطالب فى بحثه وكانت تصبح شاهدا للناس على مدى عظمة وبهاء مصر القديمة .

وعلى أية حال فالنداء الى اليونسكو جعل الحكومة المصرية ترجع الى القانون القديم الذى يعطى المنقب الحق فى نصف ما يكشف عنه ويعنى ذلك أن المتاحف سوف تساعد المنقب ماليا . وهذه السياسة الجديدة المستنيرة لن تكون للبعثات الأجنبية فقط ولكنها ستسرى على مصر نفسها . أما فى

انسودان فقانون النصف بالنصف كان يعمل به دائما • لذلك فقد توفرت
كل الحوافز لرجل الآثار كي يعود الى البحث العلمى فى الحقل فى البلدين •
ولقد مالت الشعوب فى الأعوام الأخيرة - مع نمو احساسها بالوطنية -
الى اعتبار ماضيها كنزا مقصورا عليها وأن تتجاهل الحقيقة بأنه حتى لو كانت
هى حارسه القانونى ، فهو تراث البشرية كلها • وأصبحت هذه الحقيقة ،
بعد نداء اليونسكو ، معترفا بها أخيرا ، واكتسب المجهود العالمى العظيم
حافزا على مستوى لم يكن يحلم به منذ سنوات مضت • لذلك ، وبتأثير هذا
الباعث لن يكون فناء النوبة القديمة قد ذهب عبثا •

الباب الثاني

التنقيبات

الفصل الأول

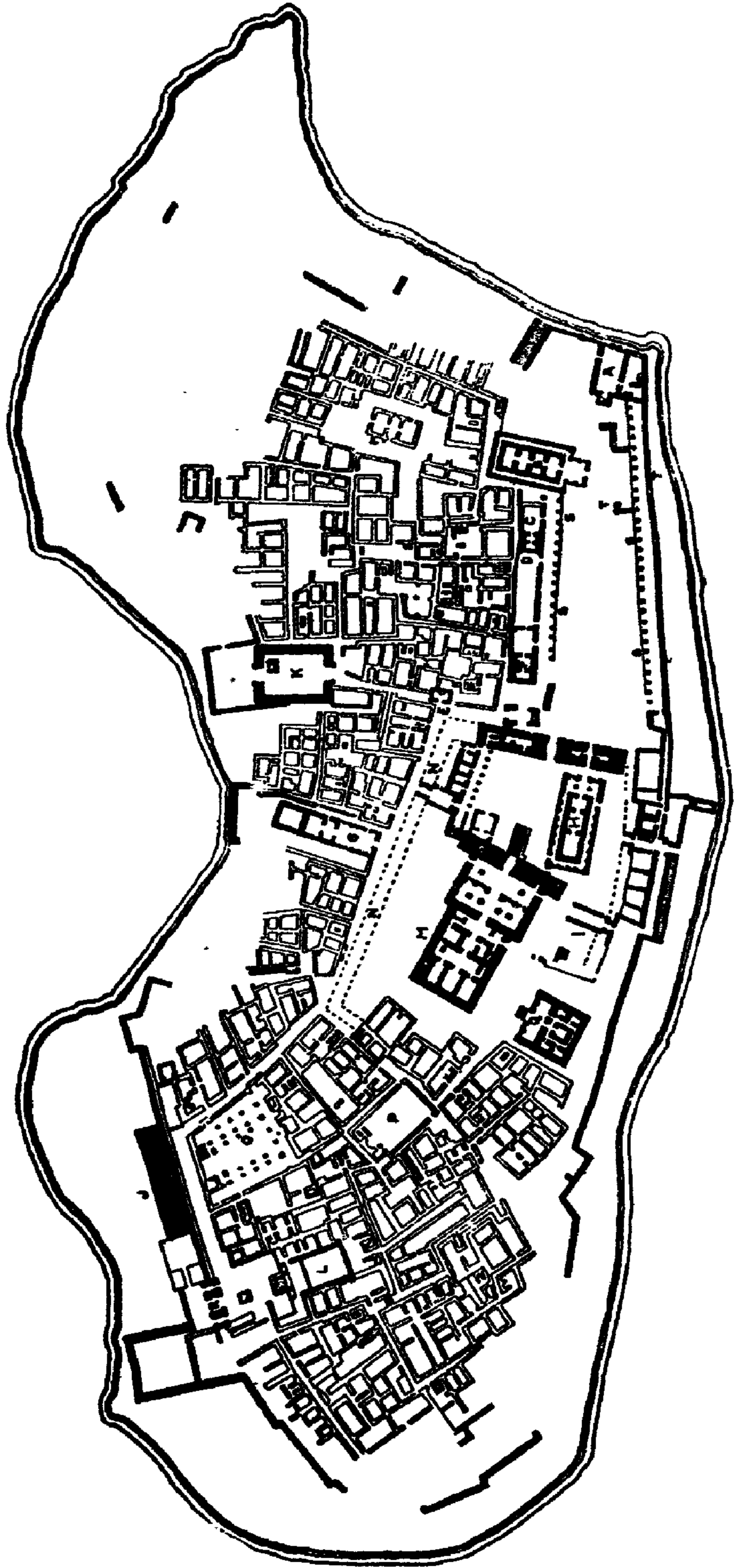
المسح الأثرى الأول

لم يحدث أن استرعت النوبة انتباه المهتمين بالآثار قبل بناء خزان أسوان الأصلي سنة ١٨٩٨ الا قليلا ، ويرجع السبب في ذلك الى أن مناطق كثيرة من تلك البلاد كانت حينئذ مسرحا لمعارك جيوش المهدي ضد القوى البريطانية والمصرية ، هذا مع أن مصر في ذلك الوقت كانت تتيح للمنقبين فرص العثور على اكتشافات جديدة بالاضافة الى منح من تحف تضم الى المجموعات الخاصة والمتاحف . فقد كانت الفكرة السائدة في تلك الأيام هي اقتناء الآثار وليس دراسة الآثار وتاريخها القديم . ونحن من جانبنا يجب أن نعترف بما جد من حفائر كثيرة كان هدفها الرئيسي اكتشاف قطع فنية لها قيمتها . لذا فالنوبة بتاريخها المجهول لم تكن تجذب المنقبين بالرغم من أن معابدها الضخمة كانت هدفا للزيارة وكانت تثير الإعجاب ، الا أن جباناتها الفقيرة ومدنها المهجورة الغنية بأسرار الماضي كانت مجهولة .

ولقد تغير الموقف بعد تشييد خزان أسوان ، وبعد ما أعلن أن أساسات عدد من المعابد الكثيرة من بينها معبد فيله ستغمرها مياه الخزان الجديد ، فقد كان لهذا النبا صدى كبير في أوساط الفنانين والدوائر

الشكل ٤ جزيرة فيلة

- A - بوابة نكتانبوس
- B - معبد أرسنوفيس
- C - المعبد الصغير
- D - معبد مندوليس
- E - مقصورة متأخرة
- F - معبدى اى - ام - حتب
- G - معبد حتحور
- H - بيت الولادة
- I - بوابة هادريان
- J - انحدار
- K - جوسق
- L - معبد أغطس
- M - معبد ازيس
- N - السور الخارجى
- O - الكنيسة الكبرى
- P - الكنيسة الصغرى
- Q - معبد حارندوتس
- R - بوابة المدينة
- S - البواكى
- T - مقاييس النيل



العلمية في أوروبا وأمريكا . وقد ارتفعت أصوات كثيرة تعارض تخريب تلك الآثار القيمة في صورة خطابات ومطبوعات ومحاضرات ، وبالرغم من أن هذه النداءات المدوية لم تكن تصدر إلا من جمهور عصبى إلا أنها أدت خدمة جليلة لعلم الآثار .

بعد هذا ركز الاهتمام الأكبر على المحافظة على المعابد بالإضافة إلى العناية بدراسة النوبة دراسة أعمق من ذي قبل وقبل فوات الأوان ، وقد بعث وزير الأشغال العامة فرقاً من المهندسين لتقوية أساسات المعابد ومنها معبد فيله بصفة خاصة حيث أجريت عدة تنقيبات في المناطق المجاورة له ، ولقد كان لهذا أهميته الكبيرة نظراً لأن أكثر الأبنية التي تكونت منها المدينة الصغيرة على الجزيرة المقدسة كانت مبنية من اللبن ولم يكتب لهذه الأبنية البقاء حتى بعد أن قل النشع الناتج من الماء المبدئي للخزان ، وقد حالف التوفيق العمل في الحفائر إلا أن نشر النتائج لم يكن كما ينبغي إذ أنها لم تتعد تخطيط المنازل والشوارع يصحبها بعض التفاصيل المعمارية دون ما تسجيل حقيقى للأواني الفخارية أو الأشياء التي عثر عليها . ولذلك فقد ضاعت معلومات تاريخية قيمة كثيرة ولكنه كان درساً للعلماء حتى أنه منذ ذلك الحين أصبحت الأعمال الأثرية في يد أشخاص نمرنوا وتعلموا ودرسوا علوم الآثار ولم يكونوا من المهندسين أو من رجال المساحة الذين لا يهتمون لهذا النوع من العمل إلا عرضاً . وهكذا كانت أعمال الصيانة والانقاذ على جزيرة فيله كاملة ومتقنة وكذلك ترميم الأبنية الحجرية تم باتقان لدرجة أنها ما زالت موجودة حتى يومنا هذا وبعد أن تعاقب عليها الغرق والظهور لأكثر من ستين عاماً ، وقد كان من المحتم أن تتلف مناظر المعبد الملونة التي تغطي السقف إلا أننا يجب أن نسعد لكل ما تبقى حتى يومنا هذا حتى أنه يمكننا أن نبعث « فيلة » من جديد ، وحتى تظهر لأول مرة مصر مرة أخرى ليراها الناس في الأجيال القادمة في مكانها وبشكلها الأصلي . وخريطة فيلة (شكل ٤) المأخوذة من المسقط الأصلي الذي وصفه « كابتن ليونز H.G. Lyons, R.E. » سنة ١٨٩٣ تظهر لنا المنازل والكنائس الطمبية وكذلك المباني الأخرى التي عثر عليها حيث ، والتي ليس لدينا عنها سوى القليل أو لا شيء . فقد تلاشت جميعها بفعل المياه عندما بنى خزان أسوان ، وقد اختفت معها معالم تاريخية وأثرية لها أهمية حيوية كبيرة لدارس تاريخ النوبة المتأخر في عصر « البليمز » و « النوباد » الذين أتوا ليعبدوا الآلهة « اريس » وليأخذوا تمثالها للزيارة السنوية إلى بلادهم في الجنوب . وما زالت المباني

الحجرية باقية على الجزيرة الا أنني اعتبر أن ضياع المعلومات انتهى لا بد انها كانت موجودة في المباني الطميية المتواضعة احدى المآسي الكبرى في السجل الطويل للبحث الأثرى . وعلى أية حال فان النكبة قد اقتصرت على « فيلة » والمناطق المتاخمة لها ، لأن منسوب المياه وراء خزان أسوان الأصلي من حسن الحظ لم يصل الى ارتفاع عال حتى أن الأماكن الهامة والقيمة الى بضعة أميال جنوباً ما زالت موجودة وسليمة .

ان النداءات والدعايات الهستيرية ضد تحطيم « لؤلؤة مصر » وجهت نظر الاثريين والمتخصصين في الدراسات المصرية القديمة الى اننوبة ، خاصة بعد نجاح مشروع الري الكبير وبعد أن بدأ المهندسون والعلماء يتحدثون عن ضرورة تعلية السد وتوسيع رقعة الخزان ، وهكذا كلما مرت الأشهر أصبحت آثار النوبة مهددة بصورة أكثر وضوحاً . ولهذا فقد زلر ماسيرو، مدير عام مصلحة الآثار ، النوبة حينئذ وكان هذا في شتاء سنة ١٩٠٤ - ١٩٠٥ وقام بالتفتيش بنفسه على الآثار التي وجدها في حالة اهمال شديد وعند عودته أمر « أرثور ويجال » الذي كان قد عين في ذلك الوقت كبير مفتشي الآثار في الوجه القبلي ، أمره بتفقد آثار النوبة وان يتوغل جنوباً حتى « أبي سمبل » . وعندما أعد « ويجال » تقريره المبدئي للمدير العام ، كانت قد تقرر تعلية خزان أسوان وبهذا فان منسوب مياه الخزان سوف يصل الى ١١٣ متراً فوق سطح البحر . وبذلك ستهدم مناطق أثرية قديمة كثيرة فيما بين الشلال الأول ووادي السبع . لذلك بعث « ويجال » ثانية الى النوبة سنة ١٩٠٦ ليعد تقريراً أكثر تفصيلاً وان يقدر تكاليف حفظ وصيانة المباني الموجودة وكذلك التنقيب في المناطق التي يمكن تحديدها من المشاهد السطحية وكان « ويجال » من أكثر الاثريين الشباب لعاناً خاصة وأنه تدرب على يد « بترى » ، والمسح الأثرى للنوبة الذي نشره سنة ١٩٠٧ تحت عنوان *A Report on the Antiquities of Lower Nubia* أكد حسن الظن به الذي كان في ذهن رؤسائه عنه ، ولقد سافر مع بعثته في ذهبية على النيل ، وجاب النوبة السفلى على قدميه بطولها ، وعن طريق المشاهدة السطحية فقط حدد أماكن هامة ومتعددة وفي حالات كثيرة قدر تلك الأماكن بالتقويم التاريخي للنوبة ولقد كان لكتاب ويجال بالنسبة لي أهمية كبيرة بعد ٢٢ سنة وذلك عندما أشرفت على المسح الأثرى الثاني ، بل ما زال بعد خمس وخمسين سنة من نشره من أهم المراجع لأية بعثة أثرية تعمل في النوبة السفلى .

وبعد أن قررت الحكومة المصرية نهائيا تعلية خزان أسوان نظمت وزارة الأشغال العمومية « المسح الأثرى الأول » للنوبة سنة ١٩٠٧ .
وقد كان فى هذا المشروع بعض النقاط الغريبة . أولا : كان الاسم يوحى بأن الغرض منه هو مسح وتوقيع أماكن المناطق القديمة لفحصها فى المستقبل بينما كانت مهمته الحقيقية هى الحفر والتسجيل بالتفصيل لكل قطعة أثرية ترجع الى الحضارة القديمة مما يعثر عليها فى الأراضى المهددة وراء السد . وهذا ما حدث فعلا ، وانى أذكر هذه الواقعة كمثال لعنوان خطأ لمشروع يمكن أن يضلل الناس ، لأنه عندما أعيدت مسألة انقاذ وحفظ آثار النوبة قبل بناء السد العالى ، وجدت أن أثريين كثيرين كانوا يجهلون ان المستويات السفلى على شاطئ النيل فى النوبة السفلى قد تم الكشف عنها تماما ، وان المسح الأثرى قد ذهب الى أبعد مما تدل عليه الكلمة . أما النقطة الثانية الغريبة فهى أن المشروع لم يسلم لمصلحة الآثار كما هو الحال بالنسبة للمسح الأثرى الثانى سنة ١٩٢٩ ولكنه بقى تماما تحت اشراف وزارة الأشغال العمومية من الناحية المالية وغير ذلك ، وهذا الترتيب الذى وضع غالبا لأسباب شخصية أو سياسية مازال يسبب مضايقات لرجال الآثار الحاليين الذين يريدون الحصول على التقارير المنشورة عن المسح الأول فلا يستطيعون الحصول عليها بطريق الشراء كما يحصلون على العديد من مقطوعات مصلحة الآثار ، فهذه الكتب ذات الغلاف الأخضر قد أصبح الوصول اليها صعبا . ومع أن التنقيب فى النوبة لم يكن تحت اشراف مصلحة الآثار الا أنها وجهت اليها بعثات منفصلة عن وزارة الأشغال لترميم وتسجيل الآثار الموجودة ، وعن هذا العمل الهام سأكتب فيما بعد .

ولقد وضع تنظيم المسح الأثرى فى أيدي « ليونز » المدير العام لمصلحة المساحة الذى عين الدكتور « جورج ريزنر » على رأس بعثة النوبة . ولقد قيل عن ريزنر الذى كان قد بلغ الأربعين حينئذ أنه « أعظم المنقبين والأثريين الذين أنجبتهم الولايات المتحدة فى أى حقول والحقيقة أن عمله فى النوبة يوضح أن هذا التقديم ليس من قبيل المبالغة » . ولقد حدد ريزنر الغرض من هذا المسح الأثرى كما يلى :

« أقيم المسح الأثرى فى النوبة السفلى أولا بغرض تأكيد قيمة المادة التاريخية المدفونة فى الأرض ومدى انتشارها ، وثانيا لوضع هذه المادة فى متناول اليد لبناء تاريخ النوبة وعلاقتها مع مصر . والموضوعات التى نأمل أن يلقى عليها الضوء هى : تتابع السلالات واختلاطها بعضها

ببعض وعدد السكان فى العصور المختلفة والأسس الاقتصادية التى عاش عليها هؤلاء الناس ونوع مفاصلهم وصناعاتهم ودرجة تلك الحضارة •

وقد كان الأسلوب الذى اتبعه «ريزنر» لتنظيم طريقة الحفر وتسجيل الحفائر فى النوبة من أجل تحقيق برنامج آية فى التصميم الدقيق وبصفة عامة - ما زال الأثريون يسترشدون به حتى يومنا هذا عند قيامهم بأى عمل علمى فى هذه المنطقة •

وكم كان «ريزنر» محظوظا لأنه فى هذا الوقت الذى كانت بلاد النوبة مجهولة تماما من الناحية العلمية استطاع أن يعثر على ثلاثة مساعدين نابهن هم : «سيسيل فرث» ، «وايلوارد بلاكمان» ، «أورك بيتس» •

وقد احتل هؤلاء الرجال فيما بعد مكانة مرموقة فى علم الآثار المصرية وكان «فيرث» انجليزيا يبلغ من العمر التاسعة والعشرين قد تدرب ليعمل فى المحاكم ولكن زيارة واحدة الى مصر كانت كافية لتجعل منه طالبا متحمسا لدراسة الآثار المصرية وحينئذ تلقى تدريبه الأول فى الحفائر على يد السير فليندرز بترى وكان اكتشافه للعمائر الجنائزية العجيبة المحيطة بهرم زوسر فى سقارة هو أعظم أعماله ، بعد سنوات عديدة من المسح الأثرى النوبى • أما «بلاكمان» وهو أيضا انجليزى فقد بدأت صلته بالمسح النوبى فى سن الرابعة والعشرين وكان هذا بعد عمل أكاديمى ممتاز فى أكسفورد وأصبح «بلاكمان» نفسه ثقة فى اللغة والديانة المصرية القديمة واعترف به كمدرس ذى شهرة عالمية عندما كان أستاذا لعلم الآثار فى جامعة ليفربول وقد أنهى حياته العلمية عضوا فى الأكاديمية البريطانية • واما «أورك بيتس» فكان أمريكيا فى الرابعة والعشرين من عمره عندما عمل مع ريزنر فى النوبة وأصبح فيما بعد أمينا للآثار الأفريقية فى متحف بيبودى فى هارفارد ومازال كتابه *The Eastern Libyans* من أهم المراجع فى هذا الموضوع والقريبة الصلة بدراسة الآثار المصرية • وكان من الطبيعى أن تدرك الحكومة المصرية أن الباحث فى النوبة لا بد له من أن يستعين بدراسة وتسجيلات علماء التشريح وهنا أيضا كانت الحكومة المصرية محظوظة فى اختيارها للرجال الذين نيط بهم مساعدة ريزنر فى هذا الجزء الحيوى من العمل • وكان بكلية الطب فى القاهرة حينئذ استرالى اسمه «جرافتن أليوت سميث» والذي كان أستاذا للتشريح وعالما معروفا فى المنح وفى تطور الإنسان وعضوا فى الجمعية الملكية أيضا • وافق «أليوت سميث» على أن يشرف على هذا الجزء من العمل

وعاونه فى ذلك أولا : الدكتور «رود جونز» والدكتور «دجلس درى» بعده ذلك . ومنذ ذلك الحين لم نجد أية بعثة أثرية كان لها مثل هذه القدرة على دراسة بقايا البشر التى يعثر عليها أثناء التنقيب فى الجبانات العديدة وقد خلف «اليوت سميث» كأستاذ للتشريح بجامعة القاهرة الدكتور «درى» الذى أصبح أكبر مرجع فى التحنيط بعد الفترة التى شغل فيها ذلك المنصب . وأهم ما اشتهر به فى حياته العلمية هو أنه قد عهد اليه فحص مومياء الملك «توت عنخ آمون» سنة ١٩٢٣ .

هؤلاء هم الرجال الذين وضعوا أسس علم آثار النوبة من ناحية الأسلوب والممارسة وقد حالفهم النجاح فى تفسير الحقائق التى جمعت خلال حفائر عامى ١٩٠٧ و ١٩٠٨ .

وقد كان هذا كله تحت الاشراف الكامل لجورج ريزنر . وعلى الرغم من أن بعض استنتاجاتهم قد عدلت بل استبعدت أحيانا إلا أن النتيجة الأساسية لأبحاثهم وخاصة تلك التى تناقش التقويم والسلالات النوبية لم تتغير حتى يومنا هذا .

ولا بد من أن الموسم الأول الذى استغرق أكثر من ستة شهور فى شتاء ١٩٠٧ كان أكثر صعوبة من المواسم التالية وهذا لأن تركيز المواقع القديمة والجبانات كان أكثر تجمعا فى المنطقة التى تقع جنوبى الشلال الأول والمتاخمة لفيله . وقد نقت باستفاضة أكثر من خمسين جبانة وبالرغم من أن هذه الجبانات تقع على ضفتى النهر وعلى الجزر المتناثرة فى الشلال فقد كان نقل مائة وتسعين عاملا من موقع الى آخر إحدى المعضلات التى لا يمكن أن يقابلها ويتغلب عليها إلا زجل له قدرة ومهارة «ريزنر» . بل وبعد مرور سنوات طويلة عندما كنت على وشك الرحيل للمسح الأثرى الثانى يصف كبير مساعدى «ريزنر» وهو «فرث» ، شهزى أكثوبر ونوفمبر من عام ١٩٠٧ بأنهما كانا أشبه بكابوس اذ تحتم نقل مخيم العمال كل بضعة أيام من مكان الى آخر وتغيير مكان الذهبيات التى كان يسكنها أعضاء البعثة الأثرية والبعثة التبشيرية يجرها من شاطئ الى آخر ومن جزيرة الى أخرى فى مواجهة التيار القوى : وعندما أتذكر بعض متاعبى ، وهى اذا قورنت بغيرها اعتبرت بسيطة ، فانى أتساءل أحيانا كيف

استطاعوا أن يتموا عملهم ؟ ان الجزء التالى من يوميات «ريزنر» يعطينا فكرة عن المجهودات غير المنتظمة للرحلة التنقيبية الأولى فى النوبة .

« يناير ٣٠ - ٣١ كل الفرقة فى الجبانة رقم ٢٥

« فبراير ١٣ خمس فرق مزدوجة من العمال على الشاطئ الشرقى - لتنظيف الجبانات ٢٠ و ٢١ و ٢٩ ست فرق مزدوجة على الشاطئ الغربى لتنظيف الجبانات ٢٧ و ٢٨ و ٣١ و ٣٢ و ٣٣

فبراير ٣ - مخيم الرجال ينقسم وينقل الى برين لفرقة الشاطئ الشرقى وخرطوم لفرقة الشاطئ الغربى .

فبراير ٤ - ٥ فرقة الضفة الشرقية تفحص كل المنحدرات بين « خور منات » و « برين » .

فبراير ٤ - ١١ فرقة الضفة الغربية فى جبانات ٣٤ و ٣٥ و ٣٦

فبراير ٦ نقل مخيمنا الى وادى قمر حيث سجلت جبانات ٣٠ و ٣٦

فبراير ٦ - ١٠ فرقة الضفة الشرقية فى جبانة ٣٠

فبراير ١٠ فرقة الضفة الشرقية انتقلت جنوبا الى سيالى فاحصين الأرض فى الطريق .

وانتهت أعمال الموسم الأول للمسح الاثرى حوالى ٢٩ مارس ١٩٠٨ ورجع أعضاء البعثة الى القاهرة لتحليل وترتيب نتائج بحوثهم واعدادها للنشر . فقد غطيت المنطقة كلها جنوبى قرية شلال حتى جينارى وعشر على جبانات ومواقع سكنية من كل عصور التاريخ النوبى حتى انه قد تم وضع قواعد وأسس ثابتة لكل بحوث المستقبل فى هذا الجزء من وادى النيل .

ومع بداية الموسم الثانى للتخطيط الاثرى فى أول أكتوبر ١٩٠٨ تغير بعض أعضاء البعثة . فلقد ارتبط الأستاذ « اليوت سميث » والدكتور « وود جونز » بمجال انثروبولوجى آخر الأمر الذى أرغمها على الاستقالة .

وبذلك أصبح الدكتور « دوجلاس ديري » هو المشرف على الأبحاث من ناحية التشريح . أما « ريزنر » نفسه فاضطر الى أن يقضى الجزء الأول من الموسم في القاهرة ولذلك كانت البعثة تحت اشراف « سيسل فرث » لمدة طويلة ومع ان الحفائر كشفت عددا كبيرا من الجبانات من كل عصر تقريبا الا أن العمل البارز كان الكشف عن القلعة المبنية من اللبن في «ايكور» والتي كانت أقصى نقطة وصل اليها المسح جنوبا عندما انتهت البعثة عملها في مارس ١٩٠٩ وقد كانت قلعة «ايكور» ذات شهرة كبيرة منذ زمن طويل ذلك لأن المسافرين لا بد من أن يرى جدرانها الضخمة فمنظرها الضخم الجبار كان يبدو كأنه يبرز من الأفق على الضفة الغربية شمالى الدكة . ومع ان علماء الآثار قد زاروا هذه القلعة عدة مرات الا أنها لم تفحص معماریا بأسهاب وقد كشف التنقيب عن وجود نوعين من الحصون المستطيلة الشكل اما النوع الداخلى والأقدم فيتكون من حفر ضيقة تخرج منها أبراج مستديرة تشبه تلك التى كشف عنها فى «كوبان» و «عنييه» و «بوهن» . أما حوائط الجزء الأحدث فكانت تتكون من جدران عالية مربعة تعلوها أبراج مربعة بنيت على واجهة المبنى غالبا كالتى عشر عليها فى بوهن . وكانت قلعة «ايكور» أولى الحصون التى فحصت بالتفصيل ولقطة المعلومات عن الحفائر التى أقيمت فيما بعد فقد توصل المنقبون الى النتائج غير الصحيحة القائلة بأن العمائر الأقدم بأبراجها المستديرة ترجع الى عصر المجموعة الأولى من تاريخ النوبة بينما تعتبر العمائر الجديدة من أعمال المصريين المنتصرين فى الاسرة ١٢ ولكن الحفائر التى أقيمت فى كوبان أثناء المسح الأثرى الثانى أظهرت أن الابنية كلها قد شيدت فى الغالب فى عهد الدولة الوسطى ، الأولى من عصر سنوسرت الأول والثانية من عصر سنوسرت الثالث .

أما فى الموسم الثالث للمسح الأثرى (١٩٠٩ - ١٩١٠) فكان «سيسل فرث» هو المسئول الوحيد عن العمل والنشر يعاونه مصرى واحد . لأن « ريزنر » تسلم البعثة التنقيبية فى فلسطين التابعة للقسم السامى فى جامعة هارفارد . وكان «اليوت سميت» قد ترك مصر ليتسلم كرسي التشريح فى مانشستر وخلفه دوجلاس ديري فى جامعة القاهرة ومع ذلك وجد ديري الوقت الكافى ليشرف على العمل التشريحى الآتى من النوبة . ولقد تركز الجزء الأهم من العمل أثناء الموسم الثالث للمسح الأثرى (١٩٠٩ - ١٩١٠)

حول منطقة « الدكة » (بسلكيس القديمة) التي كانت من أكثر المناطق سكنا في وادي النيل الأعلى طوال التاريخ . وكانت المقابر الكبيرة عبارة عن تكرر لما عثر عليه شمالا ولكن فحص المنطقة في الضفة الغربية للنهر شمال المعبد أظهر مادة مشوقة وهامة . فلقد عثر بجوار بقايا مبنى صغير من اللبن لا يبعد عن المعبد على أوان رومانية كثيرة منها عدد كبير من الأواني مغطاة بطبقة من الخزف الأزرق الجميل ويرجح ان هذه الأواني استعملت للنبذ وان المبنى كان يستعمله جنود الفرقة العسكرية المقيمة على مقربة منه أو الاحتمال الآخر فهو انها كانت منزلا للجمر ك توضيح فيه البضائع .

وحول المعبد عثر على أساسات لمبنى لم يكمل وبقايا سور خارجي للمعبد نفسه ولكن من الناحية المعمارية كان أهم اكتشاف هو المخيم المحصن للفرقة الرومانية التي كانت تحمي المعبد من ناحيتيه الجنوبيه والغربية . ولقد بينت الأدلة أن هذا الحصن كان يستعمل ما بين عامي ١٠٠ و ٢٥٠ م وعلى ذلك فانه قد بنى في الغالب كجزء من نظام الدفاع عن هذا المركز المهم ضد « المرويين » و « البليمرز » في تلك الأيام العسيرة قبل أن ترجع الحدود الى الشلال الأوء في عصر « ديو. كليسان » سنة ٢٩٧ م . حقا ان علامات النار على اللبن وعلى الغطاء القوي للباب الحشبي في البوابة الغربية تدل على أن الحصن قد اقتحم وسلب في أواخر أيامه .

أما الموسم الأخير للمسح الاثرى الأول (١١ - ١٩١٠) فقد تم في ظل متاعب كثيرة لأسباب متعددة منها مثلا أن الأعضاء أصبحوا لا يتجاوزون أكثر من اثنين هما «سيسيل فرث» ومساعد آخر مصري، فكيف استطاع «فرث» أن يعمل وحده دون مساعدة متخصص في التشريح وكيف نجح في انهاء عمله العظيم الشاق في حفر شاطئ النيل بين «الدكة» و «وادي السبوع» هذا ما يصعب علينا فهمه ومن ثم فلا عجب انه لم يستطع نشر نتائج عمله الا في عام ١٩٢٧ . وهو يعلق على ذلك في مقدمة كتابه فيذكر انه كان من المجتم عليه أن يغير أجزاء من الخطة الاصلية ولكن لا وجود للتغيير في التقارير المفصلة والاخيرة لهذا العمل الجبار في منطقة غمرتها المياه ما بين سنة ١٩٠٧ و ١٩١١ وهي التي تقع بين الشلال و «وادي السبوع». وبالرغم من العمل الشاق القيم الذي استمر طوال هذه المواسم الأربعة لم تظهر الحفائر عن اكتشاف باهر ومع ذلك فان تتابع التاريخ الحضارى النبوى أصبح ثابتا ومدعما بأدلة تقوم على التأثيرات المصرية في حضارة هذه المنطقة : وتتابع هذه العصور يمكن ذكرها كالآتي :

النسبة	مصر	ق م
عصر ما قبل الأسرات المبكر	عصر ما قبل الأسرات المبكر (التاريخ المتتابع ٣٠ - ٣٩)	٤٠٠٠ - ٣٦٠٠
عصر ما قبل الأسرات	عصر ما قبل الأسرات الأوسط (التاريخ المتتابع ٤٠ - ٥٢)	٣٦٠٠ - ٣٤٠٠
عصر ما قبل الأسرات المتأخر	عصر ما قبل الأسرات المتأخر (التاريخ المتتابع ٥٣ - ٧٩)	٣٤٠٠ - ٣٢٠٠
المجموعة الأولى	العصر التاريخي المبكر من الأسرات الأولى إلى الثالثة	٣٢٠٠ - ٢٦٨٠
المجموعة الثانية	الدولة القديمة من الأسرات الرابعة إلى السادسة	٢٦٨٠ - ٢٢٥٨
	عصر الاضمحلال الأول من الأسرات السابعة إلى الحادية عشرة	٢٢٥٨ - ٢٠٥٢
المجموعة الثالثة	الدولة الوسطى من الأسرات الحادية عشرة إلى الثانية عشرة عصر الاضمحلال الثاني من الأسرات الثالثة عشرة إلى السابعة عشرة	٢٠٥٢ - ١٧٨٦ ١٧٨٦ - ١٦٠٠
المجموعة الرابعة	الدولة الحديثة من الأسرات الثامنة عشرة إلى العشرين	١٦٠٠ - ١٠٨٥
عصر نباتا	العصر المتأخر من الأسرات العشرين إلى الثلاثين	١٠٨٥ - ٣٣٢
مرويتي - بطلمي	بطلمي - الأسرة بطلمية	٣٣٢ - ٣٠
مرويتي (س)		٣٠ - ٣٢٤
المجموعة الرومانية	روماني - اقليم روماني	٣٢٤ - ٥٦٥
العصر البيزنطي (س)	العصر البيزنطي	٥٦٥ - ٣٢٤٠

وبينما كان العمل فى حفائر المسح الأثرى الاول يسير قدما تحت «شراف مصلحة المساحة كانت مصلحة الآثار أيضا تعمل بهمة فى المناطق النوبية المهددة والى الجنوب من هذه المناطق أيضا وبعد فحص عام للآثار الموجودة نظم السير «جاستون ماسبيرو» المدير العام مجموعة من الأثرين مكونة من الفرنسى «هنرى جوتيه» والالمانى «جوتتر رودر» والانجليزى «ايلوارد» «بلاكمان» لتخطيط ونقل النقوش التى على المعابد ولقد نشرت هذه النقوش فيما بعد فى مجموعة من الكتب الرائعة المتعددة الاجزاء تحت اسم عام هو Les Temples immergés de la Nubie أما «بلاكمان» الذى كان قد ترك عمله فى المسح الأثرى بعد موسمه الاول سنة ١٩٠٩ فانه قد عمل فى معابد «دندور» و «الدر» و «بيجة» . وأنهى عمله الذى كان يمارسه فى جو شديد الحرارة بعد وقت قصير لا يتجاوز خمسة أشهر وذلك فى مايو سنة ١٩١٠ ونشر النتائج فى ثلاثة أجزاء :

The Temple of Dendur (1911)

The Temple of Derr (1913)

The Temple of Bigeh (1915)

أما « جوتيه » فنشر تسجيلاته لمعبد « كلابشه » بين سنة ١٩١١ و ١٩١٤ ومعبد « وادى السبع » سنة ١٩١٢ ومعبد « عمدا » سنة ١٩١٣ أما معابد « دبود » و « دكة » فنشرا ما بين عامى سنة ١٩١١ و ١٩١٣ .

ان علم الآثار يدين بالكثير لهؤلاء العلماء الذين أتموا عملهم دون أن تكون هناك أية تسهيلات أو معدات كتلك التى نجدها تحت تصرفنا الآن . واذا كان البعض يرى من الواجب إعادة تسجيل وإعادة فحص بعض هذه الآثار فان هذا القرار قد جاء من أجل تحسين وتسجيل النصوص الصعبة فحسب بوساطة المعرفة أو التكنولوجيا الحديثة التى لم يكن من المستطاع من قبل أن يستعان بها وهذا قبل أن تزول هذه الآثار تماما .

الفصل الثاني

المسح الأثرى الثانى

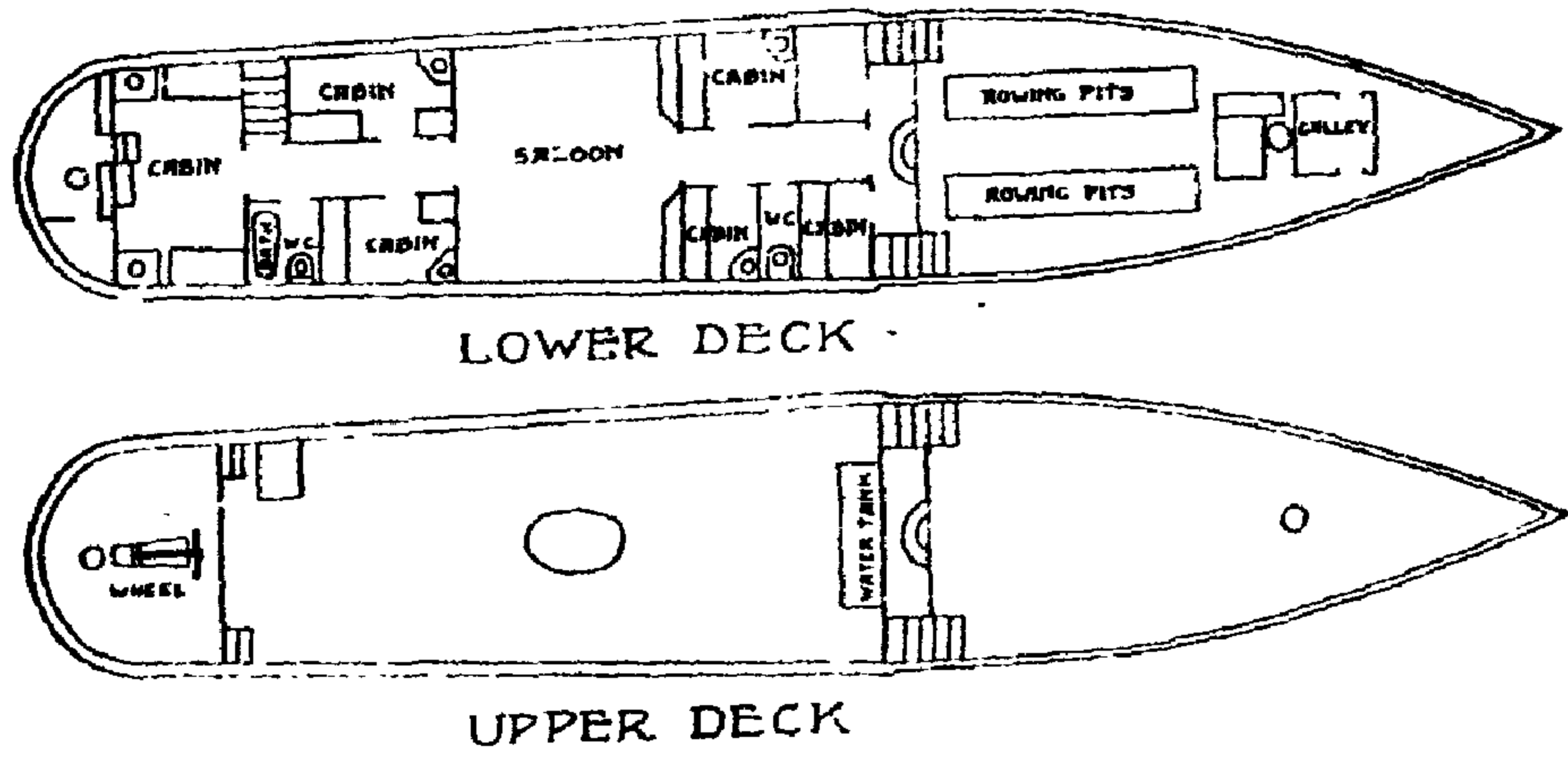
تمنى علماء الآثار أن تمتد الحفائر الى منطقة الشلال الثانى بعد نجاحهم فى تجربتهم الأولى وقيامهم بحفائر منظمة فى تلك المنطقة الواسعة وذلك على الرغم من أن المنسوب الجديد للمياه خلف خزان أسوان لم يصل الى أبعد من «وادي السبع» ولكن حكومة القاهرة فى ذلك الوقت كانت قد رفضت اعطاء أى قروض مالية أخرى لأن المنطقة الواقعة جنوبى «وادي السبع» كانت فى مأمن من مياه النيل المغامرة . كما ألغيت طلبات الحفائر الأثرية بانتهاء العمل فى خزان أسوان وتم بذلك مسح تلك الاراضى فى مارس عام ١٩١١ ولقد أظهر المسح قيمة تلك الآثار كما استرعى انتباه المحامد الاثرية وخاصة الأجنبية منها الى القيمة التاريخية لهذه المنطقة من وادي النيل . وكانت النتيجة أن قامت حفائر أخرى مستقلة عن الحكومة فى مناطق متفرقة .

وفى نهاية المسح ، لم يتجه نظر الاثريين نحو النوبة فقط وانما تنبه تجار الآثار فى الأقصر الى وجود مصادر لمواد قيمة لأسواقهم التى كانت مشغولة حينئذ بسد مطالب المتاحف المتكاثرة وطلبات جامعى المتحف والسائحين فعلا أرسلت مجموعات من المنقبين غير الشرعيين الى الجنبوب

حيث استطاعوا تجميع ما أرادوا دون خوف من تدخل مفتش الآثار ومن الصعب حراسة الأماكن الأثرية الموجودة في مناطق شاسعة غير آهلة بالسكان حراسة دقيقة . ولقد تم القبض على كثير من التجار إلا أن معظمهم استطاعوا الهرب من القانون وعادوا إلى الأقصر محملين بتحف ثمينة تعد مفقودة من الناحية التاريخية نظرا لعدم تسجيلها ولعل في ذلك درسا يجب كل مشغل في حقل الآثار أن يعيه . فالمنقب يجب أن يتم عمله ، وألا يترك شيئا دون تسجيل ، ذلك أنه يلتفت باكتشافه أنظار التجار . ويعطى الفرصة إذا ما ترك منطقة مكتشفة دون أن يتم عمله فيها ، للكثير من اللصوص الذين يتحينون دائما تلك الفرص لنهب الآثار .

واننى لا أود أن أقول هنا بأن كل المنطقة التي تركها المسح الأول دون اكتشاف قد وقعت تحت سطوة هؤلاء اللصوص ولكن لا شك في أن بعضها قد نهب وهى التى كانت أكثر جاذبية من غيرها . إن العلم الذى ضاع لم يكن معروفا وربما كان ذى أهمية ومن ناحية أخرى فإن الأدلة الحيوية المرتبطة بمظاهر غير معروفة فى التاريخ النوبى قد ضاعت ولن نعثر عليها ثانية .

ونتيجة لقرار الحكومة المصرية سنة ١٩٢٩ بتعليق خزان أسوان وما يترتب عليه من اغراق بقية منطقة النوبة حتى الحدود السودانية وجه تداء إلى مصلحة الآثار لتنظم مسحا أثريا ثانيا . وكنت حينئذ أدير بعثة « موند » للحفائر التابعة لجامعة ليفربول فى الأقصر وارمنت حيث عثرنا على مقابر الثيران المقدسة والتي كانت على شكل سراديب تشبه السرايوم المشهور فى سقارة وكان هذا الاكتشاف أكبر مما تتحمله بعثتنا ماديا ومن ثم أخذت « الجمعية المصرية للتنقيب » الحفائر وعينتنى مستشارا للعالم الراحل الدكتور فرانكفورت الذى كان مديرا لهم فى حقل التنقيب وفى عام ١٩٢٩ اعتزل فرانكفورت العمل وطلبت منى الجمعية المصرية للتنقيب أن أعمل مكانه . وكان من الطبيعى أن يجتذب هذا المكان اهتمامى بوصفى المكتشف الأول للسرداب Bucheum وكنت مهتما بالموقع وكنت أتشوق لإكمال هذا العمل . ولكن قبل أن يبت فى أى قرار بهذا الشأن عينتنى مصلحة الآثار فى منصب مدير المسح الأثرى فى النوبة . وبعد فترة تردد قصيرة وبشئ من الخوف ، ودعت « ارمنت » وتأهبت للنوبة المجهولة ، ذلك الجزء من وادى النيل الذى لم أكن أعرفه إلا من خلال الكتب فحسب . وكانت هذه هى الحالة نفسها بالنسبة لبقية أعضاء البعثة المرافقين لى ومعظم المائة والخمسين من العمال المصريين الذى رافقونا . وكان من حسن حظى أن « سيسل فرث » ، الذى أشرف



الشكل ٥

الدهبية « زينة النيل »

طولها ١١٢ قدم وعرضها ١٩ قدم

الطابق السفلى

الطابق العلوى

على أكبر جزء من المسح الأول كان معى ينصحنى ويكاد يكون أبا للبعثة كلها وكان «فرت» مشغولا جدا فى حفرياته المهمة فى سقارة حينئذ ومع ذلك فثم يمانع فى قطع عمله ليسهر على نداء القلب الذى كثيرا ما كنا نوجهه اليه خاصة فى اول ايام تنقيباتنا .

وكم كنت أيضا سعيد الحظ مع أفراد البعثة الذين كانوا قليلي الخبرة مثلى ومع ذلك نظموا أنفسهم واعتادوا الحياة فى النوبة . كما عني «كروان» (١) مساعدا للمدير . وقام على مساعدتي بمهارة وقدرة كل من : نجيب بكرم الله ، عبد الباقي ، وعبد المنعم الحاصلين على درجة الدبلوم من جامعة القاهرة وبعد ثلاث سنوات اضطر مكرم الله أن يتركنا ليأخذ أعباء أخرى فى مصلحة الآثار وخلفه زكى يوسف سعد الذى حضر معنا الاكتشافات العظيمة فى بلانه وقسطل أما بقية الأعضاء فهم الدكتور أحمد البطراوى للتشريح ومحمد حسنى مهندس مساحة ومحمد حسنين كاتب أعمال . وهناك عضو مهم جدا ولكنه عضو غير رسمى انه زوجتى التى تولت الاشراف العام على ادارة الإمدادات التموينية وكانت هذه المهمة تعتبر منذ ثلاثين سنة مضت وظيفة صعبة فى النوبة اذ كان محصول النوبة السفلى حينئذ أقل من يومنا هذا وحتى اليوم لا تكفى منتجاتها لسد حاجة سكانها من الطعام . على أية حال فقد عوضتنا الراحة التى وجدناها فى أماكن السكن عن أنواع الغذاء الرديئة المتكررة المملة وقد اضطرتنا الظروف لأن نجعل اقامتنا فى دهيبتين كبيرتين كما كان الامر فى المسح الأول نظرا لأن كل المناطق التى كنا سنقوم بالكشف عنها فيما بين «وادي السبوع» والحدود السودانية كانت تقع على النهر وكان لا بد لنا من سرعة التحرك ، فاستأجرنا هاتين الدهيبتين لوازمهما من شركة «توماس كوك» . وقد هيات السفينتان زينة النيل والتميز ، سبل الراحة الوفيرة لكل الموظفين علاوة على وجود المكان الكافى بها لاستيعاب حجرة للرسم وأخرى مظلمة للتصوير وتسهيلات لتنظيف وتخزين الآثار . وهذا وصف مكتوب عندنا لزينة النيل التى كنا نعيش فوقها وهو يعطينا فكرة عن الراحة التى توفرها مثل هذه السفن للمنقب عن الآثار . (شكل ٥)

« قاعها الحديدى مسطح وضحل ، يبلغ طوله ١١٢ قدما ، وعرضه ٦٩ قدما ، والصارى الرئيسى مقام بجانب مقدمة السفينة . ويبلغ طول الشراع الرئيسى ١٣٠ قدما ، والشراع المساعد ٦٠ قدما ، وهما من الطراز المثلث الشكل . ويمكن دفع السفينة فى الجو الهادى بواسطة مجاديف كبيرة

(١) وهو الآن مدير الجمعية الجغرافية الملكية .

طولاً ٣٠ قدماً ، وتحرك من فتحات التجديف فى مؤخرة السفينة ، وعلى جانبها مخازن يستعملها طاقم السفينة الذى لا يزيد على ١٤ رجلاً . أما حجرات الركاب فتشغل الجزء المتبقى من السفينة ويتكون من صالة وقمرة كبيرة لشخصين وأربعة قمرات كل منها لشخص واحد ودورتين للمياه وحمام وحجرة للخدم ومكان لحفظ المأكولات وعلى جانبى المدخل المؤدى الى قمرات الركاب نجد سلمين يوصلان الى الدور العلوى ويوجد مطبخ أمام مقدمة المركب بعيداً عن منطقة السكن . وبكل قمرة مياه جارية تضخ من النهر وتمر على نظام ترشيح محكم ثم تخزن فى خزانات فى الدور العلوى .

وهكذا أقلعنا فى أوائل شهر أكتوبر ١٩٢٩ فى هذه السفن المريحة بقصد عملية المسح الأثرى الثانى متجهين نحو وادى السبوع ، أى عند حدود المسح الأول الذى انتهى منه «فرث» عام ١٩١١ وإلى جانب الذهبيتين اصطحبنا عدداً من المراكب الصغيرة من بينها زورق بخارى خصص لاستعمال المساح ومساعديه وصندل وبعض المراكب الشراعية التى كانت تحمل الحيام وبأمتعة العمال الذين يتبعوننا على سفينة بخارية نهريّة كانت توصلهم الى نقطة بداية العمل .

وكان هؤلاء الرجال البارعون فى الحفائر كلهم من المصريين اذ لا يوجد عمال محليون فى النوبة السفلى ولقد كان علينا نقل خبزهم أيضاً فهو أهم جزء فى غذائهم وإن المرء ليعجب حقاً لكمية الخبز التى يأكلها مائة وخمسون رجلاً فى ستة شهور وقد قامت زوجات العمال فى مصر بصنع هذا الخبز . وبعد أن يجفف حتى يصبح صلباً كالحجر يوضع فى أكياس ويعد للسفر وعند احتياج المستهلك له يغمسه فى الماء فيصبح صالحاً للأكل .

وأخيراً وبعد أخطاء كثيرة وما يمكن أن نعهده من قبل المعجزات وصلنا الى «وادى السبوع» وأصبحنا مستعدين لبدء العمل ووضعنا الخطط لثلاثة مواسم عمل مختلفة لأشهر الشتاء الستة لسنوات ١٩٢٩ و ١٩٣٠ و ١٩٣١ آخذين فى الاعتبار إمكان التنقيب عن كل ما تبقى من النوبة السفلى متجهين جنوباً حتى حدود السودان عند ادندان . وهذا النوع من العمل لا يمكن أن يتم أثناء الصيف بسبب شدة الحرارة التى تصل أحياناً الى (١٢٠) درجة فهرنهايت . وعلى أية حال كان علينا قضاء جزء كبير من الصيف فى المتحف فى القاهرة حتى نستطيع تنظيف وفحص القطع الأثرية التى تم الكشف عنها نسم أعداد اللازم لنشرها وقد منحتنا الحكومة المصرية ثلاثة وثلاثين ألف جنيه فلصرف على هذه الأعمال التى كانت ستستغرق ثلاث سنوات بما فى ذلك

بيانات عما عثر عليه داخل المقبرة الجبانة ٣٥٠ (١ نوفمبر ١٩٦٠)

الجزء الحجري المستدير الذى يعلو سطح الأرض :	١د١	٧ - فوطان من القواقع
	١د٢	٨ - أسودوان من الملاج

الحشو رمل ودبش

المقبرة : لم تنهب - الحشو رمال نظيفة - لا أثر للسقف
الدفنة : انشئ بالغة - بقايا نقيّة جلدية . وسادة من التبن لعت الرأس

الاشياء الموجودة خارج المقبرة :

- ١ - فخار أحمر اشعث ذو زخارف ١د٥
- ٢ - فخار أسود ذو زخارف محفورة ١د١
- ٣ - فخار أحمر ذو لوحة سوداء ١د١
- ٤ - فخار أحمر ذو لوحة سوداء ١د١
- ٥ - أوان كبيرة صفراء ١د٣
- ٦ - قلادة من حبات فشانى زرقاء من نوع ٧٨ ١د١

تكاليف النشر • ويبدو هذا مبلغا تافها اذا قارناه بما نصرفه فى الحملة المالية للتنقيب فى النوبة • الا أن أسعار الحاجيات كانت تختلف تماما فى ذلك الوقت عما هى عليه الآن ، ومع أنه قد قابلتنا بعض الازمات المالية ، الا أن المبلغ كان كافيا فى نهاية الامر •

ولنرجع الى عملنا الذى بدأناه فى جبانة كبيرة ترجع مقابرها الى عصر الدولة الحديثة والعصر المروى وقد أعطتنا نتائج البحث والتنقيب شجاعة كنا فى أشد الحاجة اليها فى ذلك الوقت • اذ كان المسح فى النوبة مختلفا جدا عن تجاربى الماضية فى مصر ، حيث لا يشعر المرء فى ذلك الموقع بقلق من ناحية الوقت • أما هنا فقد كان المسح يقتضى أن أحدد بسرعة الجزء الذى يجب ازالته والحصول على أكبر قيمة علمية فنية والوقت اللازم لازالة عدد بعينه من مقابر كل عصر ، ثم ارسال مجموعة المنقبين الى الموقع التالى ثم تحديد الوقت اللازم لعمليات التصوير والمسح وتنظيم التحاق المجموعة الاخرى بنا فى المنطقة التالية • • وهكذا فبالنسبة للمبتدئ قد يصبح العمل فى النوبة كابوسا ثقيلًا اذ يقع الانسان تحت تهديد دائم بأن الذى يفقده الآن لن يسترده أبدا وينتابه الاحساس بأن الوقت لن يعطيه الفرصة للاطمئنان على عمله •

ومن حسن الحظ أن « سيسل فرث » قد أعطانا قبل أن نترك القاهرة بعض أوراق مكتوبة عن موضوع سماه The Nubian Body Snatcher's Vade Mecum وقد احتوت هذه الأوراق على تقرير مفصل عن طريق ريزنر فى التسجيل أثناء المسح النوبى الأول • وبطبيعة الحال فقد اتبعنا الأسلوب نفسه ووجدت بعد تجربة طويلة أن بعض التغيير والاضافة ضرورى اذ أن هذا هو الطريق العمل الوحيد لحفر جبانات عندما تكون البعثة دائمة التنقل وحتى لا يضيع الوقت عبثا •

وتزودت ، بناء على طلب اليونسكو ، بصورة من هذه الطريقة ، والتغيرات التى اعتبرتها أكثر صلاحية فيما بين سنة ١٩٢٩ وسنة ١٩٣٤ ، وربما كان من المهم لبعض قرائى أن أستعرض معهم هذه الطريقة هنا ، فقد اخترت جبانة من المجموعة الثالثة الوسطى حتى أستطيع عرض هذا الوصف فى شكل مبسط • ويمكن تطبيق هذه الطريقة نفسها ، مع التغييرات اللازمة على جبانات من عصور مختلفة فى النوبة •

التسجيل فى موقع العمل (الشكل ٦)

١ - عندما يكشف عن موقع الجبانة تنظف المنطقة حتى المستوى الأصلي للأرض ويكشف بذلك عن جزء المقبرة الذى يعلو سطح الأرض ان وجد أو الجزء العلوى لبئر المقبرة وأثناء هذه العملية تؤخذ مذكرة عن الطبقات الأرضية والتي يتدر وجودها فى الصحراء النوبية وعن مكان الاوانى الفخارية خارج الجزء الذى يعلو سطح الأرض (وهى ظاهرة عامة فى عصر المجموعة الثالثة) .

٢ - يعطى رقما لكل مقبرة أو الجزء العلوى لها ويكتب باللون الأسود على قطعة حجرية مسطحة .

٣ - تؤخذ صورة عامة للجبانة قبل أن يجرى الكشف .

٤ - يصور كل جزء يعلو سطح المقبرة مبينا فى الصورة بمقياس الرسم والرقم بوضوح .

٥ - يرسم المسجل حينئذ مسقطا أفقيا وقطاعا للمقبرة على بطاقته طبقا لمقياس الرسم ١ : ٢٥

٦ - يقوم المسجل برسم كل آنية فخارية على بطاقة المقبرة طبقا لمقياس الرسم ١ : ٥ ملاحظا النقاط الآتية :

(أ) نوع الفخار ، والشقة والرسم السطحي أو الفائر .

(ب) مكان القرابين بالنسبة للجزء الذى يعلو المقبرة .

٧ - يسجل فوق أوانى القرابين بالشيناجراف ما يلى :

٣٥٠ (رقم الجبانة) و ٥ (رقم المقبرة) و ١ (رقم الكتالوج) =

١ - ٥ / ٣٥٠

٨ - تنقل الأوانى الفخارية .

٩ - بعد تسجيل كل ما على السطح يزيل العمال الجزء العلوى كاشفين عن فوهة بئر المقبرة وتوضع انقطة الحجرية التى تسجل رقم عند قمة الركن الأيمن للبئر .

١٠ - تصور الجبانة بعد ازالة الجزء السطحي الذى يعلو المقبرة .

١١ - ينظف العمال المهرة المقبرة تحت الاشراف المباشر للمسجلين الذين يذكرون على بطاقة المقبرة بعض الملاحظات مثل نوع الحشو .

١٢ - تصور المقبرة أمامها عصى المقياس والرقم بوضوح بعد تنظيفها والكشف عما فى داخلها .

١٣ - يرسم المسجل مسبقا أفقيا للمقبرة وما تجتويه بمقياس ٢/٥.
موضحا النسبة بينها وبين الجزء الذي يعلو سطح الأرض المرسوم على بطاقة المقبرة .

١٤ - ينقل المسجل القطع واحدة واحدة دون أن يحرك الهيكل العظمى وكلما نقل قطعة رقمها (بالشينا جراف) وسجل هذا الرقم على بطاقة المقبرة موضحا مكان القطعة من المقبرة .

١٥ - يرسم المسجل كل قطعة تنقل بالمقياس على بطاقة المقبرة الفخار ٥ : ١ خرز أو قطع أصغر حجما ٢ : ١ أو ١ : ١ .

١٦ - يفحص الهيكل العظمى بعد نقل كل الأشياء وتسجل على البطاقة الملاحظات العامة مثل الجنس أو السن الخ - تنقل المجموعة لتقاس وإذا أظهرت المجموعة أو أي جزء آخر من الهيكل أي ظاهرة تشريحية هامة تحفظ هذه القطعة وإذا كان العكس فيترك .

ملحوظة : لا تسجل معلومات التفاصيل التشريحية على بطاقة المقبرة ولكن يسجل فقط الجنس والسن وملاحظات عامة .

١٧ - يغربل الرمل بعد نقل الهيكل وكل ما تبقى فيه .

١٨ - يؤخذ توجيه المقبرة بالبرجل ويعلم المسقط الأفقى على بطاقة المقبرة بسهم كبير مرسوم داخله .

١٩ - عندما سجلت كل المقابر ، كان مهندس المساحة يقوم بأعداد خريطة يوضح عليها مكان كل قطعة حجرية - عند الركن الأيمن من المقبرة - ورقمها .

٢٠ - بعد انتهاء هذا العمل يقوم المهندس برسم خريطة على ورق شفاف أو تيل (مقاس ٢٥ : ١) مكونة من عدة نقاط مرقمة . ثم عند وضع كل بطاقة مقبرة منفردة تحت رقمها يمكن تحريك البطاقة في اتجاهها الصحيح ورسم المسقط فوق الخريطة . ولا يظهر على هذه الخريطة العامة للجبانة الا مسقط أفقى للمقبرة والهيكل .

التسجيل فى المعسكر

١ - التسجيلات الأربعة الضرورية التى يجب أن تكون يوميا هي :

١ - اليوميات التى يكتبها المدير فى نهاية كل يوم بعد الانتهاء من العمل وعلى كل عضو من أعضاء البعثة أن يعطى المدير بطاقات المقاسير وملاحظات العمل فى حقل الحفر التى دونها خلال اليوم ويجمع المدير المادة ويكون منها تقريراً قصيراً عن تقدم العمل وملاحظاته ونتائجه .

٢ - تسجيل الفخار فى نسختين وتصنيف كل آنية حسب نوعها . وهناك قائمة تسلسل موجودة منذ المسح الأول ١٩٢٩ - ١٩٣٤ ، ومن واجب عالم الآثار المختص بهذا القسم أن يجعل هذا التسلسل متكاملًا بأن يضيف إليه أى نوع جديد يظهر ويرسم فخار قائمة التسلسل بمقياس ٥ : ١

٣ - تسجيل القطع (من نسختين) ويتضمن معه تسلسل لأنواع الخرز معتمداً على ما هو موجود فى قائمة تسلسل المسح الأثرى فى الأعوام ١٩٢٩ حتى ١٩٣٤ .

٤ - تسجيل الصور وتلصق المناسب منها (بعد طبعها) على ظهر بطاقة المقبرة .

وتحركات بعثتنا نحو الجنوب ببطء متبعة هذا النظام فى التسجيل ومنقبة عن المواقع القديمة التى وجدناها على ضفتى النهر والتى كانت تحت مستوى مياه الخزان الجديد . وكان الوقت ثميناً جداً الى درجة أننا اضطررنا أن نتبع التعليمات الدقيقة - التى تقتضى منا أن نترك كل المواقع الأثرية العالية التى لا تهددها مياه الفيضان دون أن نقرب منها . ومن حسن الحظ ان معظم الآثار الباقية كانت موجودة فى المناطق المهددة قريبة من حافة النهر فاستطعنا ان نكتشفها وضمايرنا مستريحة . ولكن كانت هناك مناطق أخرى أحسبنا أننا مضطرون لفحصها . لكننى أعترف أنها لم تكن فى جدولنا ، وان بعضها لم يكن هناك ما يبرر العمل فيه فتركناه بعد فحص عام ، وحدث مثل ذلك فى جبانة ابريم الكبيرة ، وهى مأساة سأكتب عنها فيما بعد .

ولقد عثرنا على جبانات ومساكن من كل عصر نوبي تقريبا تتراوح في التاريخ بين ٣٥٠٠ ق م حتى ٥٠٠ م مع أن هذه الجبانات انتجت أشياء كثيرة للمتاحف إلا أنها لم تزودنا إلا بالقليل في معلوماتنا وكانت تكرارا للنتائج التي أحرزها «ريزنر» و«فرث» في الشمال . ولقد شجعنا اعتبارنا بأن جزءا كبيرا من موسمنا الثاني سيكون مركزا في منطقة عنيفة، موقع «ميعام» القديمة التي كانت عاصمة النوبة أثناء الدولة الحديثة فهنا كان مركز نائب الملك المصري وعرفنا ان بها بقايا حصن المدينة الكبير وعلى أية حال خاب أملنا قبل أن نصل الى حدود هذه المنطقة المهمة ، اذ تلقيت تعليمات من القاهرة بأن نترك كل المنطقة لأنها محجوزة لمعهد الآثار الألماني الذي يريد اتمام عمل «ارنست سيجلن» الذي كان قد أعطى هذا الامتياز في عامي ١٩١٢ - ١٩١٤ شعرنا حينئذ بخيبة أمل شديدة ولكن عند استرجاعي لما مضى لاحظ ان القرار كان عاقلا لأن زملاءنا الألمان زودوا بأدوات وخاصة بالوقت الذي لم يكن تحت تصرفنا لأن العمل في مثل هذا الموقع يتطلب تركيزا لبعثة ثابتة وعلاوة على هذا كله وضع هذا العمل تحت ادارة الدكتور «جورج شتيندورف» أحد المجريين الأوائل في الحقل النوبي وأحد الأثرين الكبار العظام في جيلنا وعوضنا من خيبة الأمل التي كانت قد أصابتنا أن «فيرث» طلب مني أن أبدأ موسمنا الثاني في خريف سنة ١٩٣٠ بالحفر في قلعة «كوبان» التي تركت أثناء المسح الأثرى الأول لأنها كانت فوق مستوى المياه حينئذ . أما الآن فستغمرها المياه وجدرانها الكبيرة المشيدة من اللبن ستزول في أسابيع قليلة ومضينا حوالي شهرين في الكشف عن البناء العظيم الذي عرف قديما باسم «باكت» والتي كونت وحده واحدة مع قلعة «ايكور» على الضفة المقابلة للنيل والتي حفرها «فرث» سنة ١٩١٠ .

وانتجت أعمال التنقيب الكاملة لكوبان الكشف عن قلعة أقدم تحت أساسات البناء الأساسي للتصميم نفسه الذي عثر عليه «فيرث» في «ايكور» والتي أعتقد أنها ترجع الى الدولة القديمة ، وعلى أية حال فإن الدلائل التي كشفت عنها الحفائر أظهرت ان هذا البناء القديم لم يكن أقدم من بداية التعمير المصري في الأسرة ١٢ تحت حكم سنوسرت الاول وان القلعة الحديثة نسبيا كانت في الغالب قد بنيت عدة سنوات بعد هذا العصر ، عندما امتدت القوة المصرية الى الجنوب تحت حكم سنوسرت الثالث .

ومن أهم ما تميزت به قلعة كوبان حالة الحفظ التي بقيت عليها مباني ثكنات الجيش وسورها الخارجي المحيط للجدران الدفاعية التي كانت

لا تزال قائمة على ارتفاع ٨ م وتحت تلال كبيرة من الطين وجدنا عددا كبيرا من المباني الداخلية بسقفها الطمي المقيبى فى حالة سليمة كما أن بعضها ما زال الدور العلوى فيها سليما . ان صعود الدرج والوقوف على الارضية العلوية لمبنى شيد منذ أكثر من ٣٨٠٠ سنة كانت تجربة لاتنسى ومن الغريب انها تجربة تختلف عن الدخول فى مقبرة مغلقة منذ أقدم العصور انها أقرب الى دخول منزل هجر حديثا ، وخاصة إذا وقف الانسان أمام مدفأة لا تزال تحوى بقايا فحم وخشب يحترق .

وانى أعتقد أن كوبان كنت ، قطعا ، ألمع الاكتشافات للموسمين الأولين للمسح . وتركنا المنطقة بحسرة فى ٢٨ ديسمبر ١٩٣٠ لنكمل ماكان يبدو سلسلة غير منتهية من الجبانات المسروقة الواقعة جنوبى غنبيه حتى وصلنا الى أبى سمبل فى ١٤ مارس سنة ١٩٣١ وهنا توقفنا ونحن نتأهب لموسم عمل آخر وبذلك تكون قد أكملنا شروعا بالكشف والتنقيب عن بقية المناطق شمالى « ادندان » . ولم نتصور حينئذ اننا سنمضى ثلاث سنوات أخرى فى النوبة نكشف خلالها عن مقابر ملوك عصر المجموعة س التى عثرنا عليها فى بداية موسمنا التالى فى « بلانة » و « قسطل » .

والى جانب المسح الأثرى بعثت مصلحة الآثار الأستاذ الايطالى «مونوريه فيلار» لدراسة وتسجيل الآثار المسيحية فى النوبة فلقد كان حجة معترفا بها وله شهرة عالمية فى الآثار المسيحية ومن الغريب أنه لم يعط «التسهيلات اللازمة للتنقيب واضطر الى أن يكتفى بالمساقط والتسجيل العام للكنائس وغير ذلك من مواقع كما عثر عليها مدفونة جزئيا . ومع ذلك فلقد تمكن من نشر سجل رائع لهذه البقايا يجب علينا أن نعتبرها أهم عمل وصل اليها حتى الآن عن العصر المسيحى فى النوبة ولكن لعدم وجود حفائر منظمة كان تسجيل مونوريه دأ فيلار غير كامل ولا يزال الأمر يتطلب فحصا مستفيضا اذ أن هذه الآثار ترجع الى عصر عن أهم العصور فى تاريخ النوبة .

الفصل الثالث

بلانة وقسطل

من الصعب عمادة أن نعود بالذاكرة الى الورا ثلاثين عاما
لنسترجع مشاعرنا ونتذكر التجارب المثيرة التي مضت ، ولكن لما كانت
ظروف غير متوقعة أرجعتني الى النوبة ، فأننى لا أجد صعوبة فى احياء
هذه الأيام الجميلة المثيرة التى عثرنا فيها على مقابر ملوك عصر المجموعة
(س) فى بلانة وقسطل ولدى علماء الآثار نوع من التعالى المقنع الذى
يجعلهم يقللون من شأن البهجة أو الفرحة التى يتصور غير المتخصص فى
الآثار ، أنها لا بد من أن تظهر عند مايكتشفون قطعا أثرية من الذهب أو
الفضة أو من الأحجار الكريمة . حقا اننا كثيرا ما نجد اهتماما
أكبر باكتشاف حقائق جديدة عن أشياء متواضعة مثل الفخار أو بقايا
المدن فهذه الاشياء تعرف تاريخ أمة ماتت منذ زمن وطواها النسيان
ولكن عندما يعثر عالم الآثار ، كما عثرنا فى بلانة وقسطل ، على
كنز عظيم الى جانب مواد أخرى كشفت القناع عن حضارة وعادات دينية
لقوم غير معروفين ، فما يهز الشاعر هنا حقيقى والتجربة لا تشى بعد
ذلك .

ولقد جاء الاكتشاف تعويضا عن نتائج الموسم الماضيين ، في المنطقة ما بين « وادى السبوع وأبو سمبل » التى كشفت عن أشياء قليلة ليست ذات قيمة علمية كبيرة . ولم ينجز عملنا السابق أكثر من اثبات النتائج التى وصل اليها السابقون فى المسح الاول . وهنا فى بداية موسمنا الأخير، وعلى بعد بضعة أميال من الحدود الجنوبية للمنطقة المهددة، ليس أمامنا الا أمل بسيط فى أن أبحاثنا ستضيف الكثير الى التاريخ النوبى الطويل والمتغير . ومع ذلك فقد كان لزاما علينا أن نتم العمل . وفعلا وصلنا الى «أبو سمبل» لنبدأ ما كنا نتصوره موسمنا الأخير فى الثانى من نوفمبر سنة ١٩٣١ .

وصلنا كالعادة على دهبتين يرافقنا زورق المسح البخارى ورسونا جنوبى معبد رمسيس الثانى الكبير منتظرين وصول العمال المائة والخمسين الذين استقلوا احدى البواخر التابعة للحكومة السودانية والتى تسافر من الشلال . وبينما كنا ننتظر وصول العمال صممت على أن أشغل وقتى بالكشف عن المنطقة المعروفة باسم «بلانة» التى تقع على الضفة الغربية لنهر جنوبى «أبو سمبل» . وكانت آنذاك تتكون من عدد من المنازل المتواضعة المبعثرة بين أشجار النخيل القليلة على حافة النهر حيث يسكنها عدد قليل من السكان . وكانت الرمال التى قذفت بها الرياح قد غطت المنطقة وحوّلتها الى صحراء يتخللها مجموعات صغيرة من شجر السنط ونبات الطرفاء الذى يوحى مظهره بحياة قلقة على ضفاف النهر . لقد كانت منطقة غير مغرية الا أن بلانة أصبحت اليوم بلدا كبيرا وغنيا ، منازلها مبنية تحيط بها مناطق واسعة من الأراضى الخصبة المزروعة . وهذا التغير الكبير فى حياة بلانة يرجع الى اكتشافنا كما سأبين ذلك فيما بعد .

وتابعنا طريقنا المعتاد فى الكشف فسرنا فى تكوينات ممتدة بين الكثبان الرملية والأعشاب الطلحية فى هذه المنطقة الكثبية محاولين الاهتمام الى أية بقايا قديمة وقد قمت بنفسى باستكشاف المنطقة القريبة من النهر متجولا فى المنطقة التى تقع جنوبى القرية وبعد قليل وصلت الى مجموعة من التلال مغطاة بنبات الحلفا وعندما اقتربت من هذه التلال وجدتها تأخذ شكلا دائريا أكثر انتظاما ولكنى لم أقدر شكلها المنتظم أو أتبين الاحتمال فى أن تكون تلالا صنعتها يد انسان الا بعد أن تسلفت قمتها وألقيت نظرة من فوقها على الصحراء المحيطة . وفى وقتنا هذا يؤثر عالم الآثار أن يستعين بصور جوية ، اذ أنها لا شك ستظهر له تلال « بلانة » على أنها غير طبيعية ، فى حين أن مشاهدتنا لها من مساحة أرضية غير مسطحة لم تظهر

هذه التلال كما هي فى الواقع . وأكدت بعثة جيولوجية كانت قد زارت المكان منذ سنتين قبلنا أن هذه التلال عبارة عن ترسيب طبيعى لطمي النهر تعاقبت عليه عوامل الطبيعة فأعطته هذا الشكل المستدير . وربما كان من حسن الحظ انى فى هذا الوقت كنت أجهل هذا لأننى لو كنت قد عرفتة ربما كان قد أثر على وجعلنى آخذ بنظرتهم أو ان أهمل التلال كمادة مهمة للبحث الأثرى . ولما كنت أجهل الاشكال العجيبة التى تخلقها عوامل الريح والطبيعة فالتل الذى جلست فوقه ظهر لى بأنه صناعى ومن صنع الانسان . وبمنظرة أخرى من فوق هذه القمة المرتفعة على باقى التلال تأكد لى رأى . واذا كان قد ساورنى أدنى شك فى طريقة تفكيرى فان هذا الشك سرعان ما تلاشى عند وصول كروان الذى لحق بى فوق قمة التل بعد ان جاب صحراء المنطقة وبمنظرة حوله من مكاننا العالى سرعان ما اتفق معى على انها تلال من صنع الانسان واقتنع بأنه يجب فحصها بأى ثمن .

ورجعنا هذه الامسية الى دهبيتنا فى أبى سمبل ونحن نفكر فى هذا الاكتشاف غير المنتظر اذ لم تكن لدينا معرفة سابقة بمثل هذه التشكيلات الارضية الضخمة . وفى بعثة أثرية مثل بعثتنا لم يكن فى مقدورنا أن نحضر معنا مراجع كثيرة ولم تكن نعتمد الا على كتاب « ويجال » الذى أعطانا نتائج مرضية . وهذا الكتاب عبارة عن تقرير منشور لحفائره الأولية فى النوبة السفلى التى قام بها نيابة عن مصلحة الآثار سنة ١٩٠٧ (١) وقد فحصنا كتابه القيم ولكنه تركنا أكثر حيرة بقوله أن : « البلاد غير مشوقة بالنسبة لعالم الآثار وانه لم يجد (الكاتب) أى أثر لمناطق قديمة ما عدا بضع قطع من الفخار الرومانى من العصور الوسطى يدل على وجود قرية من هذا العصر » . فعرفنا بذلك أن « ويجال » كان منهكا متعبا فى آخر استكشافاته الطويلة التى أجراها سائرا على قدميه وانه لم يدقق النظر جيدا . وينجب على أن اعترف بأن انكاره لوجود أى أثر ذى قيمة فى المنطقة قد هز ثقتى فيه .

وليتنى عرفت ان كتابا فى هذا الموضوع كان تحت يدى اذ أن مكتبتنا الصغيرة كانت تحوى نسخة من طبعة Tauchnitz لكتاب «اميليا ادواردز» وهو كتاب رحلات يعرف باسم A Thousand Miles up the Nile وهو عبارة عن تقرير هذه السيدة الموهوبة عن رحلة قامت بها فى دهبيتها فى مصر العليا والنوبة سنة ١٨٧٤ فقد كان ذلك كفيلا يثبت الطمانينة

(١) Weigall, A Report on the Antiquities of Lower Nubia, Oxford, 1907.

فى نفسى . وكنت قد قرأت كتابها أيام الدراسة ولكنى نسيت وصفهـة
للبلاد جنوبى . « أبول سمبل » ولم أتصور أننى سأجد فيه أية معلومات
تهمنى ومن ثم لم أقرأ كتابها الا بعد مضى سنين عديدة أثناء فراغى
بعد اكتشافاتنا ، فدهشت لأنى وجدت فيه هذا التقرير الذى يعطينا
فكرة عن مدى بعد نظرها بالنسبة لهذا التل الترابى من الناحية
الاثرية وللأشياء التى وجدناها فيه فيما بعد . فقد كتبت : « وعلى بعد من
قلعة « عدا » عندما تشتفى منطقة « أبوسمبل » وجزيرة النخيل وبعد أن نترك
القمة الوحيدة المعروفة « بجبل الشمس » وراءنا نصل الى شىء جديد غريب
وهو مجموعتين من التراكم الطمى والرمل ، أحدهما على الضفة الشرقية
والأخرى على الضفة الغربية . وإذا أردنا أن نكون عنها فكرة ما ، فسوف
نجد أنها ليست تكوينات بركانية ، كما أنها ليست أشكالاً مستقرة ،
فبعضها صغير الحجم وبعضها الآخر كبير . وهى كلها مستديرة وناعمة
ومغطاة بطبقة طميية لونها بين الأخضر والبني . كيف جاءت الى هنا ؟ ومن
الذى صنعها ؟ وماذا تحوى ؟ ان الاطلال الرومانية المجاورة – والمائتين
وأربعين الف هارب الذين مروا من هذا الطريق – والجيوش المصرية والحبشية
التي بلغت الآلاف على هذه الضفاف والتي قامت بالمعارك على هذه السهول
توحى بعدة احتمالات وتملاً رأسنا بأشباح أذرع مدفونة وحلى ووعية لحفظ
رماد الجثث . اننا نود أن نبحر فى هذه اللحظة ولكننا نكتفى بعد التريث
بأن نعد أنفسنا – للتنقيب فى أحد التلال الصغيرة على الأقل – فى طريقنا
للعودة . ولم تجد الآنسة ادواردز الفرصة أبداً لفحص وتنقيب الكومة ولكن
تخمينها لما كانت تحويه كان قريباً من الحقيقة .

وقد أشار بعض الرحالة الآخرين مثل « بورخاردت » سنة ١٨١٣
و « جولينيشف » سنة ١٨٨٣ الى احتمال أن تكون هذه التلال صناعية
ولكن ، كما أقول عندما اكتشفنا هذه التلال التى على الضفة الغربية كنا
نجهل ذلك ولم يكن معنا الا بيان « ويجال » السلبي الذى لم يكن مشجعاً .
وعلى أية حال فقد اتفقنا بعد مناقشات كثيرة على أن الكومة كانت تستحق
فعلاً البحث وبعد وصول عمالنا نقلنا الذهبية بالقرب من بلانه .

فى هذا الوقت ركزنا اهتمامنا كله على الضفة الغربية من النهر
ولم نهتم الا بوجود التل فى بلانه . وقبل أن نبدأ بتنظيم مجسات

فى هذه المنطقة زارنا أحد الحفراء المحليين التابعين لمصلحة الآثار وقال لنا أنه قبض على ثلاثة من السكان يحفرون المقابر فى قسطل على الشاطئ المقابل للنهر قبل أسبوعين من وصولنا ، ومع أننا لم نهتم بما حدث واعتبرنا الموضوع من قبيل الحفائر غير المشروعة الا أننا عبرنا النيل لنتفقد مسرح الجريمة وكم كانت دهشتنا حينما وجدنا ان لصوص المقابر قد نهبوا بعض مقابر عصر المجموعة (س) التى كانت موجودة فى الأرض المنبسطة بين الكومات الطينية المائلة لتلك التى فى «بلانة» . وكان شكلها الصناعى ظاهرا لأن الرمال والبقايا لم يغطها . وهكذا زال ما تبقى لدينا من شك بالنسبة لبلانة . وكان السؤال الوحيد كيف نواجه هذه المعضلة؟ هل ننقب ؟ وأى المجموعتين نبدأ بكشفها « بلانة » - أم « قسطل » ؟

ولقد كان همى الاول متعلقا بالامور المالية لأن سنة ١٩٣١ - ١٩٣٢ كانت السنة الاخيرة للقرض الذى أعطاه لنا وزير المالية للعمل بالمسح الأثرى التوبى . وبهذا المبلغ الأخير الذى يبلغ أحد عشر ألفا من الجنيهات كان علينا مهمة التنقيب فى منطقة تمتد بين أبو سمبل والحدود هذا بالإضافة الى الشاطئ الشرقى للنيل كله حتى «وادي السبوع» . وعلاوة على ذلك كان الوقت أحد العوامل الهامة التى يجب أن نضعها فى الاعتبار لأن الوقت الذى حدد لنا ، كما ذكرت من قبل ، لا يزيد على ثلاث سنوات لانتهاء عملنا . وتنتهى هذه المهلة باتمام تعلية خزان أسوان ، ولم يكن أحد منا يتصور أنه سيكون علينا ازالة احجام ضخمة من الاكوام الترابية كالتى فى قسطل وبلانة ولكنها مغامرة لأنه اذا كانت النتائج التى سنتوصل اليها غير ذات قيمة بعد ما تكبدناه لازالة بعض التلال فقد كنت أعرف أننا لن نحظى الا بقليل من العطف ، وخاصة أن معظم تلك التلال كانت على مستوى من الارتفاع أعلى من المناطق المهددة من الحزان الجديد . وعلى أية حال فبالنسبة لبلانة وقسطل كانت الفرصة الوحيدة فى حياتى العملية التى وجدت نفسى فيها سعيدا جدا لاكتشاف ان لصوص المقابر كانوا قد وصلوا اليها قبلى . فبعد فحص ميدئى لقاع أحد الاكوام الكبيرة فى قسطل اتضح لى وجود انحدار طفيف فى سطح الأرض من الناحية الغربية . وبعد تنقيب أطول ، اتضح أن هذه الظاهرة كانت ظاهرة عامة أى مشتركة فى الاكوام كلها . ولقد تصورنا أولا ان هذا المنخفض علامة للمدخل الحقيقى الذى استعمل للدفن ولكن بعد القيام تعليل من بتنقيب سطحي ظهرت لنا قطع مبعثرة من فخار مكسور يرجع الى المجموعة (س) وكان واضحا انها تدل على مداخل اتفاق اللصوص وهنا واقتنا الفرصة

لنقرر نوع التل وقيمته دون تكاليف كثيرة ودون ضياع وقت . وبدأ عمالنا الحفائر عند المدخل الذى مر منه اللصوص فى المقبرة رقم ٣ التى كانت أكبر ما فى مجموعة قسطل . وكنا نعمل بسرعة فى طريق مسطح عرضه قدمان وارتفاعه ثلاثة أقدام وقد نحت دون تهذيب فى رواسب النهر المتجمدة التى شيد عليها التل . وكان العمل فى التنظيف صعبا وخطرا أحيانا لأن بعض الأجزاء من جوانب الممر كانت قد وقعت تاركة سقفا غير ثابت فوقنا . وعلى أية حال تقدمنا بسرعة بوساطة عمالنا المهرة المدربين وبعد بضع ساعات كان الممر مفتوحا فزحفنا فيه لمسافة خمسين قدما حيث انتهى الممر الى جدار من اللبن فوجدنا أنفسنا فى إحدى الحجرات المقبية لبناء تحت سطح الأرض وأظهر ضوء شموعنا المتأرجع منظرا من الصعب وصفه لشدة الغموض والتشويش به . وكان واضحا جدا ان من سبقنا كان قد قام بعمل كامل متقن . فالأرض كانت مغطاة بأكوام من الفخار المكسر وقطع من أخشاب متعفنة وعظام آدمية مبعثرة . وأظهر الكشف عن الحجرات الأخرى نفس الحالة : أكوام من العظام الآدمية وفخار مكسرا وكان احساسى الأول هو الرجوع عن فكرة ازالة الكومة وان أكتفى بفحص هذه المقابر الغربية بالدخول فيها من ممرات اللصوص وان أنقذ ما يمكن من أدلة أثرية باقية مهما كانت قليلة . ولم يكن هناك ما يشجع على الاستمرار فقد كنت أجلس وسط الانقراض المبعثرة التى كانت يوما كنز أثريا ، ولم تعد تمثل الآن غير انقراض آمالنا التى أخذت تشرق قليلا منذ رأينا هذه الكومات فى بلانة . وسرعان ما بدأنا نقيم اكتشافنا باتزان وأمل بعد أن تغلبنا على خيبة الأمل الكبيرة التى أصابتنا .

ان الحجرة التى كنا قد دخلناها من عمر اللصوص كانت قطعا حجرة الدفن ووراءها كانت غرفة الانتظار وفى جانبها الشرقى باب المقبرة . اذن فنحن قد دخلنا منزل الاموات من الباب الخلفى وكنا نواجه الجدار الداخلى للباب الأمامى الذى كان لا يزال مفتوحا . وكان المدخل المكون من عتب حجرى ثقيل ، مسدود بقوالب من الطوب ولقد أزال من سبقنا بعض قطع هذا الحائط متصورين ان من ورائه حجرات أخرى . ولكنهم سرعان ما أدركوا غلطتهم عندما انهمر الرمل من الفتحة التى صنعوها وأصبح واضحا ان ما وراء المدخل المسدود كان فناء مفتوحا أمام المدخل الحقيقى للمقبرة . وهذا الفناء كان يملأ برمل وطبن تعلوه الكومة طبعاً .

وعندما قدرنا هذه الحقيقة ووجهت مرة أخرى بالقرار الصعب: هل

أزيل الكومة أو اُكتفى بالمعلومات التي يمكن الحصول عليها بتنظيف داخل المقبرة من ممر اللصوص ؟ اذ أن الحقيقة بسيطة لقد نهبت المقابر نفسها تماما . ولكن المساحة الخارجية التي ربما تكونت من فناء خارجي وسلم لابد وأنها كانت سليمة لم يمسه أحد . ولقد كان من الواضح أن هذه المقابر كانت ملكا لقوم ذوي أهمية كبيرة وأن هؤلاء القوم كانوا في الغالب حكام المجموعة (س) غير المعروفين ومع أن المقابر كانت نهبت فتنظيفها جيدا يمكن أن يعطينا مادة أثرية لها أهمية ولكن هذا التنظيف صعب وخاصة اذا دخلنا من ممر اللصوص الخطرة .

وفوق هذا كله فان شغفنا المحدد بالأمل بأننا اذا وضعنا كل اهتمامنا في المقابر المنهوبة يجوز أن نعثر في المدخل غير الملموس على مادة لا تقدر بثمن من الناحيتين الفنية والتاريخية .

وقررنا أخيرا أن نجازف ، ففي العاشر من نوفمبر ١٩٣١ بدأنا في إزالة الجزء الغربي للمقبرة في طريقنا الى الكشف عن المدخل . ومع ان المقبرة رقم ٢ كانت لها الكومة الاكبر في مجموعة قسطل فان حجمها كان أصغر من المقبرة رقم ٣ . ومع ذلك شعرت ان الظروف كانت مناسبة وخاصة اننا كنا متشوقين لاثبات قيمة ما كنا نعرف انه الجزء الوحيد الذي لم يعثر به بعد في بناء المقبرة .

ان مجموعة العمال لم تكن تزيد حينئذ على مائة وخمسين رجلا وصبية وكان تقدمنا آنذاك يبدو بطيئا جدا ولكننا في أواخر شهر نوفمبر كنا قد أكملنا خندقا يخترق الكومة على شكل حرف ٧ وفي جانبه الشرقي كنسا قد وصلنا الى سطح الأرض كما ظهرت قمة منحدر متجه الى أسفل نحو الغرب وبدأ النزول تدريجيا الى مدخل المقبرة وكانت أول الأشياء التي ظهرت رأسى فأس حديدية محفوظة حتى أنهما ما زالا يحويان اللون الأزرق القاتم للحديد كأنهما قد خرجا من تحت سندان الحداد في الحال . واني أعترف أنه لو كنت قد وجدتاهما في ظروف أخرى ما كنت ظننتهما قطعتين اثريتين . أما الكشف الثاني عند قمة المنحدر فقد كان شيئا معدنيا ثقيلًا وعندما وجدناه أصبحنا في حيرة . ومع أننا ضحكنا على الاقتراح إلا اننا لم نتصور أى شيء عصرى يشبه أكثر من « كلبش » الشرطة وعلى كل فقد كان ، مثل الفأس في حالة جيدة ، كالجديد ، فأخذناه معنا الى الدهبية ونحن نشعر بالزهو حيث نظفته زوجتي

فى الحال • وبعد تلميعه ظهر أنه مصنوع من الفضة الخالصة ولكننا لم نتعرف على حقيقة أمره الا بعد أن عثرنا على قطع مشابهة له أثناء العمل فيما بعد • ولقد كان فى الحقيقة شكيمة للحصان ، والشكينة مكونة من قطعتين منفصلتين على شكل نصف دائرة من ناحية وقضيب مستقيم من الناحية الأخرى • أما الناحيتان المقوستان فهما مركبتان معا فى القمة بحيث يكونان دائرة كاملة يدخل فيها فك الحيوان الأسفل • أما القضيبان المستقيمان فيتحدان فى نهايتهما بوساطة حلقة واسعة يربط فيها سير اللجام توضع الحلقات الجانبية لترتبط قطع الوجنتين التابعة لرأس اللجام • وبشد اللجام يجنب القضيبان المستقيمان معا وتغلق قطعة الفم المستديرة حول فك الحصان السفلى •

وعلى أية حال ففى هذا الوقت لم يخطر على بالنا كنه هذه البدعة الغريبة ولكننا فى اليوم التالى عندما اكتشفنا هيكلًا لحصان يتدل منه اللجام فهمنا حقيقة ولا يمكننى أن أقول ما الذى أثار دهشتنا أكثر : الكشف عن حقيقة استعمال ذلك الشئ الغريب أم الحصان نفسه ، قبل أن ننزل الى أسفل المنحدر لم نكن قد عثرنا على هياكل أخرى لجياد وحمير وجمال بل اننا فهمنا بعد ذلك معنى هذا الخليط لبقايا الحيوانات: ان صاحب المقبرة أخذ معه جماله لخدمته فى الحياة الثانية • وكما كان الحال فى الحياة الدنيا فقد جعلهم ينتظرونه أمام مسكنه • وبعد قليل وصلنا الى فناء صغير فى آخر المنحدر وأمام مدخل المقبرة عثرنا على بقايا يبدو أنها كانت لجياد صاحب المقبرة المفضلة لأن بعضها كان لها سرج من الخشب مطعم بالفضة كما عثرنا على زينات للخيول من الفضة مكونة من حلقات ذات أقراص مسطحة أو محدبة الى حد ما ويتدل منها دلايات طويلة حلزونية ومع ان الاشغال الفضية كانت محفوظة تماما الا أن الاشغال الخشبية التى فى السرج ومقاعد الجلدية كانت فى حالة تحلل وبمعنى آخر أصبح الجلد على هيئة ورق محروق حتى اننا عندما عثرنا عليها لم نستطع بعد تصويرها ورسمها الا أن نغمسها فى شمع برفين لنحتفظ بها مستقبلا • ووجدنا مع بقايا الجياد أيضا هياكل الخدم الذين كانت عليهم مهمة الاشراف عليها فى الحياة الثانية • والحيوانات كلها كانت قد قتلت بالبلطة ولكننا لم نعثر على أى أثر من بقايا الأدميين تدل على انهم سمموا أو خدروا قبل مراسيم الدفن •

وبهذه الاكتشافات قدرنا قيمة ما عثرنا عليه ولقد كان واضحا ان

الجزء الخارجى للمقبرة سيكون دائما سليما ما دامت الكومة التى تعلوها موجودة وأصبح مؤكدا ان أشياء فريدة ستكون مطمورة فيه وأكثر من هذا فإن الفحص التفصيلى لداخل المقبرة التى عث بها أظهر فى كثير من الأحيان وجود مواد أثرية قيمة تركت وتجاهلها اللصوص لذا وجدنا دلائل كثيرة للتضحية البشرية لاننا عثرنا على عظام مبعثرة للسيدات والرجال بين الفخار المكسر الذى احتوى على المأكولات والمشروبات . وكما يحدث عادة أعطانا الفخار فكرة واضحة عن شخصية هؤلاء القوم الذين شيدوا هذه المقابر الهمجية ولقد تأكدنا الآن من ذلك الجنس الغامض الذى نسميه المجموعة (س) وهو الذى احتل النوبة بين القرنين الثالث والسادس بعد الميلاد .

وكم كنت متأكدا ان هناك كنزا أثريا كبيرا يوجد فى متناول اليد ولكن صعوبة المهنة كانت فى ازالة الملايين من أطنان الرمال . وبقي أن هذا هو المعضلة الكبرى وكنا نحتاج الى المال والوقت وشعرت انه لا بد أن أجلب أدلة ملموسة لاهمية الاكتشاف وقيمته قبل أن اقرب من رؤسائى فى مصلحة الآثار بالقاهرة . لذا قررت أن أزيل الغموض عن أكبر مقبرة فى مجموعة قسطل قبل أن أبعث اليهم بأخبار الاكتشاف وهى المقبر رقم ٣ التى فحصناها سريعا من داخل ممرات اللصوص فى بداية البحث .

وفى أوائل ديسمبر بدأنا بازالة الجانب الشرقى لهذه الكومة الكبيرة وقطرها ٥٣ر٤٠م وارتفاعها ٧٠ر٩م ولقد كان تقدمنا بطيئا ، هذا مع وجود مائة وخمسين رجلا فى حالة عمل مستمر . وكان علينا أن نقضى وقتا ممتلا غير مشوق حتى وصولنا الى مستوى الارض لنجد فيه مدخل المنحدر . ولكن كومة قسطل كان بها مفاجأة أخرى لنا : وهى عادة من عادات قوم مجموعة (س) فى دفن أشياء متنوعة فى الكومة نفسها مثل الزبيب فى الفطيرة أو قطعة فضية من العملة فى كعكة عيد الميلاد . وعندما عثرنا على هذه الاشياء اعتقدنا انها أشياء أضعاء أو نسيها أحد العمال الذين اشرفوا على تشييد الكومة . ولكن تكرار هذه الكشف أظهرت انها كانت مقدمة جنازية وضعت عمدا بعد الدفن . كان أول شيء عثرنا عليه هو درع كبيرة مستديرة من الجلد فى حالة جيدة من الحفظ . ونظرا لمشابتها للدرع التى لا تزال تستعملها قبائل البجة فى السودان فقد جعلنا ذلك بذى . ذى بدء نتشكك فى قدمها وخاصة انها كانت قريبة جدا من سطح الكومة . وكان الدرع مزخرفا باتقان زخرفة بارزة على شكل حلزونات والجزء التالف الوحيد فى الدرع هو ظهر قبضة اليد الخشبية .

أما الشيء الثاني الذى عثر عليه فى حطام الكومة فهو سكين حديدية-
لرزمع من نوع « المجرفة » وهو نوع مألوف لدى قبائل « الماساي » فى كينيا-
كانت الآلة فى حالة جييدة الا من بعض آثار الصدأ . أما المقبض-
الخشبى الذى يركب فيه السلاح فلم يبق منه الا خط من مسحوق-
بنى اللون . وبالقرب منه عثر على مسمار حربة حديدية . وبما انها كانت-
قد وضعت فى غير مكانها فلم نستوثق من طول السلاح الحقيقى . أما-
اكتشافنا التالى فكان مجموعة من ثلاث سكاكين للاستعمال المنزلى ذات سن-
مجوف من الحديد وكان لاثني منها مقابض مسطحة مصنوعة من قرون-
الحيوان ، أما الثالثة فكان مقبضها من العاج المتخوت على شكل الاله-
المصرى القديم بس . وكانت هذه السكين أول شكل فرعونى نعر عليه-
ولقد كان من الغريب أن أواجه بشكل تقليدى مصرى قديم فى وقت-
كانت المسيحية فيه منتشرة منذ خمسمائة عام . ففي هذه المرحلة الاولى-
من عملنا لم تكن ندرك اننا نحفر فيما أسميه الفصل الاخير للسجل الطويل-
لمصر القديمة . والى جانب سكين بس وجدنا مشطا من العاج ذا شكل-
مغولى ، ومؤخرة مستديرة ومزخرفا بأشكال نباتية ملونة باللونين-
الاحمر والبني .

وعثرنا على مثل آخر لقرايين مطمورة فى قاع الكومة على مستوى-
الأرض تقريبا وكانت من نوع غريب وغير مألوف بالقياس الى الاشياء-
التى عثرنا عليها من قبل ، فهي عبارة عن لوحة خشبية للعب-
التسلية ذات طابع غير عادى ، على شكل صينية مسطحة محوطة باطار-
دعمت أركانه بانفضة . أما «الاماكن» فأشير اليها بنقش مفرغ مطعم بالعاج-
وتتكون من ثلاثة صفوف كل صف به اثنا عشر مربعا على الشكل النباتى-
لتقليدى . وكل صف من هذه الصفوف الثلاثة قد قسم الى مجموعة من-
سته أقسام وقد ظهرت فى الصف العلوى والصف الاخير على شكل نصف-
دائرة وفى الوسط دائرة كاملة . واللوحة لها مقبض فى أحد-
جوانبها .

وعندما رفعنا لوحة اللعب وجدنا تحتها بقايا حقيبة (كيس) من الجلد-
كانت تحتوى على خمس عشرة قطعة عاجية وخمس عشرة قطعة من الابنوس-
ومعهما أيضا خمس من قطع النرد العاجية وقطعة أخرى يبدو انها كانت-
صندوقا خشبيا صغيرا مرصعا بالفضة ولقد كان شكل قطعة النرد واضحا-
لأنها صنعت بشكل النرد الحديث نفسه من رقم واحد الى ستة . أما الصندوق-
الخشبى فكان لغزا ولم نستطع الا بعد شهور عدة وبعد تجارب وأخطاء أن-
ندرك ان القطع قد وفقت مع بعضها البعض وقد تم هذا فى معمل متحف-

القاهرة . وكم كان غباء منا الا نلاحظ فورا اننا لكي نلعب النرد فانه لابد من أن يكون هناك صندوق للنرد وكان هذا الصندوق من طراز غريب جدا . لقد كان المقامرون يلعبون هذه اللعبة بكثرة في العصرين اليوناني والروماني وكانت تعرف باسم Pyrgus ويرجع شعبيتها الى صعوبة الغش فيها فالقطعة لا تتحرك أثناء اللعب بل تسقط قطعة النرد من الفتحة الملوية وتقع على مجموعة من اللوحات المحزوزة التي كانت تقلبها قبل أن تنزل من فتحة في القاع . واني أعتقد ان هذه اللعبة كانت هي الشكل الوحيد الذي وصلنا حتى الآن مع أن منظرها وشكلها العام عرف من صور رومانية . وفيما بعد أعجب الأصدقاء في القاهرة بصندوق النرد هذا حتى أننا صنعنا صورة طبق الأصل منه وقدمناه للنادي « تورف » استعمله الأعضاء عندما كانوا يجلسون للشراب . وعلى أية حال فقد ضعفت شعبيتها ورجع الأعضاء بعد وقت قصير الى استعمال النرد الجلدى فطلبت الصندوق وما زلت أحتفظ به كتذكاري لأول كشف في قسطل . كل هذه الاشياء المكونة من لوحة نرد وصندوق كانت من غير شك تستعمل للعبة واحدة تشبه في الغالب ما يعرف عند المصريين بالضامة . والطريقة الصحيحة لاستعمالها غير معروفة . ولكني أعتقد ان النرد كان يقذف ليحدد عدد التنقلات على اللوحة مثل ما يحدث في لعبة الطاولة .

ولقد كان ظاهرا أن أشياء أخرى كانت مطبورة في أجزاء أخرى من الكومة لأن الفتحة التي على شكل حرف ۷ في الجانب الشرقي كانت قد وصلت الى مستوى الارض وكانت حواف مدخل الممر المنحدر قد كشفت . الا انني أحسست ان الاستمرار في الكشف الى أبعد من ذلك ليس له داع أو ليس له ما يبرره ألا العثور على تحف أخرى مطبورة على بعد بضعة أقدام منا وكانت تلك الفكرة مغرية ولكن كان هذا التنقيب سيتبعه إزالة كل البناء وهذا معناه زيادة في النفقات بالاضافة الى الوقت . لذا ركزنا كل اهتمامنا في الكشف عن الممر المنحدر المتجه الى الشرق والغرب مثل المقبرة رقم ٢ . وأثناء النزول في الممر كشفنا عن هياكل جياذ وجمال يوحير وكلاب وأغنام . وكانت بعض الجياذ لها سروج من الفضة وحلي يتكون من سلاسل فضية والجمة جلدية مطعمة بالفضة ومشغولات من البرونز ووجدنا فوق السرج بقايا أغطية السرج المشغولة وجلود الحيوانات المصبوغة باللون الأزرق . إن اختلاط بقايا حيوانات التضحية بلجامها ولوازمها مكدسة الواحدة فوق الأخرى لا يمكن وصفها الا بأنها كابوس لعالم الآثار . وعلاوة على الاختلاط والارتباك فإن اجساد الحيوانات كانت قد تركت حيث وقعت بعد ذبحها على أرضية مدخل الممر المنحدر . فكانت

النتيجة ان تراكمت الجثث الواحدة فوق الأخرى ولم يبق شيء من الانسجة - كما كان من الصعب جدا التفرقة بين هيكل وآخر ، ولكن كان من بين عمالنا القفطين المختصين في تنظيف المواد التشريحية من قام بالتدريج بتنظيف تلك الهياكل من الاقربة واستعرض هيكل كل حيوان لكيلا يختلط مع هيكل حيوان آخر . أما لوازيم الجياد فكان من الصعب التصرف فيها . فمنع ان السروج الجلدية كانت ظاهرة بوضوح عندما استخرجت من الارض الا انها تحللت بسرعة تاركة الحصر المتجمد الذي حشيت به المقاعد مكشوفاً للرؤية . وعلاوة على ذلك فان السيور الجلدية التي ربطت اطراف السروج الخشبية مع بعضها البعض تقطعت من أقل لمسة . ولاعادتها كما كانت ، اضطر المختصون الى دراسة تصنيعها وأمضيت ساعات في الرسم والتصوير وسكبنا شمع البرافين المغلي عليها لتصبح كتلة واحدة يمكن نقلها وكانت هذه الكتلة مكونة من الاطارات الخشبية وحشو القش وبقايا الجلد وأقمشة السرج والطين والرمل ، كلها مختلطة مع شمع البرافين .

وانى أعترف أن منظر هذه الأشياء الثمينة حينما نقلناها ، بعد الاسعافات الأولية ، كان مقبضا ولكن بعد ما أزيل الشمع الذي أخذ معه كل المواد القذرة مثل الرمل والطين أصبحت الأشياء الخشبية القيمة في حالتها الكاملة . أما الأشياء الجلدية فلم يبق منها الا القليل وكان نقل هيكل كل حيوان مهمة شاقة ولكن من حسن الحظ كانت العظام محفوظة وغير هشة حتى ان العلاج الكيميائي لم يكن له داع .

عملنا تحت هذه الظروف لمدة من الزمن قبل أن يظهر الفناء الخارجي المواجه لدخل المقبرة الذي ما كاد يبدو لنا حتى فرحنا لعثورنا على قنيتين على الارضية أمام البوابة وفي حالة سليمة أحدهما من الفضة والأخرى من البرونز . وكان معهما آنية أخرى من الفضة ذات شكل غريب جداً الى درجة اننا ظننا أولاً انها خنزير كبير سمين . وكانت هذه الآنية الأخيرة في حالة سيئة الى درجة اننا اضطررنا الى أن نغطيها بشمع البرافين قبل أن نقلها . ولكن بعد تنظيفها ظهر شكلها الطبيعي وهي عبارة عن قربة للماء يكون عنقها غطاء منفصلاً ولها مقبض مستدير متصل بالارجل الأربعة بواسطة سلاسل .

وفي طرفي الفناء الضيق وجدنا البوابات المسدودة المؤدية الى حجرات منحوتة في الصخر . وبعد الكشف عن المنطقة أمام المقبرة وجهنا نظراً الى الباب الجنوبي . بيد أن ازالة السدة اللبنية لم يستغرق بضع دقائق .

وسرعان ما دخلنا العتجرة وفي ضوء الشموع أخذنا طريقنا بين الهياكل التي غطت الأرض . وإلى جانب المدخل وجدنا هيكل رجل ومعه سيف من الحديد وطبلة خشبية على شكل برميل وخلفه ترقد هياكل لستة جياد لوحظ من أول نظرة انها زينت بألجمة وبحلى من الفضة .

وفي غمرة فرحتنا بالاكشاف نسينا أن نلاحظ حالة الصخر غير المستقرة فوق الباب وسرعان ما انتبهنا اليها عندما سمعنا صوت وقوع القطع الهشة المتفتنة فاستدركنا لنجد المدخل وقد ملئ بالحجارة الصغيرة والطوب واللين المكسر . وكما كانت تلك اللحظات كريهة ولكن سرعان ما فتح العمال المدخل من الخارج وأخرجونا وعلى أية حال فقد كانت تجربة لا تنسى : جلوسنا في جو نصف مظلم وشعورنا مقسم بين الفرحة بالكشف عن الكنز وبين الخوف من أن ندفن معه وأخيرا زال الفرع واتجه اهتمامنا إلى ما اكتشفناه .

لقد كان من الواضح ان هذه الجياد الستة كانت من أحب الجياد لدى صاحب المقبرة وان الرجل المضحي به لا بد وانه كان خادمهم . ومن الجائز أن يكون السيف الخالي من الجراب هو السلاح الذي استعمله لقتل نفسه مع انه لم يوجد بهيكله أى أثر لطعنة سيف . أما الطبلة فلم أجد لوجودها أى تفسير اذ إن وجود شيء غير ملائم كهذا في المقبرة صعب التصور . إن ألجمة ثلاثة من الجياد كانت من طراز متقن مكون من سيور من الحرز وصير اللجام ولقمة اللجام . أما السيور فكانت مكونة من شرائط فضية ثقيلة متماسكة محلاة على شكل رأس أسد تتدل خلف الاذن وعلى الجبين وفي وسط الانف . وكانت الإحلية مصنوعة من الفضة المطروقة أما العيون فمطعمة من حجر اللازورد واللسان المدود منحوت من العاج . أما لقمة اللجام المصنوعة من الفضة الخالصة فكانت من النوع اليدائي نفسه الذي عثرنا عليه في المقبرة رقم ٢ الا انها تتفوق في زينتها المتقنة . وكانت مربوطة في رأس اللجام بوساطة دعائم ذات مفاصل متحركة على شكل أسود جالسة مبرشمة من حائبي الفم . أما سيور اللجام فكانت مصنوعة من سلاسل فضية طولها ٧٨ سم ولقد أظهرت الإلجمة الثلاثة التشابه دقة في الصنع لا يمكن أن يتفوق عليها أى صانع حلى وجواهر في عصرنا هذا ولذلك لم تصل إلى حقيقتها حتى الآن . ان العلامات العامة لبقايا المجموعة (س) لا توحي لنا انهم كانوا على مستوى متحضر عال . وكما سأوضح فيما بعد فأننا نعرف أن كثيرا من التحف الخفيفة والدقيقة التي عثر عليها في مقابرهم كانت صناعتها بيزنطية ووصلت إلى متناول أيديهم عن طريق النهب في الحروب أو عن طريق المبادلات التجارية . الا ان

أشكالها وزخارفها لا توحى بأصل أوروبي وأكثر من هذا فشكل اللقمة فريد حسب معلوماتي وليس له مثيل في مصر أو في أى مكان آخر من الامبراطورية الرومانية في الشرق . واني أعتقد ان هذا الطاقم البديع من الجياد كان موروثا من العصر المروى القديم .

ولكن هذه الاسئلة لم تضايقنا أثناء الاكتشاف فلقد كنا مذهولين بالحالة الجيدة التي بقيت عليها تلك الاشياء وجمال صناعة السلاسل وليونتها التي جعلتها وكأنها مصنوعة من الجلد والجياد الستة التي كان لها أجراس مربوطة حول أعناقها بواسطة حبال لها شرابيبي . وكان لبعضها (عقود) أو أربطة للعنق من الصدف . اما الاكتشاف الأكثر أهمية فكان تلك البقايا المتحللة لطوق حصان من الجلد الاحمر يتدلى منه مجموعة من الحللي الفضية المطعمة بفصوص من الاحجار الكريمة ولقد كانت خمسة من هذه الحللي على شكل رموس عقيق يمنى لاصود عيونها من حجر «الجارنيت» أما الباقي فكان من الفضة المزخرفة يتوسطها حجر «الاونيكس» يميل شكله الى الطول . وكان أكبر هذه الحللي تلك التي تتوسط الطوق كان مخططا باطار من فصوص من حجر سيلان والزمرد المصرى والجزء الاوسط جعران مصرى من القاشانى الازرق مثبت بأظافر (مخالب) وكذلك تحلية أخرى كانت مطعمة بكاميو لامبراطور روماني مصنوع من العقيق اليمنى الجميل . وهذا الخليط العجيب من المجوهرات البيزانطية والجعارين المصرية القديمة وجواهر كاميو الرومانية كانت بداية للمخيط العجيب من الكنز التي اكتشفناه فيما بعد ومنها ملاعق فضية تماثل ما عثر عليه في «الجبانة الكبرى في «ستون هو» Sutton Hoo في انجلترا هذا الى جانب أشياء ترجع الى العصر الصاوى المصرى .

وعندما رفع اللجام والأشياء الأخرى فحص الدكتور أحمد البطاروى المتخصص في التشريح ، هياكل الادميين والحيوانات ثم اخذها بعد ذلك ونقلها الى القاهرة حيث فحصت ثانية في كلية الطب وكان علينا بعد ذلك ان نوجه أنظارنا الى حجرات وجدت مختومة في الطرف الشمالى للقناة متوقعين كنورا جديدة . ولكن خاب ظننا فمع أنها احتوت على حصانين فلم يتحليا بالسرج واللجام فقد عثرنا معهما على هيكلين لرجلين وخمسين كلبا كانت تتدلى من أعناق بعض منها أجراس صغيرة من البرونز وضع حول أعناقها أطواق من الشعر المجدول وأغلب الظن انها كانت كلاب صيد ومعهما حراسها الذين قتلوا ليدفنوا معها حتى يقوموا بخدمة هذه الكلاب في الحياة الثانية .

وبتنظيف هذه الحجرة كنا قد اتمنا فحص المنحدر الخارجى

والقضاء وبدأنا نتجه الى المقبرة نفسها . وكانت تتكون من ست حجرات مبنية من الطوب المحروق والحجارة ، وكان لها سقف مقبى ، لقد بنيت المقبرة كلها فى حفرة كبيرة طولها ٨٠ م وعرضها ٢٨ م وعمقها ٣٠ م عن سطح الأرض الطبيعى وكنا قد دخلنا المقبرة نفسها من قبل من ممر اللصوص لذلك لم تكن تتوقع العثور على أى جزء منها غير مسروق . ولقد كان المدخل فى وسط الجدار للقضاء المفتوح وعندنا نظفناه لأول مرة وجدناه مسدودا بقوالب من الطين المحروق (الآجر) فازلناها ووجدنا وراءها بوابة مستطيلة ذات عتبتين من الحجر وكانت هناك عتبة فى الأرض من الحجر نفسه . ويبدو انها فى البداية كان لها باب خشبى ثقيل تدعّمه عدة حلقات برونزية مربوطة فى الناحية الخارجية . ولكن مع أن الخشب قد تعفن والقطع البرونزية المستديرة قد تساقطت على الأرض الا اننا عثرنا على بقايا خشبية ما زالت بها تلك القطع البرونزية فى أماكنها القديمة حتى اننا تأكدنا من تفاصيل كل التصميم القديم وبنائه ولكننا لم نتوصل لمعرفة شكل الزخارف التى كانت تستعمل فيها هذه الدوائر البرونزية .

وفوق عتبة باب المقبرة وجدنا عظاما مبعثرة لبقرة يبدو انها نحررت ووضعت فى هذا المكان كنوع من القرابين للमित . وعندما دخلنا المقبرة وجدنا ان الحجرات الستة قد نهبها من سبقونا اليها تاركين كومة مختلطة من عظام السيدات والرجال وأوانى نبيذ من الفخار وأوعية وكؤوسا كلها موضوعة فى وسط بقايا حقائب من الجلد وقطعا من خشب متعفن وخرزا من القاشانى الاخضر والازرق والاحمر . ولم يترك اللصوص الا قطعة واحدة وهى مصباح يدوى من البرونز على شكل راس رجل وكانت فتحة الزيت فى أعلى جبين الرأس والموقد فى أسفل العنق . وكانت العينان من الفضة المطعمة بحجر « الجارنيت » (حب الرمان) .

وبعد فحص مرهق لهذه الكومة من الحطام وبعد تصنيف الفخار كل حسب نوعه وطرازه وتسجيله وبعد أن درس الدكتور البطراوى البقايا التشريحية ، اتفقنا على فحص ممر اللصوص مرة أخرى لأننا كنا نعرف من خبرات مضت ان اللصوص باستعجالهم، وفى الضوء الخافت لمصاييحهم كانوا يتركون الكثير فى طريقهم الى الهرب وبينما كنا نمارس نحن عملنا بين كميات الاحجار المتراكمة على أرض الممر عثرنا هناك على جزء من درع صابر من الجلد وجعبة سهام جلدية ربما كانتا من بين لباس صاحب المقبرة . ولقد تعود اللصوص قديما أن يجروا جسد صاحب المقبرة الى النور حتى يسهل عليهم نهب المجوهرات وأظن ان هذا هو ما حدث فى حالتنا هذه لان الملابس الجلدية والعتاد غير ذات قيمة بالنسبة لمن قاموا

بالنهب ولكننا لم نعثر على أى أثر للجسد مع اننا قمنا ببسح دقيق فى الرمال والبقايا عند بداية المدخل ولكن بحثنا هذا أصبح مجزيا لاننا عثرنا بعد ذلك على صندوق حلى مستدير من الخشب المطعم بالعاج كان قد كسر بوساطة اللصوص عندما عبثوا بما فى داخله . ومع ان جزءا فقط هو الذى تبقى الا انه كان كشفا هاما لاننا صنعنا صندوقا آخر مطابقا لشكلة الاصلى حتى تمكنا من تذوق جمال شكله .

ومع نهاية عملنا الناجح فى المقبرة رقم ٣ شعرت ان الوقت قد خان لاداعة ما اكتشفناه فبعثت بتقرير متحفظ قصير الى مصلحة الآثار فى القاهرة . وأقول «متحفظ» لاننى كنت أعرف ان الاعانات المالية للمسح الأثرى كانت تقل ومن المنتظر أن ينتهى عملنا فى آخر هذا الموسم . وكنت أعرف ان رؤسائى لن يرحبوا بطلباتى لزيادة المال والوقت ويجب أن نعترف ان النتائج الحالية للمسح لم تكن غاية فى الاهمية اذ أدركنا انه بالرغم من تلك الاكتشافات الا انها كانت اعادة لما كشف عنه فى المسح من عام ١٩٠١ الى عام ٩١١ وكان عملا يجب أن ينتهى . هذا بالاضافة الى انهم كانوا يدركون اننى أريد أن أمتد بالبحث حتى شمال السودان لكى نعرف حدود حضارات المجموعة الثالثة وبالنسبة لهذه الفكرة لم يكونوا يكونون لى أى عطف وفى الحقيقة أنه كان ينظر للمسح الأثرى فى القاهرة على أنه واجب لا بد من أدائه وكم كانت فرحتهم بانهاؤه واتمائه . لذلك كنت أخاف ان أى تقرير يتحدث عن اكتشافات هائلة فى ذلك الوقت ، سينظر اليه بعين التشكك . ورؤية الآثار فى المتحف بالقاهرة من غير مشاهدة الكومات نفسها التى كانت أصلا مطبورة فيها لن تعطى فكرة لقوة وقيمة ماكشفناه . ولقد شعرت اننى يجب أن أحضر المدير العام الى قسطل بأى طريقة ليرى بنفسه كل شىء ، وفى هذا كان تقريرى ناجحا . وفى اليوم الخامس عشر من يناير وصل المدير العام مع بعض الموظفين الى قسطل وفى صالة مركبنا عرضنا الأجمة الفضية ، وحلى الجياد وأشياء أخرى . وقد قدر فى الحال شكلها الفريد وأهميتها التاريخية . واصطحبته بعد ذلك ليزور المنطقة موجهها نظره الى ان تحت كل كومة مدخل للمقبرة لا بد وأن يكون سليما وانه حتى المقابر المنهوبة لا بد وأن بها معلومات تاريخية ذات قيمة حيوية . وغير ذلك فلقد قررنا أن القرابين معلومات فى الكومات يمكن الكشف عنها وكان أمامنا بعد ذلك على الشاطئ الغربى من النهر فى بلانة المجموعة الثانية من الكومات التى تعطينا امكانيات أخرى لاكتشافات واسعة . وعلى أية حال فلم يكن المدير العام يحتاج الى اقناع فلقد دبر فى الحال سلفة صغيرة توضع تحت تصرفنا للعمل فى قسطل وأخذ على عاتقه

مقابلة وزير المعارف نيعطينا اعتمادا كافيا لتواجه به مصاريف مجموعة عمال أكبر وموسمين آخرين للتنقيب ، وفعلنا نجح في طلبه . وبالاتماد الجديد ازداد عدد العمال من مائة وخمسين الى اربعمائة ونقلنا من «سقارة» ديكوفيل كان مهما لمواجهة الكومات الكبيرة في بلانة .

وفي هذه الاثناء وقبل أن يصل عمالنا ! نجد والديكوفيل بدأنا العمل في الكومة الاخرى في قسطل وفحصناها مقبرة بعد مقبرة وكانت كلها قد نهبت دون استثناء ولكن في جميع الحالات كان المدخل سليما وأبامه. التضحيات المكونة من جياذ وحمير وجمال ومع أننا لم نجد مقبرة غنية مثل رقم ٣ الا ان هذه المقبرة أعطتنا مجموعة كبيرة من الجملة الجياذ المصنوعة من الفضة وسروج مغطاة بالبرونز أحدها على ما أذكر ذو صورة جميلة للالهة «أزيس» تزين خبور «قربوس» انسرج . وعثرنا أيضا على رماح من الحديد ، ومصابيح وحلي وأشياء أخرى كثيرة ومختلفة عوضتنا العمل الشاق في ازالة اجزاء كبيرة من الكومة . وهذا غير ما عثرنا عليه مطمورا داخل الكومة نفسها وهذه العادة الغريبة لم نجدها في كل كومة فبعض الكومات لم تعطنا شيئا على الاطلاق بينما كومات أخرى اخرجت لنا أنواعا متواضعة من أسلحة وأوان للطبخ ولكن أهم الاكتشافات من هذا النوع كانت في كومة مقبرة رقم ١٤ .

وعلى ارتفاع عال في الكومة كشفنا مابدا في أول الامر - صرة من الأقمشة ذات الألوان الزاهية وبعد ازالة الرمال وانطين ظهر أمامنا كشف رهيب . فصرة الأقمشة كانت الملابس الكشائية لفتاة شابة يبدو أنها قتلت . وكان الجسد محفوظا وليس ذلك شيئا غريبا في النوبة عندما تكون انبعاثا مدفونة في الرمل . وكان جسد الفتاة في حالة غير متحللة لدرجة أنه كان واضحا كيف لقيت حتفها : فلقد قطع عنقها وكانت نقط الدم الجنينة ما زالت واضحة على الجرح وعلى رداثها . ومهما كان سبب الجريمة فانها لم تكن للسرقة لأن الفتاة كان بجانبها صرة من الأقمشة وبقايا حقيبة من الجلد حوت الاثنتان حليا ثمينة وأشياء أخرى ويتصور المرء عدة حلول بالنسبة لهذا الكشف . هل كانت الفتاة منذ البداية احدى التضحيات مع نساء أخريات في المقبرة ثم هربت ليعثر عليها بعد مراسيم الدفن واقامة الكومة ؟ أو ضحى بها ووضعت في الكومة كقربان ؟ أم لقيت الموت كذنب لسرقته صندوقا يحوى كنزا كان قد وضع في الكومة كتقدمة . (لقد عثرنا على صندوق مسروق قريبا من الجثة) .

ان الحقيبة التي كانت بجانبها كانت حديثة الشيكل ومصنوعة من
الجلد الغليظ ولها مقايض من الحديد وقفل ذو سقطة يبدو في حالة سليمة
مولكن بعد الفحص وجدنا ان شمع البرافين لن يستطيع حفظه . وبعد
موسومات بالمقياس والصور العادية تحطم من أول لمسة لنكتشف ماتحويه
الحقيبة : سكيناً صغيراً من الحديد ذا مقبض من القرن ووعاء من النحاس
استعملاً في الغالب لخلط المساحيق . ومن الأدوات الأخرى وجدنا مكحلتين
من الخشب وأدوات من الحديد لوضع المسحوق الأسود الرمادي اللازم
لجمال العيون الشرقية . وكانت للمكحلتين أهمية كبرى بالغة لأنهما كانتا
من طراز مصري قديم اذ كانت احدهما على شكل « أبو الهول » جالسا على
قاعدة والرأس الآدمية كانت محوطة بالشعر المشهور والعيون مطعمة
بالعاج . أما المكحلة الثانية فتمثل شكلا محنطا للاله رع . وعلى الرأس
التي على شكل الصقر كانت الباروكة الثقيلة يعلوها شكل مخروطي منفصل
يمثل غطاء المكحلة وهاتان المكحلتان الحشيتان كانتا ذات حجم صغير اذ لم
يزد ارتفاع الواحدة منهما على أربع بوصات .

كانت محتويات الحقيبة الباقية مكونة من الحلي وأهمها زوج من الأقراط
الفضية (ذات الصياغة المخرمة ومرصعة « بحجرتان » من البزير
وحجرتان من العقيق . ثم أربعة أختام دائرية ثقيلة احدها محفور عليه
منظر لزهرة اللوتس المصرية وآخر عليه شكل أسد واقف أما الاثنان
الأخران فخاليان من الحفر . وهناك خاتم خامس من الفضة المطروقة
مرصعة بخمس حبات من البزير وخمس قطع من « انجارنيت » وعثرنا
في قاع الحقيبة على عقود جميلة من الفضة ومن الخرز المرجاني وسوار من
الفضة مرصع بقطع صغيرة من الاليستر والفضة والعقيق .

وعندما فحصنا صرة الملابس وفتحناها ظهرت لنا حلي أخرى وخاصة
عقود من الفضة والعقيق والمرجان وخرز من القاشاني الأزرق والزجاج
ذات أشكال عدة ومقاسات مختلفة . أما القطعتان الأكثر قيمة فكانتا
زوجين من الأقراط الفضية من طراز واحد ولكن مع الطراز نفسه اختلاف
في طريقة الترصيع . ولقد أخذ طرازها شكل لوحة فضية صغيرة
يتوسطها أميتست كبيرة مستطيلة وكان يتدلى من قاع اللوحة الفضية
دلالتان من الفضة المخرمة مرصعة بالمرجان وعثرنا في الصرة أيضا على شيء
آخر لافت للنظر وهي أسورة فضية مرصعة بخمسة أحجار أميتست وأربعة
جارنت واثنين بزيل . ومن الجائز ان تكون هذه المقتولة كانت تتحلى بهذه
المجوهرات عندما كانت طفلة .

وكما ذكرت من قبل عثرنا بالقرب من الفتاة المقتولة على صندوق

خشبي كبير كان قد كسر وفتح وسرق • وهذا الصندوق الذي أصبح الآن من كنوز متحف القاهرة عثر عليه وقد وقع على جانبه وغطاؤه مكسور • وكان مستطيل الشكل وارتفاعه حوالي ٣ أقدام وله أربع أرجل لم يكن لها وجود عندما عثرنا عليه • وكان الظهر والجوانب والجزء الأعلى مصنوعا من الخشب ولكن الجزء الأمامي كان مزخرفا باتقان ومطعما بالعاج والابنوس البارز • وهذه الزخارف معشقة بين قطع من العاج المطعمة بأشكال ميثولوجية شهوانية ذات ألوان حمراء وخضراء وكان غطاء الصندوق يمسك بوساطة مفصل من النحاس وسقطتين تدخل في قفل مستطيل • وهذا القفل كان أية في الصناعة والصحيفة المنحوتة بدقة وأواخر السقطتين منحوتة على شكل أسدين رابضين • وكان بالقفل خدعة فكما تحدى اللصوص تحدانا نحن أيضا لأن الخشب كان هشاً فأصبح من الصعب إزالته لفحص طريقة استعماله • ان الذين سلبوا الصندوق جاءوا مستعدين لأن السقطتين كسرتا بوساطة ضربات مثالية من أزميل حاد • أنه من التفاهة أن نفكر في علاقة بين الصندوق المسروق والفتاة المقتولة ولكني أعترف أن الحل التي وجدت في حوزتها تجعلني أميل إلى الاعتقاد بأن هناك علاقة بينهما وإذا كانت الفتاة قد هربت من التضحية العامة أثناء مراسيم الدفن في المقبرة ، فلا يبدو طبيعياً أنها ستعطل هربها بحملها الصندوق وصرة الحل • ومن ناحية أخرى فصرة الحل تعطينا فكرة بأنها ربما سقطت من اللصوص • ولكن إذا كان قد قبض عليها وهي تسرق الصندوق فلا بد وأن يكون هؤلاء الذين قبضوا عليها قد إرجعوا المسروقات بعد أن نفدوا فيها العقاب • لانهم لم يثقوا فيها وظنوا أنها تعرف أكثر مما يجب ؟ وحتى هذا الاعتقاد ضعيف لانهم بعد أن تخلصوا منها أصبح من غير المعقول أن يتركوا المجوهرات وراءهم • على أية حال فأمامنا حادث قتل غامض يرجع إلى ألف وخمسمائة سنة وهنا يجب أن نتركه •

ان العثور على أشياء مختلطة مدفونة بطريقة غريبة في الكومات جعلتنا لا نستطيع أن نجيب على تساؤلاتنا باطمئنان حتى اليوم وعلى قدر ما يمكننا أن نؤكد فان كومات قسطل مليئة بالأشياء المدفونة هذا بالإضافة إلى ان بعضها كان رموس رماح أو أواني لطهى الأكل • فالتساؤل اذن هو هل من الأفضل ان تنفق كميات من النقود في إزالة كل الكومات أم لا في العثور على تحف ؟ ولانفسى أن الفحص أساساً موجه للمقبرة بما في ذلك الجزء الذي يعلو سطح الأرض والجزء الذي حفر في باطن الأرض وذلك لا يتطلب إزالة أكثر من ثلث الكومة • ويجوز بعنه ذلك بإزالة الحرقبة للكومة أن تستخرج بعض الأشياء ربما كان لها قيمة • ولكن هل لهذا

قيمة ؟ وبعد سنتين من عملنا في النوبة رجعنا لبضعة أيام الى قسطل
وأزلنا ما تبقى من كومة المقبرة رقم ٢ . ونجحنا في العثور على ابريقين
بديعين من الفضة المطروقة في حالة سليمة جداً والاثنان يرتفعان ٢٥ سم
ولكن هذا كل ما وجدناه حتى في المجسات التي قمنا بهسا في الكومات
الأخرى .

وفي آخر شهر يناير من عام ١٩٣٢ وبعد الكشف عن كل مقابر قسطل
أحسست ان اخلاء الكومات أكثر من هذا لن يفيد في شيء وفي أوائل شهر
فبراير انتقلنا الى الشاطئ الآخر للنهر لنبدأ الجزء الأكبر من عملنا الا وهو
الكشف عما تحويه الكومات في بلانه .

وكومات بلانه في شكلها الخارجى لاتشبه كومات قسطل وخاصة أنها
بدت وكأنها تلال صناعية لأنها دفنت تحت الرمال وتآكلت أطرافها من
عوامل الاحتكاك (التعرية) حتى أن مظهرها أحيانا كان يرجح أنها ليست
من صنع الانسان وكنت أحس أنني مضطر الى أن أنظر الى كومات قسطل
لأسترجع ثقتي . وكنا قد عزمنا على ان نؤجل انكشف عن مجموعة بلانه
حتى الموسم القادم عندما سيكون العمال الكثيرون قد وصلوا ويكون
الديكوفيل معهم . ولكن نظرا لوجود فرصة طارئة للعمل جعلتنا
لا نقاوم اغراء وضع نظرياتنا تحت التجارب فبدأنا عمليات تنظيف وإزالة
الكومة التي فوق المقبرة رقم ٣ وقبل أن نقتحم الكومة بحثنا عن مدخل
خاص كالذى عثرنا عليه في قسطل ولكن مع الجهد الشديد في البحث لم
نعثر عليه فزاد هذا من شكوكي فالكومة رقم ثلاثة كانت ذات حجم كبير يفوق
كومات مجموعة قسطل فارتفاعها ١٢ م وقطرها ٧٧ م ويوما بعد يوم كنا
نزيل كميات الأتربة والطين متقدمين في بطن دون جدوى وطوال شهر فبراير
الذى كان من أبرز الأشهر في النوبة كان رجالنا يكافحون للوصول الى قطع
على شكل حرف ٧ يصل الى مستوى الأرض عندما وصلنا الى الهدف وجدنا
ان هذا انقطع يجب أن يوسع والسبب في ذلك هو نوع الصخر الهش الذى
يجعل الحروف المنحدرة غاية في الخطورة . ولم نعثر على شيء في الكومة
يشجعنا على المضي في العمل أما بالنسبة لى فهذه الاسابيع الاربعة التي لم
أعمل فيها شيئا الا ان أراقب فيها تقدمنا البطيء كانت من أثقل الايام في
حياتي وأكثرها مللا . ولكن كل شيء يجب ان يصل الى نهاية وفي أمسية
السادس من مارس وصلنا الى سطح الأرض بعد إزالة أكثر من نصف
الكومة . ونظفنا منطقة واسعة تحت مركز الكومة وتوقعنا أن نصل الى
جوانب بئر المقبرة كما كان الحال في قسطل . ولكن بدلا من هذا رأينا
منطقة مسطحة شبه صخرية صلبة نتجت عن الرواسب الطينية اعتبرها

عمالنا «جبلا» أى أرضا طبيعية وإذا قلت أنى كنت مصابا بخيبة أمل فهذا قليل جدا بالنسبة لشعورى حينئذ فلقد كنت مذعورا ورجعت كل مخاوفي المكتومة بأن كومات بلانة لم تكن الا رواسب طبيعية وبينما كنا واقفين نتناقش أخذ أحد عمالنا المهرة فى شق الأرض انصلبة حتى وصل الى حفرة صغيرة وعلى عمق قدمين من سطح الأرض عشر على ثلاث قطع صغيرة من انفخار . وبينما كان يناولنا هذه الاشياء لتفحصها ادركت بسرور ان مخاوفنا لم تكن فى محلها وان الأرض التى وقفنا عليها كانت فعلا طبيعية وان سبب ذلك هو أن الرطوبة الناتجة من تسرب مياه النيل العالية أو من الفيضانات قد خلطت الرواسب الطينية والقوالب اللبنية التى تكون بناء المقبرة حتى أصبحت قطعة واحدة متماسكة وصلبة .

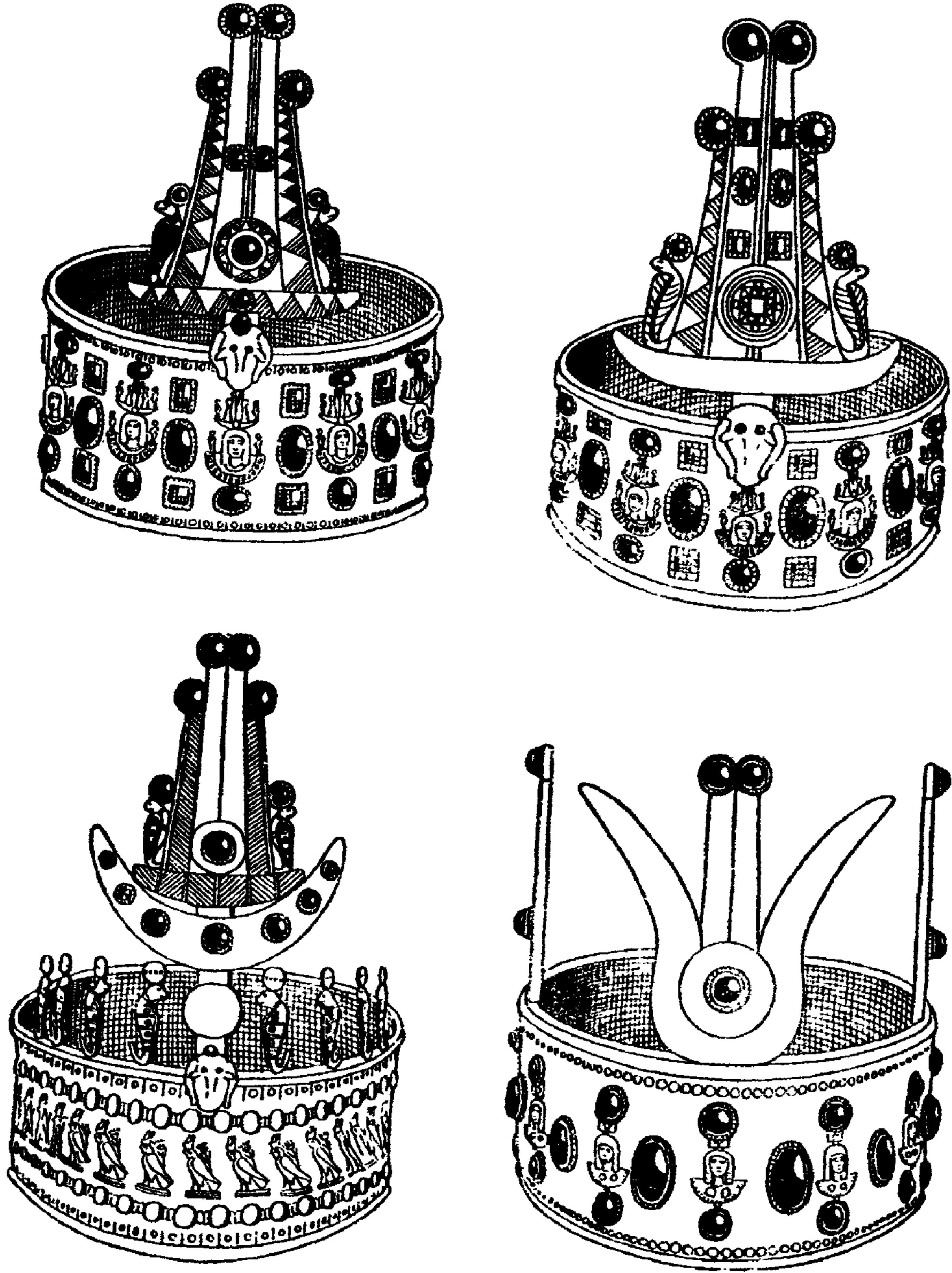
ولم نستطع أن نعمل أكثر من ذلك فى تلك الليلة ورجعنا الى مراكزنا والامل كبير فى الغد . وفى الحقيقة كانت آمالنا أكبر مما كانت عليه عندما كشفنا عن مقابر قسطل وذلك لأنه اذا كانت المقابر قد أصبحت قطعة صلبة بوساطة الماء فمن الجائز أن نجدها سليمة لأنه من الصعب فى هذه الحالات الدخول بوساطة ممرات حتى لأمر اللصوص . وفيما بعد وجدنا ان آمالنا فى هذه الناحية قد تحققت بعض الشيء فمع أن بعض المقابر قد سرقت بوساطة الممرات وربما حدث هذا قبل الفيضان الا ان معظمها كانت سليمة تماما . لذلك فان تلف بناء المقبرة بوساطة الماء كانت نعمة بالنسبة لنا الى حد ما لأن الماء والرطوبة اتلفا أشياء كثيرة كانت قد حفظت جيدا كما حدث فى قسطل وعلاوة على ذلك فصعوبة التنقيب كانت مضاعفة لأن كل قطعة تعثر عليها كان علينا أن نقطعها لتتخلص من الطين المتجمد الذى كان عالقا بها وكان لابد لنا ان نقتفى أثر جدران المقابر وكان عملا شاقا لان البناء أصبح كتلة واحدة من الطين المتجمد .

وفى اليوم التالى بدأت عمليات الحفر باجتهاد عندما تعود عمالنا على العمل فى هذه الكتلة الغريبة من الطين ولم يمض وقت طويل حتى خططوا حوافى الحفرة التى بنيت فيها المقبرة وبسرعة تعرفنا على بقايا السقف المقيبى المصنوع من اللبن لاحتدى الحجرات التى ملئت وتكدست بأرائى النبيذ وعندما ازلناها وجدنا فى آخر الجزء الجنوبى للحجرة كنزا صغيرا من أشياء فضية وهى تتكون من أطباق واوعية وكثوس مزخرفة وصندوق وائاء لحرق البخور وملاعق وكان أحد هذه الاطباق جميلا بصورة خاصة فلقد صب ونحت وكان له قاعدة مستديرة غير عميقة الصق بها بوساطة لحام . أما سطحه فكان مزخرفا بأشكال كلاسيكية لانه هرمس وهو نصف عار يجلس على كرة . وعندما ذهبنا الى حجرة أكبر وجدنا عظاما مبعثرة وهى على ما يبدو بقايا مقبرة نهبها اللصوص الذين دخلوها بالطريقة نفسها المتبعة فى

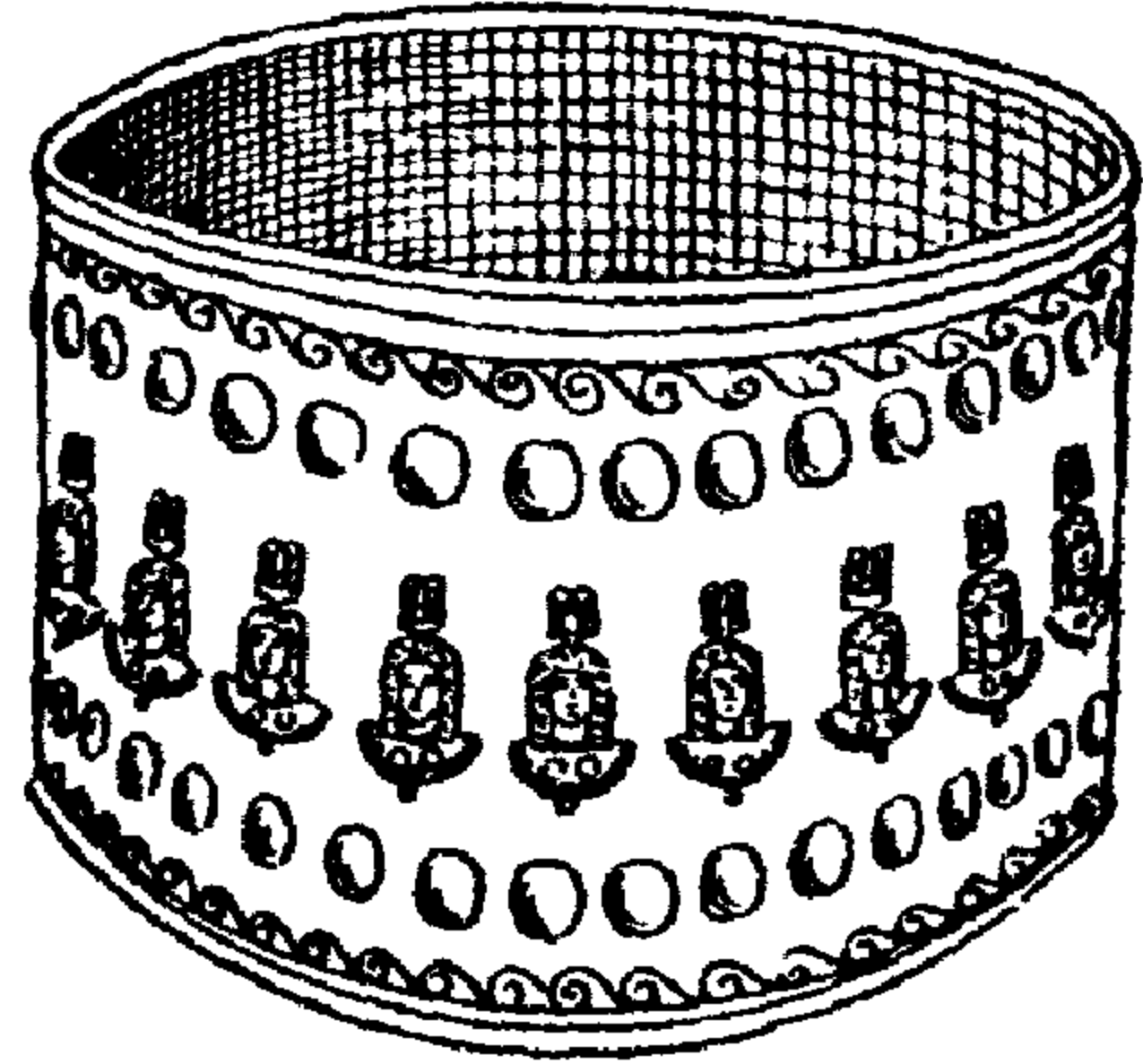
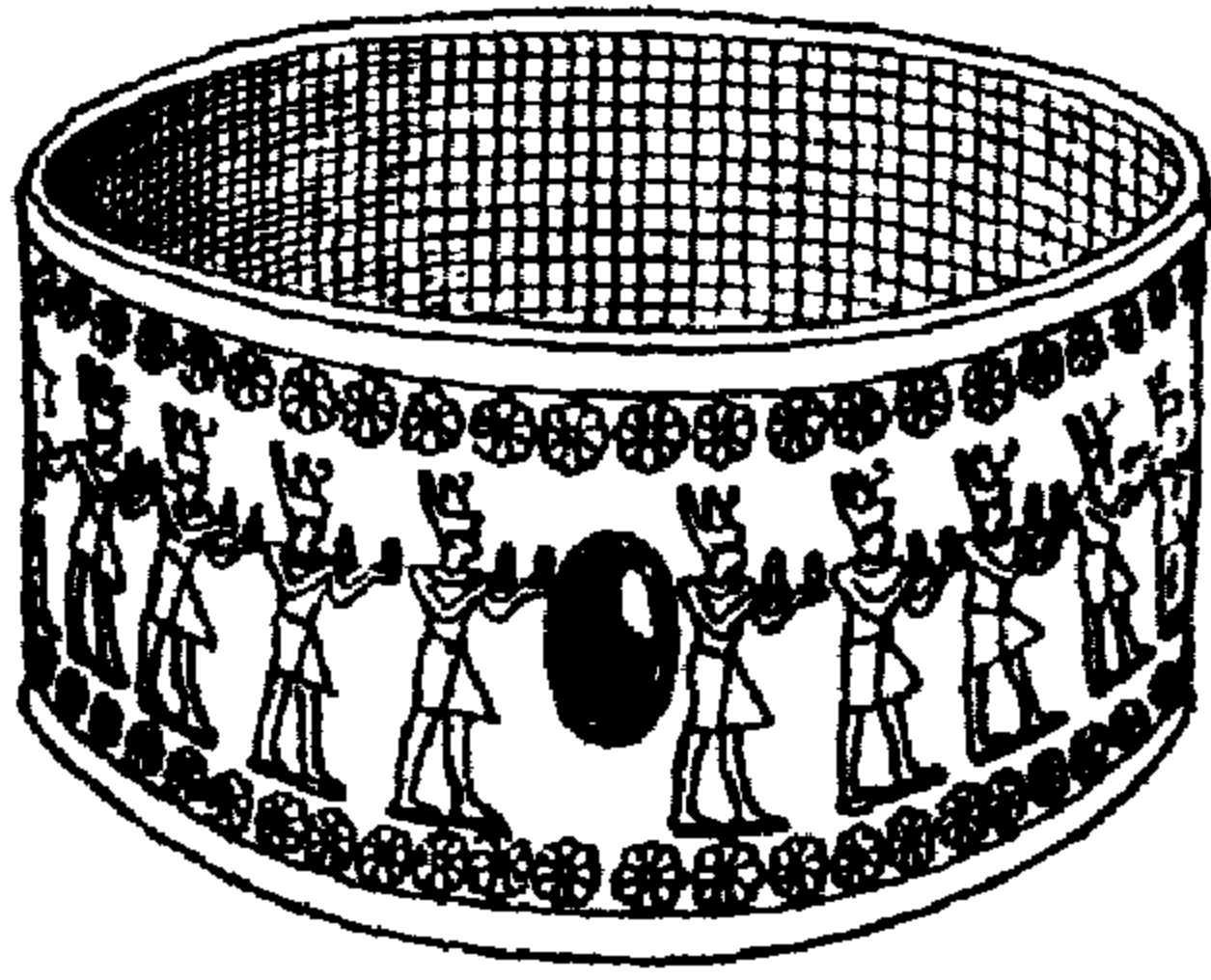
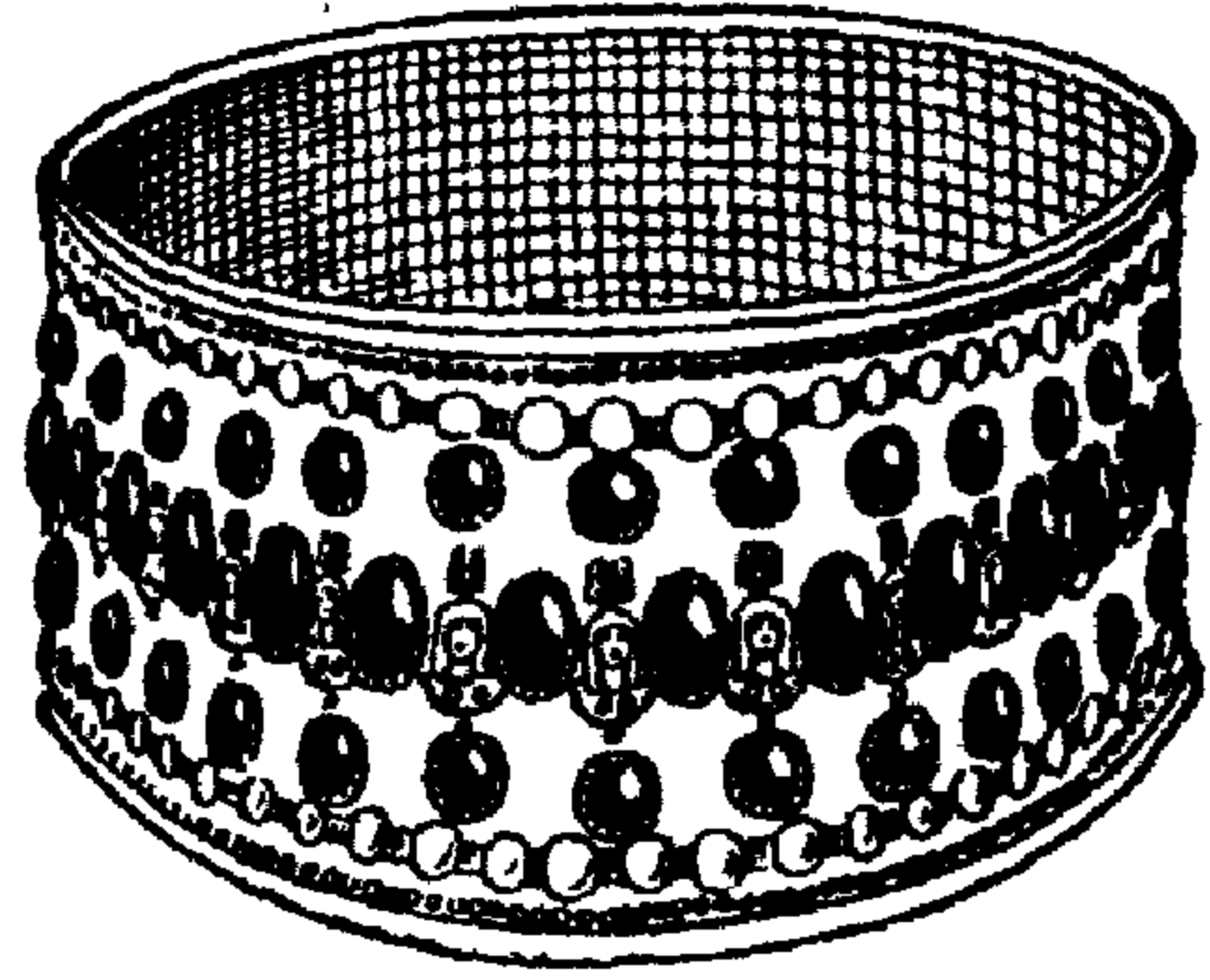
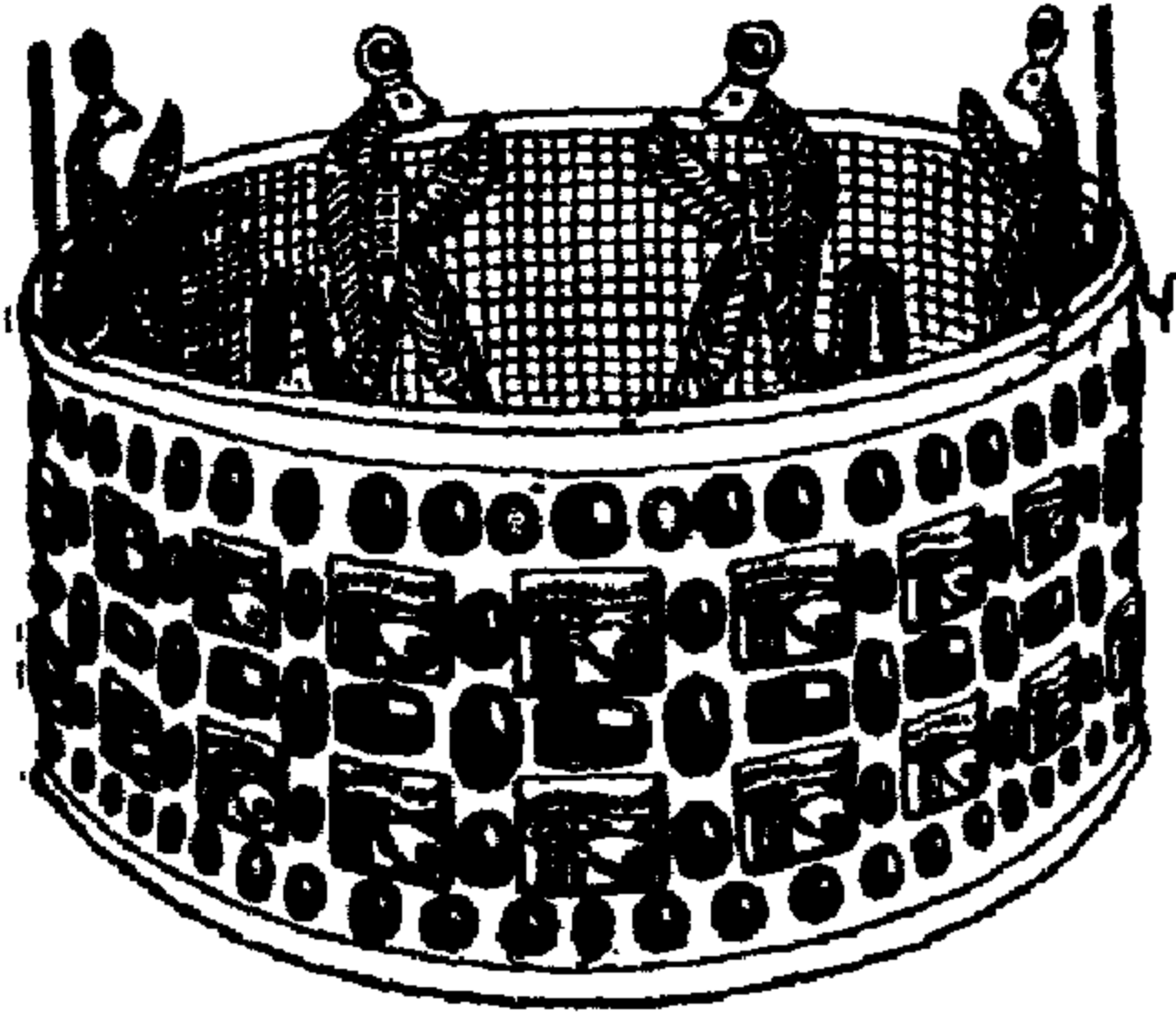
قسطل • ولكنهم هربوا تاركين بعض الأشياء مثل مصباحين من البرونز وأواني وأشياء أخرى من الفضة وقلادة بديعة من الخرز الذهبي ودلايات لاشكال مصرية قديمة •

وبانتهاء عملنا في مقبرة رقم ٣ ختمنا الحفائر ورجعنا الى القاهرة متلهفين للحصول على بضعة شهور لدراسة الأشياء التي عثرنا عليها • ومن أكثر الأشياء التي تقلق الباحث في حقل الحفائر أن معظم البعثات التي تذهب إلى أماكن مقبرة مثل النوبة السفلى لا يمكنهم أن يحملوا معهم إلا كمية محدودة من الكتب للمراجعة حتى أنه في بعض الأحيان يجد المكتشف قطعة غريبة لا يعرف تاريخها أو نوعها فحينئذ لابد له أن يكتب شغفه ويصبر حتى يصل إلى المدينة حيث عالم المكتبات والمراجع وهذا هو ما حدث بالنسبة لاكتشافاتنا في بلانة وقسطل لأنها كانت ترجع إلى عصر كنت أجهله إلى حد بعيد وكنت شغوفاً أن أقارن ما عثرت عليه بأشياء تماثلها كانت قد عثر عليها من قبل • فكانت فترة الثلاثة أشهر التي أمضيناها في القاهرة قبل إجازتنا السنوية التي قضيناها في إنجلترا فترة • مثيرة مثل الشهور التي كشفنا فيها الآثار • إن إثبات شخصية أشياء غامضة مثل صندوق الترد الذي وجدناه في قسطل وتنظيف مصنوعات الجياد في معمل المتحف امدتنا باكتشافات جديدة مثالية • وطبعاً لم يكن ذلك مثيراً على طول الخط فكثيراً مامرت ساعات طويلة من العمل المتواصل كانت تنقضي في ترتيب وفهرسة وتنويع الفخار وغيره • وحينما قارب شهر يونيو على الانتهاء كنا مستعدين لفترة نستريح فيها في جو أكثر برودة •

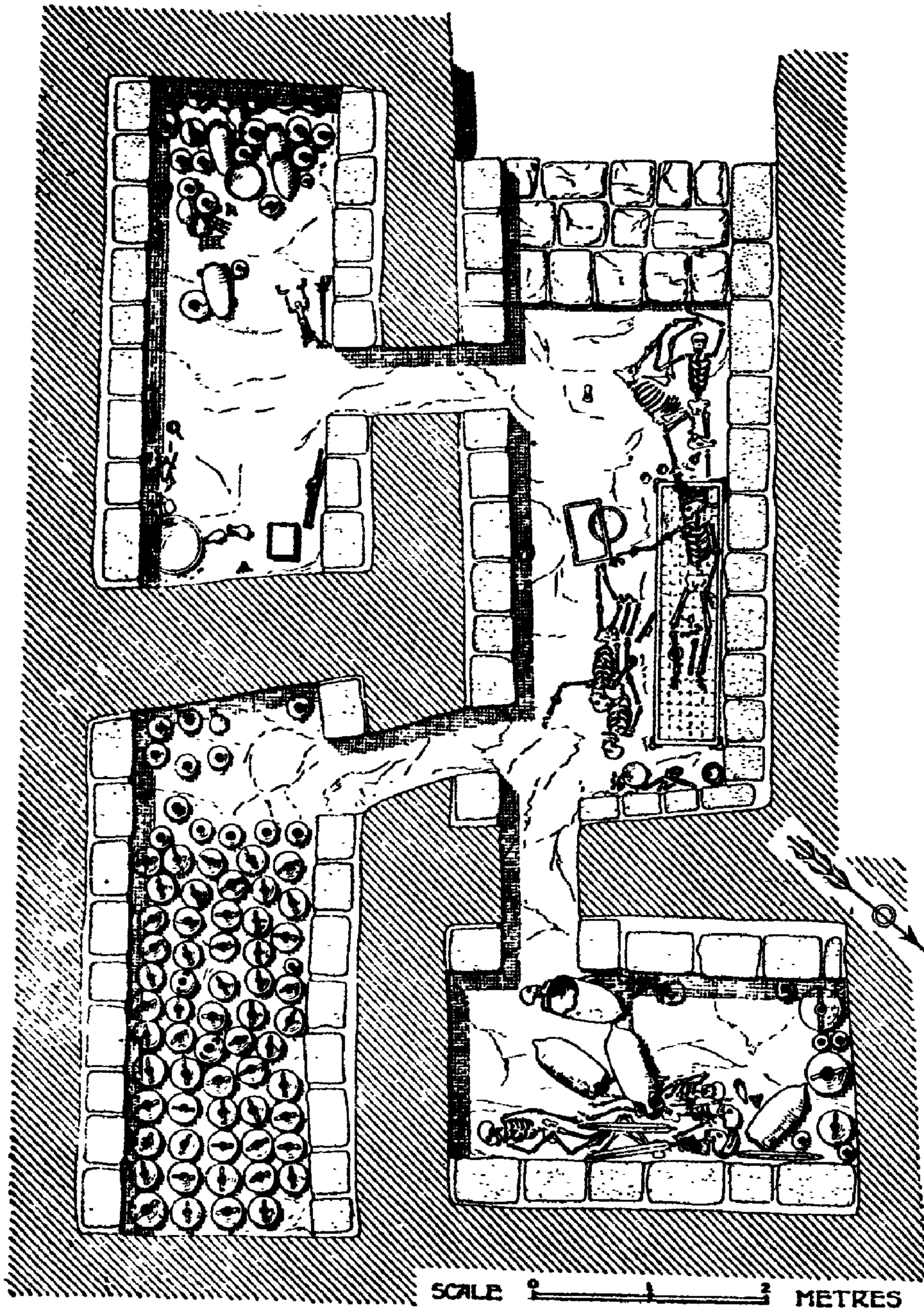
وفي خلال فترة الراحة سمحت وزارة المعارف المصرية بالسلفة الإضافية التي طلبتها مصلحة الآثار وفي أوائل شهر أكتوبر ١٩٣٢ رجعنا إلى النوبة بصحبة أربعمائة عامل مع لوازم الدكوفيل وقد كنا طبعاً نتوقع أن الكومات الأكبر ستكشف لنا عن مقابر أغنى ومن أجل هذا الاعتقاد وقفنا كل هذا الموسم للكومات الكبيرة ولكن كانت النتائج بصفة عامة مخيبة للأمل فإن عدداً من هذه المقابر كان سليماً ولكن معظمها كانت صغيرة وليست غنية مثل مقابر قسطل وكلما ازدادت حصيلتنا من الخبرة والمعرفة أدركنا أنها من عصر متأخر عن مقابر قسطل وأنها كانت تنتمي إلى فترة اتسمت باضمحلال قوة المجموعة س وراثتها ومع ذلك فقد عثرنا في المقابر على قطع فنية وقيمة أكثرها لافيت للنظر مثل تاج من الفضة موضوع فوق رأس صاحب المقبرة رقم ٦ وكان هذا التاج عبارة عن دائرة عميقة ليس لها غطاء ومزين بزخارف بارزة تكون رأس الآلهة إزيس مطعماً بين كل صورة وأخرى بحيات مستديرة ومستطيلة من العقيق ركبت فيها جواف فضية



الشكل ٧ (أ و ب)
 تيجان من حضارة المجموعة المجهولة



الشكل ٧ (ب)



الشكل ٨

طريقة الدفن في المقبرة رقم ٨٠ في بلانة
انظر ايضا شكل ٤٤

هزركشة وهو بصفة عامة عبارة عن خليط من الفن المصرى القديم والفن البيزنطى (الشكل ٧) ومن الأشياء المهمة الأخرى رماح من الحديد المطفى بالفضة وخرايب للأقواس من الفضة وسهام كما تم العثور على كمية كبيرة من الحلى . ولكننا مع ذلك لم تكن راضين ، لأننا توقعنا الكثير بعد النتيجة المذهلة لحفائر الموسم الماضى والحقيقة أننا رجعنا الى القاهرة فى شهر فبراير ١٩٣٣ وقد انفقنا تقريبا ثلاثة اضعاف ما انفقناه فى السنة الماضية مع أننا عثرنا على أشياء أقل بكثير . ومع ذلك فإن اكتشافاتنا وبالأخص ذلك التاج قد استرعى النظر كما استرعى اهتماما كبيرا فى متحف القاهرة . ومما اثلج صدرى أنه لم يقترح وقف العمل أو اختصاره لذا ضمنت على أن نفحص جيذا كل كومة مهما كانت صغيرة .

وبينما كنا فى القاهرة وكانت المدة قد طالمت لأكثر من شهر حتى بدأنا نحس بأحاساس لذيذ وهو أننا فى « اجازة » حدث أن استدعانى المدير العام على عجل وقال لى أن مصلحة الرى اعلنت أن العمل فى خزان اسوان سينتهى قبل التاريخ المحدد وكان هذا الخبر يعنى أن كل التنقيبات فى النوبة وليس فقط بلانة وقسطل ، يجب أن تنتهى قبل آخر مارس ١٩٣٤ فلم يكن هناك امامنا خيار فى ذلك اذ كان لابد من رجوعنا الى النوبة حالا دون تفكير مبكر فى السفر الى انجلترا لقد كانت لنا تجربة طويلة مع الشتاء فى النوبة وفى بعض الأحيان كانت الحرارة تبلغ فيه حدا مرهقا ومن ثم فقد كانت فكرة العمل هناك فى شهور ابريل ومايو ويونيو غير مقبولة . وعلى اية حال فلقد استعدنا ثقتنا بعد الاهتمام الذى لاقيناه فى المتحف بماظنناه نتائج غير مرضية لعمل موسمنا الأخير فرحلنا الى الجنوب ومع الجراحة المتوقعة فقد كنا فى حالة نفسية مرضية . ولو علمنا ما كان ينتظرنا ما احتجنا الى اقناع بالسفر فى هذه المدة القصيرة وغير المريحة أو قمنا بأعظم اكتشافاتنا .

فبعد وصولنا الى بلانة فى بداية شهر ابريل بدأنا التنقيب فى المقبره رقم ٨٠ التى كان يعلوها كومة صغيرة فى الطرف الشمالى للجبانة وهنا لأول مرة عثرنا على مدفن ملكى لم يمض ابدأ حتى أننا اخيرا رأينا وعرفنا طريقة مراسيم الدفن لحكام المجموعة س (شكل ٨) . وإن دفنة المقبرة رقم ٨٠ لم تكن غنية ومتطورة مثل مدافن العصر المبكر فى قسطل ولكنها كانت كاملة لذلك عرفنا كل الاجوبة لأسئلة لم نجد لها حلولا وكنا قد صادفناها فى المدافن المنهوبة فى الشاطيء المقابل للتليل . ولقد كان التنقيب بطيئا لأن الحجرات الأربعة المقبية للمقبرة الميمنية من اللبن كانت قد أصبحت قطعة صلبة من الطين بسبب عامل الماء ولذلك فإن الجدران اذا لم تكن قد قويت

يعد مآك سفلى من الحجر فانى لاعتقد اننا كنا سنتعثر عليهم . ففى حالة كهذه
ثم يكن هناك اى دليل على شكل المقبرة فوق سطح الارض اسفل الكومة أو
حتى أى اثر لحواف مجموعة الحفر التى بنيت المقبرة فيها . فحفرنا حفرة
اختبار على امل أنها تمس نقطة بجانب الممر المتحدر المؤدى الى مدخل الجزء
الذى تحت الأرض ولكن بدلا من ذلك وجدنا أنفسنا فى داخل حجرة الدفن .
وعلى أية حال فلقد مضى بعض الوقت قبل ان ندرك هذا لأنه كما شرحت من
قبل ، كانت مقابر بلانة قطعة صلبة من الطين ولم يكن من المستطاع التعرف
عليها الا بعد الكشف عن كل جدار وكل قطعة بوساطة الحفر بالسكين وسط
الطين المتجمد بالحجرة وكذلك التعرف على طريقة وصفها . وبالفعل فان
أول شىء اظهرته لنا سكاكين العمل كان تاجا من الفضة الخالصة مازال
موضوعا على راس الملك ولكننا فى هذه الاثناء لم نتعرف عليه كتاج كما اننا
لم نعرف أنه موضوع على جمجمة آدمية فكل ما شهدناه كان شيئا غريبا
مصنوعا من الفضة ومرصعا بفصوص من الاحجار الكريمة . وللكشف عن
اى قطعة فى مثل هذه الظروف فمن الضرورى أن نقطع ونزيل قطعة صغيرة
من الطين الرطب الذى يكسوها وننتظر حتى تجف القطعة المقطوعة ليتمكننا
تنظيف السطح المكشوف بوساطة فرشاة ومنفاخ . ويستغرق كل هذا
وقتا طويلا الى درجة ان المكشف يعمل لعدة ساعات قبل ان يتعرف على
الشىء الذى يسترعى الانتباه . وهذا ما حدث عندما عثرنا على التاج وتعرفنا
أولا على الجزء العلوى الذى كان على هيئة الريشتين اتف واخيرا على الجزء
المستدير الذى كشف لنا لأول مرة عن لباس الراس الملكى النموذجى للملك
المروى (شكل ٧) الذى كنا نعرفه من قبل من مناظر له على جدران الآثار
القديمة . وظهر العمل الشاق الذى استغرق عدة ساعات بوساطة السكين
والفرشاة والمنفاخ أولا الجمجمة المكسورة وفوقها التاج واخيرا الهيكل الملكى
كله وكان ممتددا على ظهره وذراعه الأيمن ممدودا الى الأمام . وكانت حول
عنقه قلادات من خرز الكارنيلين والحجر الرملى والكرستال والجاسبر وحول
ذراعيه أساور من الفضة وعلى يمينه وجد سهم من الفضة وعلى يساره مبخرة
من الفضة المنحوتة بأشكال مصرية قديمة . أما بين ساقيه فقد عثرنا على
خنجر صغير من الحديد له مقبض فضى وجراب فضى ذى زخارف بارزة .
وبعد التنظيف فهمتا الوضع لهذا الهيكل الغريب . فلقد كان فى الاصل
موضوعا على نعش ذى مرتبه من الجبال المجدولة وقد كسر وقع تحت
ضغط سقف الحجرة الذى انهار ولذلك تلاشى خشب النعش ولكن الحوافى
الأربعة البرونزية التى كانت تقوى البرواز كانت لا تزال فى مكانها الاصل
اذ أن مقاسبات النعش كانت معروفة . اما عن الجبال المجدولة فهى ايضا قد
اختفت ولكن شكلها كان ظاهرا على الطمى المتجمد على الارض أما العظام

التي تم تتناثر فكانت توحى بأن انهيار المقبرة الذي نتج عن مياه الفيضان قد حدث بعد الدفن بقليل عندما كانت أنسجة الجسد لا تزال قوية .

وتحت راس النعش وجدنا هيكل كلب كبير وبين السرير ومدخل المقبرة المسدود عثرنا على بقايا جمل ورجل راقد على ظهره وذراعا مرفوعتان كأنه يحمي رأسه من ضربات المنفذ . عثرنا أيضا على بقايا مفتتة لعظام آدميين في الجزء الجنوبي من النعش ولكننا لم نستوثق من جنسها فأحدهما كان يرتدى أساور من الفضة المطعمة بالفصوص والثاني كان معه سيف من الحديد له مقبض وجراب من الفضة كما عثر في الركن الشمالى للحجرة على كمية من السيوف والجراب المطلية من الفضة وسكاكين طولها يصل إلى ثلاثة أقدام ويبدو من شكلها أن بعض الجراب وضعت واقفة مستندة على قدم النعش ومعها وجدت أيضا أوان برونزية ومجموعة من السهام رموسها مصنوعة من أحجار نصف الكريمة . وفي منتصف حجرة الدفن عثرنا على أوان برونزية أخرى وكرسى من الحديد يشبه تماما كراسى المخيمات الحديثة . وكانت قاعدته مصنوعة من الجلد أو القماش الذي تلف منذ زمن . وعندما ظهر كل ما تحويه حجرة الدفن بدأ المصور عمله ورسمت صور تفصيلية تشير إلى مكان كل قطعة بعينها . وأخيرا جاء العمل الشاق في نقلها وفحص البقايا الآدمية من المتخصص في التشريح . وأخذت قطع المجموعة الملكية من داخل التاج . وهذه العملية الدقيقة كان لابد من إتمامها من غير نقل التاج أو تحريكه لأنه كان في حالة هشّة . ولنقله لجأنا طبعا إلى صديقنا الأثرى الثمين في منطقة العمل واقصد به شمع البرافين ، فمن غير مساعدته أشك في أننا كنا سنحفظ أهم اكتشافاتنا في بلانه وقد صنعنا صندوقا من القطع الخشبية ليس له قاعدة حول التاج والقطع الدقيقة الخفيفة للجزء الخارجى ذى الفصوص وقد دهنت القمة بزيت سلاطة ثم بعد ذلك صب شمع البرافين المغلى داخل الصندوق بحيث أصبح التاج مطمورا في الشمع والطين . وعندما جف الشمع وبرد نقل إلى سفينتنا حيث سخن الشمع مرة أخرى حتى يمكن قشره بسهولة من على سطح التاج الخارجى الذى دهن بالزيت أما الشمع الذى وضع داخل الجزء المستدير للتاج وفى ظهر الجزء العلوى المرتفع فقد ترك فى مكانه حتى وصلت التحفة إلى معامل المتحف بالقاهرة حيث أزيل الشمع أخيرا .

وبعد نقل كل محتويات حجرة الدفن وجهنا اهتمامنا نحو منحدر المدخل المتجه إلى المقبرة وهناك عثرنا على بقايا جياد التضحية والجمال من غير اثر لسرج أو لجام أو زينتتهما وبالرغم من ثراء المدافن إلا أن هذه المقابر الصغيرة الحجم اظهرت انها كانت فقيرة بالنسبة لمقابر قسطل ، ويمكننا

أن يتصور فقط مدى غنى مقابر من سبقهم لأنه كما اشرنا من قبل ، كانت مقابر بلانة من عصر لاحق لعصر مقابر قسطل . وهناك في الناحية الأخرى للحجرة أمام المدخل الرئيسى باب صغير يؤدي الى حجرة حيث وجدنا هيكل للملكة ومن حولها اماء قد قتلوا عند دفن سيدهم وكان على راس الملكة تاج له جزء علوى اما الجزء المستدير فكان مزخرفا باشكال بارزة للملك مصرى اما من الامام فرصع بثلاثة احجار بديعة من العقيق . والى جانب البقايا الأدمية عثر على هذه الحجرة أيضا على رماح مطلية بالفضة وكمية من الاوانى الفخارية .

وأخيرا فحصنا الحجرتين الباقيتين ووجدنا ادوات جنائزية من كل نوع وصنف : مصابيح برونزية كبيرة ومناضد برونزية وركيزة ثلاثية الارجل واوانى برونزية لا حصر لها واوانى من البرونز لحرق البخور ذات شكل صينى وموازين برونزية ومعها مجموعة من المئاقيل وخاتما من الذهب مرصعا بقطعة من الجارنيت كان قد وضع مع الموازين لارتباطه بها فى بعض المراسيم . وعلاوة على ذلك وجدنا كمية كبيرة من الاوانى الفخارية بعضها لم يزل يحوى طعاما وشرابا لاستعمال الملك فى الحياة الثانية . وبعض اوانى المجموعة كانت جميلة جدا وتذكرنا برسوماتها بالفخار المروى الرقيق الجوانب والذي يتصل به تماما .

وهناك مجموعة أخرى ذات أهمية خاصة وهى كمية كبيرة من رءوس الحراب الحديدية ورءوس الفؤوس وسبائك من الحديد وآلات من الحديد تستعمل للأعمال المعدنية . وبذلك نجد هنا تكملة لعادات جنائزية مصرية تعرف انها كانت موجودة فى مقابر ملوك الاسرة الاولى من حوالى أربعة الاف سنة قبل ان يتوفى هذا الملك النوبى غير المعروف . ان المصرى القديم كان يعتقد انه عندما يموت « يمكنه ان يأخذ معه » ولذلك كان يدفن معه الطعام والشراب والاثاث والملابس والالعاب والسلاح ليستعملها فى الحياة الثانية ولانه كان بعيد التفكير فلقد ادرك ان الاشياء المهمة مثل السلاح بعد فترة ستكسر او تتلاشى وليضمن وجودها فكان يترك فى المقبرة الآت وادوات وما يمكن ان يصنع منه أسلحة أخرى . فمثلا فى مقابر ملوك الاسرة الاولى فى سقارة عثرت على سكاكين من الطران وبجانبيها قطع من الطران الطبيعى يمكن للميت ان يصنع منها سكاكين أخرى اذا احتاج الأمر لذلك . وهنا فى النوبة فى عصر كانت الأفكار والاعتقادات القديمة فيه قد نسيت بعد ان دخلت المسيحية مصر كان ملوك المجموعة س لا يزالون يتمسكون بها والى جانب متيوتهم وحرابهم وضعوا حديدآ وآلات ليصنعوا بها أسلحة أخرى فى حالة

كسرها • وكانت تلك الآلات الحديدية حديثة الشكل الى درجة أنها اذا عثر عليها في ظروف أخرى لاعتقدنا أنها تستعمل في أيامنا هذه وأنها صنعت في أى مصنع • والى جانب هذه الآلات المكونة من مطارق وأزاميل ومناشير وكماشات وقاطعات معدنية فلقد زود الملك نفسه بفتوس حتى يمكنه زراعة حقول الحياة الثانية •

وطوال مدة تنقيب المقبرة رقم ٨٠ كان جو شهر ابريل في النوبة جميلا ومع ان النهار كان حارا الا أن الليالي كانت تخفف عنا والمعيشة على ضفاف النهر كان لها ميزة وهي وجود نسيم الشمال اللطيف • وفي الحقيقة سررنا لأن الحرارة لم تكن اعلى مما كنا قد تعودنا عليه في أواخر شهر مارس ولكن في بداية شهر مايو طرأ علينا تغيير سريع ففي خلال أربع وعشرين ساعة واجهتنا حرارة الصيف النوبى غير المحتملة وكان مقياس الحرارة الذى نمتلكه في سفينتنا يسجل ١٢٠ درجة فهرنهايت في العاشرة صباحا. والحقيقة ان الحرارة دائما شديدة ولكن منذ بداية شهر مايو حتى تركنا المنطقة لم ينخفض مقياس الحرارة تحت الدرجة ١١٠ فارنهايت اثناء النهار ولم تكن الحرارة تنخفض كثيرا أثناء الليل •

وعلى أية حال فبعد الاكتشافات المثيرة في المقبرة رقم ٨٠ كنا كنا مستعدين ان نتحمل كثيرا وبدلانا فحص كل المقابر واحدة واحدة في المجموعة الشمالية وكانت النتائج ناجحة لأن معظمها نجا من عدوان اللصوص ومع أن هذه المقابر صعبة التنقيب الا أنها كانت مدزية • وعلى الرغم من اختلاف المقابر في الحجم والشكل الا ان الطريقة العامة في المدافن كانت واحدة وبالتدريج اخذنا فكرة واضحة لطبائع وعادات الدفن البدائية لهؤلاء القوم الغرباء الذين حسبنا حذو المصريين القدماء في اعتقاداتهم الدينية منذ القرن الرابع الى السادس بعد الميلاد • ولكن طبيعة المصرى الانسانية نسيبت وانتشرت التضحية البشرية • ان المصريين القدماء اعتقدوا ان الخدم والجواري مهمين لراحة العظماء والأموات كما كان الأثاث والأكل والشراب لازما أيضا ولم نجد تضحية بشرية الا في العصور الموعلة في القدم • فعندما ادركوا وحشية هذا الاجراء حل المصريون هذه المسألة بواسطة السحر • فوضعت نماذج للخدم في المقابر معتقدين ان الروح ستبعث فيهم الحياة الثانية لتقوم بخدمة صاحب المقبرة • ولكن قوم مجموعة س فضلوا التضحية الحقيقية فعثرنا في مقابر ملوكهم ونبلاتهم على الدلائل القاطعة لوحشية التضحية البشرية • ومن الواضح ان موت احد هؤلاء الحكام القدماء كان يتبعه

التضحية بكل المقربين له حتى زوجته أى الملكة التى كانت ترتدى تاجها يومجوهرياتها . اذ كان المحتم عليها ان تصحب سيدها فى انجيساة الثانية . فكان الحاكم يأخذ كل شىء معه : خدمه من ذكور وإناث وحراسه وسائس الحيل وكذلك الحيل حتى كلابه أيضا ولقد عثرنا على هياكل لأدميين كانوا يرقدون على وجوههم كما لو كانوا قد ضربوا من الخلف ببيلة وآخرين وكانهم قد ماتوا خنقا . فإثناء تنظيف هذه المقابر المملوءة بخليط من مظاهر الترف البشرى والتعطيب الانسانى لم يكن صعبا علينا ان نتصور للنظر المرعب لجثة الملك الراقدة على السرير فى المقبرة يعقيا سيدات ورجال قد أخذهم الرعب يجرهم قاتلوهم فى الظلام .

وكلما كشفنا عن مقبرة جديدة فى الحر الشديد اكتشفنا تيجانا فضية مرصعة بالجواهر بعضها ادق صنعا من التى عثر عليها فى المقبرة رقم ٨٠ ولكن كان لا بد من معالجتها كلها بسائل البرافين حتى نتمكن من نقلها سالمة (شكل ٧) ان هذا العمل فى داخل حفرة وبجوار موقد بريوس وجرادل من الشمع المغلى وفى درجة حرارة تزيد على المائة وعشرة فهرنهايت فى الظل كان شاقا للغاية وغير محتمل ولا اعتقد اننا كنا سنكمل التنقيب لولا أننا عثرنا على هذه الاكتشافات العجيبة . وكما قلت من قبل فان المقبرة كانت ذات شكل واحد عامة الا فى بعض الاحيان عندما تتغير تفاصيلها أو عندما يطرأ عليها تغييرات جوهرية فى التصميم لتضليل اللصوص وهذا ماحدث فى المقبرة ٤٧ التى دفنت فيها ملكة لقبناها باسم « ميلى المندشنة » « Jingling Millie » وقد نهب جزء من المقبرة ولكن مهندسى المقبرة استطاعوا ببراعتهم أن يخدعوا اللصوص فى السرقة ففى مقابر ثلاثة مثلا أقيمت حيل لتضليل اللصوص مثل اخفاء المدفن تحت سطح الأرض وفى كل الحالات التى دخل فيها اللصوص المقبرة كشفوا عن حجرة الدفن ووصلوا اليها ماعدا مقبرة هذه الملكة لأن حجرة الدفن وضعت عالية فوق مستوى الأرض ولم نكتشفها نحن الا عندما كنا نقطع فى الكومة التى كانت تعلو حوافى الحفرة التى بنيت فيها المقبرة . وحجرة الدفن كانت صغيرة جدا ومتصلة بالجزء الاساسى للمقبرة عن طريق بوابة مقبية عالية فى الجدار الغربى للحجرة الاساسية وبعد الدفن بنى هذا الباب باللبن وغطى بطبقة من الجص . ويجب ان اقول اننا فرحنا جدا عندما تصورنا خيبة امل من سبقنا الى المقبرة وخاصة عندما ظهر لنا مدى ثراء « ميلى المندشنة » ان الوصول الى مقبرة ملكية عن طريق ممرات متعبة وبعد حوادث السرقة ومحاولات

العشور على حجرة الدفن شيء صنع . وعلى أية حال فمصيبتهم كانت ذات فائدة لنا . وبعد التنظيف العادي وإزالة السقف المبنى المنهار ظهر هيكل الملكة راقدا ومغطى بالحلى أو قل محملا لأنه لا يمكن أن تتحلى الملكة بهذا العدد الكبير منها . ول سوء الحظ أن الرطوبة قد اتلفت الهيكل ولم يبق منه إلا القليل ولكن استطعنا أن نتأكد من أن الجثة كانت راقدة على ظهرها بالطول . وعلى الرأس كان التاج الفضى ذو الثلاثة أجزاء المستطيلة على شكل قرون وريش أزيس مطعمة بالفصوص أما ذراعاها فقد عثرنا عليهما على عشرين أسورة فضية بعضها مستدير وبعضها ذو نقوش جميلة مغلقة بحجارة العقيق اليمنى والزمرد المصرى والجمشت والجارنت . أما حول عنقها فقد ارتدت طوقا فضيا يشبه تهما ما ترتديه العذارى فى واحة سيوة فى عصرنا هذا . وعلاوة على الطوق كان حول عنقها أربعة عشر عقدا من خرز فضى وعقيق وكوارتز واليسب والأوليفين والسيج والستياتيت ذات الطلية الزجاجية . وعلى كل ناحية من الرأس عثر على تسعة أزواج من الاقراط الفضية المزينة بالمرجان والخزف وفى الاصابع أحد عشر خاتما من الفضة بعضها بسيط وبعضها مزين بالاحجار الكريمة . أما الأرجل فوضعت فيها خلاخيل ثلاثة من الفضة وأربعة من المرجان . أما أصابع الأرجل فزينت باشكال عدة لخواتم فضية . أن هذه المجموعة تعتبر أكبر مجموعة من المجوهرات فى نوعها مع أن هناك مقابر أخرى اعطتنا أشياء ذات طابع مشرق .

وفى أواخر شهر مايو بدأت الحرارة الشديدة تؤثر على العمال وأعضاء البعثة . ومع أننا حاولنا أن نعمل فى الصباح الباكر والليل إلا أننا بدأنا نلاحظ أن المدة لن تطول وأخير أعلن العمال أنهم لن يقدموا أكثر من هذا واطن أنهم كانوا قد وصلوا الى أقصى ما يستطيعون عندما اضطروا الى أن يرتدوا أحذيتهم أثناء العمل لشدة حرارة الرمل . وفى أوائل شهر يونيو أمضينا أسبوعا مضنيا حزمنا فيه الأشياء الثمينة التى عثرنا عليها ورجعنا الى القاهرة منتصرين ولكننا كنا فى حالة إعياء شديد .

وبعد سمر قصر الى انجلترا رجعنا الى النوبة فى أكتوبر ونقبنا عن بقية المقابر فى بلاتة وفحصنا بعض المدافن فى قسطل مرة أخرى وقبل أن تغادر المكان أخيرا قمنا بالبحث الجذرى لعلنا نجد أى أثر لقبيلة أو مدينة تكون قد جاورت مثل هذه الجبانة الكبيرة ولكن مع أننا قد عثرنا على بقايا مدينة مدفونة إلا أن البحث أثبت أنها من عصر لاحق ولم يكن لها أى اتصال بمقابر المجموعة س إلا إذا كانت قد أنشئت لنزود الرجال

بلذين كانوا ينهبون المقابر . وعلى أية حال فقد أوصلنا هذا البحث إلى اكتشاف ثمين لأننا لاحظنا في الصحراء قريبا من النهر قنوات صغيرة للرى استعملت قديما لزراعة الأرض وطمرتها الرمال . وتكلمة للبحث فقد ظهر لنا ان المنطقة كلها كانت منطقة خصبة وانه تحت الرمل وعلى عمق قدم أو قدمين يمكن أن نصل إلى التربة السوداء الطينية . وكانت الحكومة المصرية تبحث عن مناطق جديدة فوق مستوى المياه يمكن أن يستقر فيها بعض سكان النوبة الذين ستضيع قراهم فقدمت اقرارا سريعا بالكشف لوزير الزراعة الذي بعث بمختصين يفحصون الامكانيات وبعد أن أعطوا تقريرا طيبا بشق وزير الاشغال العامة القنوات ووضع جهاز مضخات محكم وكانت النتيجة أن الأرض التي وجدناها صحراء أصبحت من أكثر الأراضي خصوبة في النوبة . وزرت بلانة بعد مضي ست وعشرين سنة في أكتوبر ١٩١٠ وقد ادهشني أن أرى التغيير في مظهرها بغابات النخيل والنباتات الخضراء وللأسف فانها ستهلك أخيرا عن آخرها بسبب ارتفاع آخر لمنسوب مياه خزان جديدة .

إن اكتشافات قسطل وبلانة كانت آخر العمل للمسح الأثرى الثاني في النوبة . وقد أمضينا سنة أخرى في متحف القاهرة نحضر المادة التي ستنتشر والتي أكملت وانتهت سنة ١٩٣٥ ؛ لقد كانت اكتشافات مثيرة ومرضية ومع ذلك فقد تركت أسئلة كثيرة دون اجابة . من هم سكان المجموعة س ؟ إلى أي مدى انتشرت حضاراتهم جنوبا ؟ لقد كنا نعلم بوجود كومات اصغر ترتفع فوق مقابر في « فركا » و « سيلى » واماكن أخرى من شمال السودان . وعلاوة على ذلك فقد أثرت مشكلات أخرى بعد المسح الأثرى فمثلا مسألة الحدود الجنوبية لحضارة المجموعة الثالثة لن تحل الا اذا استؤنفت الابحاث نحو الجنوب في السودان ولحل هذه الغوامض فكرت في أن أحاول تدبير استمرار العمل ومع أن اقتراحاتي كانت محل اعتبار في بداية الأمر الا أنها فيما بعد رفضت على اعتبار أن آثار النوبة العليا في السودان غير مهددة بمياه الخزان الجديد ولن تهدد حتى فيما بعد . وفي هذا الوقت كنت متأكدا أن مشروعى لن يرفض الى درجة اننى كنت قد هيات كل شيء حتى الخرائط للحملة ولكنى أصبحت بخيبة أمل كبرى حينئذ . أما الآن وبعد خمس وعشرين سنة فان هذه الخرائط قد اثبتت انها ذات فائدة إذ ان عالم الآثار المصرية يواجه مشكلة المسح الأثرى الثالث في النوبة الذى يجب ان يمتد الى شمال السودان .

وحتى بعد اتمام التشرات كان لا يزال ينقصنا ما يجب أن يعمل

في القاهرة مثل عرض القطع الأثرية في المتحف ولو أن قطعة من الاكتشافات فقط هي التي كان من الممكن أن تعرضها لأن القطع المكررة كانت كثيرة .
إلا أننا احتجنا إلى صالتين وكانت إحدى المشكلات الكبرى هي كيف تفرض السروج والألحفة وحلى الجياد وكانت أول فكرة طرأت لنا هي وضعها على حصان محشو . ولكنها لم تكن سهلة المنال في القاهرة حينئذ . وأخيرا تذكر رئيس أمناء المتحف أن أحد محلات السروج كان عنده حصان خشبي بالحجم الطبيعي لوضع السروج عليه . وكان صاحب المحل رجلا طيبا رضى أن يعيرنا الحصان الذي قلد بالجص في معامل المتحف . وكان الخطأ هو أن الحصان الخشبي كان مصنوعا على مقاييس حصان استرالى بينما اللجام والحلى والسروج كانت مصنوعة لجياد أفريقية صغيرة ولكن أمكن أخيرا تثبيت هذه القطع على الحصان مع أن السروج الصغيرة تبدو سخيفة على الحصان الكبير ولكني لم أسمع أى تعليق على هذا الموضوع وما زال الحصان الجصى واقفا حتى يومنا هذا في المتحف مزينا بكل اللوازم القديمة وأظن أنه منظر اخاذ جدا .

ومن الناحية الأثرية لم ينته العمل في بلانة وقسطل . إن التنقيب وتجميع الكنز الذي كان تحت الكومات اكتمل ولكن درجة معرفتنا لقوم المجموعة س لا يزال محدودا جدا وكما قلت من قبل مازلنا غير متأكدين من أصلهم ومن هم . ومحتويات مقابرهم الملكية تظهر خليطا عجيبا لحضارات مصرية قديمة وبيزنطية مسيحية وأفريقية بحتة إذا كان من الممكن أن نسميها كذلك . ولكن صلة الارتباط هذه ما زالت غير مؤكدة وقد اختارت الجمعية المصرية للتنقيب ، واضعة في اعتبارها هذه الحقيقة إلى حد ما ، اختارت موقع أبريم كواحدة من التزاماتها في الحملة العامة لاتقاذ آثار النوبة لعل اكتشافات أبريم تعطينا الدليل الذي يحل لنا مشكلة حضارات المجموعة (س) .

الفصل الرابع

التنقيبات الحرة

تولت عدة منظمات ومعاهد للآثار القيام بالحفر والتنقيب والتسجيل في النوبة وهذا الى جانب العمل الرئيسى الذى قامت به الحكومة المصرية نتيجة للتعليمات المتعاقبة لخزان أسوان ، وقد شامت نتائج العمل الى درجة كبيرة فى بعض الاحيان وصغيرة احيانا اخرى - فى معرفة تاريخ النوبة . ومع أن الحفائر كانت قليلة على شاطئ النيل فيما بين الشلال الأول والشلال الثانى قبل انشاء الخزان وتهديد تلك الحضارات النوبية القديمة بالفناء ، الا أن تسجيل الآثار والنصوص الصخرية فى المنطقة نال اهتماما كبيرا ومنذ انشاء علم الآثار فقد ركز العلماء اهتمامهم واجتهدوا فى هذا الحقل الغنى من البحث العلمى .

ولقد زار مؤسس علم الآثار المصرية « جان فرنسوا شمبليون » النوبة مع « نكولا روسالينى » فى عام ٢٩ - ١٩٢٨ وقام بتسجيلات هامة للنصوص وعمارة الأبنية . وقبل هذا فى سنة ١٨١٩ أقام المهندس الفرنسى الشهير « هوبرت » الذى صمم قوس النصر ، رسوما أفقية لعدد من المعابد ووضع عددا من رسوماته تحت تصرف شمبليون الذى استعملها لتصحيح تفاصيل الصور فى كتابه « وصف مصر » .

ولم يكن البحث الأثرى سهلاً حينئذ في النوبة . قال سفر البطي «
بالمراكب الشراعية وحالة الأمن غير مطمئنة جعلت حياة المنقب صعبة
جدا . وتلمس هذا من خلال التسجيلات التي خلفوها لنا ، في صورة
غير دقيقة ، تحمل كل علامات العمل العاجل الذي تم تحت تهديد
مستمر بالتوقف .

وفي الحقيقة لم تؤت المعلومات لآثار النوبة ثمارها بنجاح الا في
منتصف القرن الماضي . ولقد قاد « كارل ريتشارد ليسيوس » بين سنة
١٨٤٢ وسنة ١٨٤٥ البعثة البروسية في مصر والنوبة وبمساعدة
مجموعة مؤهلة من ناقل النقوش epigraphists فجمع مادة كبيرة نشرها
سنة ١٨٥٩ في الاجزاء الاثني عشر من كتابه « الآثار » الذي لا يزال الى
يومنا هذا من أهم المراجع في مكتبة الآثار المصرية . ولقد خصص جزء
كبيراً من هذا العمل الضخم لمعالم النوبة ، واننا لنعجب لنوع العمل
التسجيلي والدقة العامة للرسومات الهندسية اذا قدرنا الوقت المحدود
الذي استغرقت البعثة اذ لا بد أنها كانت معجزة في النظام . ومع كل
هذا العمل والمسئولية فلقد وجد « ليسيوس » الوقت ليقوم بدراسة
اللهجات النوبية ونشر نتائج أبحاثه في عام ١٨٨٠ .

ومع أن التصوير قد عرف منذ أوائل القرن الحالي وكان عاملاً
مساعداً للسجل الأثرى الا أنه لم يستعمل في النوبة الا منذ سنة ١٩٠٧ .
ففي هذا العام زار المنطقة عالم الآثار المصرية والمؤرخ الأمريكي
المعروف « برستد » . وفي اثناء جولة طويلة وصل خلالها حتى
السودان . فالى جانب نسخ يدوي لبعض مخطوطات مهمة ، استعمل برستد
التصوير الفوتوغرافي ، وكثير من تسجيلاته بهذه الطريقة لا يمكن أن
يفوقها تصويرنا الآن . وكان عمله قيماً ، الا أن بعضاً من المادة التي
درسها قد ضاع الآن .

كما فحص أيضاً القلاع التي على حدود الشلال الثاني تباركا
معلومات ذات قيمة كبيرة « لريزنر » عندما تقب فيما بعد بعض هذه
المناطق . و « ريزنر » مدين أيضاً « لسومرز كلارك » الذي كان في وقت
من الأوقات يعمل مهندساً في مصنع كاتدرائية سانت بول الا أنه كان
دائماً مهتماً بالعمارة المصرية القديمة . ولقد نشر « كلارك » دراسة
عن القلاع المصرية في النوبة سنة ١٩١٦ . ومع انها دراسة ذات طابع
عام الا انها وضعت الأساس للدراسة هذا النوع من العمارة المصرية .

ومن بين التنقيبات التي أجريت في النوبة خارج المسحين الأثرين منذ منتصف القرن الماضي يمكننا أن نذكر الآتي :

إن بعثة الألماني « ارنست فون سيجلين » التي تمت تحت إشراف الأستاذ « جيورج شتايندورف » ما بين عام ١٩١٢ - ١٩١٤ قد حفرت في منطقة عنيفة التي كانت « نيعام » العاصمة القديمة للنوبة السفلى في الأسرة ١٨ . وهناك عثر « شتايندورف » على مقابر عديدة مهمة من عصر المجموعة الثالثة كما عثر على مكان الجدار العظيم لقلعة بنيت في ذلك العصر مثلها مثل كل الحصون العسكرية التي بنيت في زمن الأسرة ١٢ ووسعت فيما بعد في عصر « لامبراطورية حتى إنها أصبحت حينذاك من أكبر المدن المحصنة في النوبة كلها . وينشوب الحرب العالمية الأولى منع « شتايندورف » من فحص حفائره بالتفصيل ولم يرجع ويحفر هذا المكان المشهور إلا أثناء المسح الأثرى الثاني ما بين عام ١٩٢٩ ، ١٩٣٣ نيابة عن مصلحة الآثار المصرية . ومع أن حالة اطلال القلعة الواسعة كانت مخيبة للأمل نتيجة لعوامل التآكل بسبب الرياح إلا أن « شتايندورف » خرج منها بمعلومات قيمة عن العمارة العسكرية في هذا العصر عوضته كل سني البحث وكميات النقود التي صرفها على المشروع .

ولقد كانت هناك بعثة « إكلي ب . كوكس » التابعة لجامعة « بنسلفانيا » تحت إشراف الدكتور « رندال ماكيفر » وحفرت عدة مواقع ما بين الشلال الأول والشلال الثاني في الفترة ما بين أعوام ١٩٠٧ ، ١٩١١ : وكان يعاون « ماكيفر » ، « ليونارد وولي » الذي أصبح فيما بعد المكتشف المعروف للمقابر السومرية لملوك « أورو » والذي حصل على لقب فارس لخدماته في حقل آثار الشرق الأوسط . هذان الرجلان ساهما في بداية حياتهما العلمية إلى درجة كبيرة في تطوير معلوماتنا عن تاريخ النوبة بعد قيامهما بالحفائر في « أريكا » « وكراتونج » « وبوهن » كما نشرتا نتائجهما بالتفصيل . ولقد كانت معلوماتنا بدائية في ذلك الوقت عن آثار النوبة وكذلك كان بعض التاريخ والتعرف على جفرياتهما خاطئا ولكن طريقة تسجيلهما التفصيلي صححت ذلك الخطأ بسهولة في السنين التالية بعد أن وضحت صورة التاريخ النوبي .

وفي الفترة ما بين سنة ١٩١٠ ، ١٩١٢ قامت بعثة « أكسفورد » في النوبة تحت إشراف الأستاذ « جريفت » بحفائر طويلة في « فنرس » « نياخورين » القديمة الواقعة على الحدود بين مصر والسودان ، وعلى

بعد خمسة وعشرين ميلا شمال الجندل الثانى . هناك فى ذلك الموقع القيم كشف « جريفيث » عن بقايا من كل العصور تقريبا منذ عصر ما قبل الأسرات ، والمجموعة الأولى من العصر النوبى حتى العصر المسيحى . وقد تمت حفائر جريفيث فى النوبة على مساحة واسعة ومع ذلك فإن الكثير لم ينقب عنه ، والموقع الآن تحت فحش البعثة البولندية التى وصلت إلى نتائج مثيرة للغاية خاصة ما يمت ببداية العصر المسيحى فى وادى النيل .

ولقد انتهى ريزنر من المسح الأثرى الأول سنة ١٩٠٩ ولكن مشاكل آثار النوبة لا تنسى بسهولة ففي سنة ١٩١٢ بدأت مرة أخرى حفائر فى كرما بجانب الجندل الثالث . وقد كان كشفه فى ذلك الموقع من بين الاكتشافات الأكثر إثارة فى النوبة ومع ان النتائج التاريخية التى استقصاها منها وضعت موضع التساؤل فى ضوء الحقائق التى أنتجتها الاكتشافات الجديدة الا أنها أصبحت أكثر أهمية لتسجيله الدقيق الذى كانت إحدى خصائص ريزنر فى العمل . وهناك فى كرما عثر على بقايا بناءين كبيرين من اللبن وبجوارهما مقابر غطيت بكومات كبيرة من الطمي وأكبرها كان لها مساحة أرضية حوالى ٥٠٠ م مربع . واعتبر ريزنر أن إحدى هذه الأبنية اللبنية محطة تجارية محصنة شيدها المصريون فى الدولة الوسطى وربما كان اعتقاده صحيحا ولكن شخصية البناء الثانى ما زالت فى حاجة الى دراسة مع أنه من المؤكد أنه من أصل مصرى . اما المقابر ذات الكومات فهى من أصل نوبى وفى الغالب كانت مكانا لدفن ملوك كوش القديمة عندما كانت تكافح ضد مصر فى الدولة الوسطى وعصر الاضمحلال الثانى . وهذه الدفنيات البدائية حيث وجدنا التضحيات البشرية كأهم خاصية لها ، ليست مصرية مع أننا عثرنا على قطع مصرية فيها . فلقد أتت هذه عن طريق التجارة أو النهب أثناء الحرب . وليست كما ظن ريزنر دليلا على أن أصحاب المقابر مصريون حكموا كرما كمستعمرين وبعد موتهم دفنوا على طريقتهم وعادات بلادهم . ومع أن كرما لا تهددها مياه الخزانات الجديدة فأظن أنه لا يوجد مكان فى النوبة يستحق التنقيب مرة أخرى أكثر منها وأتمنى أن تلقى الاهتمام الذى تستحقه عن قريب .

ورجع ريزنر مرة أخرى الى النوبة بين سنة ١٩٢٤ ، ١٩٣٢ عندما أشرف على بعثة جامعة « هارفارد » ومتحف « بوستون » للفن

لحفرة بعض القلاع المصرية الواقعة في منطقة الجندل الثاني وهنا
أيضا ندين لهذا العالم الكبير لتسجيلاته التفصيلية التي مكنت من
نشر أعماله بصورة مشرفة والتي ظهرت سنة ١٩٦٠ أى بعد وفاته سنة
١٩٤٢ بعدة أعوام .

ومن البعثات الأخرى التي خرجت بنتائج تاريخية قيمة البعثات
البريطانية في مواقع جنوبي المناطق التي كانت ستغمرها مياه الخزان
الجديد ففي أعوام ١٩٣٠ ، ١٩٣٤ ، ١٩٣٥ ، ١٩٣٦ . نعت بعثة اكسفورد
مواقع «كاوا» و «فركا» تحت اشراف «جريفيث» و «كروان» ونشرت
نتائجها باسهاب ، وفي «كاوا» سنة ١٩٣٠ كشف جريفيث عن معبد طاهرقا
وبقايا الأبنية الدينية من عصر أمنحتب الثالث واخناتون وتوت عنخ آمون .
وأصبح مؤكدا أن «كاوا» هي «جمآتون» المدينة التي أنشأها اخناتون في
النوبة العليا لنشر عبادته الجديدة في الجنوب . ولم تجر اكتشافات أخرى
في «كاوا» حتى ١٩٣٥ ، عندما رجعت بعثة اكسفورد تحت اشراف كروان الذي
خرج بمعلومات كثيرة عن الاحتلال الطويل للمدينة والذي دام على الأقل
حتى العصر المروى الأعلى . ولكن تاريخ انشاء المدينة غير معروف فربما يرجع
بعيدا حتى الدولة الوسطى . وما زال الكثير باقيا في «كاوا» التي يمكن
اعتبارها أحد المواقع ذات القيمة الكبيرة في النوبة العليا .

ولقد قامت بعثة اكسفورد تحت اشراف كروان بالتنقيب في «فركا»
سنة ١٩٣٤ حيث كشفت عن آثار مهمة في جبانة من المجموعة س ومع أنها
نهبت بوحشية الا أنها أخرجت مادة قيمة أسهمت في معرفتنا للسنتين
الآخيرة للنوبة الوثنية .

كما كشفت «جمعية التنقيب المصرية» مدن من الدولة الحديثة في
«سيسبي» و «عمرة» غرب تحت اشراف الاساتذة «بلاكمان» و «فيرمان» .
ودلت «سيسبي» التي قام بتنقيبها فيرمان سنة ١٩٣٧ على انها مدينة
أنشأها أيضا اخناتون حيث شيد معبد لاله آتون ولم يبق منه أكثر من
ثلاثة أعمدة نتيجة لعوامل الرياح . ولم يبق الكثير في موقع «عمرة غرب»
نتيجة للعوامل الطبيعية وخاصة الرياح ، ومع ذلك فحفائر سنة ١٩٣٩ ،
١٩٤٧ كشفت عن نتائج مهمة ستنشر عما قريب . ان البقايا العارية من
جدران المدينة تستحق التنقيب لأنه لا بد أن هذه المدينة بناها «سيسبي
الأول» كانت هي المركز الإداري للنوبة العليا أثناء الأسرة ١٩ .

وأثناء المسح الأثرى الثانى استغل « دونبار » ، أحد موظفى الحكومة
السودانية حينئذ ، أعماله وواجبه فى النوبة فأمضى أوقات فراغه فى النقل
باليد وتصوير النصوص التى لا حصر لها والمناظر التى وجدها على الصخور
على شاطئ النيل بأسهاب وسجل كشوفاته التى لا تقدر بثمن فى أحد
مجلات مصلحة الآثار المصرية ، مما ظل بعد ذلك أساسا للعمل فى هذا
الموضوع . وعلى الرغم من الاكتشافات الجديدة التى سيكشف عنها مستقبلا
فإن عمل «دونبار» وحده يقف شامخا باعتباره إطارا لأى أبحاث جديدة
فى هذا الفرع من آثار النوبة .

الفصل الخامس

نتائج نداء اليونسكو

ان عددا كبيرا من الناس يعتقدون ، نتيجة الجهل ، بأن نداء اليونسكو لعلم الآثار العالمى كان فاشلا والسبب هو أنهم اعتبروه زيادة تأكيد فى الدعاية التى أعطيت للمصير غير المعروف لآثار أبو سمبل . وهذا غير صحيح فمع أن بعض العمائر سيضحي بها نتيجة لقلة التمويل، الا أننا متأكدون بأن كل موقع أثرى سينقب ويسجل بنظام ودقة قبل أن تغمر مياه الخزان بلاد النوبة . والحقيقة أن عالم الآثار لم ينقب منطقة واسعة فى العالم مثلما حدث فى هذه المنطقة . ونرفق هنا الى جانب المساعدة المالية التى أسهمت بها دول كثيرة ملخصا للعمل فى حقل التنقيب والتسجيل والحفظ ، ليعطينا فكرة عن المجهود العالمى الواسع الذى أقيم استجابة لنداء اليونسكو .

الأرجنتين : بدأت جامعة « لابلاتا » بالاشتراك مع وكالة الحفر الوطنية الفرنسية بدأت الحفر فى «عكشة» فى بداية عام ١٩٦١ واتجه

نظرهم في عام ١٩٦٢ الى اطلال قلعة «مرجيسه» • ولم يتجاوز العمل فيها
مراحله الاولى (انظر فرنسا أسفل) •

النمسا : ومنذ بداية شهر ديسمبر عام ١٩٦١ قامت بعثة
جامعة « فينا » بالحفر وتسجيل المواقع التي ترجع الى عصر ما قبل
التاريخ في منطقة « سيالة » • وسجلت هذه البعثة أيضا النقوش
الصخرية لعصور مختلفة في المنطقة نفسها بحيث ثبت أن مناظر الزرافة
كانت تعاصر حضارة المجموعة الأولى في النوبة •

بلجيكا : قامت بعثة ترعاها الحكومة البلجيكية بتسجيل معابد
« سمنه » و « قمة » بالتصوير الفوتوجرامترى وبموافقة جمعية التنقيب
في مصر قاموا بمسح معبد وجزء من حصن الدولة الوسطى في بوهن
بالتصوير الفوتوجرامترى وهذا لصنع نموذج للحصن يوضع في متحف الخرطوم •

كندا : وقام المتحف الوطني في « كندا » بالاشتراك مع « جامعة
هارفارد » بمسح لعصر ما قبل التاريخ في النوبة السفلى •

تشيكوسلوفاكيا : قام المعهد التشيكوسلوفاكي للمصريات التابع
لجامعة « شارلس » بالحفر في حصن من العصر المتأخر في « قرطاس »
وفي مواقع « تافا » في منطقة بين « وادي السبوع » و « عمدا » •

الدنمارك : انظر اسكندنافيا •

فنلندا : انظر اسكندنافيا •

فرنسا : قام المعهد الفرنسي لدراسة الآثار الشرقية I.F.A.O.
بالاشتراك مع المعهد السويسري للبحوث الأثرية بالحفر والتنقيب في
« وادي السبوع » كما قاموا بمسح للنصوص ودراستها في معبد « رمسيس
الثاني » الموجود في المنطقة •

ولقد قامت بعثة من قبل المعهد الوطني الفرنسي للجغرافيا بمسح
كامل بالتصوير الفوتوجرامترى لكل النوبة المصرية • ومن هذه الصور أمكن رسم
خرائط •

أما في النوبة السودانية فقد أنهت الوكالة الوطنية الفرنسية
للتنقيب بالاشتراك مع جامعة « لابلاتا » الحفائر في « عكشة » وتحفر
الآن في « مرجيسه » (انظر الأرجنتين) •

ألمانيا : (الاتحادية) : أنهى معهد الآثار الألماني في القاهرة حفائره
فى منطقة قريبة من معبد « عمدا » . فقد قامت بعثة ألمانية عملت تحت
إشراف المعهد الألماني للآثار فى القاهرة ، بفك معبد « كلابشه » وإعادة بنائه
على ربوة بالقرب من السد العالى .

غانا : تقوم « غانا » منذ عام ١٩٦١ بالحفر فى منطقة « سرا »
على الشاطئ الغربى للنيل فى النوبة السودانية . وينقبون ، فى المنطقة ،
عن مدينة كبيرة من العصر المسيحى المبكر لها أهمية خاصة من الناحية
المعمارية .

الهند قامت بعثة تحت رعاية الحكومة الهندية بالحفر فى منطقة
« عافية » فى النوبة المصرية حيث عثروا على مادة ثمينة ترجع الى
حضارتى المجموعة الأولى والمجموعة الثالثة .

إيطاليا : قام متحف « تورينو » للمصريات بالحفر فيما بين
« دابود » فى الشمال وخور « دهميت » فى الجنوب . ولقد سجلوا فى خور
« دهميت » نقوشا ورسوما صخرية متعددة .

قامت جامعة « ميلان » بالحفر فى مناطق « سسبجورة »
و « كوبان » و « تاميت » وعلى الضفة الشرقية للنيل فى « أبو سمبل »
ولقد أنهت هذه البعثة تنقيباتها فى « محرقه » و « اخمندى » .

هولندا : قامت بعثة من متحف « ليدن » بالحفر على الضفة
الغربية للنيل شمال أبو سمبل . وعثروا هناك على موقع لمدينة مرتبة
طبقة فوق طبقة من العصر المروى وعصر المجموعة (س) .

النرويج : انظر اسكاتدنافيا .

بولندا : أتم المركز البولندى لآثار البحر الأبيض المتوسط التابع
لجامعة وارسو ، الحفر فى النوبة المصرية فى المنطقة المتاخمة لمعبد
« دابود » كما قام بالحفر فى الموقع الكبير فى « س » فى النوبة السودانية .
ولقد أدت الحفائر فى فرس الى نتائج رائعة لانهم كشفوا تحت كومة
كبيرة عن كنيسة فى حالة جيدة ترجع الى القرن السابع الميلادى
ورسمت جدران الكنيسة والعمائر التى تحيطها من العصر نفسه بألوان
لا تزال براقه وهذه المناظر الدينية الدقيقة الصنع ليس لها مثيل حتى
الآن فى وادى النيل . ولقد أقام هذا الكشف مشاكل عدة اذ أنه على

جدار واحد رسمت (فرسكو) الواحدة فوق الاخرى ويجب نقل كل واحدة منها على حدة ، طبقة طبقة قبل أن تزيلها مياه الخزان في دقائق . ولقد أتى الى الموقع متخصصون من وارسو نقلوا أكثر من مائة فرسكو رائعة تعتبر من أجمل ما عثر في الفين المسيحي . وستعرض فيما بعد في المتاحف .

ولقد عثرت البعثة البولندية أيضا على مقابر الأساقفة المسيحيين الأوائل في فرس وعدة قطع جميلة ذات شكل فريد . وتسجل هذه الآن . ولكن قبل أن تعلق المياه في آخر عام ١٩٦٤ يجب على البعثة البولندية أن تنهى عدة أعمال عظيمة فلقد أظهروا تحت الكنيسة المسيحية قطعا حجرية ترجع الى معبد مصرى قديم للفرعون تحتمس الثالث وليس غريبا أن يجدوا أيضا معالم حصن من الدولة الوسطى تحت معبد الدولة الحديثة .

اسكندنافيا : ان البعثة الاسكندنافية المشتركة المكونة من « النرويج » و « السويد » و « فنلنده » قد قامت بمسح أثرى عام على الشاطئ الغربى للنيل ما بين « فرس » و « جاماي » في النوبة السودانية . ولقد نظفت وسجلت جبانات ومستعمرات من كل عصور ولقد كشفت هذه الحفائر الواسعة عن مجموعة غنية لأدوات ترجع الى حضارة المجموعة الثالثة . وقد قام الاسكندنافيون أيضا بالتنقيب على الشاطئ الآخر عند « دبيرة » حيث عثروا على المقبرة المنقورة في الصخر للأمير « آمون - أم - حيت » وكان حاكما نوبيا متمصرا من القرن السادس عشر ق . م .

اسبانيا : أتمت البعثة الوطنية الاسبانية للنوبة حفائرها في « شيخ داود » في النوبة المصرية وفي « أرجن » في النوبة السودانية . وستكون أعمالهم المقبلة في موقع « قصر ايكو » على جزيرة « أبكتارتى » .

السودان : قامت مصلحة الآثار السودانية بمساعدة عالمين في الآثار من قبل اليونسكو بالحفر الواسع على شاطئ النيل وعلى الجزر الموجودة في الجندل الثانى . والمعلومات التى اكتسبوها ساعدت المصلحة في اعطاء نصيحة للبعثات الأجنبية عن أهمية المواقع المناسبة للحفر . ويقومون الآن بالحفر في جزيرة « مايانارتى » حيث توجد بقايا كثيرة من العصر المسيحي .

وقد كشف التنقيب عن أن نقوشها المائية لها قيمتها الا أنها ليست فى نفس مستوى ما عثر عليه فى « فرس » .

السويد : أنظر اسكندنافيا .

سويسرا : اشتركت بعثة المعهد السويسرى للبحث الأثرى فى مصر القديمة مع المعهد الفرنسى للآثار الشرقية فى عمل مسح للنصوص ودراستها لمعبد « وادى - السبع » . كما اشترك المعهد السويسرى أيضا مع المعهد الشرقى فى شيكاغو بالحفر بين خور « دهميت » و « كلايشة » فى النوبة المصرية . وفى هذه المنطقة فحصت البعثة المشتركة أكثر من خمسمائة مقبرة من عصر المجموعة (س) وعثروا على نوع جديد من الأواني الفخارية يمكن أن يعطينا معلومات جديدة عن أصل أهل المجموعة (س) (انظر ص ٢٣٢) .

الجمهورية العربية المتحدة : قامت مصلحة الآثار المصرية بفك معابد « تافا » و « دابود » و « قرطاس » و « دكة » و « دندور » و « محرقة » وينتظر أن تقام هذه المعابد مرة أخرى على مواقع مرتفعة عن منسوب مياه الخزان .

ولقد أتمت بعثة جامعة القاهرة حفائرها الواسعة فى « عنيبة » حيث فحصت جبانات من كل عصور التاريخ النوبى تقريبا واقتنت معلومات جديدة ذات قيمة تاريخية ثمينة .

المملكة المتحدة : أتمت بعثة جمعية التنقيب المصرية حفائرها الواسعة فى قلعة « بوهن » فى النوبة السودانية . وسجل معبد « حتشبسوت » كله وتم فك المعبد حجرة حجرة ونقل الى الخرطوم اذ أن مصلحة الآثار السودانية ستعيد بناءه فى فناء المتحف . ولقد عثر الى شمال القلعة على بقايا مدينة ترجع الى الأسرتين الرابعة والخامسة وتم الكشف عنها . وعندما ينتهى العمل فى القلعة والمدينة التى ترجع الى الدولة القديمة ستتجه البعثة الى « كور » الذى يبدو أنه موقع لمستعمرة مخصصة من الدولة الوسطى أو الدولة الحديثة . ولقد أتمت البعثة فى النوبة المصرية مسحاً أثرياً عاماً لسطح النيل بين الشلال وأدندان كما تقوم الآن بالحفر أيضاً فى جبانة قصر ابريم وحصنها (انظر ص ١١٦) .

وبعثت كلية « كوين » فى « أوكسفورد » متخصصاً فى فن نقل النصوص ليساعد فى تسجيل النقوش الصخرية فى منطقة «أبو سمبل» .

الولايات المتحدة الأمريكية : أنهى المعهد الشرقى بجامعة شيكاغو مسحاً للنصوص ودراستها لمعبد « بيت الوالى » ويقوم الآن بحفر فى

منطقة « قسطل » . وأنهى المعهد بالاشتراك مع المعهد السويسرى حفائره فى المنطقة الواقعة بين « دهميت » و « كلابشة » (انظر سويسرا) .

أما فى النوبة السودانية فيقوم المعهد أيضا بالحفر فى حصن « سزا » الشرقى من عصر الدولة الوسطى .

وتقوم جامعات « كولومبيا » و « نيومكسيكو » معا بمسح عصر ما قبل التاريخ فى المناطق المهددة من النوبة السودانية .

وتقوم بعثة لجامعة « براون » بعمل مسح للنصوص ودراساتها فى معابد « سمنه » « وقمة » فى النوبة السودانية .

وتقوم جامعة « كولورادو » بالحفر فى منطقة « دابروزا » غربى فى النوبة السودانية .

أما البعثة المشتركة لجامعتى « ييل » و « بنسلفانيا » فقد وجهت نظرها بعد أن حفرت فى المقبرة الصخرية « لحكانفر » ، أمير « ميعام » ، فى « توشكا » - إلى المناطق المجاورة وبدأت فى الكشف عن عدة مقابر لجبانات مهمة من العصر المروى والمجموعة (س) ولكن أهم ما عثروا عليه كان ختم آتية من الطين ترجع إلى الأسرة الأولى . وهذا دليل آخر على توغل المصريين المبكر فى النوبة فى فجر التاريخ وتقوم هذه البعثة الآن بالحفر فى جبانة « جبل علة » .

روسيا : قام معهد « ليننجراد » للآثار قسم أكاديمية العلوم ، بالحفر فى منطقة بين « كوبان » و « وادى » « علاقى » فى النوبة المصرية .

يوغوسلافيا : بعثت الحكومة اليوغوسلافية بعثة هندسية لتساعد فى المسح عند معبد « جرف حسين » .

والى جانب العمل المتقدم فى المناطق المهددة فى النوبة المصرية والسودانية ، تقوم بعثتان أخريان بالتنقيب الواسع فى السودان : وهما بعثة المانيا الشرقية التابعة لمعهد المصريين فى جامعة هامبولدت فى برلين وهذا فى منطقة « مصورة الصفراء » . أما البعثة الثانية فهى بعثة « شيف » الإيطالية التابعة لجامعة « بيزا » فى « سولب » .

ولم يحدث من قبل أن تركزت أبحاث أثرية متعددة فى منطقة محدودة نسبيا ، وقد كانت النتائج ، فى نظرى ، حتى الآن ، أحسن مما كنا نتصورها . وما زال الوقت مبكرا جدا لتقدير قيمة العمل النهائى لأن نتائجه لن تنشر الآن .

ويمكننى أن أكتب عن عملى الخاص بصفتى مديرا للحقل لبعثة
جمعية التنقيب المصرية بتفصيل واسهاب وثقة أكثر مما يمكن أن
أكتبه عن أى بعثة أخرى . وعلى أية حال فيجب أن نقدر ان البيان
المقدم عن المساهمة البريطانية فى عملية الانتقال فى النوبة ليس الا مجملا
بسيطا لتقاريرى التمهيدية التى نشرت فى « كوش » وهى مجلة
مصلحة الآثار السودانية وفى مجلة مصلحة الآثار المصرية .

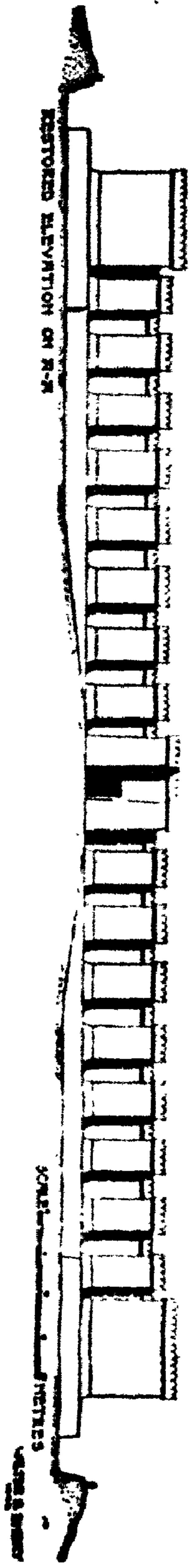
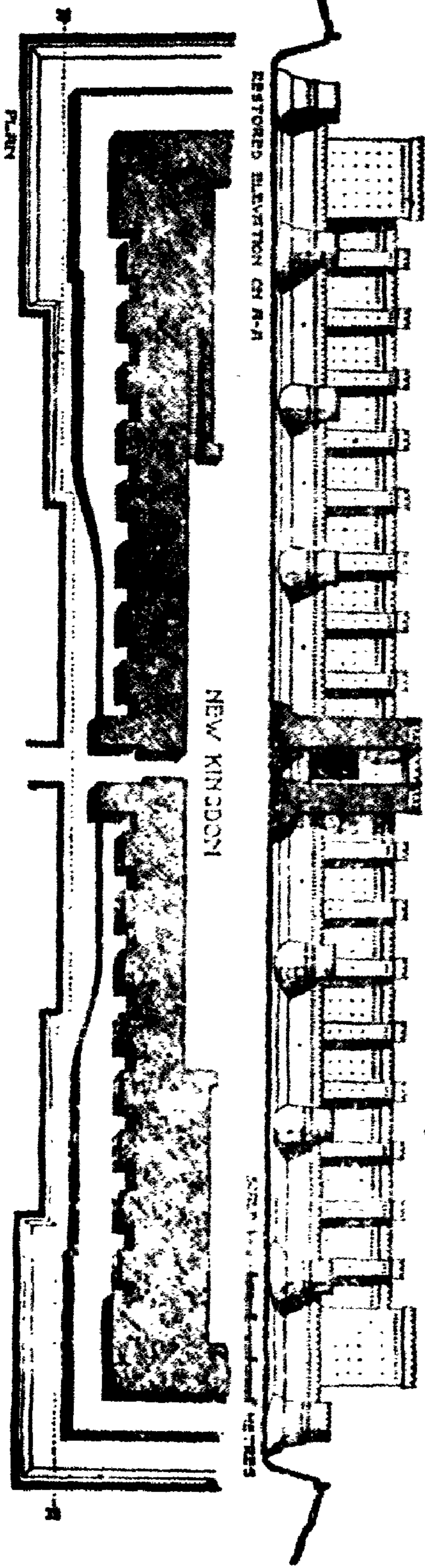
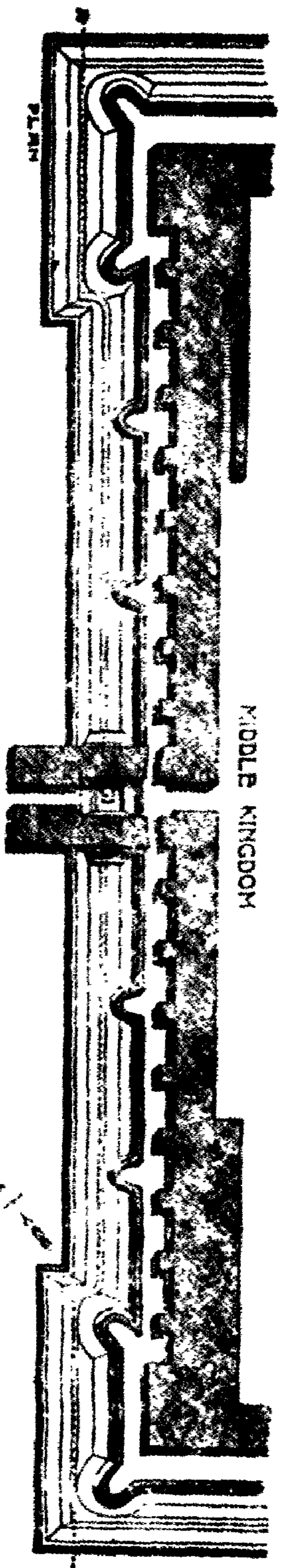
ان البعثة المصرية للتنقيب سبقت نداء اليونسكو فكانت حفائرنا
فى بوهن قد بدأت قبل أن تبدأ الحملة العالمية لاتقاذ آثار النوبة بثلاثة
أعوام . وأحب أن أتصور - ربما مخطئا - أن نجاح الاستجابة الى نداء
اليونسكو كان يرجع جزئيا الى الدعاية التى أعقبت كشوفاتنا المثيرة فى
الموسم الأول لحفائرنا فى النوبة .

ففى أوائل عام ١٩٥٧ تنفيذا لأوامر جمعيتنا ، زرت « وادى
حلفا » وأثناء عودتى أشرت بأنه يجب أن نحصل من مصلحة الآثار
السودانية على امتياز للتنقيب فى « بوهن » والمناطق المجاورة حتى
« كور » جنوبا ، عند رأس الشلال الثانى . وقبلت اللجنة الاقتراح
وبعد الحصول على الامتياز بدأت فى التنقيب فى الثانى عشر من نوفمبر
عام ١٩٥٨ .

ولم تكن بعثتنا أول بعثة تحفر فى بوهن . فلقد كشف عن المعبد
المتابع للمعسكر فى أوائل هذا القرن وبحثه عدد من علماء الآثار منهم
« شمبوليون » - بحثا علميا (انظر ٩١) . ولقد قام « رندال ماكيفر »
« وليونارد وولى » فى عام ١٩١٠ - ١٩١١ بالحفر الواسع المدى هناك
بالنيابة عن جامعة « بنسلفانيا » . ومع ذلك فقد كنت واثقا من أن الكثير
لا يزال مختبئا . ونظرا لدمار كل الآثار النوبية مستقبلا شعرنا أن فحصا
آخر دقيقا يجب أن يتم . وعلاوة على ذلك فإن علم الآثار المصرية فقير فى
دراسة العمائر العسكرية المصرية القديمة لأنه لم يتم حفر حصن أو قلعة
بالكامل وكان احساسنا أنه لا بد من ملء هذا الفراغ قبل أن يفوت الأوان
ولوحظ فى الوقت نفسه أن مثل هذا المشروع سيتطلب الكثير، من الناحيتين
المالية والزمنية . ويمكن أن يكون العمل الذى قامت به بعثة جمعية التنقيب
المصرية وحدها أعظم تنقيب ، وقد تبين أن ذلك صحيح . وفى عام ١٩٦٣
أكملنا الموسم السادس واحتجنا الى ثلاثة أشهر أخرى فى عام ١٩٦٤
لننتهى عملنا . ولكن هذا المجهود أتى بشماره عندما عثر على
الحصن العظيم المدفون فى الرمال المتراكمة وكان الحصن فى حالة حفظ

بديعة . وظهرت تقريبا كل تفاصيل العمارة العسكرية المصرية فيه الى درجة أنه أعيد تشييدها كما نرى في الشكلين ١٠ و ٩ مما يعد مادة قيمة لا لدارس الآثار المصرية فحسب ولكن للمؤرخ العسكري أيضا . كما ظهر أن أوصافا ومعالم دفاعية كانت تعد من ابتكار أوروبا في القرون الوسطى ، عرفها المصريون في الدولة الوسطى منذ أربعة آلاف سنة . وألقت أيضا ضوءا جديدا على الاهداف الحربية المصرية في النوبة . وتبين ان الوقت المحدود الباقي لنا لن يكفي للكشف والتنقيب عن كل الحصون التي تكون مجموعة الاستحكامات الممتدة على طول منطقة الجندل الثاني . لذلك يعتبر تسجيل أحد هذه الحصون مادة قيمة ، اذ يمكن اعتباره مرشدا نفس على هديه أوصافا عديدة كان يمكن أن تبقى لغزا غامضا في عمارة مشابهة فحصت جزئيا .

وقبل أن أصف الحوادث التي أدت الى الكشف المختلفة في « بوهن » يجب أولا أن ألخص تاريخ الحصن كما كشفت عنه التنقيبات حتى الآن . لقد شيد هذا الحصن فراعنة الأسرة الثانية عشر (١٧٨٦ - ١٩٩١ ق . م . لحراسة حدود الامبراطورية الجنوبية التي كانوا قد وصلوا اليها . ويبدو أن « بوهن » كانت المركز الإداري لكل منطقة الحصون في عصر السلطة العسكرية المصرية لأكثر من مائتي عام . ولكن في الأيام العصيبة التي تلت غزو الهكسوس للوطن ، احتلت جيوش الكوشيين الحصن كما أن أجزاء منه دمرتها النيران . ويبدو أن الفازين سكنوا فيه لفترة ولكنهم لم يحاولوا إعادة بناء الأجزاء المهدمة . وبقيت « بوهن » اطلالا عظيمة حتى غزا ملوك الأسرة ١٨ النوبة مرة أخرى (١٥٧٠ - ٣٤٩ ق . م .) وقد سكنت القلعة مرة أخرى وأعيد بناء جدرانها وقويت ، كما رقت المدينة من الداخل دون ما تغير في الأساس الا أن منازل القواد الكبيرة قسمت الى مساكن صغيرة والتغير الأساسي كان هو بناء معبد الملكة « حتشبسوت » فوق أساسات بناء يرجع الى الدولة الوسطى ويبدو أنه كان معبدا . وأضيف الى الأبنية القديمة مرسى جديد مبنى من الحجر على حافة النهر وأمامه . ولذلك بقيت القلعة تخدم غرضها حتى سقوط قوة مصر في النوبة في آخر الأسرة العشرين ، ومن ثم أخليت في هدوء ، الا انه تم الاستيلاء عليها مرة أخرى في إحدى المعارك . وقد احتفظت أبنية الدولة الحديثة بآثار حرائق وجدت بقاياها على الأطلال التي غطتها رمال الصحراء حديثا . ولم يظهر منها الا برج واحد من اللبن كان جزءا من الجدار الواقع الشرقي أصلا ولم

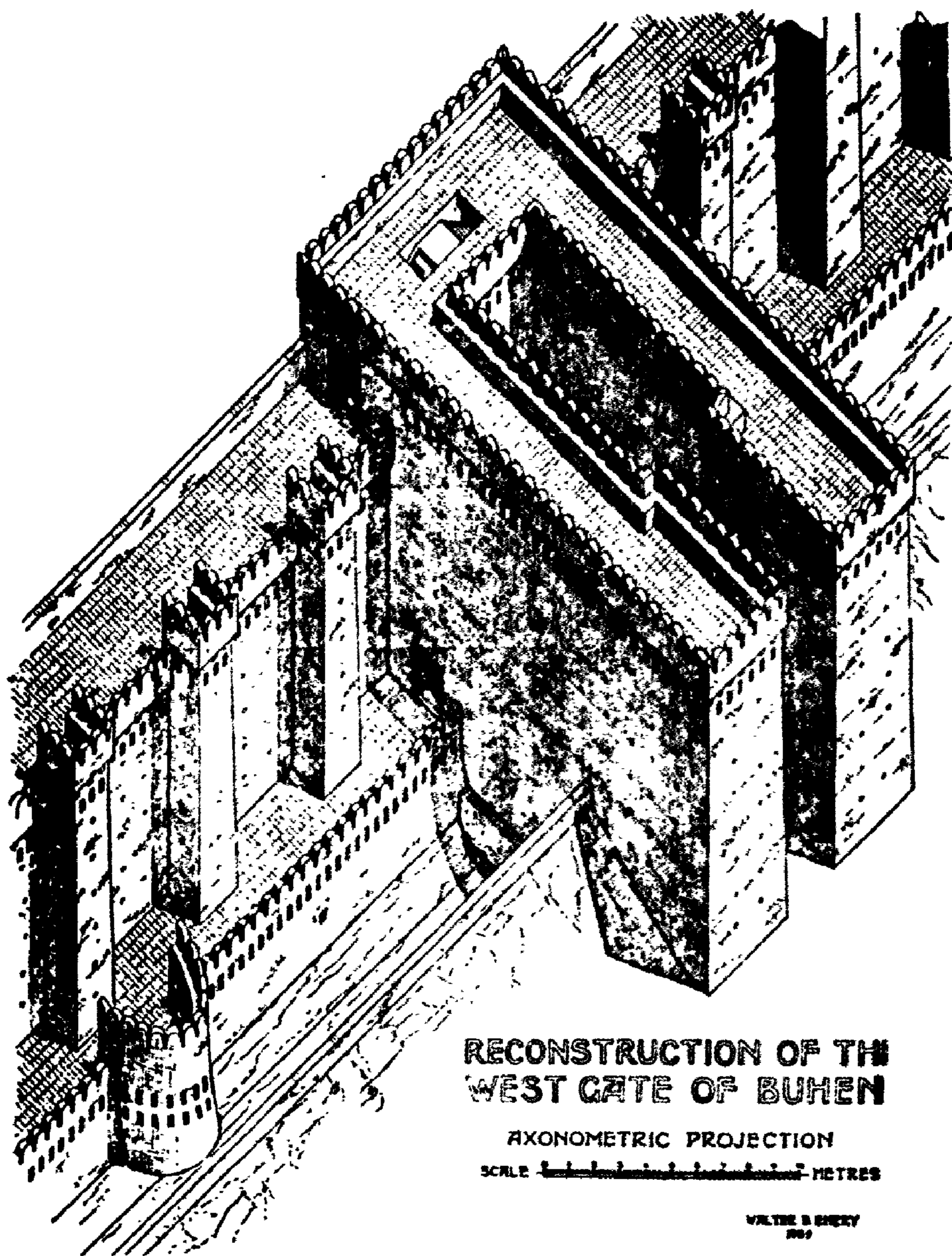


شكل ٩ قلعة « بومن » الدولة الوسطى

تمسه الرياح ، وكانت هناك أيضا أجزاء من معبد « حتشبسوت » عارية فوق طبقات الرمال المتراكمة كما ظهرت أيضا بقايا مستعمرة صغيرة من العصر المروى والمسيحي فوق الجزء الجنوبي لمدينة من الدولة الحديثة .

وبعد المجسات الأولية اتفقنا على أن نركز عملنا في الحصن الداخلي أو القلعة وتطلب ذلك أن نقوم بفحص دقيق لبنى شيد في عصرين: الأصلي يرجع الى الدولة الوسطى، وقد حدثت الاضافات والتغييرات، عندما أعيد بناؤها في أوائل الأسرة الثامنة عشرة . هذا البناء المستطيل الشكل يمتد على مساحة طولها ١٧٠ م x ٧٥٠ م وكان يحسدها من الجوانب الجدران الأساسية لاستحكامات الحصن السفلى والخندق الجاف . ويحوى السور بوابتين في جهة النهر وبوابة أساسية مواجهة للصحراء . وكان تنقيب الجدران والخندق الجاف عملية شاقة للغاية تطلبت عددا كبيرا من الرجال في مدة طويلة من الزمن . لكن تبين أنها كانت مريحة للغاية لأن البقايا الكافية قد أعطتنا تفاصيل كاملة لشكل نظام الدفاع في العصرين . ومما تبقى ، نستطيع بدقة كبيرة أن نعيد بناء هذا الحصن الذى يعتبر النموذج الجميل للعمارة العسكرية المصرية التى تشبه الى حد كبير ما كان موجودا في أوروبا في القرون الوسطى (شكل ٩) .

وهذا النظام الدفاعي المحكم يتكون من جدار مصمت من الطوب سمكه ٤ متر ، ٨٥ سم ويرتفع على الأقل الى ١٠ م يتخلله على مسافات منتظمة في واجهته الخارجية أبراج بارزة . ولم يبق شيء من الجزء العلوى للجدار ولكن حسب ما جاءنا من مناظر مصرية قديمة من الدولة الوسطى والحديثة ومن الحصون في مدينة هابو بطيبة يمكن أن نتصور أن الظلة كانت لها شرفات مستديرة وأن الأبراج البارزة كانت أعلى من الجدار أما أسفل الجدار فقد عثرنا على ممر من الآجر يحميه ظلة به مزاغل (فتحات لرمى السهام) يطل على الجزء الداخلى المنحدر للخندق الجاف . وهذا الخندق يصل الى ٨ م و ٤٠ سم فى العرض و ٦ ١/٢ م فى العمق وكان يعمل فى الأصل المنحدر العاكس على الناحية الاخرى للخندق ، طريق ضيق مرصوف باللبن ومن ورائه مرتفع مستدير الجانب ، الشديد الانحدار يبرز من مستوى الارض الطبيعى . ويبرز فى الخندق من الجزء الداخلى على مسافات شرفات مستديرة بعضها لا يزال فى حالة حفظ جيدة . والحاجز والشرفات المستديرة التى بها صفوف من فتحات رمى السهام الطولية مرتبة فى مجموعات



شكل ١٠
تصميم للبوابة الغربية
في « بوهن »

ثلاثية تتركز على نافذة واحدة يطلق منها الرامى السهم من ثلاث زوايا مختلفة نحو المهاجمين للخنديق أو الذين يأتون من عاكس المنحدر فى الجزء الخارجى للخنديق . وتظهر قوة هذه الحصون اذا وقفنا داخل الخندق ونلاحظ أن القوة المهاجمة يجب عليها أن تضرب أولا المرتفع المستدير وتحطم أى مركز طبيعة مختلف فى الطريق المغطى بينما هى تحت وابل السهم وضربات القلاع الآتية من الجدار العلوى الأساسى . ثم يجب عليهم أن ينزلوا على عاكس المنحدر الى داخل الخندق تحت وابل شديد من فتحات السهم فى الممر ومن الشرفات التى يختفى ويحتمى وراءها المدافعون . واذا نجحوا فى هذه الخطوة الأولى فعليهم بعد ذلك مهاجمة الجزء الداخلى للخنديق والممر الذى يعلوه ليجدوا أنفسهم فى ممر صغير فى أسفل الجدران الرئيسية التى يقذف منها أمطار من الحصى وما يشابهها . وكان الجزء الأكثر قوة وتحصينا هو البوابة المبنية فى وسط الجدار الغربى . ومع أن الجزء العلوى لها قد هدم بعد تعديلات الدولة الحديثة إلا أن الأساسات كانت محفوظة ، وقد حصلنا على معلومات عن طريقة الدفاع . وعثرنا على أدلة تشي بوجود أبواب مزدوجة فى البوابة التى فى الجدار الرئيسى وجسر خشبى يفتح ويفلق على أسطوانات . وشيد أمام البوابة والجسر جداران مستطيلان يمتدان فوق الخندق الجاف ويكونان دهليزا طويلا . فاذا ما دخلت قوة مهاجمة فى هذا الدهليز فلا بد أن تحارب فى مرورها تحت أمطار من القذائف الآتية من الجوانب الثلاثة للشرفة (شكل ١٠) .

وعلى أية حال فنحن نعرف أن هذا الحصن المنيع قد هوجم وأن قوات كوش قد استولت عليه فى آخر الدولة الوسطى . . ولكن اذا ما القينا نظرة الى ما تبقى من اطلال فلا يمكننا إلا أن نتساءل هل سبب الاستيلاء عليه لم يكن عن طريق خيانة . فلا شك أن معسكر « بوهن » لم يكن يخشى الهجوم إلا من الشمال والجنوب والغرب وهذه الجوانب كانت محمية بالطرق الدفاعية التى شرحتها . أما الجانب الشرقى المواجه للنيل ، فتخترقه بوابتان توصلان الى المدينة مباشرة وبدلا من الممر نجد سلسلة من الشرفات والأرصعة لرسو الأسطول الحربى والسفن التجارية التابعة للقراينة .

وعندما احتل المصريون ، مرة أخرى الحصن المخرب فى الدولة الحديثة ، أعيد بناء البوابة الغربية ولكن قطعت الجدران الواقية لتفصح المكان لطريق بنى فوق الخندق الذى ردم وفوق المناطق الدفاعية السفلى فاعتبرت هذه غير ذات قيمة بعد أن بنيت فوقها مواقع

دفاع أكثر جدوى . وتغير شكل جدران وأبراج الدولة الوسطى عند إعادة بنائها في الدولة الحديثة ولنصل إلى الشكل الأصلي وجدنا من الضروري أن نرفع كل زيادات العصور التالية . وهذه الإزالة أظهرت أن الجدران والأبراج كانت قد قويت بزيادة جدار ملاصق وهذه غيرت منظر الواجهة كله (شكل ٩) ولم يكن العمل متقنا فبنّاءوا الدولة الحديثة لم يزيلوا رواسب الطين الثقيلة التي كانت قد تراكمت في أسفل جدران الدولة الوسطى المخربة . وبنوا جدرانهم المتلاصقة فوق هذه الرواسب مما يجعلنا نتعجب كيف عاشت هذه الابنية .

ولقد قمنا بأهم كشف لنا أثناء إزالة هذا الكساء الخارجي للجدران الذي يرجع إلى الدولة الحديثة . فلقد عثرنا في التجويف بين البرج الثالث والرابع في الجدار الغربي على مقبرة حصان وكان هيكله العظمى يرقد على الأرضية المبنية من الآجر للحاجز الذي يرجع إلى الدولة الوسطى . ولا مجال للتردد في تاريخه لأنه كان مغطى برواسب طبقيّة سمكها ١٥ م وضعت فوقها قوالب الطوب التي ترجع إلى الدولة الحديثة وعلاوة على ذلك ، كانت العظام موضوعة على عمق نصف متر تحت طبقات الرماد والخشب المتفحم وهي بقايا حريق الحصن عندما هوجم في عام ١٦٧٥ ق.م. تقريبا . وتجارب الراديو - كاربون الأولية على الفحم المرسب فوق الدفنة أعطتنا الرقم ٣٦٣٠ ١٥٠ سنة . ومع أن الحصان كان معروفا في بلاد ما بين النهرين مبكرا في عام ٢٠٠٠ ق.م. تقريبا فليس لدينا أي دليل على وجوده في وادي النيل حتى الأسرة الثامنة عشرة وكان الاعتقاد سائدا بأنه أدخل إلى مصر في عهد الهكسوس . لذلك فانه من المهم جدا أن نعثر في بقايا هذا الحيوان على أدلة أثرية مادية حقيقية تسبق ما نعرفه بمائتي عام عما كنا نعرفه . ولقد فحص الهيكل العظمى في المتحف البريطاني (التاريخ الطبيعي) حيث أثبتوا أنه ذكر وعمره تسعة عشر عاما . ولكن ليس من الممكن أن نتعرف على فصيلته .

ولم يتبق ، داخل الحصن ، من مدينة الدولة الحديثة إلا القليل إذ أنها كانت في مستوى أعلى ثم هدمت . أما بقايا المستعمرة الأصلية من الدولة الوسطى فقد عثر عليها في حالة حفظ جيّدة : فتحققنا من التصميم الكامل للشوارع والمنازل ما عدا الجزء الجنوبي الشرقي .

وأبرز بناء في المدينة كان ، طبعا ، هو مسكن الحاكم الذي كان في الركن الشمالي الغربي للمنطقة المسورة . وكان المنزل يتكون من طابقين ويستند إلى الجدران الداخلية للحصن على نفس زاوية السام الموصل

الى الممرات العليا له . ولم يتغير البناء فى شكله العام طوال عصور الاحتلال للحصن وعندما كشفناه اى بعد اربعة آلاف سنة من بنائه ، ومع أنه لم يتبق منه الا الأرضية ، فلقد عثر على بقايا كافية توضح ما كان عليه فى الأصل . ومع انه خرب بسبب النيران التى احرقت الحصن فى آخر الدولة الوسطى ، الا أن البناء قد رمم كله فيما يبدو عندما احتل المصريون الحصن بعد رجوعهم الى النوبة فى الدولة الحديثة اى بعد مائتى عام ، ويتكون من صالة استقبال ذات دعائم تحيط بها مراكز الادارة والحجرات السكنية للحاكم وعائلته . وهذا المنزل ، فى شكله العام ، يعكس المستوى العالى للمعيشة فى هذه المحطة الفرعونية قبل العصر المسيحي بألفى عام . وكان سقف هذا البناء الفخم يرتكز أصلا على دعائم خشبية مثمرة وملونة باللون الأحمر . وهناك قدر كاف من البقايا يثبت أن فتحات أماكن الغرف الأساسية كانت جوانبها خشبية وعليها كتابات منقوشة ، كما بقيت أجزاء من الخيزران ذات الزخارف المرسومة . اما أرضية الغرف جميعها فكانت من الآجر المصفوف على هيئة البلاطات الخزفية ويحيط بها جبس أبيض (مكحل) . ونظقت هذه الأرضية ورممت عند إعادة بناء المدينة فى عصر الدولة الحديثة . بينما أرضية الحجرات الصغيرة والممرات المؤدية الى الصالات الكبرى لم تزل منها رواسب الخشب كالفحم والرماد الذى يرجع الى الدولة الوسطى أثناء إعادة البناء فيما بعد . وقد سويت الأرضية فقط ووضع فوقها قوالب جديدة من الآجر المحوط بالجبس الأبيض . ولقد عثر تحت هذه الرواسب على أشياء كثيرة مذهلة على قدر كبير من الأهمية منها الاختام الطينية المنقوشة التى استعملت فوق الرباط الذى يربط وثائق البردى . واكثرها يرجع الى الأسرة الثالثة عشرة . وهذه الوثائق شجعتنا على أن نستمر فى الحفر بأمل أن نعثر على معلومات عن الجهود الحربية فى هذه الفترة الحاسمة من التاريخ النوبى . ولقد بدت احدى الغرف الصغيرة الموجودة تحت السلم الحجرى المؤدى الى الطابق العلوى ، على جانب كبير من الأهمية ، لذلك كسرت الطبقة الأرضية المتأخرة وغرقت الأنقاض بعناية . وفلا صدق ظنى اذ عثرنا على كميات من البردى ولكن للأسف كانت كلها ممزقة الى قطع صغيرة جدا . وربما كان هذا من عمل موظف عسكري من العصور القديمة حفظنا للأمن والسلام . وبإذن من مصلحة الآثار السودانية ، فحصت هذه البقايا من البردى ، المكتوبة بالخط الهيراطيقى الذى يرجع الى الدولة الوسطى ، فى المتحف البريطانى . ومع أنه من الصعب تقدير قيمتها الا أن الأبحاث المبدئية تشير الى أنها بقايا رسائل من مصر .

وتنقيب المباني جزءا جزءا وكشفنا عن الأجزاء المتعادلة لهذا الحصن الذي يبدو أنه أكمل تخطيط رسم لمنطقة سكنية صغيرة من الدولة الوسطى عثر عليها في وادي النيل حتى الآن . وقسمت المدينة بطريقين متجهين إلى الشرق والغرب ويظهر أن المناطق كانت موزعة حسب الأنواع المختلفة من العمائر التي يحتاجها سكان الحصن فكانت هناك منطقة « لفلات » عائلات القواد والموظفين ومنطقة لشكنات الجيش الكبيرة وأخرى للمصانع والمخازن . وربما كان يوجد حتى للتجار أيضا ويعلو هذا كله « موقع معبد حورس رب «بوهن» ومعبود الحصن . وكان الطريقان مرصوفين بالحجارة — وقوالب الطوب المحروقة ، ولكل منهما نظام تصريف في الوسط مما يدل على أن النوبة كانت فيها أمطار غزيرة أكثر مما هي عليه الآن . إذ أنه لا داعي لهذه المجاري في عصرنا هذا . وكانت تخرق هذين الطريقين شوارع ضيقة تقسم المدينة إلى مربعات منتظمة .

ولقد اختلفت درجة حفظ هذه البقايا ، وعلى أية حال فتخطيط عمائر الدولة الوسطى كلها يمكن التأكد منه إلا في مناطق محددة . أما ما كان على مستوى أعلى من العمائر التي رمت أو أعيد بناؤها في الدولة الحديثة فهذه تحطمت وعند فحص الجزء الخارجي للجدار الشرقي للحصن والذي تآكل من مياه النيل ، ظهرت بوابتان على هيئة برجين في نهاية الطريقين الرئيسيين وكان خارج البوابتين أرصفة من الحجر بارزة داخل النهر . حيث كانت ترسو السفن الحربية بما تحمله من عتاد والسفن التجارية المصرية في عصر الدولة الوسطى . وهذه الأرصفة استبدل بها فيما بعد في الدولة الحديثة مرسى كبير يقع أمام معبد حتشبسوت . وإلى جانب البوابتين أظهرت الحفائر ، على شاطئ النهر ، أن الحصن كان يتكون من الشكل المعتاد الأبراج البارزة «والحنيان» ولكن من غير الخندق . وبدلا منهما كان يوجد عند أسفل الجدار ، بينه وبين النهر ، شرفتان مبهدتان بالحجر تحملهما سواند من الحجر . وهنا أيضا ، تحت أحد الأرصفة ، عثرنا على بوابة سرية كانت توصل إلى النهر . فإذا ما وقعت المدينة تحت حصار كانت تمكن أفراد الحامية من الوصول إلى النهر ، عن طريق سمر تحت الأرض مدخلة في فناء للحصن .

وفي موسمنا الأخير في إبريل عام ١٩٦٢ كانت المدينة المحصنة كلها قد نقيت وفحصت الحصون الخارجية . ولم يبق من غير تنقيب إلا المنطقة التي أسفل معبد « حتشبسوت » من الدولة الحديثة مع أن آبار المجسات

أكدت وجود عمائر كبيرة ، لابد أنها ترجع الى الدولة الوسطى وأنها كانت هيكل الحصن في ذلك العهد . وكانت هذه المنطقة أكثر قيمة من غيرها اذ أننا عثرنا فيها على بقايا بقيت مجهولة لم تر النور لفترة تزيد على ٣٤٠٠ عام .

وبمساعدة مالية أخرى من الحكومة البريطانية أمكننا أن نتحد مع مصلحة الآثار السودانية في نقل معبد « حتشبسوت » الى الخرطوم حيث سيعاد تشييده في أراضي المتحف . واضطرونا الى نقل هذا المعبد ، الذي يعتبر من أجمل معابد النوبة ، لأنه كان مهددا بمياه السد العالي . وكانت المساهمة البريطانية تنحصر في فك المعبد ونقل القطع الحجرية التي كان يزن بعضها أكثر من أربعة أطنان حتى شاطئ النيل حيث كانت توضع على مراكب تنقلها الى محطة وادي حلفا للسكة الحديد .

ولكن قبل البدء في عمل الانتقال كان لابد من القيام بأعمال مبدئية أهمها نقل وتسجيل نقوش المعبد ونصوصه . ولقد انضم الدكتور ريكاردو كامينوس الى بعثتنا في موسم عام ١٩٦٠ - ١٩٦١ للقيام بهذا العمل وأتمه في أربعة أشهر ونصف . ثم جاءت بعد ذلك مسألة التحضيرات الكيماوية لتقوية الحجارة الهشة ولحفظ الفرسكو الملونة على جدران المقصورة . وبمساعدة ونصائح الدكتور « بلندر ليث » من مركز روما لحفظ الآثار القديمة ، انتهى هذا العمل الجوهري وبدأنا في فك البناء في ٢٠ يناير ١٩٦٣ وانتهى بنجاح بعد ثمانين يوما . أن القطع الحجرية الثقيلة للمعبد موجودة في المتحف الجديد بالخرطوم بعد نقلها من غير تلف على بعد سبعمائة ميل . ويرجع الفضل في هذه العملية الناجحة الى الدكتور « هنكل » التابع لجامعة « هومبولت » في برلين والذي قدم خدماته المخلصة لمصلحة الآثار السودانية . والذي سيقوم ، بالنيابة عنها ، بإعادة تشييد المعبد في مكانه الجديد خارج المتحف .

وبعد ازالة معبد الدولة الحديثة بدأنا في تنقيب الجزء الباقي الأخير من الحصن في أكتوبر عام ١٩٦٣ . وتبينت أنها عملية أشق مما كنا نتصوره لأن أساسات المعبد المنقول كانت عميقة جدا وكانت القطع الحجرية المستعملة كأساسات تحت الجدران والأعمدة تزن حوالى طن ونصف وكانت تصل الى عمق كبير في البقايا اللبنية للمعبد الأصلي الذي يرجع الى الدولة الوسطى .

ومع أن هذه الأساسات جعلت مهمتنا شاقة الا أننا وجدنا

مايعوضنا عما تكبدناه من مشقة ، وأول هذه التعويضات كانت جمع الحقائق الكاملة لطريقة بناء معبد مصرى خطوة بخطوة . وغير هذا ، فالابنية القديمة اللبنية كانت فى حالة حفظ جيدة الى درجة ان طبيعتها ظهرت فى الحال . وكانت المنطقة مقسمة الى جزئين ، أحدهما لمنطقة السكن والمخازن التى يستعملها الكهنة فى معبد مجاور لا بد وأنه كان المكان الاصلى للعبادة لمعسكر الحصن عندما بنى من حوالى أربعة آلاف سنة مضت .

لم تقتصر حفائرننا فى بوهن على الحصن الكبير . فلقد فحصت مناطق متاخمة وأدت احدى هذه المناطق الى نتائج مذهلة . وهو موقع يبعد حوالى نصف ميل شمال الحصن على الضفة الرملية للنهر . وكان هذا الموقع موضع شك حيث أنه فى عام ١٩٦٠ عندما كانت زوجتى تنزه كلابها عثرت على قطع نحاس خام أحضرتها الى المعسكر للفحص . وهذه القطع قد أثارت اهتمامنا . وفيما بعد لاحظنا أيضا قطعاً فخارية ذات لون أحمر غريب تغطى المنطقة كلها . وأظهرت المجسات جدراناً لبنية وجدراناً من الحجر غير المهذب السطوح . وهذه الجدران كانت عارية الى درجة أنها لم تصل فى ارتفاعها الى أكثر من أربعين سنتيمتراً . ولم يكن هذا مشجعاً ولكن مما أثار فضولنا كمية النحاس الخام وقطع الفخار الأحمر الذى لم نعرفه ولا نعرف عنه شيئاً حينئذ . ولقد أظهرت البحوث المبدئية أن المنطقة كانت تمتد على ضفة النهر على مسافة أكثر من ثلاثمائة متر . وبدأ الحفر فيها فى ٣ يناير ١٩٦٢ .

وقد عثر على كمية أكبر وأكبر من هذا الفخار الأحمر الجوجنى الشكل حتى توصلنا الى العثور على أجزاء كبيرة أظهرت أن هذا النوع من الفخار ينتمى الى النوع المعروف لرجال الآثار (بسلطانية ميدوم) والتى ترجع الى الأسرتين الرابعة والخامسة (٢٦٨٠ - ٢٤٢٠ ق.م) وتأكيداً لذلك كان وجود النوع النوبى للفخار من حضارة المجموعة الثانية والتى عاصرت الدولة القديمة فى مصر وقد عثرنا أيضاً على أنواع أخرى من فخار الأسرتين الرابعة والخامسة واكتشفنا فى مستوى أعلا قطعة فخار مسجل عليها خرطوش كاكاى (نفر ايد كارع) ثالث ملوك الأسرة الخامسة . وأعقب هذا الكشف العثور على اختام طميية للأوانى تحوى أسماء عدد كبير من ملوك الأسرة الخامسة . ومنذ ذلك الحين تم العثور على كميات ضخمة من الاختام المنقوشة والواستراكا فى عدة أماكن من المنطقة لم يكن الريح أو الفيضان قد جرفها .

ومع أن عوامل التعرية كانت شديدة إلا أن بقايا المدينة تؤكد سكانها بصورة مستمرة لمدة طويلة . ولكن لم يعثر على فخار يرجع الى عصر متأخر عن الدولة القديمة . ان مناطق الطبقات الارضية المنخفضة تظهر عصورا مختلفة من اعادة التشييد والتنمية من غير فاصل بين هذه التغيرات وقد أظهر التنقيب جدراناً دفاعية كبيرة من الحجارة يصل عرضها الى مترين تحف شاطئ النهر على بعد مائة وخمسين متراً شمال حدود حصن الدولة الحديثة كما عثر على خندق حجري يحف النهر .

ولسوء الحظ لم يكن من السهل تحديد حجم المدينة إذ أزيل الطرف الشمالي والطرف الجنوبي تماماً . ولكنها كانت مدينة كبيرة جداً من غير شك ، يمتد طرفها الشمالي حتى قرية كافوس .

وظننا في البداية أن المساحة الجنوبية داخل السور الواقع لم تتأثر بالتعرية ولذلك أقيمت مجسات عميقة فيها أثناء الموسم الأخير لعملنا . ولكن النتيجة كانت مخيبة للأمل ولم نعث إلا على بعض أجزاء من الفخار وبقايا من اللبن هذا إلى جانب الجدران الحجرية الخشنة الصنع .

ولكن كنا سعداء الحظ في تنقيبنا للجانب الشرقي للموقع وفي يوم ٢٦ فبراير عثرنا على جدار لبنى ، جزء منه تحت الخندق المكسو بالحجارة الخشنة عند حافة النهر . فهنا ، على عمق متر من الرمال المتراكمة كشفنا عن بناء له جدران تصل إلى متر ونصف في الارتفاع (لوحة ٢٦) . وعلى جانبي الجدار على مستوى أعظم كشفنا عن ثلاثة أفران محفوظة جيداً حيث كان يصهر فيها النحاس الخام .

أما قوالب اللبن التي بنى بها البناء فذات أحجام غير عادية تشبه النوع الشائع في الأسرة الثانية وأحدى الظواهر التي تثبت تاريخها المبكر هي أنه بنى فوقها جدران من قوالب اللبن أصغر حجماً يمكن إرجاعها إلى الأسرة الخامسة حسب الاختام الطميية والأوستراكا التي عثر عليها . ونسأل هل أنشئت المدينة في عصر مبكر يرجع إلى ما قبل عصر الأسرات؟ مع أننا لم نعث على أي شيء يجزم بوجودها ولكن هناك أشياء أخرى تستند عليها الفكرة وهي : اختام الأواني والفخار .

وعندما تعمقنا في طبقات المنزل المبنى من الحجر الذي كشفنا عنه عثرنا على ثلاثة اختام على شكل مخروطي حوت تأثيرات من ختم أسطوانى كبير . ولم يمكن التعرف على العلامات بحالتها الرديئة ولكن

ما تبقى يكفى ليظهر أنها تختلف تماما شكلا وحجما عن التى عشر عليها من قبل والتى كانت ترجع الى الأسرتين الرابعة والخامسة . حقا أنها تشبه تماما ومن غير شك النوع المستعمل فى العصر العتيق وكانت لا تثير أى جدل اذا كنا عثرنا عليها فى مقبرة من الأسرة الثانية فى سقاره .

أما بالنسبة للفخار ، فقد استعملت أنواع متعددة منه فى الأسرة الثانية ولا بد أن بعضها بقى استعماله فى عصر الاهرام . وهناك نقطة أخرى وهى أن من بين العدد المحدود للفخار النوبى الذى عشر عليه فى الموقع ، لا شك أنه من أصل حضارة المجموعة الأولى مع أن أنواع المجموعة الثانية هى الغالبة .

والى جانب الكشف عن الجدران الواقية ، كنا قد فحصنا مساحة ستين مترا مربعا بالتفصيل حتى اليوم الثالث من شهر مارس . وفى اليوم الخامس من شهر مارس ، بفضل مصلحة الآثار السودانية التقطت صور فوتوغرافية بالطائرة تغطى كل الحقل الذى تقب عنه .

وبعد تخطيط وتصوير المباني التى ظهرت فى المنطقة ، حفرنا خندقا عرضه ثلاثة أمتار يصل الى الصخر الطبيعى عبر المنطقة من جدار الحصن غربا الى شاطئ النهر شرقا . وكانت نتيجة هذا العمل مثيرة جدا وكما اقترحنا من قبل فهناك دلائل قوية بأن المدينة كان لها أساس أقدم من الأسرة الرابعة فمثلا ظهر كساء حجرى على عمق متر وأربعين سنتيمترا تحت مستوى الأرض العام فى المدينة التى ترجع الى الدولة القديمة قريبا من حافة النهر . وفى هذه الطبقة عشر على كمية كبيرة من أوان مهشمة لونها بنى وخشنة الصنع وأوانى المعدن وبقايا فحم وبقايا قليلة جدا من معدن خام وهذا كله يدل على ان صناعة النحاس كانت متقدمة فى هذا العصر المبكر .

والظاهرة الثانية القريبة التى ظهرت بعد حفر الخندق هو أنه الى الشرق من الجدار الحجرى الخشن الصنع وعلى عمق متر وثلاثين سنتيمترا تحت الأساسات وجدنا حفرة طبيعية فى الصخر ملئت بقطع كبيرة من الصخر تصل الى ارتفاع سطح الأرض . وفوق هذه الظاهرة الغربية نجد طبقة من الرمل المتراكم النظيف سمكه حوالى تسعين سنتيمترا ليس فيه أى أثر لوجود انسان أو حيوان داخل المنطقة المحدودة بالخندق ، يوحى الجزء المغطى بطبقة من القطع الحجرية الكبيرة بوجود أساس لبنى كبير جدا مع أنه لا أثر له قط . وفى كل هذه العمليات وفى الطبقات العليا

عثر على أختام أخرى متعددة كلها منقوشة ، ومن بينها نماذج دقيقة تمثل السرخ (واجهة القصر) وبجانبها خرطوش الملك « من كاورع » .

وكانت خيبة أملنا شديدة لأن المتبقى من هذا الموقع المهم بالنسبة لقدمه كان قليلا جدا . فالواقع أقدم من حصن الدولة الوسطى بحوالى ألف سنة تقريبا . لذلك نعتبر أنفسنا محظوظين لأننا عثرنا على بعض منه ، إذ أن المدينة بنيت ملاصقة للنهر ، من غير أرض مرتفعة من ورائها لتحميها من عوامل الرياح . ومن الدلائل التي اكتسبناها يمكننا أن نستخلص أن العمران المصرى الحقيقى للنوبة بدأ فى عصر مبكر عن الذى كنا نعتقده ، وربما كان ذلك بعد حملة سنفرو مباشرة ، أو حتى قبل ذلك . ويمكننا أن نتصور مدى أهمية المدينة لتاريخ النوبة إذا تأملنا الحقائق الآتية التى أظهرتها لنا هذه الحفائر :

١ - كانت المدينة مستعمرة مصرية بحتة ، فمع وجود علامات لحضارة المجموعة الثانية النوبية ، إلا أن ٩٥ ٪ من بقايا الفخار مصرية .

٢ - كان النحاس أحد صناعات هذه المدينة ، لذلك يمكننا أن نستخلص أن رواسب هذا المعدن توجد فى مكان ما فى شمال السودان .

٣ - يبدو أنه كانت هناك طريقة مراسلة منظمة مع مصر خلال الأسرتين الرابعة والخامسة ، وهذا من كمية البردى وأختام الأوانى التى عثر عليها .

٤ - تعرفنا على أسماء الملوك الآتية على أختام وقطع الفخار « خع اف رع » ، « من كاورع » ، « أوسركاف » ، « سحورع » ، « نفرأير كارع » ، « نى أوسر رع » .

لم تنحصر معاونة البريطانيين فى حملة اليونسكو لانقاذ آثار النوبة بالعمل فى السودان فحسب بل تكفلت الجمعية المصرية للتنقيب بمشروعين فى مصر . الأول ، تحب قيادة السيد سميت اذ نظمت مسحاً أثريا هاما لاستقصاء كل المناطق بين الحدود السودانية والشلال التى لم تكن خصصت للبعثات المتعددة التى لبث نداء اليونسكو . واستلزم ذلك بعثة صغيرة متحركة اضطرت الى أن تعبر شاطئ النيل على مسافة أكثر من ثلاثمائة كيلو متر وكشفت عن حوالى مائتى موقع قديم ، ومع أن معظمها كان غير جدير بحفائر واسعة إلا أنه تقرر حصرها وسجلت على خرائط زودتنا بها مصلحة الآثار المصرية .

وكانت نتيجة هذه الاكتشافات التجريبية أن عددا كبيرا من المواقع انشئ
بدت ذات قيمة أعطيت كامتياز لبعثات أجنبية مختلفة ، وبدأ هذا المشروع
الشاق فى الموسم الأول من عام ١٩٦١ وبالتحديد ٢٨ يناير وبقي حتى آخر
شهر مارس ، وفى أكتوبر ونوفمبر من السنة نفسها - أى حوالى خمسة
أشهر من السير فى ظروف عصيبة جداً .

أما عملنا الثانى والأهم فى النوبة المصرية فكان التنقيب الكامل
للمدينة المحصنة وجبانة « قصر أبريم » (لوحة ٢٧) . أن القلعة المشيدة
على الجبل العالى المشرف على الشاطئ الشرقى للنيل ، لن تتأثر من
المياه الصاعدة لفترة من الوقت . ولكن الجبانة التى تحيط بها والتى
كانت على مستوى منخفض كانت ولا شك ستغرق ، لذلك بدأنا عملنا
فى يوم ١٥ أكتوبر عام ١٩٦١ وركزنا كل جهودنا فى الجبانة على اعتبار أن
نتهى من تنقيتها فى موسم واحد .

وكشفنا عن مقابر من العصر المروى ومن عصر المجموعة (س)
وكان معظمها قد نهب فى العصور القديمة ماعدا عددا قليلا منها . أما
فى حالة بعض المقابر من عصر المجموعة (س) فأعيد استعمالها فى العصر
المسيحى . ومع ذلك فقد عثرنا على مجموعة جميلة جدا من الأواني
الفخارية المتنوعة مثل أواني النبيذ الكبيرة والأواني الصغيرة الملونة من
النوع المروى . ولسوء الحظ أن المقابر الكبيرة كانت قد نُهبت فى عصرنا
هذا - وبعد فحصها ثبت أنها غير ذات قيمة - إذ أنها فى كل الحالات
كانت خاوية . وبعد ذلك وجهنا نظرننا للدفنات التى بدت أنها لم تمس
منذ العصر المسيحى المبكر . فعثرنا فى مقبرتين كبيرتين فى شمال الجبانة
على أشياء ذات قيمة لم يلاحظها السارق الذى كان لا يعرف أن الجزء
المنقور فى باطن الأرض يحوى حجرتين : أحدهما للدفن والثانية
للأثاث الجنائزى . ونبشت حجرات الدفن كالعادة ولكن لم يعثر
بالمخازن . وكانت هذه المخازن تحوى أواني برونزية متنوعة ومصابيح
برونزية وأواني زجاجية وبقايا صناديق خشبية مرصعة بالعاج وأدوات
للزينة وفخار ملون . . وعثرنا أيضا فى مقابر أخرى على أدوات وأسلحة
- بحيث أن كشفنا تعطى فكرة مصغرة للمجموعات العظيمة لما عثر
عليه من حضارة مجموعة من المقابر الملكية فى بلانة وقسطل فى عام
١٩٣١ (انظر ص ٥٧) أما المقابر كلها فهى من نوع مصغر فى التصميم
لما نجده فى « بلانة » و « قسطل » : وهى عبارة عن كومة من التراب أو
الطين مشيدة فوق بئر منقور فى باطن الأرض . وهذا البئر له سقف مقبب
من اللبن أو من لوحات حجرية ترتكز على بروز مقطوع فى الجدران .

وفحصت ثلاثة مواقع مروية ولكنها كلها كانت قد عبث بها اللصوص وسرقوها في العصور القديمة والحديثة . وعلى أية حال فما تبقى يشير الى أن الدفنة كانت لمجموعة من الناس لها ثراؤها وأهميتها . وقد عثرنا على بقايا ثلاثة تماثيل من التي تعرف بتمائيل البا ba-statue ولكن أهم ما عثرنا عليه من هذا العصر كانت لوحتين لنصوص مروية طويلة : احدهما أربعة عشر سطرا والثانية تسعة عشر سطرا من الكتابة الضيقة .

وبينما كان التنقيب يتقدم ، ركز الدكتور « ركار دو كامينوس » اهتمامه على الأربع مقاصير المنحوتة في الصخر والتي نقرها « تحتمس الثالث » و « المنحوتات الثاني » و « رمسيس الثاني » عند أسفل الربوة الصخرية عند « أبريم » . وسجلت كل نقوش هذه المقاصير في رسوم بالحجم الطبيعي بطريقة الشف كما سجل أيضا ، بالطريقة نفسها اللوحة الكبيرة لسيتي الأول الموجودة في الناحية الجنوبية للمنطقة .

وعندما انتهينا من التنقيب في جبانة « أبريم » كنا قد فحصنا أكثر من ثلاثمائة مقبرة أعطتنا مجموعة جميلة من الآثار . وأكثر من نصف هذه المجموعة أعطيت للندن ، وبعد عرضها في معرض عام قسمت بين متاحف بريطانيا والكومنولث .

وبعد المسح العام ، في سنة ١٩٦٣ ، الذي أظهر أن موقع مدينة أبريم المحصنة تستحق تنقيبا على مستوى واسع ، تكفل بها الاستاذ « مارتن بلاملي » بالنيابة عن جمعية التنقيب المصرية في عام ١٩٦٤ . وتركز العمل ، بالأخص ، بالكشف عن الكنيسة المسيحية القديمة الرائعة التي تشرف على قلعة المدينة . وهنا في السرداب عثر على مدفن الأسقف الذي لم يعثر به أحد وعثر مسح الجثة على قرطاسين في حالة حفظ جيدة جدا ترجع الى عام ١٣٧٢ ميلادية ، احدهما باللغة القبطية والأخرى باللغة العربية . وهاتان الوثيقتان الفريدتان يصل طولهما الى أكثر من خمسة عشر قدما . وتتضمن حججا عن سلطة البطريك في تكريس الأسقف . وأدى التنقيب في الكنيسة الى العثور على وثائق أخرى من العصر نفسه مكتوبة باللغة اليونانية والقبطية والنوبية القديمة ، ومبدونة على ورق وبردي وجلد ، وتعتبر كنزا بالنسبة لرجل اللغة .

ويجب أن ينتهي الحفر في مدينة أبريم في عام ١٩٦٥ - ١٩٦٦ ، وبانتهائه يعني اتمام التزام المملكة المتحدة ردا على نداء اليونسكو لاتخاذ

آثار النوبة ولقد مضى أكثر من ثلاثة أعوام منذ نداء المدير العام لليونسكو لدراسة الآثار العالمية بقصد انقاذ آثار النوبة القديمة ، والاجابة ، خاصة بالنسبة للحفائر ، كانت مرضية الى درجة أن أهم النواحي في هذا الصدد قد انتهت . ولكن تبقى مسألة حفظ العمائر ، وفي هذا الموضوع لم تكن النتيجة مرضية حتى الآن وخاصة بالنسبة الى معابد « أبو سمبل » (١) .

ان معابد النوبة السودانية والمصرية كلها تقريبا سجلت بالتفصيل ونقلت النصوص والمناظر التي على جدرانها سواء بالصور الفوتوغرافية أو بالرسم . وجزء كبير من هذا العمل قام به مركز التسجيل لتاريخ الفن والحضارة لمصر القديمة الذي أسسته في القاهرة حكومة الجمهورية العربية المتحدة بمساعدة اليونسكو في عام ١٩٥٥ . والى جانب عمل المركز ، فقد زود البريطانيون والفرنسيين والألمان والبولنديين والبلجيكيين والأمريكان ، بالمستندات . ولقد تفككت معابد متعددة ونقلت الى مناطق غير معرضة للخطر تمهيدا لتشبيدها مرة أخرى في مواقع جديدة ، وتقام الترتيبات اللازمة الآن لنقل معابد أخرى قبل أن تصل مياه الخزان الى حدها الأقصى في عام ١٩٦٨ .

وكل شيء على ما يرام حتى الآن . ولكن تبقى العضلة الكبرى : كيف نحفظ التحف المعمارية الثلاثة لمصر القديمة - معابد « فيلة » ، « أبو سمبل » - أما بالنسبة لفيلة فلقد هدأت حكومة الولايات المتحدة المخاوف عن مستقبله ، اذ أخذت المشروع على عاتقها ووعدت بجمع اعتمادات أكثر من كافية لتغطية مصاريف حفظه - أى حوالى مليونين من الجنيهات . ولكن الآن فلنترك الناحية المادية ولنحدث عن المشروعات التي وضعها المهندسون لانقاذ معابد فيلة وأبو سمبل .

ولنبداً « بفيلة » ، تلك الجزيرة التي بنى عليها معبد أزيس الكبير تقع على بعد ثمانى كيلو مترات جنوبى أسوان ، أى أنها تقع وراء خزان أسوان القديم . وقبل بناء الخزان ، فى بداية هذا القرن ، كانت الجزيرة وما عليها من أبنية تحيط بها أشجار النخيل والنباتات الحسبة ، بحيث كانت من غير شك من أجمل المناظر فى العالم كله .

(١) لقد تم انقاذ معبدى « أبو سمبل » وبذلك انتهت جميع مراحل الانقاذ بنجاح كامل . (الترجم)

أما الآن فلا نرى المعبد الا فى أشهر الصيف عندما يخلو الخزان من مائه ، وحتى فى الصيف ، لقد هدم جماله وأصبح واقعا على شاطئ من الطمي فى وسط النهر . وعلى أية حال ، فان هبوط مياه النيل البطيء وارتفاعها لم تصب المعبد نفسه بسوء ، بحيث أنه يمكن للفنان وعالم الآثار والمهندس فحص ودراسة البناء فى أوقات معينة من السنة .

ولكن الآن سيتغير كل شيء ويتشيد السد العالى سيهدم فى فترة قصيرة من غير شك ، اذ أن جزيرة فيلة ستقع فى منطقة خزن المياه ما بين السد العالى وخزان أسوان القديم . أن مستوى المياه فى هذا الخزان سينخفض عما هو عليه الآن من المستوى الأعلى ، ولذلك سيكون الجزء العلوى للمعبد مكشوفاً دائماً فى النهار ، أما الجزء السفلى للمعبد فسيكون دائماً تحت الماء ليلاً وسيرتفع منسوب المياه وينخفض حوالى ثلاثة عشر قدماً وذلك حسب كمية المياه اللازمة لإدارة التوربينات فى الخزان القديم لتوليد الكهرباء . ونتيجة هذا التقلب الدائم ستتناكل الحجارة بسرعة وسوف تتهدم كلية فى مدة قصيرة .

ومع أنها تقع عند قمة الشلال الأول ، الا أن جزيرة « فيلة » تقع شرقى المجرى الأساسى ويحدها على جانبها الغربى جزيرتا « بيجه » « وأجلكيه » ولقد تصور مهندسو مصلحة الآثار المصرية فكرة توحيد هذه الجزر بوساطة حواجز صخرية لتكون مانعاً متصلاً بالضفة الشرقية للنهر وبمكونة بحيرة منفصلة عن الخزان الذى سينتج من مياه خزان أسوان والسد العالى . وردا على نداء اليونسكو عرضت الحكومة الهولندية أن تبعث مختصين من هولندا لدراسة الناحية العملية للعرض وقد قبلت حكومة الجمهورية العربية المتحدة العرض معترفة بالجميل (شكل ٣) .

وبعد فحص كامل ، اعتبر المختصون العرض عملياً وأقيمت مساقط أفقية مفصلة وإذا انجز المشروع ، فستخلق جزيرة منفصلة حول « فيلة » بمنسوب مياه مراقب وستكون النتيجة إبقاء المعبد فى موقعة وبشكله القديم قبل بناء خزان أسوان . وسيسهل وصول الزائرين مرة أخرى الى « لؤلؤة مصر » على مدار العام ، وفى فترة قصيرة سيكتسب المكان بالنباتات الخضراء التى جعلته فى يوم ما من أجمل بقاع

العالم . وفوق هذا كله ، ستحفظ نهائيا هذه التحفة المعمارية القديمة لتثير دهشة أجيال المستقبل (١) .

أما حفظ معبدى « أبو سمبل » فهي مسألة أصعب بكثير . ان معبد « رمسيس الثانى الكبير » من غير شك ، أضخم نموذج للتصميم المعماري والمهارة الهندسية ، ولا يزال في عصرنا هذا ، أكبر نموذج لنحت منقور في الصخر . ولتكوين فكرة عن حجمه العظيم يجب أن نقدر أن التماثيل الجالسة أمام الواجهة يصل ارتفاعها الى ٦٥ قدما . أما المعبد الصغير ، معبد الملكة « نفرتارى » ، فلقد نحت كله فى الصخر ويعتبر أيضا آية فى الجمال المعماري ، مما يوجب انقاذه .

وقد اتفق رجال الآثار والمهندسون ، فى البداية ، على أن الطريقة الوحيدة لحفظ هذين الأثرين البديعين هو تشييد سد حولهما فكلفوا شركة فرنسية مكونة من مهندسين استشاريين بفحص امكانيات تنفيذ المشروع وما اذا كان من الممكن أن يصمموها شكل السد الذى يجب بناؤه . وبعد دراسة استغرقت بضعة أشهر ، أقر المهندسون تصميمًا لسد يتكون من الطين والصخر ذى شكل نصف دائرى ، له جوانب داخلية ذات ميل تدريجى ، تستمر حتى تلاصق واجهة التل الصخرى فى نقطتين متباعدتين الواحدة عن الأخرى بحوالى ٧٥٨ ياردة . وسيحمى هذا السد المعبدين ، وسيبقى الشجر وامتداد بقعة المياه التى أمامه كما هى . وبدأ المشروع مرضيا جدا من كل النواحي ولكن الى جانب التكاليف الباهظة لبناء هذا السد فقد كان من الواضح أنه بقيت عدة صعوبات فنية ، أهمها مسألة نشع المياه وتغلغل الرطوبة داخل المبنى ، التى لا يمكن ايجاد علاج لها .

أما بالنسبة للنشع ، فقد أوصى المهندسون بوضع محطة ضخ للمياه تعمل باستمرار لتبقى المياه أمام المعبدين ومن وراء الخزان على مستوى ثابت . وكانت تكاليف اقامة مثل هذه المحطة باهظة جدا بصرف النظر عن التهديد الدائم لغرق المعبدين اذا حدث عطل للمحطة . ولذلك وبعد النظرة الجادة للمختصين ، ترك هذا المشروع وأقر مشروع آخر وضعه المهندسون الايطاليون . ونظر فى هذا المشروع الجديد بامعان .

(١) لقد استقر الرأى فى شهر سبتمبر عام ١٩٦٨ على الاخذ بمشروع نقل معابد فيلة . الى جزيرة اجيلكه بعد تسطيحها وزيادة مساحتها ، ووافق اليونسكو على هذا المشروع الذى يتميز بقله تكاليفه اذا ما قورنت بتكاليف مشروع بناء سدود وكذلك بالتأكد من ترميم جميع أحجار المعابد قبل اعادة بنائها فوق الجزيرة الأخرى .

والحل الثانى يبدو لأول نظرة ، وخاصة لغير المختصين أنه غير معقول . ولكن لجنة عالمية مكونة من مهندسين معروفين فحصت وبحثت امكانياته وأعلنوا أنه يمكن تنفيذه . ويتضمن هذا المشروع بإيجاز : نحت المعبد من الصخر الحى ورفعها عموديا الى ارتفاع فوق مستوى مياه الخزان الجديد . وعندما نتصور أنه فى حالة المعبد الكبير يجب رفع حمولة تقرب من ثلاثمائة ألف طن لا يمكننا الا ان نجلس مذهولين لبداية الهندسة الحديثة . والطريقة المقترحة كانت هى أن يقطع المعبد بواجهته المنحوتة وصلاته وممراته المنقورة . وتوضع هذه الكتلة الصخرية فى صندوق خرساني ثم يرفع بوساطة حاملات الكترونية تديرها رافعة أثقال هيدروليكية تحته فى ممرات أسفل البناء ويصل ارتفاع كل رافعة ثلاثين سنتيمترا كما أنه ستبنى جدران خرسانية تحت البناء كلما يزيد الارتفاع وبهذه الطريقة سيرتفع المعبدان الى حوالى ١٩٠ قدما فوق المستوى الحالى وسيخلق من جديد منظرها الطبيعى الصخرى . ولكن ترك هذا المشروع أيضا لأن تكاليفه كانت ستصل الى ثلاثين مليوناً من الدولارات تقريبا .

وأخيرا ، وبعد النظر فى الاقتراحات المختلفة والمتعددة ، مثل رفع المعبد على أساسات عائمة ترتفع مع مياه النيل كلما امتلأ الخزان ، تقرر اختيار مشروع المهندسين السويديين ويتضمن قطع وإعادة بناء المعبد على أرض مرتفعة بجوار مكانها الأصلي ، وتصل مجموعة التكاليف الى أقل من نصف التى قدرت للمشروعات الأولى وهى بناء سد حول منطقة المعبد أو رفع الأثر فى كتلة واحدة . ويبدو أن البلاد الاعضاء فى اليونسكو ستسهم بالمال الكافى لهذا المشروع الأقل تكلفة ولذلك بدأ العمل من الآن فى « أبو سمبل » .

الباب الثالث

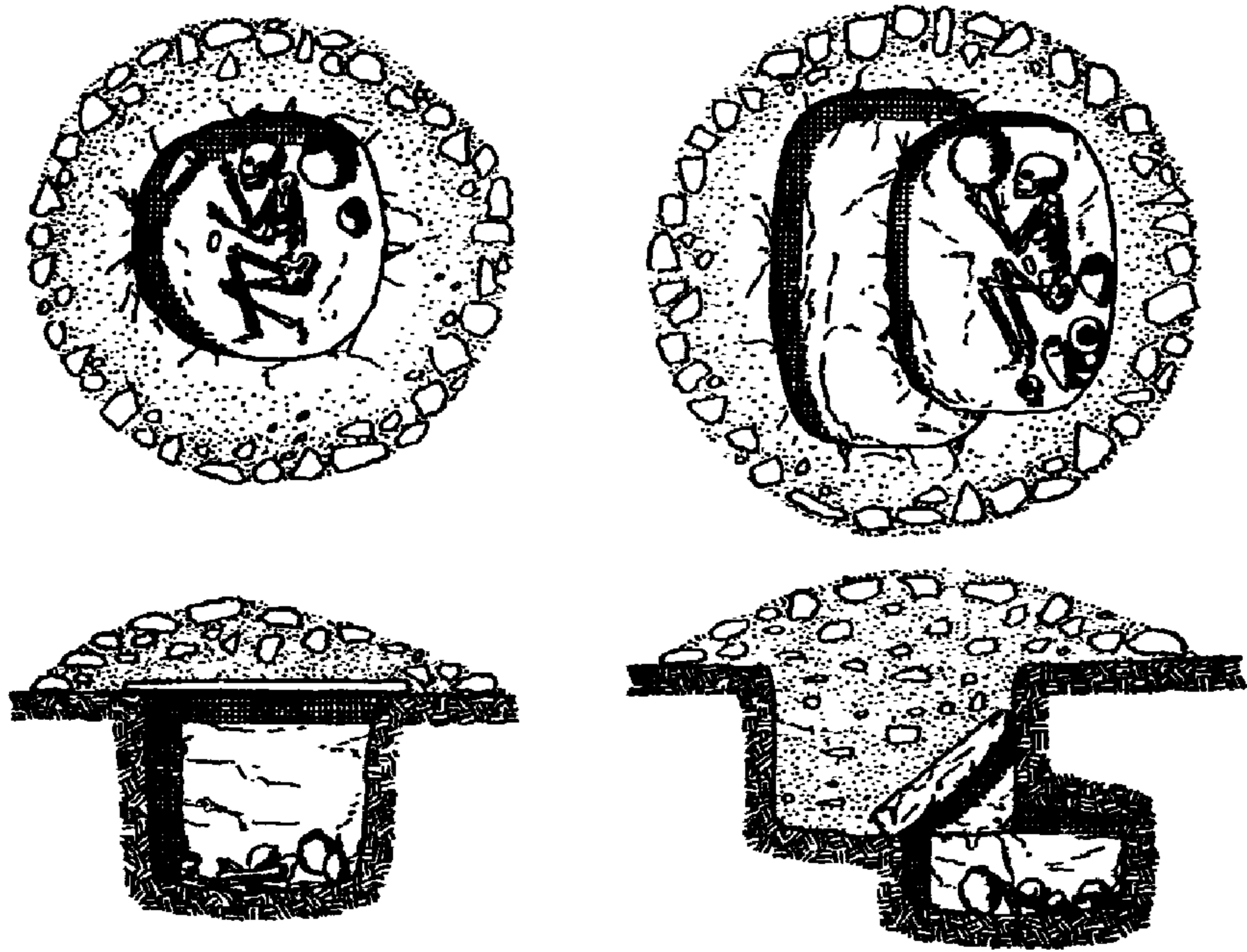
موجز تاريخ النوبة

الفصل الأول

عصر ما قبل الأسرات والدولة القديمة

اننا لا نعرف الكثير عن تاريخ النوبة قبل التاريخ المعاصر لبداية الأسرة الأولى في مصر . ويرجع سبب ذلك الى أن البلاد لم تلق اهتماما واسعا من علماء الآثار المتخصصين في عصر ما قبل التاريخ . وكانت الحفائر والتنقيبات مقتصرة على وادي النيل وحافة الصحراء بينما لم يكشف عن مدرجات الجبل العالية بطريقة منظمة . ونحن نأمل في تعويض هذا الإغفال أثناء المجهود الأثرى الحالي قبل أن تواجه المنطقة تهديدها بالزوال .

وكل ما لدينا من آثار عمل الإنسان النوبي في فجز التاريخ هي بضعة آلات ظرائية من العصر البليوليثي . ولا نعرف كيف كانت النوبة في هذا العصر المبكر ولا بد أنها ، مثل مصر ، كانت تختلف كثيرا عما هي عليه اليوم أو حتى عما كانت عليه في بداية العصر التاريخي . فربما كانت مناطق شاسعة من البلاد تتمتع بأمطار كثيرة ، وبها غابات على عكس ما هي عليه الآن ، صحراء جدداء غير مسكونة . وحتى في العصر النيوليتي عندما



شكل ١١

نماذج لمقابر حضارة المجموعة الاولى

كانت حضارات ما قبل التاريخ تزدهر في مصر لا يبدو أن النوبة كانت مسكونة الا في فترات متباعدة . والجبانة الوحيدة من هذا العصر التي عثر عليها أثناء التنقيب الجندري للمسح الاثرى كانت في « بهان » رقم ١٧ جنوبى الشلال الاول . ونحو الجنوب لم يعثر على بقايا انسان متحضر من عصر سابق الا عددا محدودا من الجبانات بين الشلال « والدكة » ويمكن اعتبارها معاصرة لحضارات ما قبل الاسرات الوسطى في مصر .

ومع وجود جنس الاسرات في مصر ، وتوحيد البلاد بوساطة ملوك الاسرة الاولى ازداد سكان النوبة كثيرا ، ولقد عثر على جبانات متعددة في المنطقة الشمالية من النوبة السفلى ومن غير شك يمكن اعتبارها معاصرة لهذه الفترة مع ان الحضارة الظاهرة مماثلة الى حد بعيد لعصر ما قبل الاسرات الأعلى في مصر . هذه الحضارة التي بقيت في النوبة حتى أواخر الأسرة الثانية (٢٧٨٠ ق . م .) تعرف بين علماء الآثار « بالمجموعة الاولى » وسكانها لا يختلفون في مميزاتهم الجسدية عن المصريين فيما قبل الاسرات وفي الحقيقة لا شك في انهم هم السكان أنفسهم الموجودون في بيئة لا اختلاف بينها .

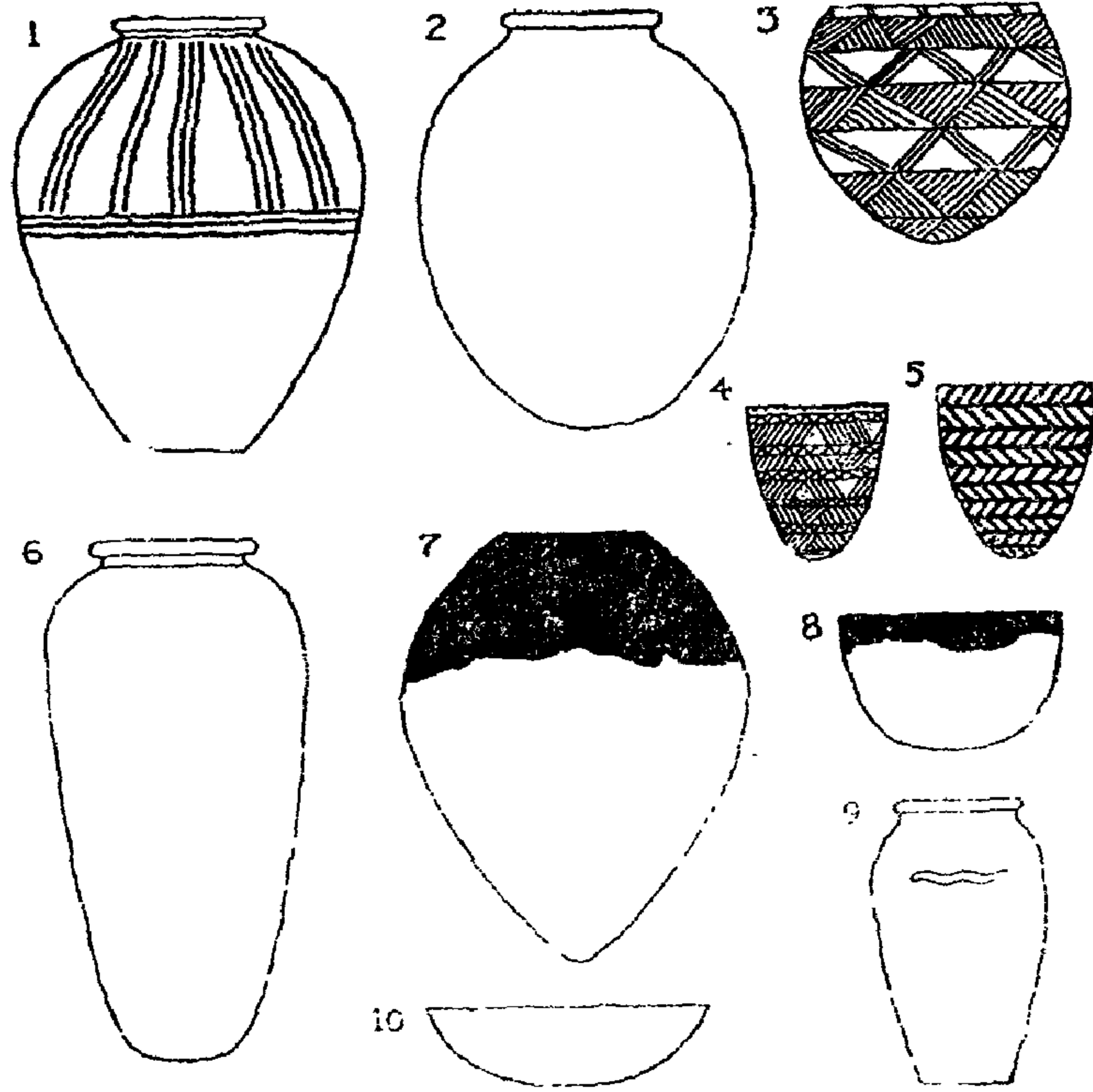
ومن المهم أن نعرف أنه قبل أن يغزو جنس الاسرات مصر (٣٤٠٠ ق . م) كانت النوبة قليلة السكان ولم يظهر الاتصال بشمال وادى النيل الا عن طريق بعض الجبانات الموجودة في المنطقة جنوبى الشلال . ثم نجد ازديادا في عدد السكان ودخول حضارة جديدة في النوبة فجأة . والاحتمال الوحيد لذلك هو تسرب عدد كبير من سكان ما قبل الاسرات منسحبين تحت ضغط الشمال نتيجة غزو المتقدمين من الفراعنة المصريين . ومهما كان السبب فالبقايا الأثرية لقوم المجموعة الاولى تظهر أنه في هذا الوقت كانت النوبة السفلى تتمتع بعصر انتعاش نسبي . أما عن الحالة بعد الجندل الثاني فليس عندنا الا أدلة قليلة عليها .

واستعمل شعب المجموعة الاولى نوعين من المقابر لدفن موتاه : النوع الاول عبارة عن حفرة بسيطة مستطيلة أقرب الى الاستدارة وتصل الى عمق ٨٠ سم . أما الاخرى ، وهي غير منتشرة ، فهي عبارة عن حفرة بيضاوية لها حجرة جانبية في مستوى منخفض في أحد جوانبها يصل عمقها الى ١٣٠ م (شكل ١١) . وكانت الجثة توضع على شكل القرفصاء على جانبها الايمن والرأس عادة الى الغرب . وكان يحيط بالجسد أشياء للاستعمال اليومي مثل الاواني الفخارية وحجارة لصحن الغلال من الالبستر والواخ الكحل من الالبستر والحجر الرملي « وبومرنج » من الحشب ومثاقب

من النحاس • وكان الجسد يزين بحلى بسيطة مثل الأساور المصنوعة من القواقع والعقود المكونة من خرز العقيق وستيتيت مطلي بالحزف الأزرق والقواقع • وكان الفخار عامة من النوع الجيد سواء فى صنعه أو زخرفته وله أشكال وأنواع متعددة • (شكل ١٢) والنوع المنتشر هو الأحمر الكبير الذى كان يحتوى على سوائل ، ونوع أحمر منبعج الشكل ذو قاع مدبب لتخزين الطعام ، ثم سلاطين عميقة وكاسات من الفخار الأحمر الخفيف ومن النوع الأسود المصقول من الداخل بينما كانت السطوح الخارجية من اللون الأحمر ذات الرسوم التى تقلد السلال وربما كانت مثل هذه الأوانى تستعمل للأكل فيها •

ولكن السلام والرخاء فى النوبة فى عصر المجموعة الأولى لم يستمر طويلا ففي عصر «حورعحا» أول ملوك الأسرة الأولى نجد حويلات لانتصار المصريين فى الجنوب وهناك دليل يظهر الجيوش المصرية وهى تدخل على الأقل حتى الجندل الثانى • فهناك لوحة صخرية فى جبل الشيخ سليمان جنوبى بوهن تسجل غزو الفرعون « جر » الذى أعقب حور عحا • وتظهر اللوحة أسيرا جالسا ومربوطا فى مقدمة سفينة من طراز عصر الأسرات فى مصر ، تختلف فى شكلها عن مراكب ما قبل الأسرات (الشكل ١٣) • أسفل السفينة نجد أجسادا غرقى للعدو المهزوم ودائرتين فيهما خطان متقاطعان يعلوهما نسر وهلال يرمزان الى مدن تم الاستيلاء عليها • ثم نجد شكل أسير واقف ويدها مربوطتان من الخلف ، وأخيرا نجد اسم الملك « جر » • ويصعب القول ان كان التسجيل لغزو كامل للمنطقة أو كان لوحة فخرية لانتصار مجموعة من المثيرين ، وعلى أية حال فهى دليل على اعتداء مصرى فى النوبة فى عصر مبكر جدا • ومن الأدلة الأخرى على توغل المصريين فى النوبة فى عصر الأسرة الأولى ما يظهر فى بعض قطع صغيرة من الأوانى الحجرية الموغلة فى القدم ، ترجع الى هذا العصر وقد عثرنا عليها أثناء التنقيبات الحديثة فى قلعة « بوهن » على بضعة أميال شمال نص « جر » •

ولقد اعتبر البعض ان حضارة المجموعة الأولى فى النوبة نمت وترعرعت تحت سيطرة المصريين • ولكن هذا يبدو غير صحيح لان اختفاءها يعاصر بالتقريب غزو المصريين الأول للمنطقة واستعمارها • ومن الواضح أن الانتهاء المفاجئ لحضارة المجموعة الأولى قد حدث عند غزو النوبة فى عصر الملك « خع - سخم - وى » فى أواخر عصر الأسرة الثانية ومهما كانت الأسباب فقد عانى الشعب النوبى فى ذلك الوقت الفقر • ومع أن الحضارة



الشكل ١٢

نماذج لفخار حضارة المجموعة الاولى

١ - أنية وردية ذات خطوط حمراء

٢ - أنية حمراء

٣ و ٤ - أنية حمراء ذات خطوط محفورة

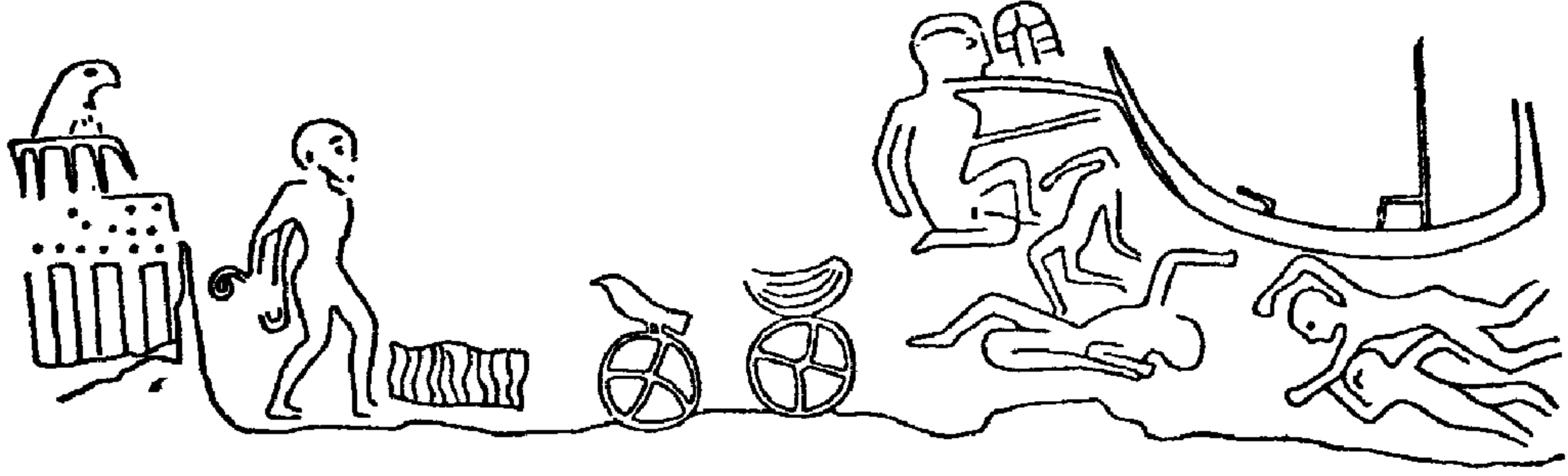
٥ - أنية رقيقة حمراء ذات رسوم حمراء

٦ - أنية حمراء

٧ و ٨ - أنية حمراء ذات فوهة سوداء

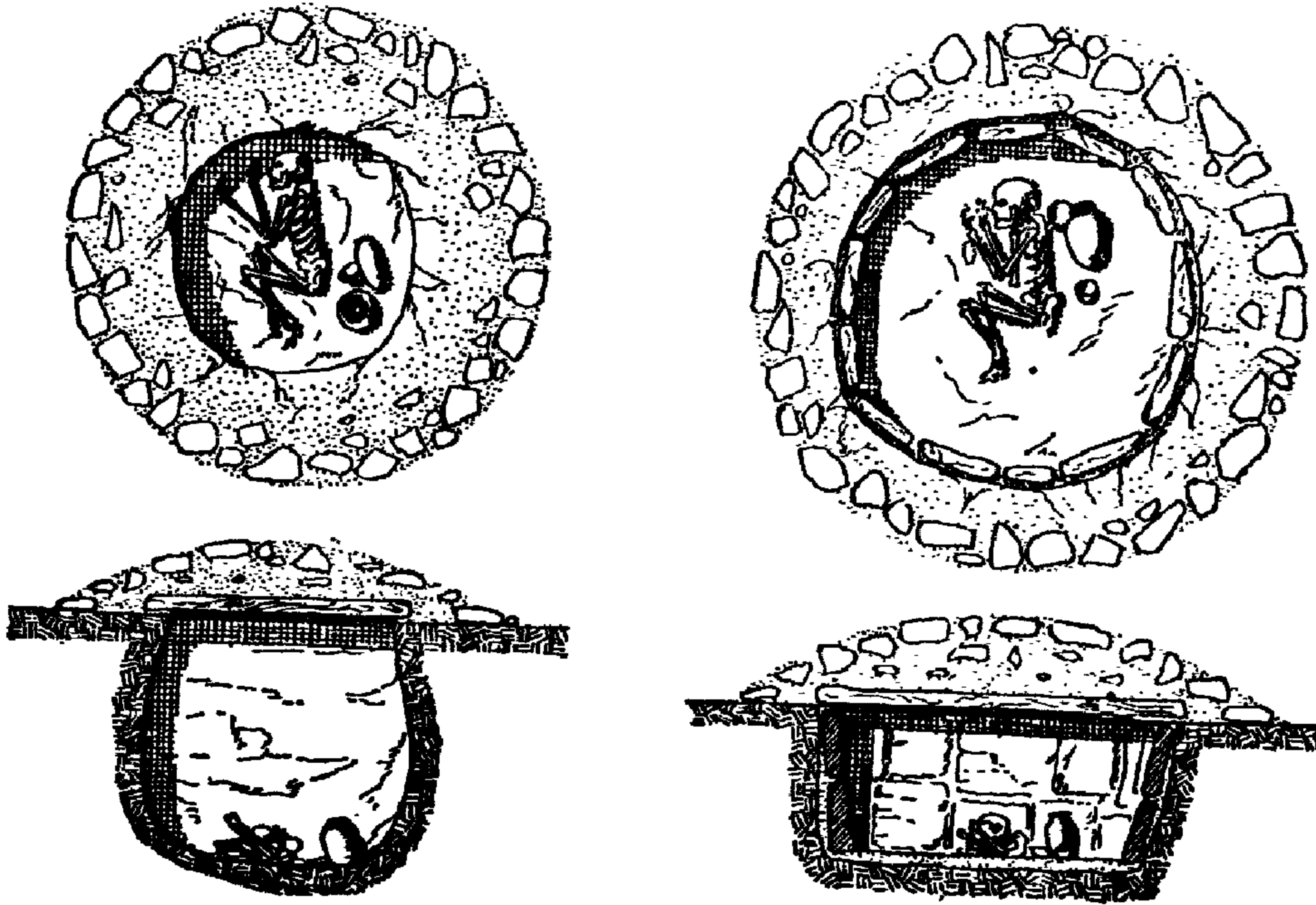
٩ - أنية حمراء ذات يد متموجة

١٠ - أنية حمراء



الشكل ١٣

نقش الملك جر عند شيخ سليمان



الشكل ١٤

نماذج من مقابر حضارة المجموعة الثانية

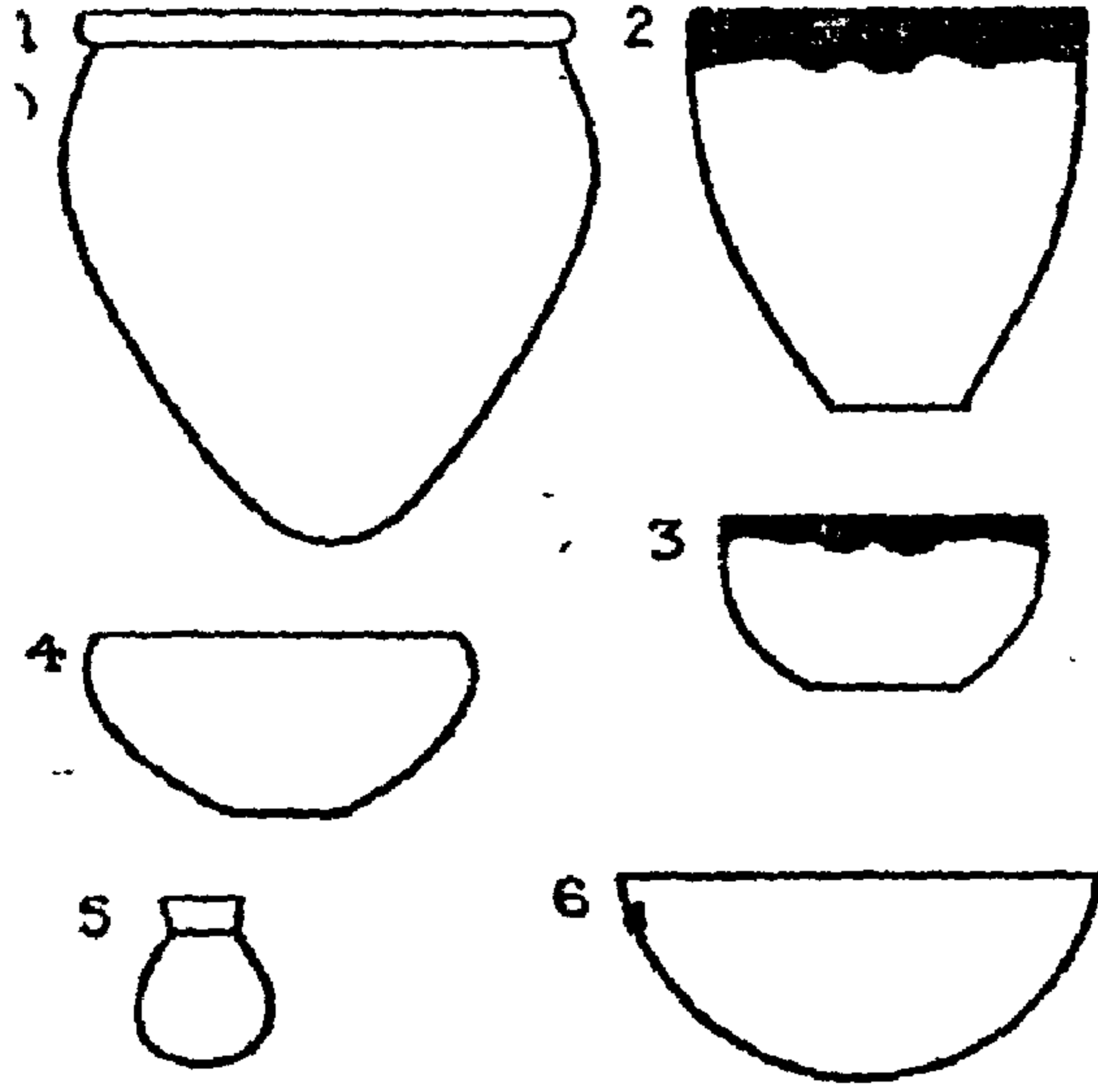
المعروفة بالمجموعة الثانية كانت تنحدر الى حد ما من المجموعة الاولى فهي تظهر نواحي مختلفة كثيرة وربما يرجع السبب الى تدهور عام أو الى ظهور عناصر سلالية جديدة من الجنوب . وهذه الحضارة الفقيرة تعاصر بالتقريب الدولة القديمة فى مصر (٢٧٨٠ - ٢٢٥٨ ق م) والتي لم يكن للنوبة أى نصيب فى انتعاشها لأنه يبدو ان الغازى الشمالى جعلهم نصف رقيق .

ولا نعرف بعد اذا كان غزو « خع سخموى » تلاه استعمار أم لا ولكنى أعتقد أنه من الجائز جدا أن تكون محاولات قد قامت بهذا الصدد . ومهما كان الامر فان الاخضاع الحقيقى للنوبة كان عندما بعث « سنفرى » ، آخر ملوك الأسرة الثالثة ، جيشا فى حملة كلفت البلاد سبعة آلاف من الأسرى ومائتى ألف رأس من البقر ولقد كان لهذه الضربة مفعولا مخربا ومدبرا ولذلك لم يكن هناك مظهر لأى عمليات عسكرية أخرى لسنين طويلة فيما بعد .

واستعمرت النوبة السفلى ووجد المصريون سهولة فى استغلال ثروة البلاد المعدنية العظيمة ومن بينها النحاس . ونقد أظهرت الاكتشافات الحديثة فى بوهن وجود مستعمرة كبيرة مصرية كانت موجودة لاكثر من مائتين وخمسين سنة أثناء عصر الأسرات الرابعة والخامسة من غير انقطاع (انظر ص ١١١) . ومع ان جزءا كبيرا من هذا الموقع الهام قد تآكل عن طريق عوامل التعرية الا أن التنقيب فى المنطقة المحفوظة أظهر ان المستعمرين لمدة لا تقل عن مائتى عام كانوا يصهرون النحاس فى أفران منظمة وما زالت بقاياها محفوظة حتى الآن . كما أن عددا كبيرا من أسماء الفراعنة من بناء الاهرامات مثل خفرع ، من كاورع ، أوسركاف ، ساحورع ، كاكاي عشر عليها فى أختام بردية ربما جاءت عن طريق مرسلات من مصر . كما عشر أيضا على كمية كبيرة من الأوانى الفخارية المصرية الصنع تؤكد ان المدينة كانت مركزا تجاريا هاما جدا .

ولقد عشر على فخار معاصر من المجموعة الثانية فى هذه المستعمرة المصرية ولكن بكمية محدودة لا تجعلنا نعتقد أن النوبيين كونوا جزءا من سكان المدينة . وربما أصبح نوبيو المجموعة الثانية فقراء بعد احتلال المصريين لوطنهم ويبدو أنه حتى التجارة مع المصريين لم يكن لها وجود لأننا لم نعثر على صناعات مصرية فى مقابر النوبيين . وحتى صناعاتهم المحلية مثل الفخار تظهر لنا انحطاطا شديدا فى الصناعة .

ان مقابر المجموعة الثانية عبارة عن حفر غير عميقة بيضاوية الشكل أو مستديرة جوانبها مبطنة بقطع غير مهذبة من الحجارة أو من الطين (الشكل ١٤) . وفى حالات نادرة كانت مقابر القسادين لها أرضية من



الشكل ١٥

نماذج لفخار حضارة المجموعة الثانية

١ - فخار بني

٢ و ٣ - فخار أحمر ذو فوهة سوداء

٤ و ٥ - فخار أحمر

٦ - فخار بني خشن الصنع •

الحجارة فوق قاعدة رملية • وكانت الجثة توضع على شكل القرفصاء راقدة
أما على جانبها الأيمن أو على جانبها الأيسر فلم يهتموا بتوجيه معين مع أن
الرأس كان فى العادة ينظر الى الغرب • وأحيانا نجد الجثة راقدة على
حصيرة ومغطاة بجلد ماعز أو غطاء من الكتان • وفى الدفقات الفنية وجدنا
أواني فخارية ثقيلة حمراء ذات فوهة سوداء (شكل ١٥) كما أننا نجد
أيضا صلايات الكحل وقطع الحجارة التى يصحن بها الكحل ودبابيس قتال
حجرية وبلط • ونادرا ما نعثر على آلات من النحاس مثل الأبر والمخاريز •
أما الآلات المصنوعة من العظام فهى أكثر شيوعا (أو انتشارا) كهذا النوع
الرخيص من خرز العقيق والخزف الأزرق والقواقع •

وفى عهد الاسرة الرابعة (٢٥٦٥ - ٢٢٦٨ ق.م) اكتشف عمال المناجم
المصريون منابع الديوريت الخفيفة الجميلة التى استعملت لتمثيل ملوك
الدولة القديمة والوسطى • وكان العثور على هذه الحجارة الجميلة فى منطقة
تبعد حوالى ٨٠ كم غربى «توشكا» • وقد عرفنا من نصوص عثر عليها
هناك ان هذه المحاجر استعملت فى عصر الملوك «خوفو» و «جذفرع» فى
الاسرة الرابعة «سحورع» و «جذحوراسيسى» فى الاسرة الخامسة •

وتسجل نصوص من الاسرة السادسة للملوك «تيتى» و «بيبى الاول»،
على صخور «توماس» على الشاطئ الغربى للنهر ، وجود بعثات مصرية فى
المنطقة ولكن ليس هناك أى دليل على وجود مستعمرة منظمة فى النوبة • هذا
مع احتمال وجود معسكرات صغيرة تركزت فى نقط استراتيجية لحماية
الطرق التجارية المصرية • وسجل الفرعون «مرن رع» من الاسرة السادسة
(٢٢٥٨ - ٢٢٤٢ ق.م) فى نص عند الجندل الاول حضوره الى المنطقة
ليقبل ولاء وطاعة رؤساء قبائل «المدجاو» «وارثت» «وواوات» التى كانت
حينئذ تقطن المناطق الشمالية من النوبة السفلى •

وكان للمصريين طوال عصر «مرن رع» نشاط واسع فى النوبة تحت
اشراف موظفين بارعين هما «أونى» و «حار خوف» • وكان «أونى» نبىلا
عظيما له خبرة فى الشئون النوبية تحت حكم «بيبى الاول» الملك الذى
سبق «مرن رع» عندما بعثه فى مهمة ليجمع الجند لجيوش الفرعون الذين
قاموا بحروب ضد قبائل الصحراء الشرقية • وبما ان مثل هذا الحشد
كان ممكنا فانه يظهر لنا مدى سيطرة المصريين على النوبة الشمالية وليس
غريبا أنه فى العهود التالية أصبح من الضرورى تحسين طرق المواصلات
مع البلاد التى تقع جنوبى الجندل الأول ولقد نظم «أونى» ، الذى أصبح
حاكم الجنوب ، شق خمس قنوات فى منطقة الشلال الصعبة للملاحة • وكان

الهدف الأول لشق هذه الطرق المائية هو نقل الجرانيت للمهرم الملكى فى منف . من أجل هذا العمل احتاج أونى الى أخشاب لبناء السفن ومن ثم لم يتردد فى أن يطلب من رؤساء القبائل أن يمدوه بها ، فاستجابوا له فى سرعة وبما أنهم استجابوا لطلبه بسرعة فهذا دليل على ازدياد قوة المصريين ونفوذهم فى المناطق الشمالية من النوبة .

إن إقامة المصريين فى النوبة طويلا فتشح الطريق للكشوفات فى اقاصى الجنوب ، وكان الرائد فى ذلك هو النبيل حرخوف ويمكن اعتباره أول رحلة مسجل فى التاريخ ، ويبدو أنه أصغر سنا من أونى ، كما أن «مرنرع» بعثه على رأس حملة لفتح طرق المواصلات مع «ايام» وهى بلاد لا تعرف مكانها بالضبط حتى الآن ولكنها كانت بالتأكيد جنوبى الجندل الثانى . وبعض المختصين يعتقدون أنها فى الجنوب عند «دارفور» . وكانت الحملة التى استغرقت سبعة شهور موفقة غاية التوفيق الى درجة أن «حرخوف» بعث مرة أخرى فى رحلة فى النوبة أخذها ما سماه «طريق ايفنتين» والذى وصفه بالطريق الصحراوى الذى يبدأ من الشاطىء الغربى لأسوان ويمتد موازيا للنهر وهذا الطريق لا يربى يستعمل فى عصرنا هذا (١) لسير قوافل كبيرة من الجمال من السودان الى أسواق اللحوم فى مصر . وكان حرخوف فخورا بتوفيقه كرحالة لأنه سجل ذلك فى حملته الثانية بقوله «لم يصنع هذا أى نبيل أو قائد قافلة قبل ذلك» .

وقام «حرخوف» بعد استراحة دامت بضع سنين برحلة ثالثة فى مجاهل الجنوب ، وفى هذه المرة سلك طريقا مختلفا ، ويبدو أن هذا الطريق كان فى الصحراء الغربية (١) وربما كان طريق «دراو - كركر» الذى يمر بواحة «كركر» ولا يزال يستعمل للقوافل حتى يومنا هذا ، وهنا علم «حرخوف» أن رئيس قبيلة «ايام» مر قبله وفى نيته القيام بحرب ضد «انتمحو» أو السكان الليبيين فى الواحة الخارجة . ولسبب ما لا نفهمه أحس «حرخوف» أنه من واجبه أن يلحق به وأن يقوم بدور حماية السلام . ولقد نجح فى مهمته لأنه كان يتمتع بنفوذ كبير لدى شعب «ايام» الذين خصصوا مرافقين عسكريين له فى عودته الى مصر . ويبدو أن هذه المرافقة كانت ضرورية لأن «حرخوف» رجع مصطحبا ثلاثمائة حمار محملين بمحصولات قيمة من الجنوب مثل البخور والابتنوس وسن الفيل وهى كلها أشياء كان سكان النوبة السفلى يفرحون بنهبها عندما كان المرور عبر أراضيهم .

(١) وهو الطريق المعروف باسم «دوب الاربعين» .

أما الرحلة الرابعة والاختيرة «لخرخوف» فقد قام بها بعد موت سيده الملكى «مرن رع» وتلاه على العرش الملكى الطفل «بيبي الثانى» . وأثناء رجوعه من الرحلة كتب للملك يبلغه بأنه أحضر معه قزما راقصا من بلاد «ايام» . ففرح الفرعون الشاب بالخبر وبعث للرحانة بخطاب قائلا فيه : «تعال شمالا الى القصر حالا واحضر معك القزم الذى جلبته حيا فى حالة طيبة وصحة طيبة من بلاد الاشباح لتسلمه للملك وليفرح قلبه ويسعده ، وعندما يكون القزم فى السفينة عين أشخاصا موثوقا بهم للعناية به واهتم به ولا تتركه يقع فى الماء . وعندما ينام فى المساء عين من يوثق بهم ليناموا بجانبه فى الحجرة نفسها ويقوم بالتفتيش عليه عشر مرات فى الليل فان مولانا يود أن يرى هذا القزم أكثر من هدايا «سيناء» «وبونت» . وهناك جدل عن هدية خرخوف للملك : هل كان قزما pygmy أم قزما عاديا لأن ترجمة الكلمة المصرية القديمة غير مؤكدة . وان كان قزما حقيقيا فيعنى ذلك أن الرحلة قد توغلت داخل جنوب السودان أو أن الأسير الصغير أعطى له عن طريق التبادل فى بلاد «ايام» .

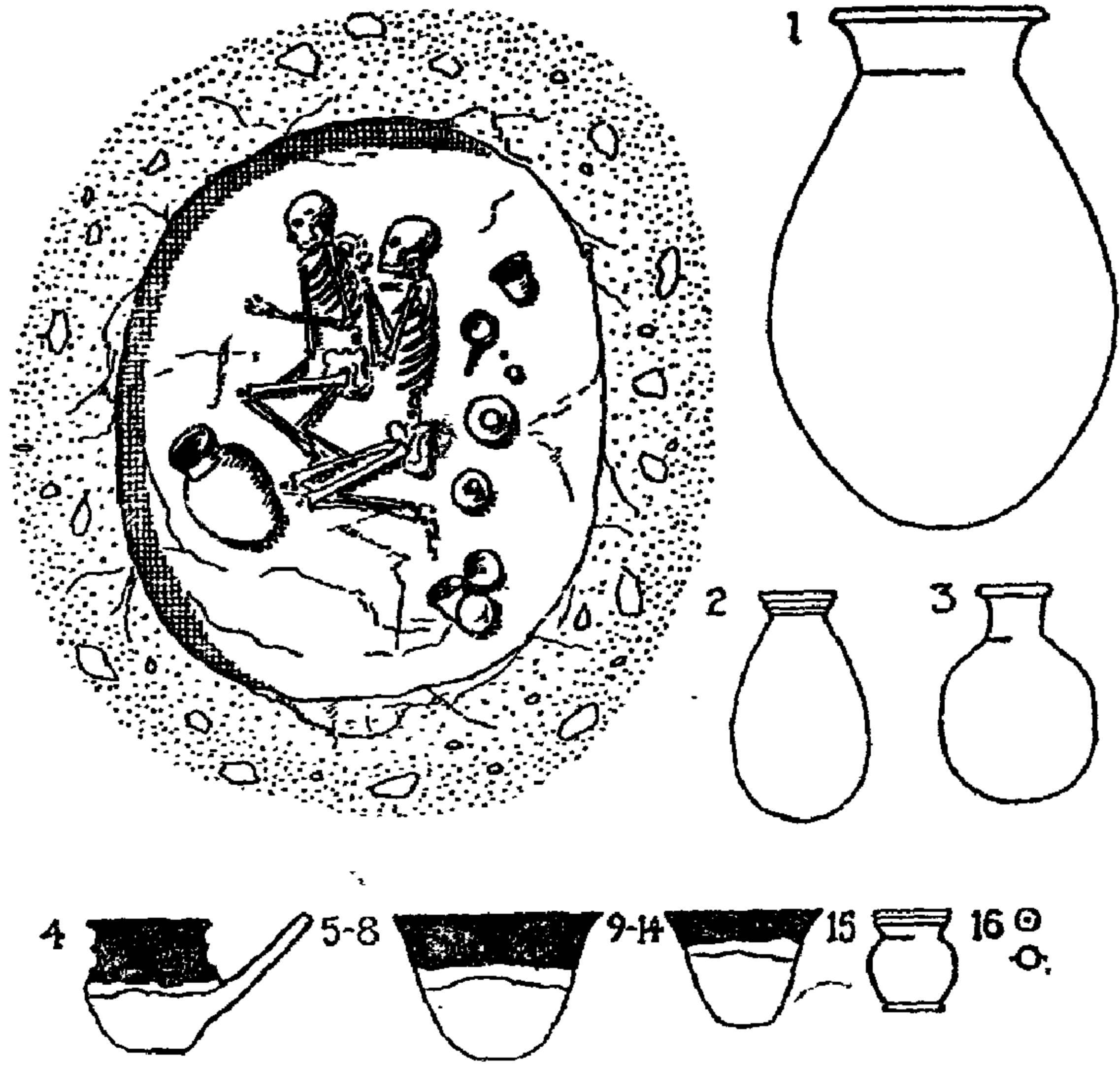
ولم يكن توغل المصريين فى النوبة دائما مصبوغا بصفة السلام مثل رحلات «أونى» و «خرخوف» . فلقد كانت هناك عصور ثورات عندما كان حكم المصريين يدعم بقوة السلاح . ومثل هذه الحملات التأديبية كان يقودها القائد «بيبي نخت» الذى سجل انه قتل عددا كبيرا من الأعداء وأطفال رئيس قبيلة نوبية ونبلاء عديدين . وبعد تهدة البلاد نظم «بيبي نخت» حكومته واحضر حاكمى واوات وارثت الى البلاط ليقدّموا فروض الطاعة لسيده الملكى الفرعون «بيبي الثانى» .

الفصل الثاني

عصر الانتقال الأول والأسرة الحادية عشرة

لم تدم سيادة مصر فى النوبة السفلى بعد موت « بيبى الثانى » فبموته ضاعت قوة الحكم المركزى وأعقب ذلك عصر فوضى فى الوطن مما أدى الى نتيجة حتمية وهى أن مصر ضيعت كل ممتلكاتها فى الجنوب . وهذا العهد فى تاريخ مصر يقع فيما بين نهاية الأسرة السادسة وبداية الأسرة الحادية عشرة ويعرف عند علماء الآثار بعصر « الانتقال الأول » ولقد دام هذا العصر حوالى مائتى عام تقريبا (٢٢٥٨ - ٢٠٥٢ ق.م) .

اننا لا نعرف الكثير عن الأحداث فى مصر وعن ممتلكاتها الضائعة فى النوبة السفلى سوى بعض الأدلة عن الانشقاق الداخلى . والفراغ الناتج من انسحاب القوة المصرية أعطى الفرصة للنوبيين لى ينشئوا حضارة مستقلة عرفت « بالمجموعة الثالثة » . وقد ظهرت هذه الحضارة عن طريق تزايد السكان المهاجرين القادمين فى الغالب من الجنوب الغربى . ولا يزال اسم وأصل هؤلاء المهاجرين غير معروف ولكن يبدو أن لهم علاقة - من ناحية الشكل والحضارة - بسكان النوبة السفلى الأول . فالمهاجرون والسكان القدامى ينتمون أساسا الى الجنس البنى أو جنس



الشكل ١٦

مقبرة نوبية من الطراز المعروف على هيئة الناقوس
من الدولة الوسطى في أبلنوس

أنثى وذكر بالغان يرقدان في هيئة نصف القرفصاء • الأشياء (مقياس
١/٨) •

- ١ - آنية وردية كبيرة •
- ٢ - آنية من الألبستر •
- ٣ - آنية من الصلصال الأشهب •
- ٤ - آنية حمراء ذات فوهة سوداء لها صنبور •
- ٥ إلى ١٤ - آنية حمراء مصقولة وآنية ذات فوهة سوداء
- ١٥ - مكحلة من الألبستر
- ١٦ - تسع عشرة خرزة مستديرة من القاشاني الأزرق •

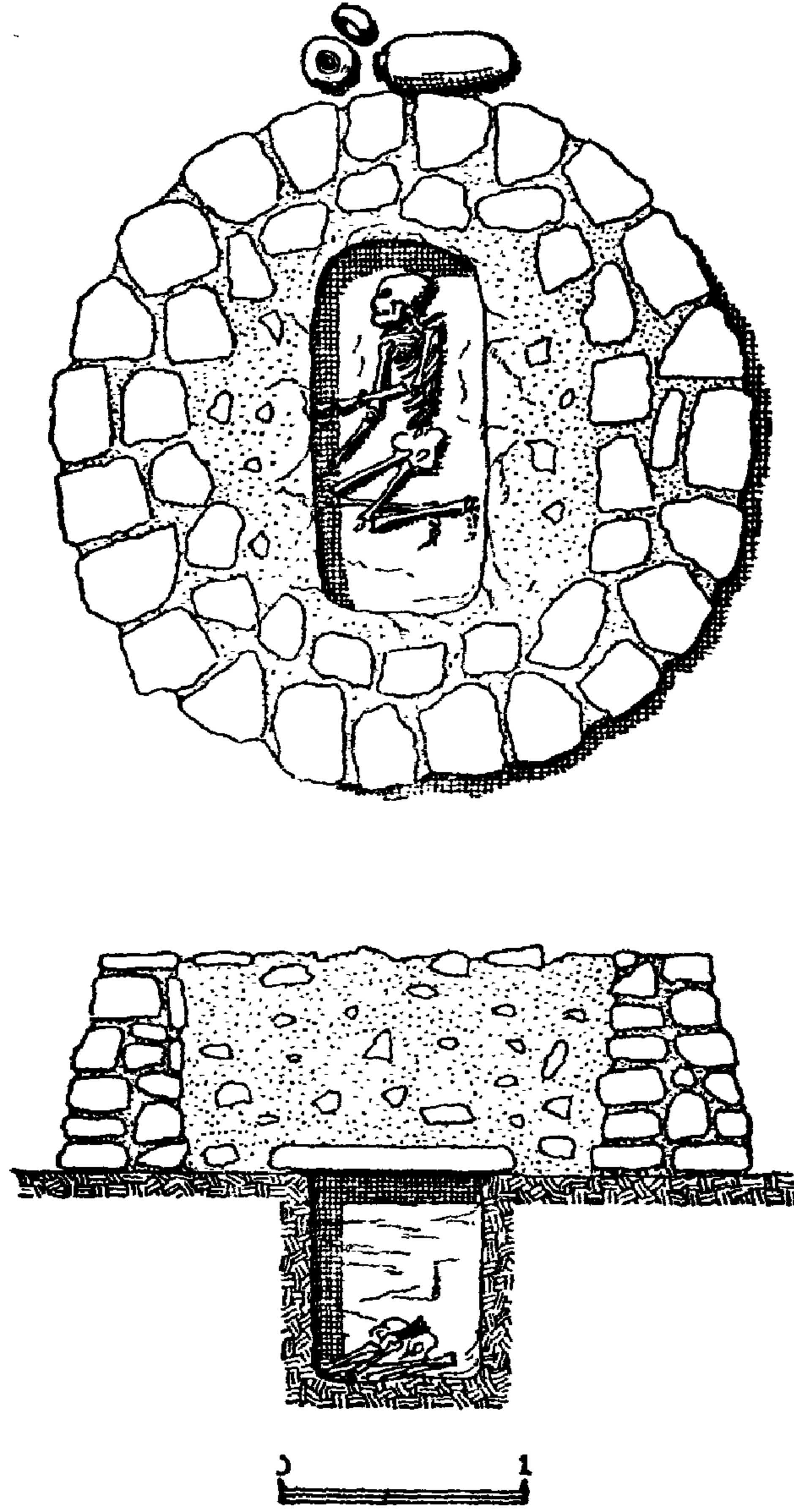
البحر المتوسط ، مع انه قد عثر على بعض المميزات الزنجية في المادة التشريحية المكتشفة في مقابرهم .

اذن فهذا العنصر الزنجي القليل جعل السكان الجدد يختلفون تشريحيًا عن سكان المجموعتين الاولى والثانية الا أنهم ورثوا حضارة أجدادهم وعملوا على تنميتها . حقا ، ان فخار المجموعة الثالثة يشبه الى حد كبير فخار مصر في عصر ما قبل الاسرات ولعل هذا يمكننا أن نرى في حضارتهم الرعوية ما يمكن أن يكون تطورا للحضارة « النبوليتية » المتأخرة التي وجدت في كل وادي النيل الشمالى ، الا أن هذه الحضارة سرعان ما انتهت بغزو المصريين في آخر الألف الرابعة ق.م . ومع ان مئات من مقابر المجموعة الثالثة قد فحصت بعناية من علماء الآثار أثناء المسح الأثرى ومن البعثات الأخرى فما زالت معرفتنا بهؤلاء الناس قليلة ومع اننا نستطيع أن نتقصى آثار تطور حضارتهم منذ أقدم عصورها في عصر الانتقال الاول (٢٢٥٨ ق.م) حتى انتهائها في أوائل الدولة الحديثة (١٥٧٠ ق.م) .

فهناك سؤال حيوى عنهم لم يجد له بعد جوابا ، وهو حدود حضارتهم الجنوبية : هل انتهت عند الجندل الثانى أم امتدت في النوبة العليا ، وان كانت قد امتدت جنوبا فالى أى مدى وصلت ؟ وترجع أهمية الاجابة على هذا السؤال الى أنها سوف تجلو لنا مئة عام من تاريخ النوبة الغامض .

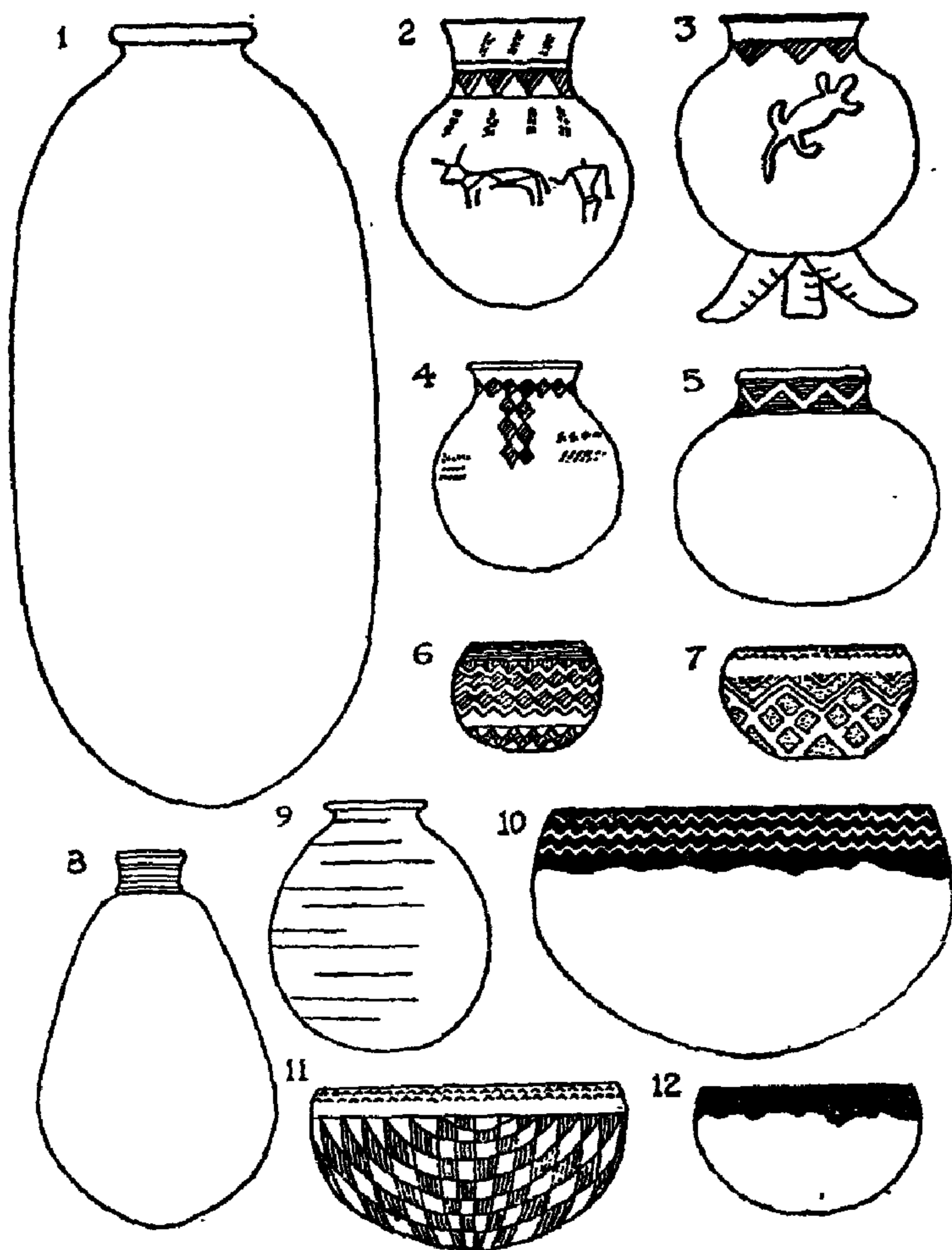
ان حفائر بعثة « هارفارد بوسطن » فى « كرما » ، فى النوبة العليا ، أظهرت حضارة نوبية أخرى تشبه حضارة المجموعة الثالثة وفى نفس الوقت تختلف عنها وتنتمى الى شعب آخر . ولافتقارهم الى تسمية أفضل سمي علماء الآثار هذه الحضارة « حضارة كرما » . ولم نعرف بعد حدودها الجغرافية ولا تتبعها التاريخى ، مثلها فى ذلك مثل حضارة المجموعة الثالثة . وقبل أن تتم اكتشافات وتنقيبات جادة فى النوبة ، كان علماء الآثار متعجبين لكشفهم فى عدة مناطق من مصر عن مقابر تحوى جثث على هيئة القرفصاء تشبه المقابر النوبية نفسها (الشكل ١٦) ولأن المقابر كانت غير عميقة سميت مقابر « ناقوسية » ، ولأنها قد عثر عليها فى معظم الاحيان فى مناطق بها ثكنات للجيش ، عرف شاغلوها كمرتزقة نوبيين . والأدلة الكتابية الكثيرة تبرز وجود هذه الجيوش فى العصر الفرعونى .

والآن يمكن تأكيد الصلة بين حضارة أصحاب المقابر « الناقوسية » وأهل « كرما » واستبعاد صلتهم بحضارة المجموعة الثالثة . وبذلك يظهر ان الفرق السمرات التابعة للجيش المصرى كانت تأتى من النوبة العليا . وفى عام ١٩٣٤ ، بعد انتهاء المسح الأثرى الثانى قلت : « لم يأت أقوام المجموعة الثالثة من « كرما » كما كان قد أشار « ريزنر » . ويبدو ان المجموعة



الشكل ١٧

نماذج لمقابر حضارة المجموعة الثالثة



الشكل ١٨

نماذج لفخار حضارة المجموعة الثالثة

- ١ - أوان صفراء
- ٢ - أوان بنية خشنة الصنع ذات رسوم محفورة
- ٣ - أوان بنية خشنة الصنع ذات رسوم محفورة وبارزة
- ٤ - أوان بنية خشنة الصنع ذات رسوم محفورة
- ٥ - أوان حمراء ذات فوهة سوداء ورسوم محفورة
- ٦ و ٧ - فخار أسود ذو رسوم محفورة أو ملونة
- ٨ - فخار أحمر
- ٩ - فخار أصفر
- ١٠ - فخار أحمر ذو فوهة سوداء ورسوم محفورة
- ١١ - فخار أسود ذو رسوم محفورة
- ١٢ - فخار أحمر ذو فوهة سوداء

الثالثة لم تكن قد انتشرت جنوبا حتى الجندل الثانى ولكنها اقتصرت فى النسوبة السفلى (واوات) تاركة النوبة العليا (كوش) لجيرانها المحبين للحروب . والتشابه الكبير بين الحضارة المعروفة بالمقابر «الناقوسية» فى مصر العليا والمادة التى عثر عليها فى كرما واختلافها الواضح عن المجموعة الثالثة تجبرنا على أن نصل الى نتيجة هى : أن المصريين لم يجمعوا المرتزقة من النوبة السفلى . وان «واوات» و «كوش» كانتا تختلفان جنسيا وحضاريا . وعلاوة على ذلك ، فإن المادة التشريحية فى المقابر الناقوسية المصرية زنجية العنصر ، أكثر بلا شك ، من المجموعة الثالثة النوبية .

ومنذ ذلك الحين لم أجد سببا لتغيير هذه النظرية . فهى يجب أن تبقى كنظرية حتى تنقب منطقة النوبة العليا تنقيا كاملا كما نقبت النوبة السفلى ، وهو العمل الذى يجرى الآن بعد تهديد المياه وبعد بناء السد العالى .

ان أقدم حضارة من المجموعة الثالثة تعاصر عصر الانتقال الاول تشبه فى نواح عدة حضارة المجموعة الثانية التى يبدو أنهم ارتقوا منها (شكل ١٧) وكان الجسد ، فى هيئة النصف قرفصاء ، يوضع على جانبه الايمن ورأسه فى الشرق ، فى حفرة بيضاوية الشكل . كان الجسد أحيانا يلف فى بقايا لباس جلدى . وفى حالات أخرى كان الجزء الأسفل من الجسم يغطى ببقايا نقبة جلدية مطرزة بالخرز ومن الواضح أنه فى هذا العصر وعندما كانت التجارة مع مصر غير موجودة تقريبا كان سكان النوبة يعتمدون على جلود الحيوانات فى لباسهم أما للزينة الشخصية فقد استعملوا الأساور المصنوعة من العاج والقواقع والخرز وأقراطا من القواقع وأحزمة وعقودا من الخرز . واستعملوا الدهنج وحفظوه وخلطوه بالأصباغ فى قواقع وصلابات فخارية . وجرت العادة فى هذه المقابر من المجموعة الثالثة أن توضع أواني التقديم فى المقبرة نفسها . ولكن هذا التقليد قد أهمل فيما بعد ووضعت الأواني الفخارية خارج المقبرة . وبعد الدفن ، كانت المقبرة تغطى بجزء علوى مستدير مكون من قطع حجرية غير مهذبة الشكل . وأعهر فخار المجموعة الثالثة فى البداية تطورا من المجموعة الاولى والثانية ولكن أشكالا عديدة وطرقا جديدة أبدعت مثل الأواني الحمراء ذات الرسوم البيضاء والأواني الصغيرة السوداء ذات الرسوم المحفورة التى تملأ باللون الأبيض أو الأحمر أو الأزرق (الشكل ١٨) وللأسف لم يبق إلا القليل من مخلفات أهل المجموعة الثالثة وما وصلنا يعتبر مما كان يستعمله فقراء القرية .

ويبدو أن مساكن عظماء القوم كانت موجودة فى الاراضى الخصبة

الى جانب شواطئ النيل ونتيجة لذلك اختفت من غير أن يبقى لها أثر تحت الزراعة . ولم يبق لنا الا مساكن الفقراء الموجودة على حافة الصحراء وهي تعطينا فكرة عن قوم عاشوا في حالة بدائية . أما المقابر فهي تدل على أن الحال لم يكن كذلك . وعلى أية حال فمع ان البقايا اليومية قليلة فهي تزودنا بمعلومات قيمة عن الحالة العامة لأهل المجموعة الثالثة .

ان مساكن أهل القرية المتواضعين التي كشف عنها على حافة الصحراء مكونة من مجموعة من الحجرات تتصل ببعضها البعض جدرانها غير مستقيمة وهي مبنية من قطع حجرية مسطحة وضعت واقفة على الارض وألصقت الواحدة بالآخرى بالطين المجفف . ولم يبق أى دليل على طريقة التسقيف ولكن وجود حفر لأعمدة في أرضية الحجرات توحي بسقف من الخصر المجدول أو خيمة من الجلود . ومن البديهي أن الجدران المصنوعة من القطع الحجرية غير المهذبة لا يمكن أن تتحمل سقفا مصنوعا من ألواح حجرية . أما أرضية هذه الاكواح فكانت مبطنة بالطين وكانت مخازن الحبوب مبنية أيضاً من قطع حجرية غير مهذبة ملاصقة للجدران ؟ .

أما الى أى مدى كان أهل المجموعة الثالثة مزارعين فهذا ما لا نعرفه لأننا لم نعثر في مقابرهم على أدوات زراعية . ولكنهم كانوا بالتأكيد يمتلكون عددا كبيرا من الاغنام والابقار . فلقد أظهر الكشف عديدا من تماثيل فخارية لابقار وخراف وماعز في قراهم وفي مقابرهم . كما ان هذه الحيوانات كانت تمثل على الفخار كزينة وكانت موجودة أيضا على المناظر الصخرية التي ترجع اليهم . ان النوبة اليوم لا تملك مراعى للاغنام وكل ما يمكن أن نستنتجه هو أن الاحوال المناخية كانت مختلفة عندما كان أهل المجموعة الثالثة يربون قطعان الماشية على شواطئ النيل منذ أربعة آلاف من السنين . حقا فهناك أدلة أخرى على أن سقوط الامطار الغزيرة لم تكن غير مألوفة حينئذ : نلاحظ نظام المصارف الذي اضطر المصريون أن يقيموه عندما شيّدوا المدن المحصنة في النوبة .

ويختلف علماء الآثار في نظرتهم للصفات العسكرية التي اتصف بها أهل المجموعة الثالثة فبعضهم يذهب الى أنهم كانوا من جنس يحب الحرب اعتبرهم المصريون خطرا مستمرا بينما يرى البعض الآخر أنهم لم يكونوا عدوانيين وكان من السهل غزوهم وابقاؤهم خاضعين . وأعترف أنني شخصيا أميل الى الرأي الثاني . فمن الملاحظ أن الاسلحة نادرة جدا بين الاشياء المتنوعة التي عثر عليها في مقابرهم للاستعمال الشخصي في الدنيا الثانية ، بل تكاد تكون غير موجودة . وهذا أمر لا يفهم اذا كانوا قوم حرب . وعلاوة على ذلك ، كما بينت من قبل ، كانت الفرق الزنجية في

الجيوش المصرية متصلة بأهل كرمة الذين أتوا من الاراضى جنوبى الشلال الثانى . وفى الحصون المصرية مثل «كوبان» و «ايكور» الموجودة فى قلب وطن المجموعة الثالثة نجد آثارا لأهل كرمة الذين خدموا كعساكر بينما لا نجد آثارا لأهل المجموعة الثالثة . ومن ناحية أخرى وجدنا دلائل كثيرة لمساكن من المجموعة الثالثة على مقربة منها ولكن ليس فى الحصون نفسها . وفى نظرى تكون النتيجة الحتمية ان أهل المجموعة الثالثة كانوا محبين للسلام ولم يعتبرهم المصريون لائقين كرجال للجيش فاعتمدوا على المحاربين الجنوبيين كاحتياطى فى معسكراتهم .

ولذلك أعتقد أن سكان النوبة السفلى كانوا من جنس غير عدوانى ، يحب الاستقرار ويربى الماشية عندما استقر الحكم المركزى فى مصر وبدأ فراعنة طيبة ، فى الأسرة الحادية عشرة غزو الجنوب مرة أخرى . حقا هناك دليل بالرغم من ذلك على أنه فى العهد الذى يسبق اتحاد مصر تحت لواء ملوك طيبة ، طالب أسلافهم ، وهم الأمراء الذين لم يتعد حكمهم شمال أسيوط ، « مراقبة بوابة الجنوب » .

ولقد سجل نقش آخر فى طيبة كيف أن جنديا اسمه «جمى» جعل «واوات» تدفع الجزية لأمير طيبة . ويبدو أن هذه الجزية لم تتعد غنائم حملة واحدة ومع ذلك فهى تثبت أن المصريين حتى بعد ضعفهم نتيجة للنزاع الداخلى ، كان أمراؤهم الجنوبيون لا يزالون يهتمون بالنوبة ويستخدمون نفوذهم هناك . ولم يصبح الدخول الى الجنوب بطريقة واسعة ومنظمة ممكنا الا بعد أن اعتلى أمراء طيبة عرش مصر الموحدة .

وأصبح هذا الاتحاد نهائيا تحت حكم «منتوحتب الثانى» فى الأسرة الحادية عشرة وبانتهاء حروبها الاهلية تمكنت مصر من أن توجه اهتمامها نحو جيرانها الجنوبيين . والدلائل على النشاط العسكرى المصرى فى النوبة السفلى أثناء الجزء الثانى من الأسرة الحادية عشرة ثابتة على عدة نقوش صخرية خاصة فى بوهن مما يثبت مدى توغلهم نحو الجنوب . ولكن بصفة عامة فهذه الحملات تبدو أنها كانت حملات تأديبية للرد على اعتداءات النوبيين على القوافل التجارية المصرية والعمل فى المحاجر . فمثلا يسجل نقش صخرى فى « ابيسكو » كيف أن المدعو توحمانو ، الذى يبدو أنه كان نوبيا ، أصبح جنديا «لنب حبت رع» (منتوحتب الثانى) عندما سافر الملك المصرى جنوبا الى «بوهن» أثناء «رحلته بحرا عبر البلاد كلها ليقتل بدر» جاتى» الذين كانوا يمنعون قطع الحجارة .

ولكن ، عندما وقعت مصر نفسها فريسة للحروب الاهلية أصبحت

سيطرتها على النوبة السفلى غير ثابتة وفي أواخر الأسرة الحادية عشرة يبدو أنها لم يكن لها وجود تقريبا . وعلى أية حال فبالنسبة للسكان يبدو أن الحالة كانت هادئة . ومن الأدلة الاثرية نقرر ان حضارة المجموعة الثالثة استمرت في تقدمها البطيء دون ازعاج . ولكن فيما بعد الشلال الثاني ، في النوبة العليا ، اختلف الحال ، ومع أننا لا نعرف الا القليل عن ظروف هذه الفترة الا ان الحوادث المتأخرة توحي بأنه أثناء الفترة الذي ساد فيها الضعف في مصر تكونت قوة عسكرية هائلة في الجنوب سماها المصريون « كوش » ومنذ ذلك الحين أصبحت كوش قوة دائمة التهديد للحدود الجنوبية ولمصر نفسها - الى درجة أنه عندما اتحدت مصر مرة أخرى تحت حكم فراعنة الأسرة الثانية عشرة العظام ، وجد حكامها أنه من المحتم اتفاق جزء كبير من الثروة القومية في بناء مواقع حماية كبيرة ساصفها في الفصل المقبل .

الفصل الثالث

الأسرة الثانية عشرة

يبدو ان مؤسس الأسرة الثانية عشرة وأول ملوكها لم يكن من دم ملكي كما يبدو أنه كان يمت الى أصل نوبي . وجاء في نبوة لكاهن من مدينة « بوبستس » في عصر الملك (سنفرو) (٢٦٨٠ - ٢٦٥٦ ق.م) ان مصيبة ستلحق بمصر لن تنتهي الا عندما يأتي من الجنوب - من « نخن » (مصر العليا) - طفل يدعى « أمنى » وهو ابن سيده من « تاستى » (النبوة) ليصبح ملكا . واسم « أمنى » تصغير معروف لاسم « امنمحات » . وبما أن النبوة وردت في بردية من الأسرة الثانية عشرة فهذا يدل على ان كتابتها في هذا العصر كان نوعا من الدعاية الملكية . ومع ان تاريخ هذه القصة غير صحيح الا ان مولد ونسب البطل « أمنى » يكاد يكون صحيحا . ولقد أعاد « امنمحات » الرخاء والقانون والنظام لمصر بعد طرد الاسيويين الذين كانوا يتوغلون في الدلتا ولكنه اضطر في أواخر حياته الى أن يواجه مسألة حدوده الجنوبية . والسنة التاسعة والعشرين من حكمه أشرك ابنه « سنوسرت » معه كولي عهد لمدة تسع سنين ويبدو أنه هو الذي كان يقود الحملة النوبية وليس امنمحات نفسه الذي كان قد بلغ سن الثمانين تقريبا . ولم نعثر بعد على سجل لهذه الواقعة وهي

الاولى فى مجموعة طويلة من معارك الاسرة الثانية عشرة ، الا فى نقش قصير على صخرة قريبة من كروسكو نقراً فيه أنه فى (السنة التاسعة والعشرين للملك « سحتب اب رع » (امنمحات الاول) ليعش للأبد ، حضرنا لنطرد « واوات ») . ولم تذكر الا النوبة السفلى (واوات) ويبدو أنه قاد الحرب لاعادة سلطة المصريين فى المنطقة الواقعة بين الجندل الاول والثانى . وهذا كتمهيد لمواقع أكثر خطورة مع كوش فى الجنوب . وانى أعتقد أنه كان للحملة المصرية هدفان . الاول توسع استعماري لاستغلال ثروة المناجم وبعض المحاصيل الجنوبية الاخرى . أما الهدف الثانى فهو ضرورة ابقاء النوبة السفلى كحاجز بين مصر وكوش .

بدأت العمليات الحربية المهمة بعد تسع سنين من تهدئة واوات . وبعد عمليات أخرى ناجحة والاستيلاء على الجندل الثانى أصبح «سنوسرت» ، فى وضع يمكنه من تشييد سلسلة من الحصون أصبحت فيما بعد أعظم الموانع الحربية التى صنعتها أيد بشرية فى العالم القديم . ونقش على لوحة من الحجر الرملى ، عثر عليها فى « بوهن » عند رأس الجندل الثانى ، منظر للملك وهو يقف أمام اله الحرب « منتو » قائلاً له « لقد أحضرت لك كل بلاد النوبة تحت قدميك أيها الاله الطيب » ثم نجد المنظر المعروف لرأس واكتاف أسير فوق سياج بيضاوى الشكل يتوسطه اسم مدينة أو مركز مغلوب . ولقد عثر على عشرة من هذه الاسماء التى تدل على المناطق التى وضعت تحت الخضوع نتيجة الغزو . ومع انه من الصعب التعرف عليها الا انها كانت واقعة طبعاً فى منطقة الجندل ولم تكن جزءاً من « واوات » . والنقش الثانى فى حالة مهشمة الى درجة أنها أصبحت خليطاً من الجمل ، مثل « حياتهم انتهت » ، « النار فى خيامهم » ، « حبوبها رميت فى النيل » ، ولقد أقام لوحة النصر هذه قائد سنوسرت الذى ينهى النص كالآتى : (أنا نفسى أخسم ان هذا حدث حقيقة ، أنا قائد الجيش « منتوحتب ») . واذا صدقنا القائد فقد كانت هزيمة الكوشيين مصيبة كبيرة ، ولكن محو صورة الشخص الذى يقف وراء الملك يوحى بأنه قد طرد فيما بعد . وعلى أية حال فهناك أدلة أكثر تفصيلاً عن انتصارات « سنوسرت » فى النوبة فى السنة الثامنة عشرة . وقد جاءنا الخبر من نقش فى مقبرة رجل يدعى « أمنى » الذى كان من أقوى الرجال فى مصر الوسطى أثناء حكم « سنوسرت الاول » وواحداً من حكام اقليم الوعل (بنى حسن) ويقول :

« لقد تبعت سيدى عندما أبحر جنوباً لطرد أعدائه من بين البرابرة الاربعة . وأبحرت جنوباً باعتبارى ابن حاكم اقليم ، وباعتبارى واحداً من

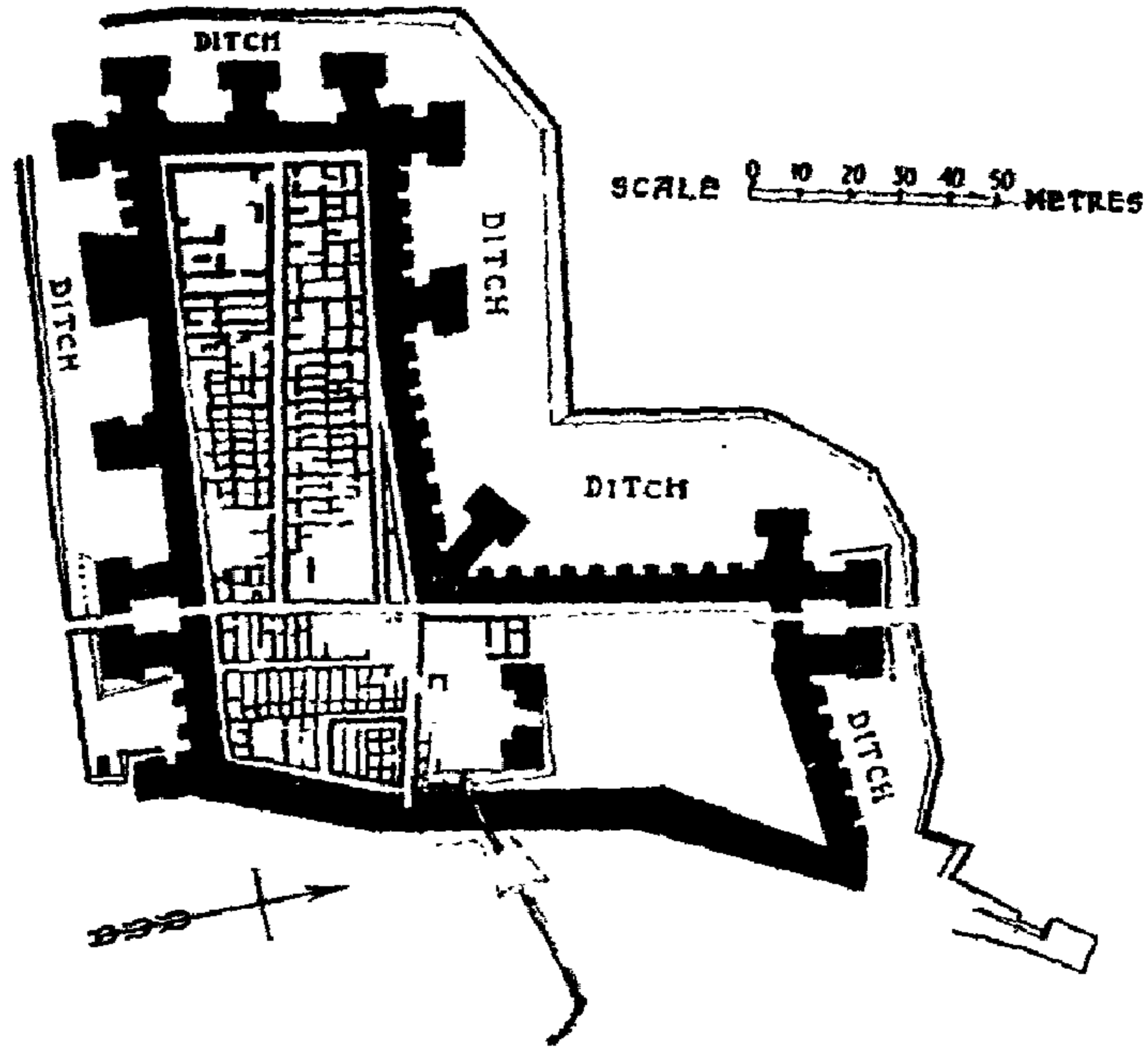
الاشراف ، وكقائد للجيش ، ثم باعتباري عظيما من مقاطعة الوعل ، وكابن يمثل والده العجوز الذي يتمتع بالحظوة عند الملك ، وحب البلاط له .
ومررت في كوش أثناء إبحاري جنوبا ووصلت الى حدود الدنيا ، وأحضرت معي جزية ، ووصل الشكر لي الى السماء . حينئذ رجع مولاي في أمان بعد أن طرد أعداءه في كوش الخامسة . ورجعت متتبعا اياه كرجل قدير ، ولم يكن هناك خسارة بين جنودي » .

ومع ان النص يرجع الى السنة الثالثة والاربعين من حكمه ، فهو يسجل بلا شك حوادث أيام شباب «أمنى» عندما كان والده لا يزال على قيد الحياة . أما عن قوله انه لم يتكبد خسارة بين جنوده فيبدو أن هذا يرجع الى أنه قد صاحب الملك بعد النصر الذي انجزه القائد «مفتوحتب» .

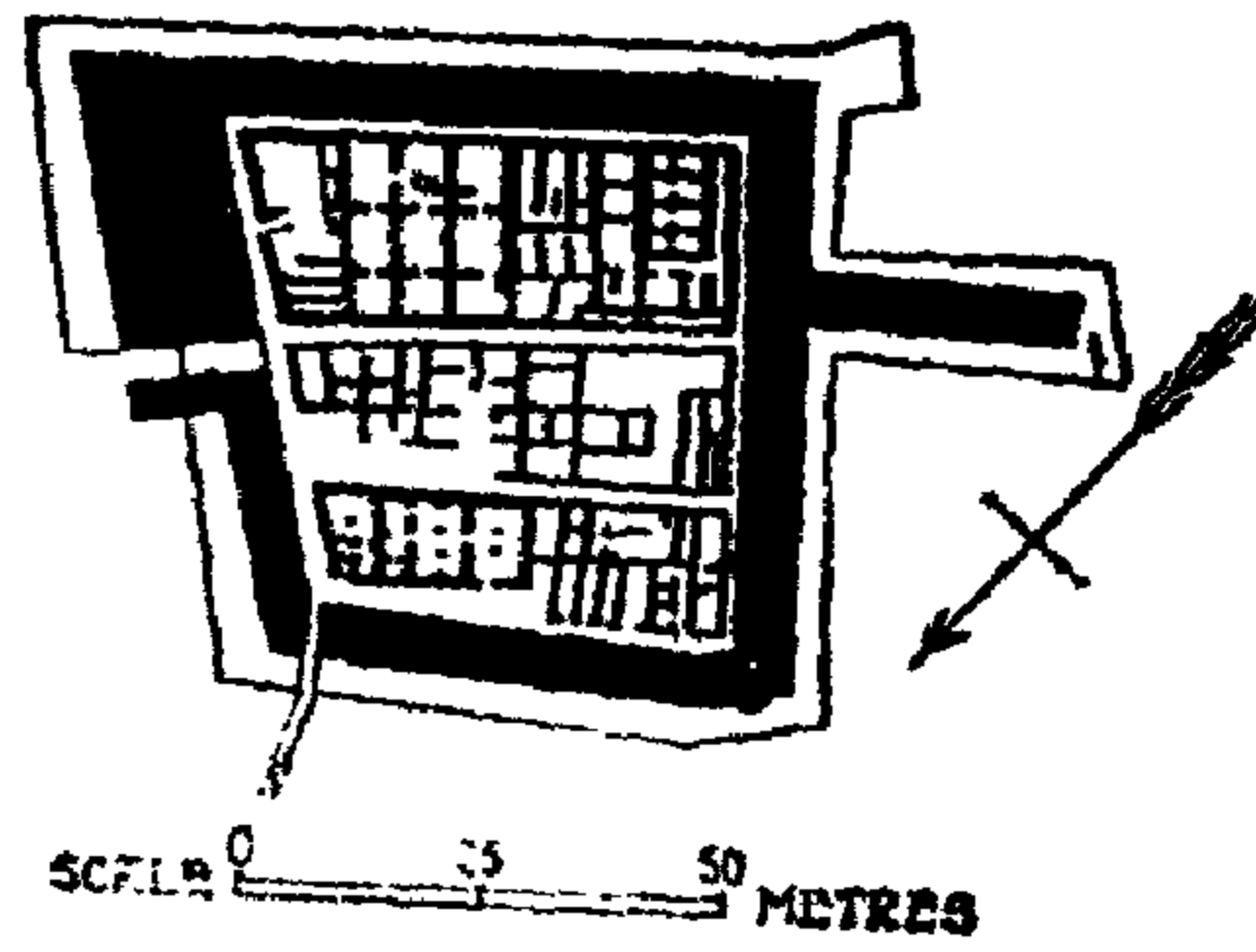
أصبحت منطقة الجندل الثالث بعد هذا الانتصار تحت رقابة المصريين ، وبدأ «سنوسرت» في تشييد حصون وقلاع بقيت لسنين عديدة السد المانع الذي حد من قوة كوش . وبعد أن اختار مهندسو «سنوسرت» العسكريين السد الطبيعي في منطقة الجندل الثاني والمعروفة « ببطن الحجر » ، أقاموا مجموعة من الحصون على شاطئ النهر ، كلا منها على بعد اشارة من الاخرى وقد عثر على معظم معالم هذه الحصون ، ومع أن بعضها قد فحص الا أنه لم يتم الكشف تماما الا عن واحد منها وهو حصن «بوهن» . ومع ذلك فلقد دل الفحص على أنها شيدت كلها في الوقت نفسه تقريبا وأنها بنيت على طراز واحد كجزء من فكرة حربية واحدة . ولا يمكن أن يكون مثل هذا العمل الجبار قد تم في عهد واحد ، ولكني أعتقد ان العمل ، في الغالب ، بدأ في معظم الحصون في عصر «سنوسرت الاول» .

ولقد عثر «جيمس كويل» سنة ١٨٩٦ على مجموعة من البرديات ترجع الى آخر الدولة الوسطى في مقبرة أسفل معبد «الرامسيوم» في طيبة ، ومن بين هذه البرديات واحدة دونت عليها قائمة لأسماء جغرافية من بينها أسماء الحصون النوبية . وذكرت سبعة عشر حصنا من بينها ثمانية لا بد انها تنتمي لمجموعة الجندل الثاني ، والقائمة الكاملة لهذه المراكز العسكرية مبتدئين بالتى فى أقصى الجنوب كما يلي :

١ - الحصن المعروف بـ «القامع ٠٠٠» (وبقية الاسم ضائع) . وهذا ما يمكن أن يعرف ببقايا بناء مستطيل كبير ، موجود على بعد كيلومتر جنوبى سمنا على الضفة الغربية للنيل . ولم ينقب بعد ولكن من حجم قطع الطوب اللبن وسمك جدرانها يبدو أنه من عصر الدولة الوسطى ومعاصر للحصون الاخرى فى المنطقة .



الشكل ١٩
رسم تخطيطي لسقط
قلعة « سمنة »

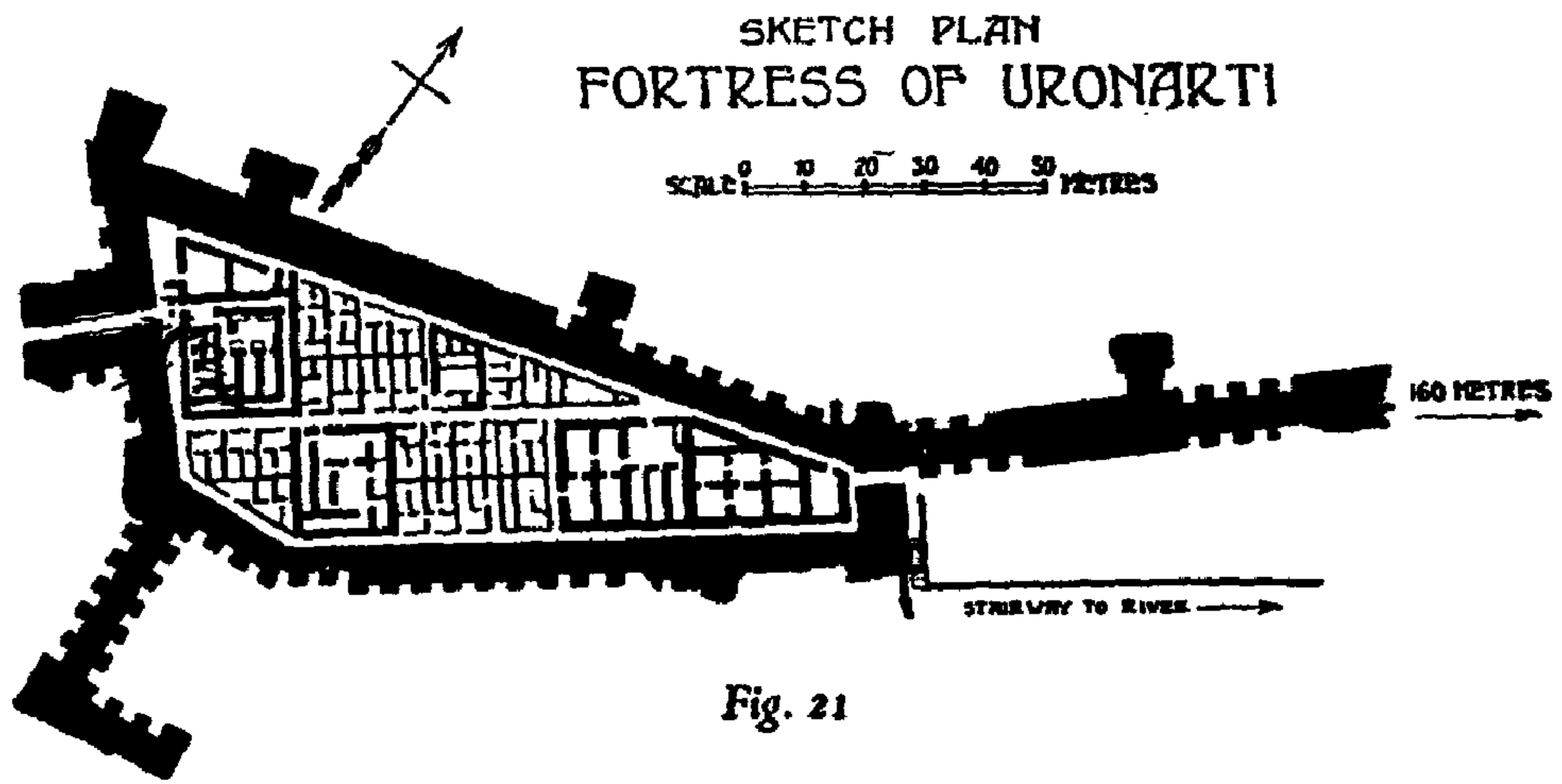


الشكل ٢٠
رسم تخطيطي لسقط
قلعة « قمة »

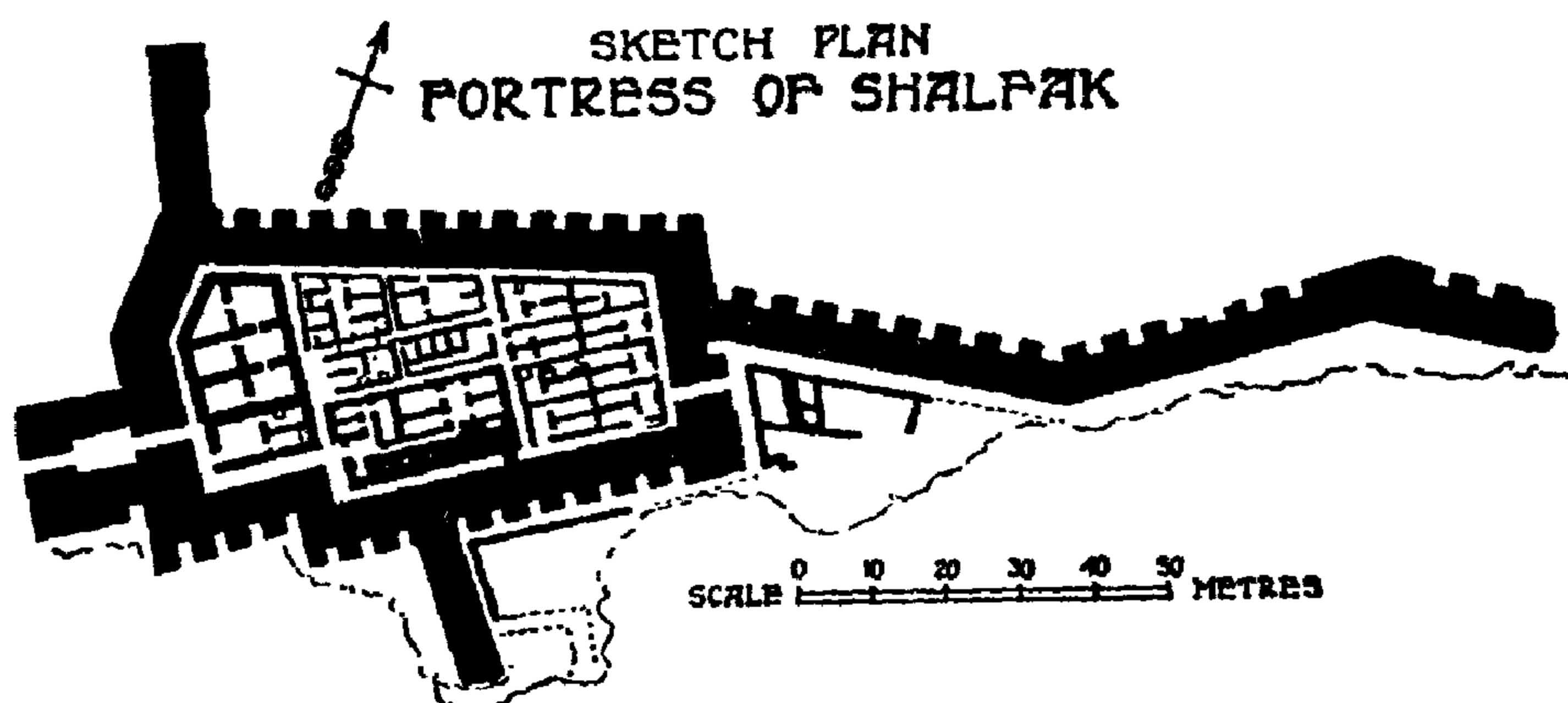
٢ - الحصن المعروف بـ « خاع كاورع - الميجل - قوى » ، وهذا الحصن فسر على أنه قلعة « سمنة » على الضفة الغربية والتي تقف أمرة على النيل مع الحصن التوأم على الشاطئ الشرقي ، فالنيل في هذه المنطقة يشق طريقه في جبل من الصخر القوى في أضيق منطقة للجندل الثاني . ومن الاسم يمكننا أن نستخلص أن بناءه تم في عصر « خع كاورع » (سنوسرت الثالث) ولكن التنقيبات دلت على أن النصف الشرقي للبناء شيد في وقت متقدم عن ذلك ، ربما في عصر «سنوسرت الاول» . وقد بنى الحصن على قمة صخرية على شكل حرف - س - الافرنجية على حافة النهر ولذلك نجد تخطيطه غير مستقيم : ان السور الخارجى الكبير المصنوع من اللبن يقوم على أساس من الحجر ويحيط به من الجوانب الشمالية والغربية والجنوبية الخندق العادى الواسع الجاف . أما الجدران فسمكها يصل من ٦ الى ٨ م ويتخللها بين مسافة وأخرى أبراج عالية ضخمة ونصل الى المدينة المزدحمة داخل الاسوار عن طريق بوابتين محصنتين في الجانبين الشمالى والجنوبى ، وتتصل هاتان البوابتان بوساطة طريق يشق المدينة . ومع ان تصميم المدينة غير مستقيم الا انه يظهر فيها التخطيط الدقيق الموجود فى بوهن . (الشكل ١٩)

٣ - الحصن المعروف بـ «باعد الاقواس» . وهو الحصن المواجه لسمنه على الشاطئ الغربى للنهر والمعروف «بقمة» . وتصميمه العام مربع ، كما أنه أصغر بكثير من الحصن الذى يواجهه عند الجندل ومع أن تصميمه أبسط الا أنه يبدو أنه من العصر نفسه وأنه يكون وحدة دفاعية واحدة مع «سمنه» . وهنا مرة أخرى بسبب الأسطح غير المستوية للصخر العالى التى شيد عليها الحصن نجد ان الجدران اللبنيّة التى يصل سمكها الى ٦ أمتار تقف على قاعدة من الحجارة . ومن سوء الحظ ان الجزء الخارجى للجدران قد خرب ومن ثم لا يمكننا أن نتأكد من أنها كانت تحتوى أبراجا فى الأصل ، اذ أن هذه الظاهرة غير موجودة . ويبدو انه كان للحصن مدخل واحد فى الجانب الشمالى الشرقى ولكن شكله غير معروف لأن معظم الجزء الشرقى للحصن قد اختفى . أما فى الركن الشمالى الغربى فنجد بوابة نهرية تصل عن طريق ممر مغطى الى النهر (الشكل ٢٠) .

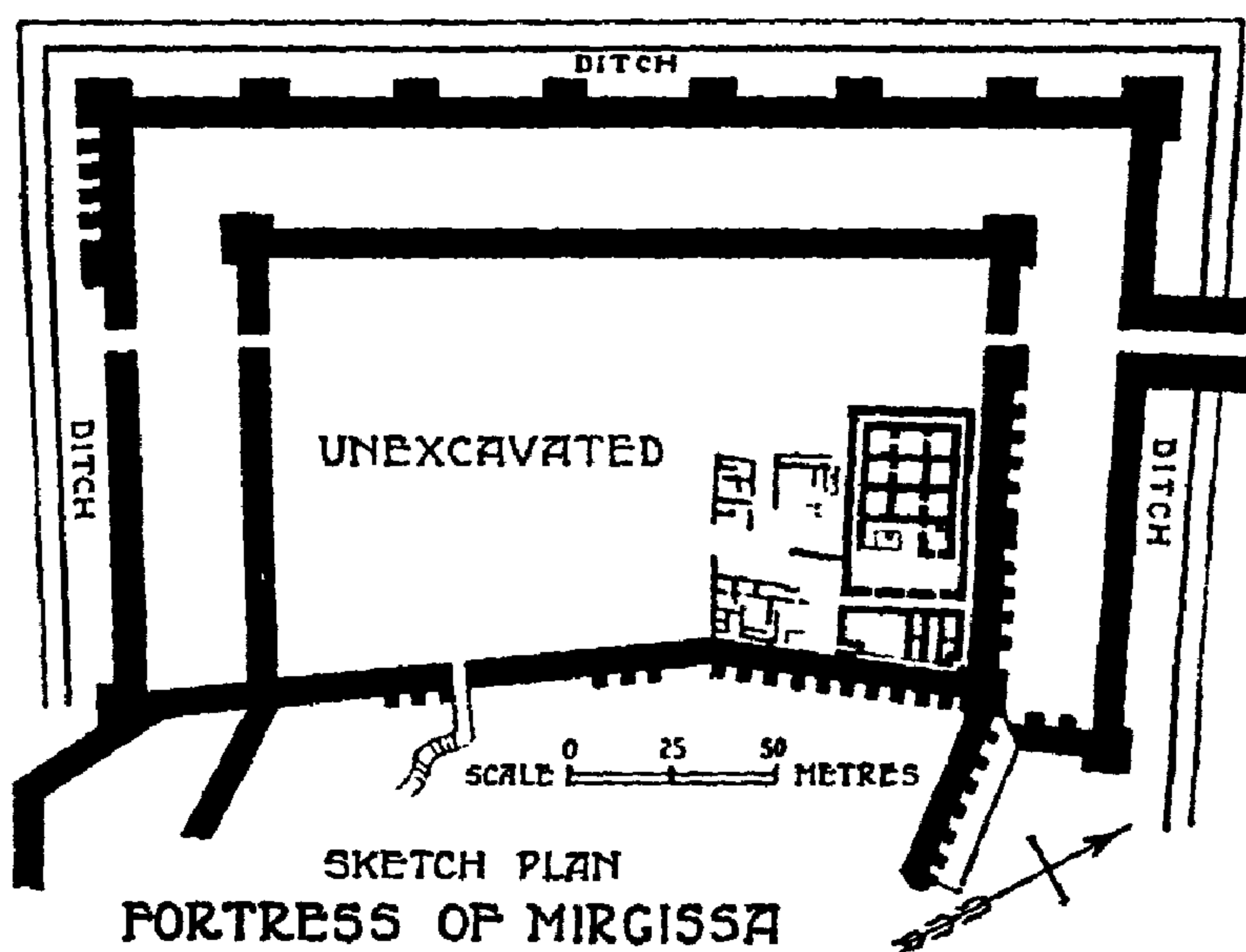
٤ - «التى تصد «الايئو» . الحصن المعروف «بأورونارتى» ، وهو حصن صغير موجود على جزيرة فى الشلال شمالا . وعلى مسافة قريبة - تمكن من الاتصال بالاشارة - نجد الحصنين التوأمين «سمنه وقمه» . وتسجل لوحة جرانيتية عثر عليها سنة ١٨٩٩ فى المنطقة ان « سنوسرت الثالث» هو الذى أقام الحصن ولكن بعض الظواهر فى بنائه - اذا قورنت



الشكل ٢١
رسم تخطيطي لاسقط
قلعة « اورنارتي »



الشكل ٢٢
رسم تخطيطي لاسقط
قلعة « شالفاك »

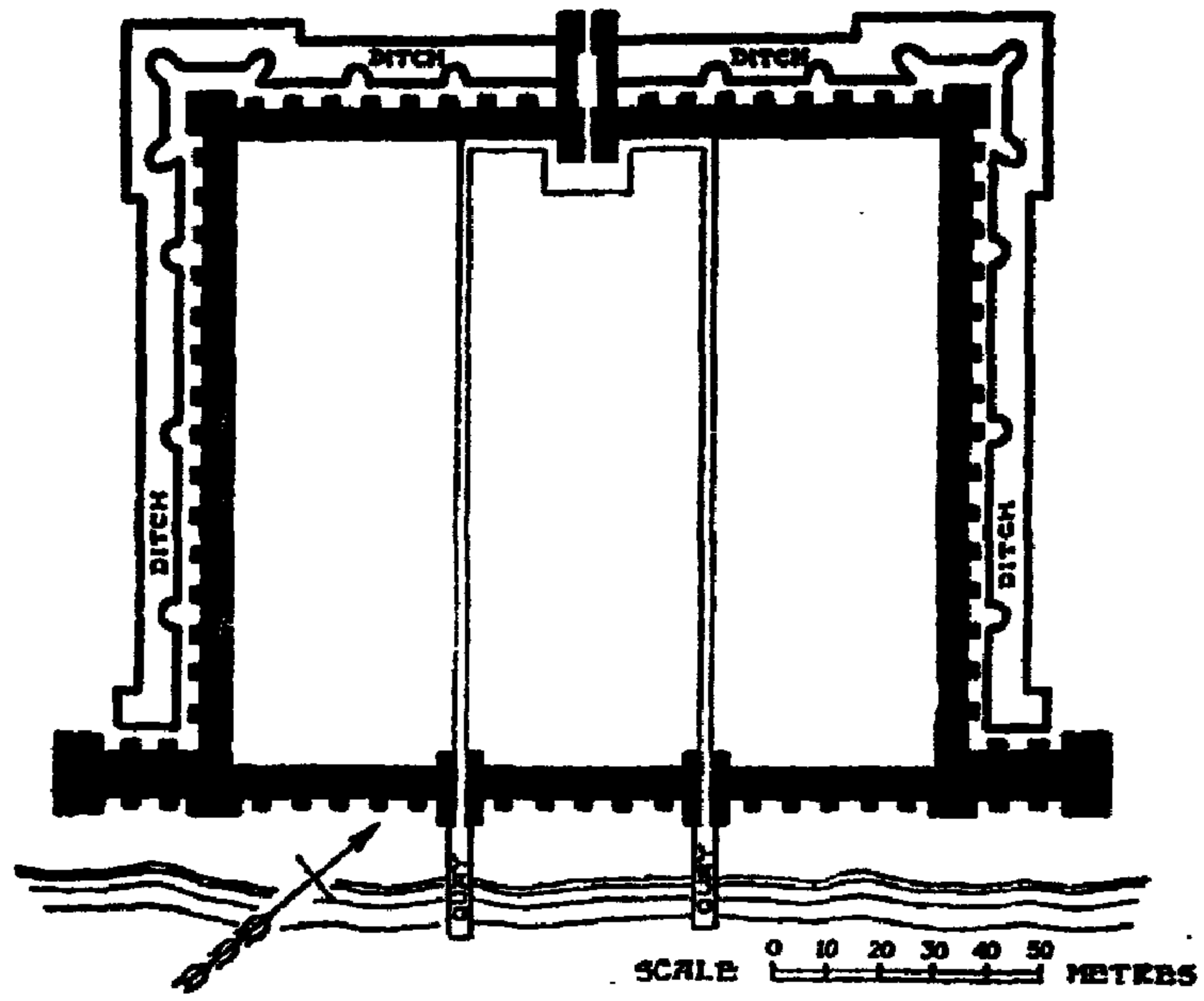


الشكل ٢٣
رسم تخطيطي لاسقط
قلعة « ميرجاسا »

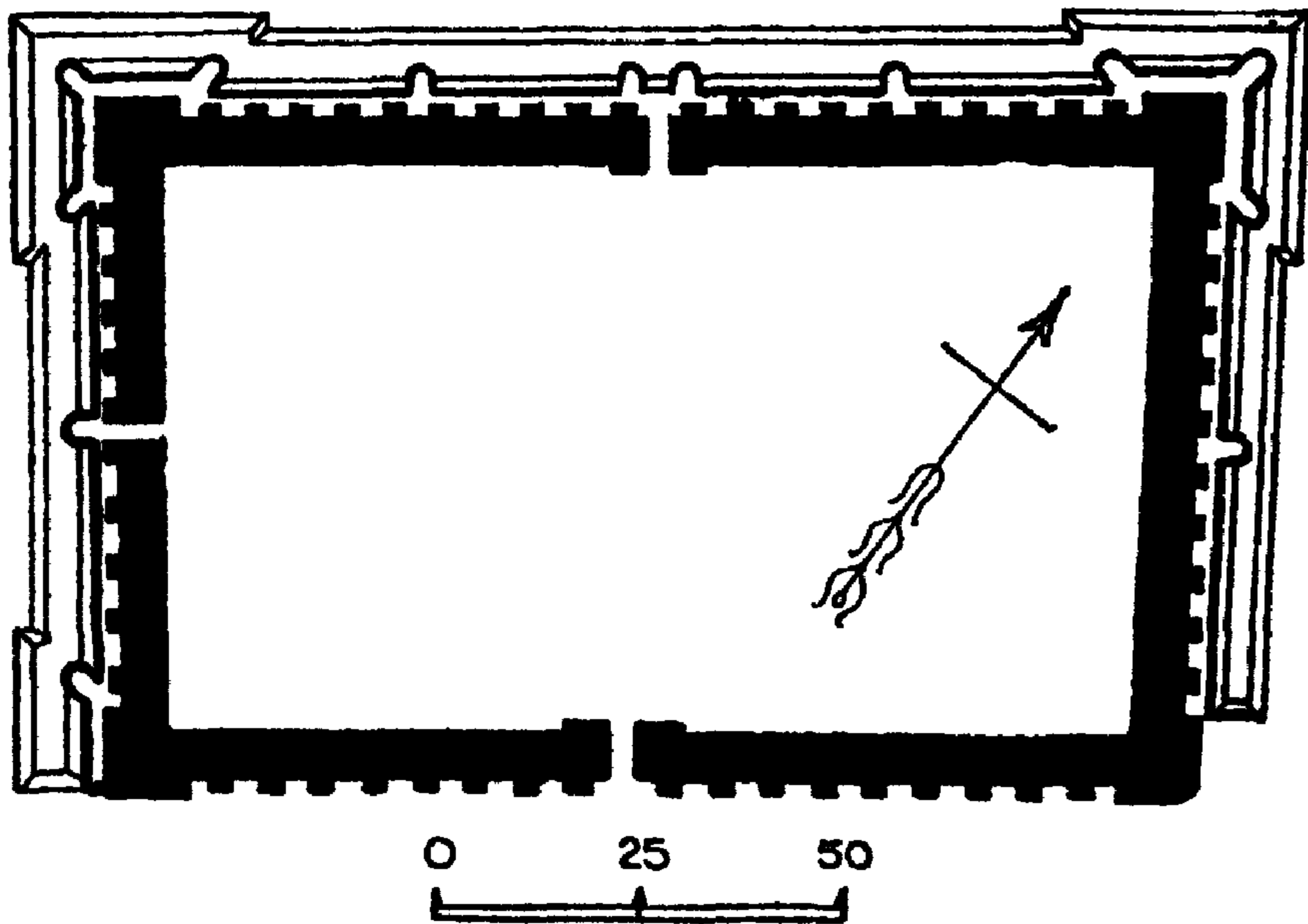
ببوهن - تدل بقوة على أنه صمم وبدى في بنسائه في عصر «سنوسرت الاول» . وتصميم الحصن يشبه عامة مثلثا يميل الى الطول ذا ذيل طويل، مكونا من جدار ضخيم يصل الى الجزء الشمالى من الجزيرة . ويوحى وضع الابراج الكبيرة في الناحية الغربية للذيل الطويل والسور الخارجى للمدينة، بأن خطر الهجوم كان من هذه الجهة كما كان الحال فى معظم الحصون الاخرى . أما السور الخارجى الذى يحيط بالسور المثلث الصغير فيه الابراج المربعة العادية وفى الركن الجنوبى حائط مستطيل تبرز من جوانبه أبراج مربعة . والمدخل الاساسى على شكل بوابة منزل ضخمة توجد فى وسط الجدار الجنوبى ، والمدينة الصغيرة مقسمة الى جزئين بوساطة الطريق الذى يؤدى بطريقة غير مباشرة الى سلم طويل ينزل الى بوابة مائية خارج الحصن على الضفة الشرقية للجزيرة (الشكل ٢١) .

٥ - الحصن المعروف بـ «قامع البلاد» وهو بالتاكيد الحصن الموجود على الضفة الغربية أمام «ساراس» والمعروف الآن «بشالفاك» وهذا الحصن يشبه حصن «أورونارتى» تماما فى الشكل الا أنه أصغر حجما . ويحيط بالمدينة سور يتكون من جدارين تعلوهما أبراج وجدار طويل يمتد الى مسافة طويلة نحو الشمال الشرقى . وقد كانت واجهة هذا الجدار الطويل المواجهة للصحراء هى الأكثر تحصينا كما هو الحال فى حصن «أورونارتى» . ويمتد نحو الشمال والجنوب جداران آخران صغيران ، أما البوابة العظمى فتقع فى الواجهة الغربية ، مثل حصن «أورنارتى» (الشكل ٢٢) .

٦ - الحصن المعروف بـ «منضج سكان الواحات» . ويبدو أنه الاسم الذى أطلق على حصنى «ميرجيسا» و«دبترتى» اللذين يظهران الى جانبهما كما لو كانا وحدة واحدة . والحصن الاكبر «ميرجيسا» وهو الذى يقع على الضفة الغربية ، أما «دبترتى» فهو بناء أصغر بكثير ، بنى على جزيرة أمام «ميرجيسا» تقريبا وعلى مسافة قريبة منه . وحصن «ميرجيسا» يشبه حصن «بوهن» فى الشكل والحجم ، وأعتقد انهما كانا من نفس عمل المهندس العسكرى . والحصن مستطيل الشكل وله جدار واحد من ناحية النهر أما الناحيتان الشمالية الغربية والجنوبية فيحيطهما جداران يليهما خندق جاف . ولم ينقب المكان الا جزئيا ولم تفحص الجدران بالتفصيل حتى الآن . واذا قارناه ببوهن فانتى أميل الى الاعتقاد بأن السور الخارجى فى الجهات الشمالية الغربية والجنوبية ليس الا اضافة متأخرة ربما من عصر الدولة الحديثة ويجب أن نبحث بعد تنظيف المنطقة جيدا اذا كان هناك خندق بين الجدارين . وعلى عكس بوهن فالبوابتان موجودتان فى الناحيتين الشمالية والجنوبية من الحصن وتتصلان ببعضهما ببعض



الشكل ٢٤
رسم تخطيطي لمسقط
قلعة « بوهن »



الشكل ٢٥
رسم تخطيطي لمسقط
قلعة « غنييه »

بوساطة طريق يخترق المدينة • ويوصل الى النهر ومن تحت الجدار الشرقى طريق مغطى ذو باب مائى • وقد كان البناء المهم محميا بجدران واقية فى طرفى الحصن • (الشكل ٢٣) •

أما الحصن الصغير الموجود فى « دبترتى » فلم يكتشف عنه بعد ولكن شكله العام معروف فهو مستطيل الشكل له أبراج خارجية أو جدران طويلة واقية متناثرة على مسافات منتظمة • أما المدخل فمكانه غير معروف ولكنه طريق منحدر على الارض البارزة ، من الشمال والجنوب تبدو وكأنها تتقابل عند فتحه فى الجدار الغربى الذى يمكن أن يكون بقايا المدخل الرئيسى •

٧ - الحصن المعروف بـ « ايكن » • ويمكن تشبيهه بحصن كبير طوله ٩٠٠ متر تقريبا ويحيط بمدينة على الضفة الغربية للنيل أمام الجزيرة المعروفة « بمايانرتى » عند قمة الجندل الثانى • هذه المنطقة لم تنقب الا جزئيا ولكن يظهر بعد التنظيم المبدئى خط طويل لحصون خشنة البناء ومكون من جدران سميكة ذات أبراج نصف دائرية تبرز من مسافات من واجهته الغربية أو الخارجية • وقامت جمعية التنقيب المصرية بكشفوف أخرى فى المنطقة فى عام ١٩٦٥ بأشراف «سميث» •

٨ - حصن « بوهن » ، وهو على الضفة الغربية المواجهة لوادى حلفا وكان أكبر الحصون فى بلاد النوبة العليا • (الشكل ٢٤) وكان المركز الرئيسى للقيادة لتنظيم حاميات الحصون الأخرى وكان أيضا فى الغالب مقر نائب الملك الذى كان يحكم النوبة فى الدولة الوسطى وهو يتكون من مجموعة من المستحكات الحربية المبنية على سطح مربع ١٧٢ × ١٦٢ م يحيط بالمدينة المكونة من مساكن وثكنات الجيش ومصانع ومعبد وقصر الحاكم • واكتملت التنقيبات والحفائر فى هذا البناء الضخم وأظهرت لنا مثلا متكاملا لتخطيط مدينة مستطيلة الشكل ذات طرق معبدة كل طريق له نظامه فى التصريف والمجارى • ومن الناحية المواجهة للنهر نجد بوابتين كبيرتين فى الجدران ، توصلان الى رصيف من الحجارة كانت ترسو عليه السفن المحملة بالجزية والمحاصيل التجارية من النوبة • ويوحى ما عثر عليه داخل المقابر الموجودة خارج المدينة وكذلك حالة المنازل داخل المدينة بالرخاء والغنى العريض ومستوى المعيشة المرتفع فى هذه النقطة الأمامية لمصر •

أما نظام الحماية المحكم الذى أحاط هذه المدينة الصغيرة فقد كان يتكون من جدار سميك من اللبن سمكه ٨م ويرتفع ١١ م يتخلله على مسافات من الخارج ، الأبراج البارزة المستطيلة • أما عند قاعدة الجدار فكان

هناك رصيف معبد له عتبة يحميها حاجز ذو فتحات للأسلحة النارية . ويتدلى من حافة خندق عرضه ٩ متر وعمقه ٧ متر . وكان يعدو الخندق من الجهة الاخرى طريق ضيق مسقوف من الطوب اللبن ومن ورائه اجانب الشديدا الانحدار مرتفع عن مستوى الارض الطبيعية . وكان يبرز من حافة الخندق الداخليه أبراج ذات نظام مكون من ثلاث فتحات لرمى السهام داخل فتحة واحدة ، ومن هذه الفتحات كان رماة السهام يوجهون هجومهم مغطيين الخندق . وأكثر الأجزاء المحصنة من البناء كانت هي البوابة الكبرى المبنية في وسط الجدار الغربى الذى يواجه الصحراء التى كانت تخترقها الطرق التجارية المؤدية الى المحاجر والمناجم . وكانت البوابة تغلق بوساطة بابين من ورائهما جسر خشبى يمكن رفعه الى الوراى على اسطوانات . وكانت البوابة والجسر محصنتين بوساطة جدارين واقين يمتدان من فوق الخندق الجاف ثم يكونان ممرا ضيقا لا بد للقوة المهاجمة من أن تصارع للدخول اليه تحت وابل من القاذفات التى تقذف من الشرفات على الجوانب الثلاثة . وحتى اذا كانت القوة المهاجمة قد دخلت من البوابة فلن تنتهى صعوباتها لأنها كانت مستجدة نفسها فى مربع محاصر ذى مخارج تؤدى الى المدينة عن طريق شوارع ضيقة تحت الجوانب الداخلية لجدران الحصن . وبهذا الشكل يكون العدو تحت نيران المدافعين .

والكشف عن هذه الأبنية المعقدة والمجكمة التحصين فى بوهن يظهر ان الغزاة المصريين فى الأسرة الثانية عشرة كانوا يدافعون عن الأراضى التى كسبوها حديثا ضد عدو منظم له قوة عسكرية يجب ألا يغفلوها .

٩ - ١٠ هذان الحصنان الموجودان فى جدول معبد « الرمسيوم » لم يتعرف عليهما بعد . وكانا يعرفان باسم « حاضنة الأرضين » و « دافعة المجاو » ويجب أن يكونا موجودين فى منطقة النوبة بين « بوهن » (وادى حلفا) « وميعام » (عنيبة) . وفى « فرس » ابنية كبيرة من الدولة الوسطى عند الحدود بين مصر والسودان لاحظها « جريفيث » سنة ١٩٢١ وأعتقد ان احدى هذه الوحدات - على الأقل - شيدت هناك وقد قامت البعثة البولندية سنة ١٩٦٣ - ١٩٦٥ بالكشف عن هذا الموقع ونحن ننتظر حلا للسؤال قريبا .

(١١) الحصن المعروف باسم « ميعام » وهى « عنيبة » الحديثة التى كانت عاصمة مصر فى النوبة منذ سنة ١٩٣٤ . هنا نجد البقايا العارية التى لاتتعدى أساسات الحصون الكبيرة ونواة القوة المحصنة التى بناها « سنوسرت الأول » . وتشبه فى شكلها وحجمها حصن « بوهن » : فهو مستطيل الشكل

وله جدران ذات أبراج وحاجز قصير له شرفات نصف دائرية وخندق جاف كما هو الحال فى قلعة بوهن ونستخلص بعد المقارنة المؤكدة ان هذا العمل لنفس المهندس (شكل ٢٥) .

(١٢) الحصن المعروف بـ « باكى » . وهو بالتاكيد حصن « كوبان » على الضفة الشرقية للنيل الذى قمت بالكشف عنه سنة ١٩٣٠ أثناء المسح الأثرى الثانى . هذا البناء الذى يشبه حصن بوهن الى حد بعيد قد غرق تحت مياه الخزان الحالى ، ولكنه كان فى وقت الحفائر فى حالة سليمة جدا . ولا يزال جزء كبير من الحصن قائما الى ارتفاع يزيد على ثمانية أمتار . أما من الداخل فكانت أبنية المدينة أيضا فى حالة سليمة وبعضها لا تزال أسقفها المقيمة فى حالة جيدة . وقد عثر على حصن آخر من الطراز نفسه تقريبا فى الناحية الأخرى من النهر عند « كور » ، لبضعة أميال شمال « كوبان » ، وبما أن هذا الحصن يذكر فى جدول الرامسيوم فلا بد أنه اعتبر وحدة واحدة مع قلعة كوبان ولذا حمل الاسم نفسه (باكى) . والحصنان لم يبنيا لكى يكونا محطة أو معسكرا ولكن ليكونا محطة تجارية ومقسرا للبعثات التى ترسل الى مناجم الذهب فى (وادى علاقى) . وكان توفير حراسة الطريق فى الشمال ضروريا ما أمكن ذلك لصد أى هجوم لقوة مغيرة تأخذ طريق (وادى علاقى) عبر الصحراء من (أبو حمد) لكى تتحاشى حصون الحدود الجنوبية التى على النهر ، (الشكل ٢٦) .

أما الحصون الباقية على جدول (الرامسيوم) فرقم ١٣ كان غالبا على جزيرة (بيجه) ورقم ١٤ على جزيرة (اليفنتين) عند الجندل الأول ولكن مكانهما بالتحديد لم يكشف بعد .

وهذا يكفى عن نظام الحصون النوبية التى ، أعتقد ، أن « سنوسرت الأول » قد شيدها وربما لم ينته بناء عدد كبير منها فى عصره ولكنها أكملت فيما بعد بوساطة خلفائه ، الا أن البدء فى المشروع يرجع اليه . لماذا أقيم هذا النظام الواسع لحصون عسكرية ؟ فمع أن عددا من هذه الحصون مثل « بوهن » و « كوبان » استعمل كنقطة للبعثات ومحطة للتجارة فلم يكن هذا هو الغرض الأول من إقامتها . وعندما نقدر الطبيعة المحكمة والقوة العظيمة لهذه الحصون فيظهر لنا بوضوح أن « سنوسرت » لم يبنها كمعسكرات فقط يبعد بها سكان النوبة المتفرقين خاصة ، كما أنى قد بينت من قبل ، أنه لا يوجد دليل على أن أهل المجموعة الثالثة فى « واوات » كانوا محبين للحرب أو يمكنهم أن يكونوا أية قوة عسكرية ذات خطر تهدد أمان مصر . ومع ذلك فقد بنيت الحصون وشيدت لتتحمل

هجوم قوة عسكرية من الدرجة الأولى ومع ان هذه القوة لم تشخص بعد ولم يعرف مقرها وأظن أنه يمكننا أن نعتبرها موجودة في الجنوب وأنها في الحقيقة هي البلاد التي أطلق المصريون عليها اسم « كوش » . وعلينا أن نتصور أنه كما كان للمصريين أسباب وجيهة للتوغل في الجنوب باحثين عن الذهب والعاج والرقيق وأن أهل كوش كان لهم حافز يجبرهم على الذهاب شمالا نحو مناطق أكثر خصوبة من وادي النيل . ان بناء الحصون النوبية استلزم مجهودا قوميا ضخما وتضحيات شاسعة من الأمة المصرية ولذلك يمكننا أن نستشف من خلال هذا المجهود أن تهديدات الغزو من الجنوب كانت حقيقة واقعة . ويؤيد هذا أن سجلات تاريخ مصر المتأخر تظهر حقيقة هذا الخطر .

والآن فلنفحص ما عثر عليه بالنسبة للجنود الذين عسكروا في القلاع والحصون النوبية في عصر « سنوسرت الأول » وفي عصر أسلافه . فقد كان الجيش ، المكون من مواطنين ولدوا أحرارا ، يبدو أنه قد قسم الى أربعة فوق تقوم بواجبات مختلفة تشبه بوجه عام ما كان متبعاً في أوروبا في العصور الوسطى . فكان على حكام الأقاليم ، مثل بارونات أوروبا في القرون الوسطى أن يزودوا الملك بالجيش المرابط أو المجندين الملزمين عندما تدعو الحاجة اليهم . والى جانب هؤلاء كانت هناك قوة عسكرية تحت السيطرة الملكية . وهذا الجيش العامل كان يتكون من « فرق صدام » ، « مجندين » والمرابطين الآتين من ليبيا والنوبة . وكما يحدث في أى جيش حديث كانت « فرق الصدام » بالطبع من صفوة الناس . وكانوا جنودا محترفين . بينما كان « المجندون » من العامة وغالبا ما كانوا مقتصرين . وفي هذا العصر المبكر من تاريخ مصر الاستعماري كانت الفرق الآتية من المستعمرات قليلة العدد ولا تستخدم الا في أعمال بوليسية في المناطق التي تم غزوها حديثا . وعلاوة على ذلك كان (لسنوسرت) حرس ملكي يعرف بـ « الضباط الذين يتبعون جلالته » وكانوا منظمين في فرق تتكون كل فرقة من مائة رجل .

وكانت معسكرات الحصون النوبية تتكون في الغالب من «مجندين» تعززهم فرق صدام في الأيام العادية لا في الأوقات الاضطرابية . ولاشك ان الجزء الأكبر من الفرق في العصور المتأخرة كان لمجندين نوبيين ولكن لا يوجد أى دليل على أن فرقا من هذا النوع في عهد الأسرة الثانية عشرة كانت تعسكر في الحصون ، فما تبقى من هذا العصر مثل الفخار يوحى بشدة بأن هذه الحصون كان يسكنها مصريون فقط .

وبينما كان الجندي العادي يعرف بـ « عضو من الجيش » كانت هناك ألقاب متعددة لضباط الفصيلة مثل : « قائد عام » « قائد فرقة الصدام » « قائد المجندين » « معلم الاتباع » . وكان هناك أيضا « كاتب للجيش » وكان يعمل في قسم ضابط الامدادات والتموين . ثم كان هناك أيضا « كاتم أسرار الملك في الجيش » ويوحى بوجود قلم مخابرات متصل بقيادة وحدات أعظم .

وكان الجيش في الدولة الوسطى يتكون كله من مشاة ما بين رامي السهام ، والمقاتل بالبلطة ، والرماح والرمي بالمقلاع وهؤلاء لم يلبسوا الا انواعا قليلة من الدروع لحماية أجسامهم وكان الجندي يرتدى نقبه (ستار العورة) وأحيانا ، شرائط من نسيج تغطي أكتافه وصدره وتعتبر نوعا من الحماية لضربات السيوف ولكن مع ذلك فكان الجندي يعتمد في الدفاع عن جسده على دروع مصنوعة من جلود الثيران يختلف مقاسها حسب وجود حاملها في المشاة الخفيفة أو الثقيلة ، كما أنهم لم يكونوا يلبسون خوذة ، وكان المحارب يميز من المدني بوساطة شعره الذي يبدو أنه اعتمد عليه كحماية لرأسه . وارتدت الفرق علامات مميزة ونراهم عادة وقد رسموا بريشة في شعرهم . وليست لدينا معلومات معتمدة عن حجم المعسكر في كل قلعة نوبية أو نسب الفرق المحاربة بالنسبة للموظفين الإداريين ذوي الحرف والتجارة الى آخره . ولكن اذا قارناها من حيث الكبر ببعض المحميات مثل « بوهن » أو « عنيبه » أو « كويان » فاني أقدر أنه في حالة الحرب كان عدد الجنود يصل الى ثلاثة آلاف جندي .

وبتشديد الحصون وتوطيد معسكراتها أصبحت سيطرة المصريين على النوبة قوية جنوبا حتى « سمنه » التي أصبحت الحدود المعترف بها لأملاك فرعون في الجنوب ومع ذلك فان قوة مصر وتأثيرها امتدت من غير شك الى ما بعد هذه الحدود وأسست محطات تجارية محصنة جنوبا داخل كوش نفسها مثلما بقيت محطات شركة «هدسن باي» في مناطق نصف عدائية في كندا في الأيام المبكرة لدخول البيض في الغرب .

ان موضوع المحطات التجارية الموجودة بعيدة عن الحدود المعروفة في « سمنه » تجعلنا نتعرض الى احدي معضلات النوبة ان لم تكن أهم المعضلات في تاريخ النوبة في الدولة الوسطى : انها مسألة تخص نوع بقايا هذا العصر التي عثر عليها في « كرما » على بعد مسافة قصيرة جنوبى الجندل الثالث الى أكثر من مائة ميل بعد الحدود الجنوبية للأملاك المصرية . أن الكشف التي قام بها الدكتور «ريزنر» سنة ١٩١٧ في « كرما » أقنعت بأنه

كان في هذه المنطقة مستعمرة مصرية تعرف بـ «انبو - أمنمحات» حيث أقام أمير يدعى «حاب جافى» الأسيوطى كحاكم من قبل «سنوسرت الأول» . ولقد كشفت الحفائر عن مقبرة على هيئة كومة في حالة سيئة ذات طابع غريب عن العمارة المصرية . وفي القاعات المبنية من اللبن تحت الكومة عثر على بقايا دفن صاحب المقبرة الذى كان مستلقيا على سرير طبقا للتقاليد النوبية في هذا العصر . ويحيط بالجثة أجساد الحريم والخدم وأعضاء آخرون من البيت الذين دفنوا أحياء حتى يستمروا في خدمة سيدهم في الدنيا الثانية . ومن بين الأشياء التى عثر عليها فى المقبرة تمثال رائع للأمير «حاب جافى» وتمثال آخر لزوجته «سننوى» . وقد وصل «ريزتر» الى حل منطقي وهو أن هذا الأمير بينما كانت له مقبرة رائعة فى أسيوط بمصر ، فإنه مات أثناء تأدية واجبه فى المحطة المصرية الخارجة عن الحدود فدفن هناك طبقا للتقاليد المحلية . واعترف بهذه النظرية بعض علماء الآثار بينما ناقشها البعض الآخر على أساس أن جثة رجل مهم مثل «حاب جافى» لا بد أنها نقلت لتدفن فى مصر . فالمصريون، من غير شك، كانوا ينفرون بتعصب من طريقة الدفن الأجنبية وخاصة إذا لم تقم حسب اعتقاداتهم وحسب طقوس التطهير الصحيحة . ومع أن عددا كبيرا من النبلاء المصريين قد ماتوا أثناء تأدية واجبهم فى النوبة خلال المئات من السنين التى حكمتها مصر فالأدلة الكثيرة تظهر انهم بلا شك كانوا يبعثون الى وطنهم ليدفنوا فيه . أما فيما يتعلق بالأمير «حاب جافى» الذى كانت له مقبرة رائعة فى أسيوط ، فليس هناك أى دليل يظهر انها استعملت للدفن لانها تلفت بفعل أجيال من اللصوص .

وفى اعتقادى أن نظرية وجود مستعمرة مصرية تعرف بـ «انبو - أمنمحات» ، نظرية غير مرضية على هذه الأسس . فكيف يمكن لمثل هذه المستعمرة أن تحافظ على نفسها وهى تبعد عن حدود الأملاك المصرية بأكثر من مائة ميل ، وكيف يكون رجل مهم مثل هذا الأمير الأسيوطى حاكما عليها .

إن ضرورة التنقيب فى منطقة كرما أمر حيوى لأننى أعتقد انه يحتمل انها لم تكن مستعمرة مصرية ولكن ربما كانت عاصمة القوة الكوشية . حقا لقد عثر فيها على كميات عديدة من الأدوات المصرية فى أطلالها ومقابرها مثل التماثيل والأثاث والخرز والجعارين والأواني الحجرية . ولكن أليس من الجائز أن يكون الكوشيون قد سلبوا هذه الأشياء من أعدائهم الشماليين؟ عين سنوسرت الأول وبعد انتصاره على الجنوب ، «سارنبوت» ،

أمير « اليفنتين » ، حاكما على أملاكه الجديدة هناك . ويصف «سارنبوت» نفسه في مقبرته في أسوان ، بأنه « الأمير الوراثي ، الحاكم ، نبيل الملك ، وسامره الوحيد ، المشرف على كهنه «ساتت» سيدة «اليفنتين» ، المراقب الأكبر للنوبة ، المشرف على كل الاراضى الاجنبية ، الحاكم « سارنبوت » ويمكننا أن نرى فيه أول وال يحكم النوبة من قبل الفرعون وذلك قبل عصر الدولة الحديثة بمئات السنين . ومن الجائز أنه هو الذى أشرف على المراحل الأولى للأعمال الهائلة فى تشييد الحصون النوبية ، ولسوء الحظ فإن المقبرة لم تحفظ جيدا وان النصوص قد محيت ولكن هناك اشارات عابرة لما يمكن أن يكون للحملة الثانية لسنوسرت فى النوبة . وعلى أية حال فإن هذا الذى حدث كان غالبا من طابع الحملات التأديبية لأن هناك دليلا على أنه فى الفترة الأخيرة للحكم بقيت الأحوال عادية فى الجنوب وبقيت هكذا أثناء حكم « أمنمحات الثانى » (١٩٢٩ – ١٨٩٥ ق م) و « سنوسرت » الثانى (١٨٩٧ – ١٨٧٨ ق م) .

ولقد سجل موظف شغل منصب مساعد الخزانة فى عصر الملك « أمنمحات الثانى » ، ويدعى « سيحتحور » ، على لوحته الجنائزية فى « أبيدوس » : « لقد زرت أراضى المناجم فى صباى وأجبرت الحكام (النوبيين) أن يغسلوا الذهب . وأحضرت ملخيت ووصلت الى النوبة التى تتبع الزنوج . وذهبت محاربا (؟) خوفا من سيد الأرضين . وجئت الى « حيح » وذهبت حول جزرها وأحضرت منتجاتها » .

وتشير لوحة صخرية فى أسوان للمدعو « حابو » ان بعض الحصون كانت قد أكملت وسكنت . فلقد سجل « حابو » أنه فى السنة الثالثة من حكم « سنوسرت الثانى » زار النوبة « ليتفقد حصن «واوات» » . كل هذا يوحى بأن المنطقة التى غزيت حديثا قد خضعت لنظام جمع المحاصيل التى تنتجها النوبة وسارت فيها الحياة سيرا منتظما .

ولكن تهدة أهالى النوبة وترويضهم لم يكتمل فى الحقيقة الا فى عصر « سنوسرت الثالث » (١٨٧٨ – ١٨٤٢ ق م) الذى قمع كل مقاومة باقية بعدة حملات ناجحة وأرسى بحزم حدود الأراضى المصرية المكتسبة حديثا ، مبددا لسنين طويلة التهديدات المفزعة لغزو الكوشيين وأصبح « سنوسرت الثالث » فيما بعد الاله الحامى للنوبة لأعماله العسكرية والتنظيمية وعبدت فراعين الدولة الحديثة فى المعابد النوبية مئات السنين بعد موته .

وبنظرة ثاقبة الى احتمالات معارك حربية في المستقبل ، شق سنوسرت الثالث ، أثناء حكمه ، قناة في صخور الجندل الأول ، فكانت هذه القناة الى جانب قيمتها التجارية ، طريقا لسفنه الحربية . وعرفت هذه القناة باسم جميلة طرق « خع كاورع » (سنوسرت الثالث) واستعملته أساطيل الفراعنة لمئات من السنين أثناء حروبهم المتقطعة مع كوش ويمكن اعتباره أكبر الأعمال التي قام بها هذا الملك العظيم . وتعطينا لوحة على صخور جزيرة سهيل عند الجندل الأول مقاييس الطريق المائي وهي مائة وخمسون ذراعا طولا (أى ٢٥٠ قدم) وعشرون ذراعا عرضا (أى ٣٤ قدما) أما العمق فكان خمس عشرة ذراعا (أى ٢٥ قدما) وترجع اللوحة الى السنة الثامنة من حكم الملك « سنوسرت الثالث » .

ويبدو أن التهديدات الآتية من الجنوب على حدود مصر الطبيعية كانت ما تزال موضع اهتمام ومن ثم نلاحظ هذا في أن الحصون عند الجندل الأول قويت . ويبدو أيضا أن بقايا السور اللبن الذي لا يزال قائما على الناحية الشرقية للجندل عند قرية « شلال » كانت من ضمن التحصينات العسكرية التي تمت حينئذ . ولا بد أن شق القناة استغرق وقتا ولم يكن في حالة مرضية في بدايته لأنه في السنة الثامنة من حكم « سنوسرت الثالث » نجد تسجيلا يقول : « أمر جلالته بتجديد القناة » . ولا ندري ان كان هذا الكلام يعنى أية تصليحات أم يعنى تجديدا لمشروع كان قد ترك . وعلى أية حال فما يقوله التسجيل يعنى أنه في تلك السنة قام الملك بحملته الأولى على النوبة . وضرورة هذه العمليات الحربية والعمليات التي تلت غير ظاهرة ، لأنه بقدر ما تستطيع الحقائق الأثرية أن تؤكد لنا ، لم يحدث ما يعكر صفو السلام والهدوء في النوبة السفلى (واوات) لعدة سنين . ولكن يختلف الأمر فيما بعد الجندل الثاني اذ يبدو أن ضغط كوش أصبح تهديدا . ومهما يكن من أسباب ، فإن الحملة كانت ناجحة وأقيمت حدود على بعد حوالى سبعة وثلاثين ميلا جنوبى « بوهن » . ومع ذلك فمن الواضح أن النضال قد استمر على فترات متباعدة مما جعله يضطر الى أن يعود الى الحرب في السنة الثانية عشرة والسادسة عشرة في حكمه . فكانت هاتان الحملتان تأسيسا للحكم المصرى جنوبا حتى سمته . ونستشف من لوحة الحدود التي أقامها سنوسرت عند سمته بعد حملته الأولى ، بعض مخاوف المصريين من الضغط الدائم عليهم من الجنوب . وهي كما يلي :

« الحدود الجنوبية ، حددت في السنة الثامنة ، في حكم ملك الشمال والجنوب ، « خع كاورع سنوسرت الثالث » الذى يعطى الحياة أبديا . لمنع

أى زنجى من أن يعبرها من الماء أو الأرض ، بواسطة سفينة أو أى نوع من ماشية الزنوج ماعدا الزنجى الذى سيأتى ليتاجر فى « اكن » أو للمأوريه . كل شىء طيب سيقدم لهم ولكن دون أن يسمح أبدا لأى سفينة زنجية أن تعبر « حج » ذاهبة نحو الشمال .

ويبدو أن « حج » هى « سمنه » عند الطرف الجنوبي للجنادل بينما « اكن » هى المحطة التجارية جنوبى « بوهن » . فمن الواضح أنه مع أن للكوشيين أن يعبروا الجنادل عن طريق البر للتجارة الا أنه لم يسمح لهم بالتوغل فى المنطقة المحصنة بحرا . وأعتقد ان الخوف من هؤلاء الناس يمكن استنتاجه من بين السطور التى كتبت على لوحة النصر النهائى التى أقامها الملك فى « سمنه » ومثيلتها التى أقيمت على جزيرة « أورنارتى » .

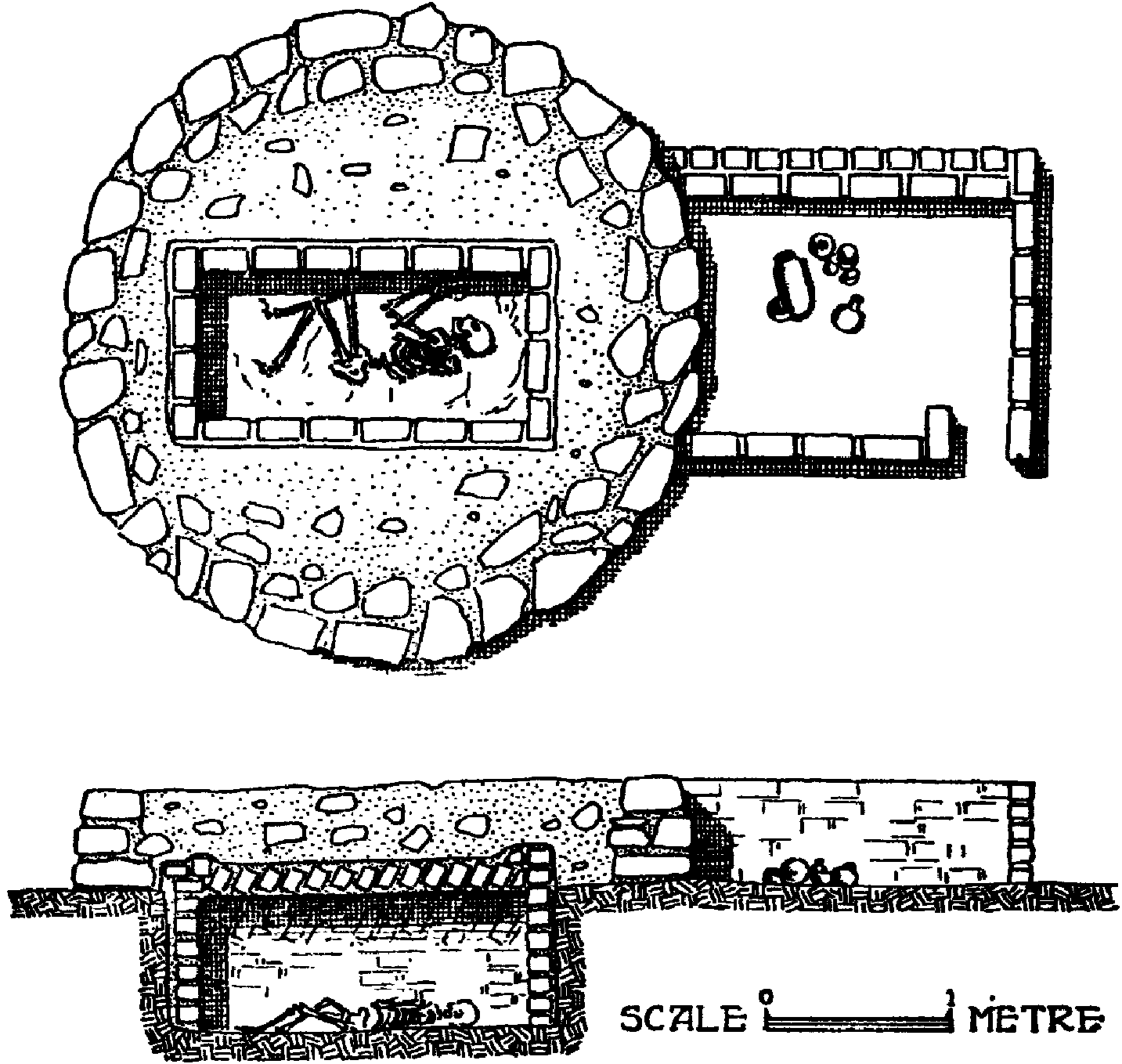
« فليعيش ملك الجنوب والشمال سنوسرت الثالث الذى يعطى الحياة والاستقرار والرضا أبديا . فى السنة السادسة عشرة ، الشهر الثالث من الفصل الثانى أقام جلالته الحدود الجنوبية حتى « حج » . لقد أقيمت حدودى أبعد من أجدادى . لقد زدت على ما ترك لى . انى ملك أتكلم وأنفذ . ما يدركه قلبى هو ما يمر بيدي . انى شخص قوى ومتلطف الى أن أملك (؟) لا يترك مهمة تنام فى قلبه يهاجم من يهاجمه ، صامت فى مسألة أو يرد على مسألة حسب ما يستدعيه الأمر ، اذ ان الهدوء بعد الهجوم يقوى قلب العدو . ان البطولة حماسة واقدام ولكن الجبن هو الانسحاب . انه لنذل وضعيف القلب حقا هذا الذى لا يحصى حدوده . وبما أن الزنجى يصغى الى (؟) النعم ، فالرد عليه هو الذى يرده . عندما يكون المرء متحمسا ضده ، فيعطيه ظهره . لكنهم ليسوا قوما ذوى قوة ، انهم مساكين لا حول لهم ولا قوة . لقد رأهم صاحب الجلالة ، انها حقيقة . لقد أسرت نساءهم واستوليت على أتباعهم وذهبت الى آبارهم وقتلت ثيرانهم . وحصدت حبوبهم ثم أشعلت النيران فيها . (وأقسم) كما يعيش أبى لى أنى أتكلم الحقيقة دون أن ينطق فمى بكذبة واحدة . والآن ، ان كل ابن لى سيحافظ على هذه الحدود التى أقامها جلالتي فهو ابنى وولد لاه ، ابن يجب أن يكون بطلا كابيه ، ويحافظ على الحدود لمن أنجبه . والآن ان كان ابنى هو الذى سيتراخى ولن يقاوم فهو ليس ابنى ولم ألد . والآن أنظر ان جلالتي أمر أن يقام تمثال لجلالته على هذه الحدود التى أقامها جلالته حتى تزدهر وحتى تحارب من أجلها » .

ان الإشارة الى عدو مصر بـ « الزنجى » مضلل لأن أهل كوش لم

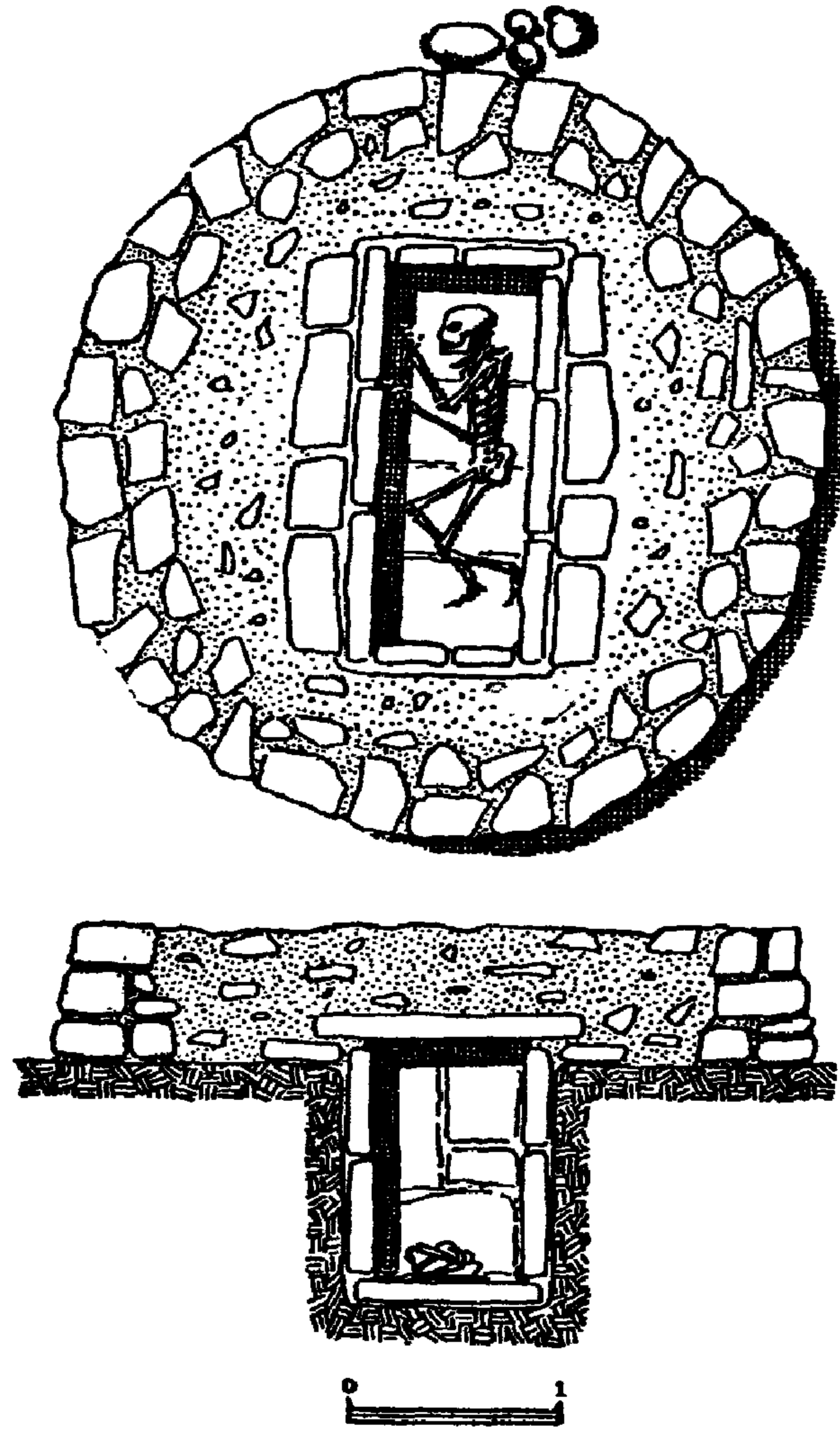
يكونوا زنوجا بمعنى الكلمة التي نعنيها في عصرنا . هذا بالنسبة للجنس المعروف بذلك . ان المصريين استعملوا كلمة « زنجى » و « نحسى » للإشارة الى كل قاتمى اللون يأتون من الجنوب مهما كانت أجناسهم .

ويبدو أن الحكم المصرى بقى من غير تدخل بعد انتصار الملك العظيم فى النوبة - على الأقل - حتى حدود « سمنه » طوال حكم خلفائه « أمنمحات الثالث » (١٨٤٢ - ١٧٩٧ ق.م) و « أمنمحات الرابع » (١٧٩٨ - ١٧٨٩ ق.م) والملكة « سبك نفرو رع » (١٧٨٩ - ١٧٨٦ ق.م) ولم نجد أية إشارة الى نشاط عسكري فى تلك المنطقة . وبقيت النوبة السفلى (واوات) دون اضطراب وتمكن أهل المنطقة من أن يعيشوا حياتهم الخاصة بعيدا عن تأثير الحضارة المصرية التى كانوا لا يزالون متحررين منها . فكانت النتيجة ان ما يعرف بحضارة المجموعة الثالثة وصلت الى ذروتها . ويبدو أن مرور الجيوش المصرية والمعسكرات التى أقيمت داخل الحصون بل المحطات التجارية التى أنشئت لم يكن لها تأثير على المواطنين الذين لم يكونوا محاربين اذ لم يجندوا فى الجيش وانه ليبدل على مغزى معين من أن ماتبقى من الآثار النوبية فى المناطق المحصنة مثل مافى « كويان » لا يرجع الى آثار حضارة المجموعة الثالثة ولكنه من آثار أهل البلاد جنوبى الجندل الثانى . والتفسير الوحيد لهذه الظاهرة هو أن المصريين استعملوا المحاربين من « كوش » فى الفرقة المختصة بالمستعمرات واستثنوا أهل « واوات » المسلمين وأعفوهم من العسكرية . ويبدو أن عددا كبيرا من أهل النوبة السفلى أرغموا على العمل فى المناجم والمهاجر . ولكن بصفة عامة ، نجد أن الاحتلال المصرى وإدارته المستقرة أعطت فترة سلام طويلة لهذه الأرض ومكنت أهل المنطقة من أن يرقوا بحضارتهم حتى وصلت الى النضوج . . . ولذلك نلاحظ أن بقايا حضارة المجموعة الثالثة فى هذا العصر تنقسم بالغنى الفاحش والفردية يصحبها أحيانا تأثير أجنبى لا يذكر . وكما أشرت من قبل ، اننا نعتد الى حد كبير على الجبانات فيما نعرفه عن أهل المجموعة الثالثة لأن مدنها ومستعمراتهم لا بد أن تكون على مقربة من النهر أى فى المنطقة الزراعية ، لذا نجدها وقد اختفت من غير أثر . ولقد بقيت مستعمرات صغيرة على حافة الصحراء ولكن يبدو أنها لم تكن الا المساكن المؤقتة لرعاة فقراء . وطريقة معيشتهم الفقيرة لا تعطينا أى دليل على حياتهم اليومية ولو أن حضارتهم كانت قد وصلت الى حد لا يمكن لنا أن نفقها .

ويظهر حجم الجبانات وعددها ، ان أهل النوبة السفلى كانوا حينئذ اكبر عددا منهم فى أى عصر اثناء الحكم المروى أى بعد حوالى ألف سنة .

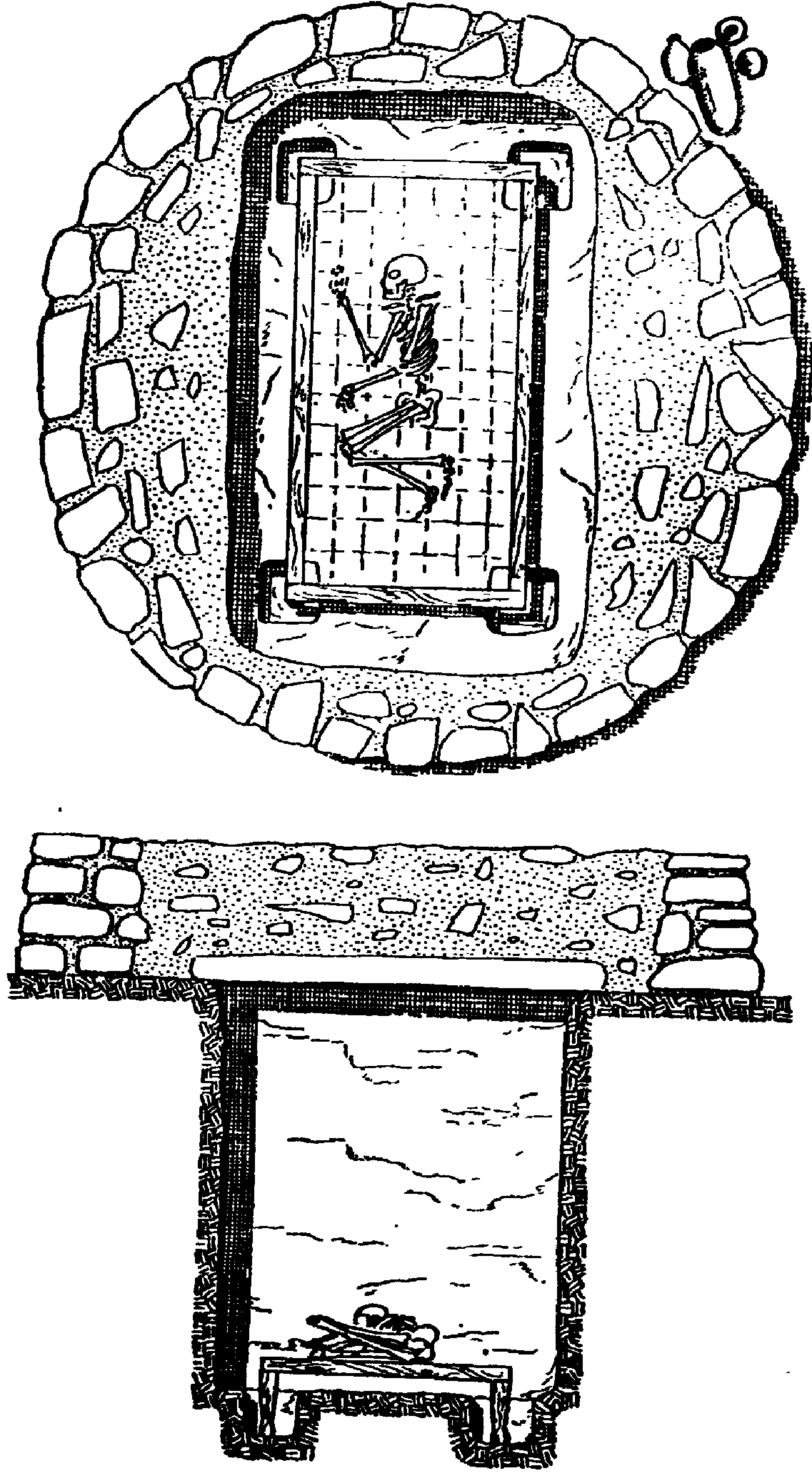


الشكل ٢٧
نموذج لمقبرة من حضارة المجموعة الثالثة

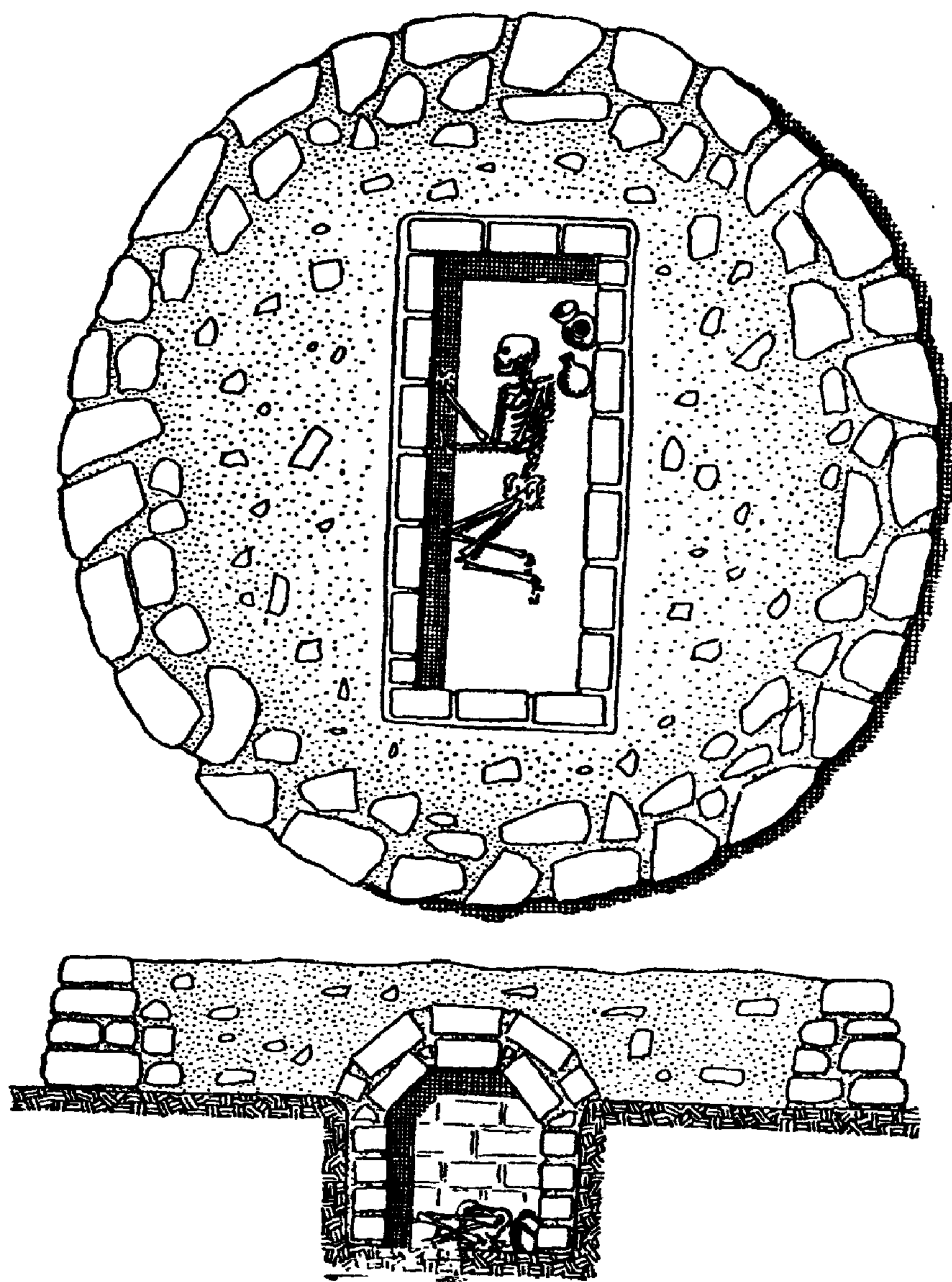


الشكل ٢٨

نموذج لقبرة من حضارة المجموعة الثالثة



الشكل ٢٩ و ٣٠
نموذج لقبرة من حضارة المجموعة الثالثة



الشكل (٣٠)

مقبرته في « توسكا » وقامت بالتنقيب بعثة فلسطينية
(انظر ص ٩٣) والمجموعة

وواضح من النقوش الصخرية والرسوم الزخرفية التي على الفخار ان أهل المجموعة الثالثة كانوا يربون الماشية على مساحات كبيرة . لذلك لابد أن تكون قد توفرت لقطعان الماشية أماكن مناسبة كافية لترعى فيها على ضفاف النيل في النوبة وهذا مما يعد أمرا مستحيلا في عصرنا الحديث ، فهذا الظرف الى جانب أدلة أخرى مثل وجود نظام التصريف في شوارع مدن الحصون المصرية والكشف عن مجارى مياه للزراعة مدفونة تحت رمال الصحراء تظهر لنا أن الظروف المناخية في النوبة أثناء الدولة الوسطى لابد أنها كانت تختلف عنها في يومنا هذا . وتحت هذه الظروف ، وكنتيجة لحماية القوة العسكرية الفرعونية من القوافل الجنوبية ، انتعشت النوبة السفلى وانعكس هذا الانتعاش والرخاء في مقابر النوبيين . ويعلو كل مقابر المجموعة الثالثة في ذلك العصر جزء مستدير من الحجارة الحشنة الصنع . ومع أنه في معظم الأحيان لم يبق منها الا الجزء السفلى الا أنه يمكن أن نحكم من الطبقة الخفيفة الموجودة على سطح الجدران أن سقفها كان في الأصل مستديرا . وكان للمقابر الأكبر حجما أى مقابر الأثرياء أحيانا، حجرة صغيرة من اللبن تبنى في الجانب الشرقى من الجزء الذى يعلو سطح الأرض ، فكانت تغطى بالرمل بسرعة . وليس غريبا أن يعثر على لوحات كتقدمة للميت (شكل ٢٧) . أما في المقابر الأكثر تواضعا حيث لم تبن حجرة للتقدمة كانت الأواني الفخارية توضع أمام الجزء الذى يعلو سطح الأرض ، فكانت تغطى بالرمل بسرعة . وليس غريبا أن يعثر على لوحات حجرية طويلة أو أحجار للحدود توضع على مسافات متباعدة في الجبانة . ولكن حتى الآن لم نصل الى معنى لهذه اللوحات ، فهي تأخذ شكل لوحة مسطحة ذات طرف علوى مستدير واما الجزء السفلى فمسلوب الى الداخل . ويبلغ ارتفاع كل منها من قدمين حتى ستة أقدام ، وفي معظم الأحيان تجدها مزخرفة بكتابة ورسوم أشخاص أو بقر أو ثيران . ومع أنه قد عثر على آثار تقدمة محروقة على أرض الجبانة الا انها ليس لها صلة باللوحات .

وقد اختلفت الأجزاء المنحوتة في الأرض من المقبرة حسب أهمية وغنى صاحبها . وكانت المقبرة المتوسطة تتكون من حفرة بيضاوية الشكل يصنع سقفها من الحصير المجدول أحيانا أو من قطع حجرية غير مشطوفة الجوانب أحيانا أخرى . أما مقابر أغنياء القوم فكانت لها جدران مبطنـة بقطع حجرية أحيانا وسقف من الحجر أيضا أو من اللبن ذو شكل مقبى . (شكل ٢٨ و ٢٩) .

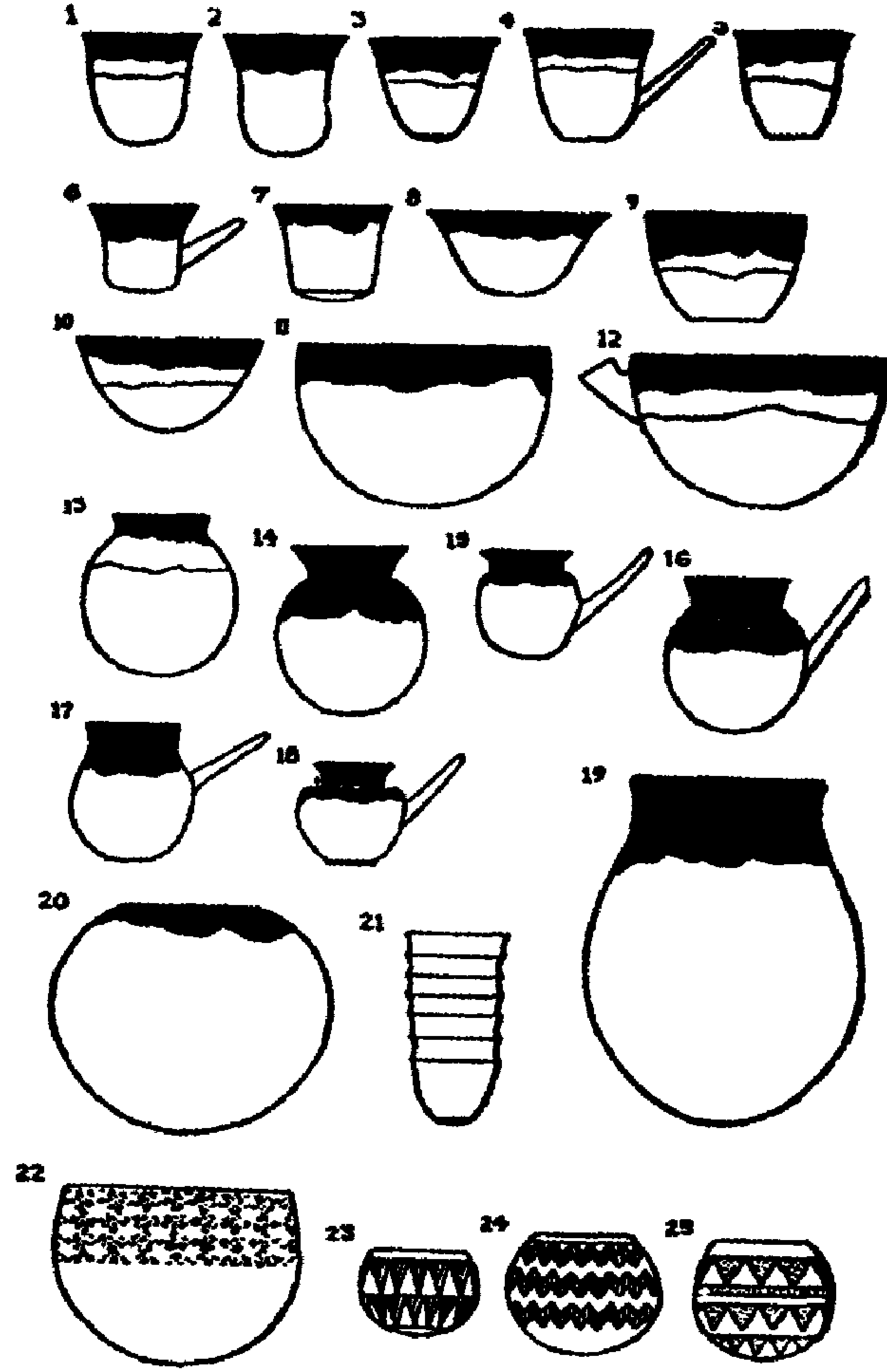
وكان الميت يوضع في وضع نصف القرفصاء على جانبه الأيمن

ورأسه عادة الى الشرق . وكان الجسم يلف في الجلد وعثر على أمثلة متعددة حيث كانت القطعة الجلدية مطرزة بالخرز . ولقد عثر أيضا على أحذية وقبعات جلدية ولكنها غير عامة . وكان يوضع تحت رأس الميت وسادة من الجلد محشوة بالقش . أما في المقابر الهامة فقد كان فيها الميت يرقد على سرير من الخشب توضع أرجله في ثقب مخصوصة في الأرضية بحيث يكون الاطار على أرضية المقبرة .

ولقد عثر أيضا على أساور من الذهب والفضة وشن الفيل والصدف والرخام والخرز وكذلك على عقود وأحزمة مطرزة او محلاة بالخرز بها تماثيل من الذهب والفضة والصدف . والى جانب هذا كله نجد أيضا أقراطا من الصدف وخواتم وأحيانا جعارين مصرية من حجر السيتين والقاشاني ولقد كان يوضع الى جانب الميت أدوات الزينة مثل المراة من البرنز ذى المقابض الخشبية وشن الفيل وقواقع يوضع فيها مساحيق للوجه وملاقط ودبابيس من البرونز .

ومن بين كل ما عثر عليه فى جبانات المجموعة الثالثة الفخار الذى يتسم بجمال الشكل ويعد هو أكثر الأشياء أهمية لدقة صنعه وللمعلومات التى نتقناها منه وخاصة أواني التقدمة التى عثر عليها خارج المقابر . ويمكن تقسيمها تقريبا الى أربع فصائل : أولا النوع الكبير ذو اللون الأصفر المائل الى البرتقالى المستعمل للماء . ثانيا الأواني الحمراء المصقولة ذات الفوهة السوداء . وثالثا الكؤوس الصغيرة السوداء ذات الزخرفة المحفورة والمملوءة باللون الأبيض أو بمادة ملونة . ورابعا أوان من الحصىة وأوان مصقولة بنية بعضها له زخرفة هندسية بينما البعض الآخر أقل زخرفة وعليها مناظر آدمية وحيوانية . وهذه الرسوم الى جانب الرسوم الصخرية تعطينا فكرة قيمة لمظهر وعادات أهل المجموعة الثالثة فى عصر انتصارات المصريين . والمثل لهاته المناظر هى الصورة المأخوذة من على إحدى الأواني فى المنظر ١٨ .

ولن نعرف الا القليل عن طريقة الحياة فى هذا العصر فى تلك المنطقة جنوبى الجندل الثانى ، ذلك حتى تصل الينا نتائج الحفائر المتقدمة فى النوبة العليا . ومن المشوق أن نعرف اذا كانت بقايا المجموعة الثالثة قد امتدت فى الأراضى والى أى حد وصلت . وكما أشرت من قبل فمع انها تشبه ما عثر عليه فى كرما الا انها تختلف تماما عنها وتنسب الى قوم آخرين .



الشكل ٣١

نماذج لفخار كرما

١ - ٢٠ أواني حمراء مصقولة ذات فوهة سوداء - ٢١ أنية حمراء مصقولة
٢٢ - ٢٥ أنية سوداء ذات نقوش غائرة بيضاء

واننى أود أن أقرب حضارة كرما التى تبرز بفخارها من حضارة كوش ، بينما أعتقد أن ما عثر عليه من حضارة المجموعة الثالثة يرجع الى قوم واوات • وهناك نقطة أصبحت مؤكدة وهى أن آثار كرما هى بعينها ما عثر عليه فيما يعرف بالمقابر الناقوسية التى عثر عليها فى أنحاء متفرقة من مصر نفسها خاصة فى مناطق نعتقد انه كان بها معسكرات للجيش (شكل ٣١) وإن المقابر الناقوسية كانت تحتوى قطعاً على أجساد الجنود الذين التحقوا بالجيش المصرى والذين أصبحوا فى تاريخ متأخر العمود الفقرى فى قوة الجيش المصرى هؤلاء يرجعون الى الأسرة الثانية عشرة ويمتدون خلال عصر الانتقال الثانى حتى أيام الامبراطورية فى الأسرة الثامنة عشرة • ومما يجب أن نشير اليه هو أن ما عثر عليه فى هذه المقابر يرجع قطعاً الى أهل كرما ولا صلة له بحضارة المجموعة الثالثة فى النوبة السفلى • لذلك يمكننا أن نستخلص أخيراً أنه منذ الأسرة الثانية عشرة كان القراعنة يجندون فرقاً من بين أهل كوش المحاربين • وهذا يفسر لنا عدد الأشياء المصرية التى عثر عليها فى كرما بينما لم نجد شيئاً يعاصر جبانات المجموعة الثالثة فى الشمال •

الفصل الرابع

عصر الاضمحلال الثاني

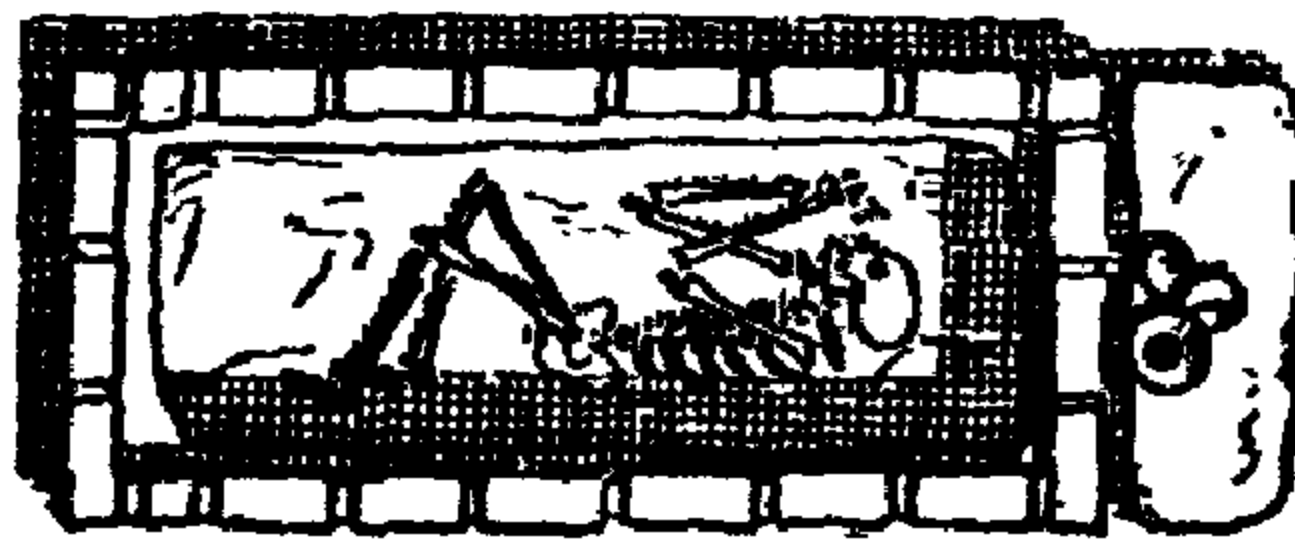
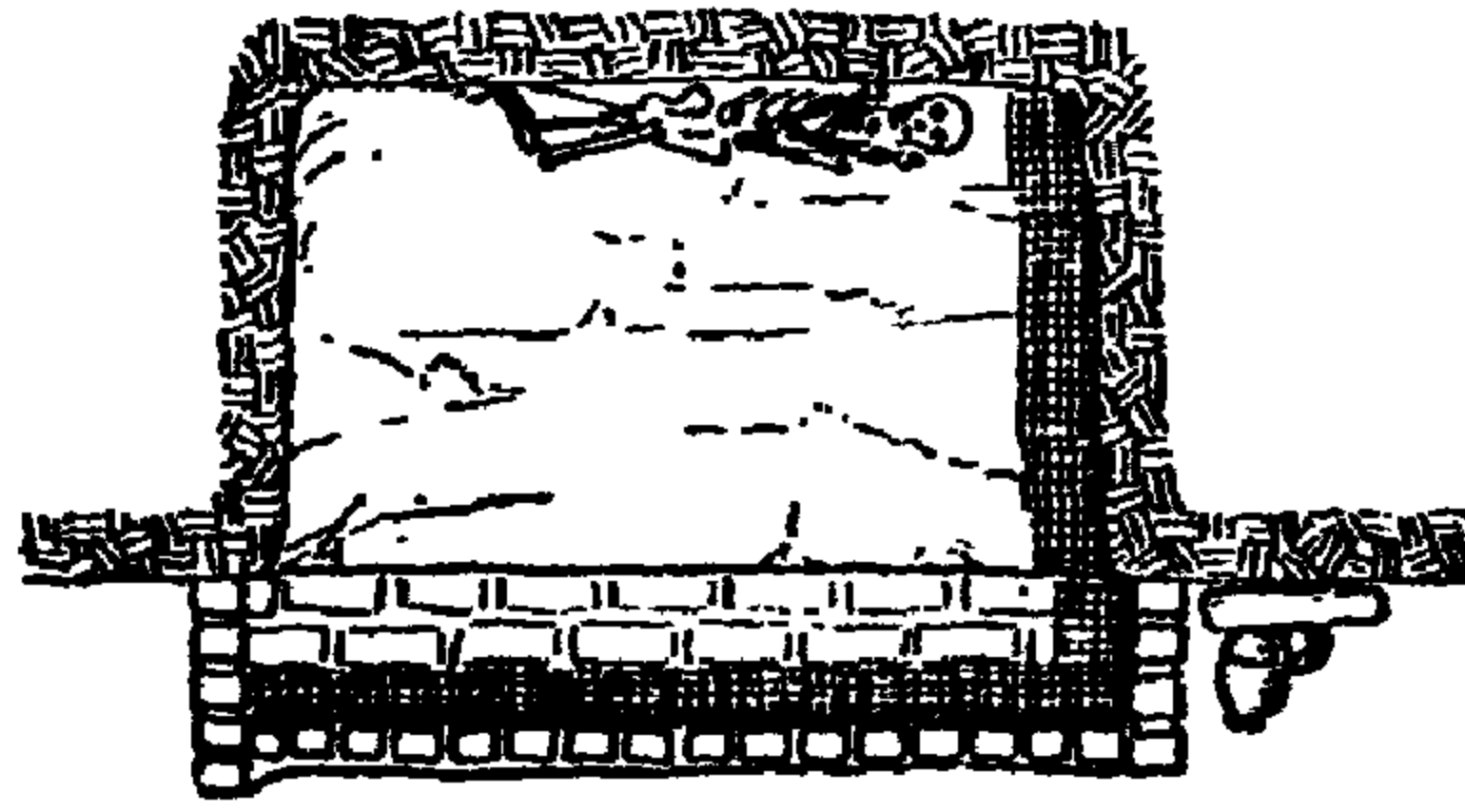
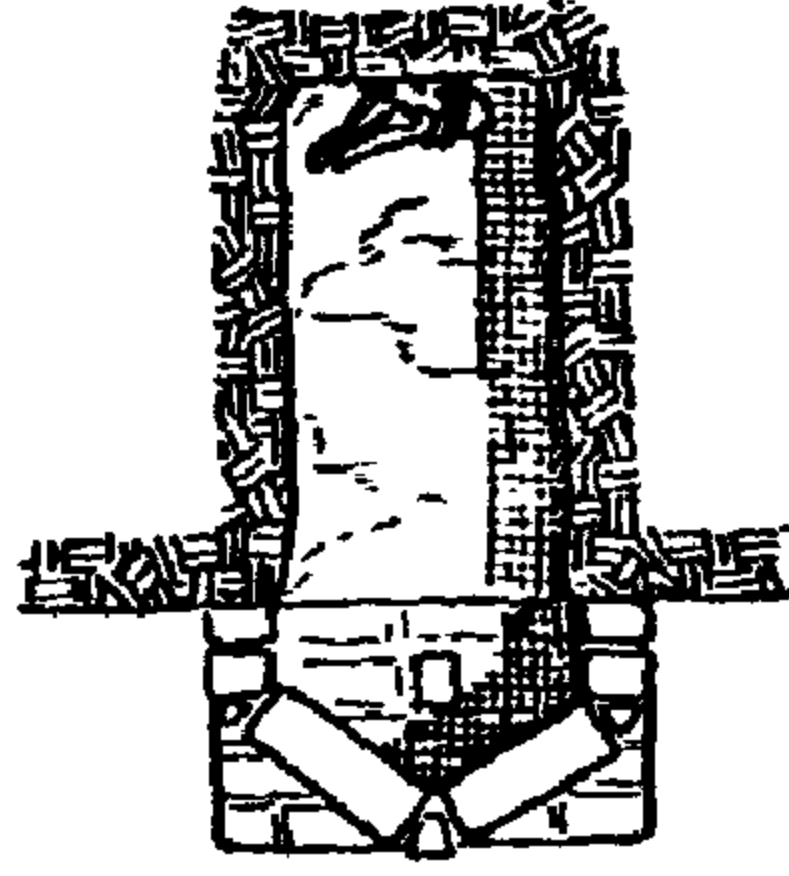
يبدو أن نهاية الدولة الوسطى التي حلت بعد عزل الملكة «سبك» - نفرو - رع ، أو موتها في عام ١٧٨٦ ، لم تضعف حكم المصريين في النوبة . فلقد سجل اسما الملكين الأولين من الأسرة الثالثة عشرة « سخم رخو تاوى » و « سخم كارع » على مقياس النيل في سمته وكان هذا دليلا كافيا على أن تلك الحصون لا تزال مسكونة . ونجد فيما بعد - في عهد نفس الأسرة - اسم الملك الواحد والعشرين المدعو « نفر حتب » منقوشا عند الجندل الأول وعلى قطعة حجرية من الستياتيت عثر عليها في قلعة بوهن . ولقد عثر أيضا في جزيرة « ارجو » جنوبي كرما على تمثال ضخيم لأحد أتباع هذا الملك واسمه « خع نفر رع سبك حتب » وكان وضعه في هذا المكان البعيد عن حدود منوسرت يثير شكنا لأن هناك ما يدل على أن آثارا مصرية متعددة نقلها الكوشيون من مكانها الأصلي في العصور المتأخرة عندما وصلوا الى أوج سلطتهم . وعلى أية حال فقد أقيم هذا التمثال في النوبة ، ونستنتج من ذلك أنه في عصر « خع نفر رع سبك حتب » كان المصريون لا يزالون يسيطرون على الجنوب .

ولكن ظلال الحوادث المقبلة التي كانت لها أثر فعال في تاريخ النوبة كانت قد أخذت تخيم على شمال مصر ، فمنذ أواخر الأسرة الثانية عشرة كان تسرب القبائل السامية الآتية من فلسطين يقلق المصريين ومع ضعف الحكم المركزي في الأسرة الثالثة عشرة اتخذ هذا التسرب شكل الغزو ، وقد عرف قواد هؤلاء القبائل عند المصريين بـ « حكا خسوت » أى « حكام البلاد الأجنبية » والتي اشتقت منها كلمة « هكسوس » التي أطلقت فيما بعد على هذا الجنس بأجمعه . وقد امتد نفوذ الهكسوس شيئا فشيئا حتى « قوص » جنوبا . ونستطيع أن نتصور مدى النكبة التي حلت بمصر اذا رجعنا الى ما سجله « جوزيفوس » عن رواية « مانيتون » :

« توتيمايوس ، ففى عصره لا أعرف لماذا ابتلانا الله بعاصفة من عنده ، اذ دخل علينا من الشرق ، على حين غرة ، غزاة من أصل غير معروف واثقين من الانتصار على بلادنا . فاستولوا بالقوة عليها دون أن يوجهوا ضربة واحدة ، وبعد انتصارهم على حكام البلاد أحرقوا مدننا من غير رحمة وسبوا معابد آلهتنا بالأرض وعاملوا أهلها بعداء صارم فقتلوا البعض وسبوا النساء والأطفال وأسروا البعض الآخر . وأخيرا وضعوا على العرش أحدهم وكان اسمه « ساليثيس » . وكان مقر العرش آنذاك فى منف ، وكانوا يجيئون الضرائب من مصر العليا ومصر السفلى تاركين دائما قوات عسكرية فى أكثر الأماكن ملائمة » .

ولم نتعرف بعد على توتيمايوس هذا ولكن ربما كان هو الفرعون « دودى - مس » أحد ملوك الأسرة الثالثة عشرة والذي حكم حوالى عام ١٦٧٥ ق م . وهكذا أصبحت مصر كلها تقريبا تحت حكم ملوك الهكسوس بينما اعتكف الحكام الأصليون فى الجنوب حيث حكموا محليا متخذين طيبة عاصمة ، ويبدو أنهم فى السنين الأولى من حكم الهكسوس كانوا يدفعون الجزية للمنتصر الأجنبى فى الشمال .

لم يبق لمصر - فى ظل تلك الظروف - قوة فى النوبة العليا فلقد استولى الهكسوس على الحصون وفى بعض الأحيان هدمت هذه القلاع . فمثلا تركت بوهن ، مقر قائد جيش الجندل ، اطلالا يتصاعد منها الدخان وبقيت على هذه الحال من الدمار أكثر من مائة سنة على ان الكوشيين المنتصرين كانوا قد سكنوها والدليل على ذلك هو نص « سيد - حر » الذى يقول : « انى قائد شجاع فى بوهن ولم يفعل أى قائد ما فعلته ، فلقد شيدت معبدا لحورس سيد بوهن فسر لذلك الحاكم الكوشى » . ويبدو أن



الشكل ٣٢

نموذج لقبرة من حضارة المجموعة الثالثة

« سبب - حر » هذا كان مصرىا عمل موظفا مع بعض المصريين الآخرين عند الحكام الكوشيين الذين امتدت سلطتهم الى منطقة واسعة من النوبة . ولم نعثر على المعبد الذى بناه فى بوهن ولكن مع تطور العلم الحديث هناك أمل فى العثور عليه . والمهم أن نعلم من النص ان القائد الكوشى كان مهتما فى بناء معبد لحورس الاله المصرى فهذا يشير الى انه فى هذا الوقت كانت لعادات والحضارة المصرية قد استقرت وقبلت من حكام كوش المستقلة .

ولكن الى أى مدى امتد سلطان كوش فى الشمال ؟ هذا ما لانعرفه ، ولكنى أميل الى الاعتقاد بأن جزءا كبيرا من النوبة السفلى (واوات) كانت لا تزال تحت السيطرة المصرية أو تحت تأثيرهم الى حد بعيد .

وسبب اعتقادى ذلك هو تبنى أهل المجموعة الثالثة لطقوس الدفن المصرية التى ترجع الى ذلك العصر التى عثر عليها فى هذا المكان ، ويلاحظ هذا بطريقة غريبة الى درجة انه يمكن أن يدل على وجود عدد كبير من المهاجرين المصريين الذين هربوا من ضغط الهكسوس ، ففي أثناء الفترة الأولى من عصر الانتقال الثانى بقيت المقابر ذات الجزء المستدير الذى يعلو سطح الأرض وكان الجسد لا يزال يوضع على شكل نصف القرفصاء ولكن فى أواخر الأسرة الثالثة عشرة تغير شكل مقابر المجموعة الثالثة كلية ، فلم نعد نعثر على اللوحة الغربية ولكننا نجد بدلا منها حفرا مبعثرة فى الجبانة كلها خصصت لوضع القرايين ولا تنتمى الى مقبرة بعينها ، وكانت هذه الحفر تحوى عادة الأجزاء الأمامية من جماجم غزلان ملونة بالأسود والأحمر هذا الى جانب مقدمة على شكل أوان فخارية . وكانت الحفر فى حالات عديدة تغطى بجزء مقبى من الطين ، أما عن الدفن فقد كان الجسد يرقد على جانبه الأيمن فى حالة القرفصاء ورأسه الى الغرب . وكانت الحفرة التى يوضع فيها الجسد عبارة عن حفرة مستطيلة حوافها مستديرة . ونم تستعمل الحجارة لتغطية الحفرة بل كانت الحفرة تملأ بالرمل بعد مراسيم الدفن ثم يبنى فوق الحفرة جزء مستطيل مقبى من الطوب اللبن وتوضع لوحة حجرية للقرايين عند النهاية . وفى بعض الأحيان كانت تصنع حفرة فى جدار الجزء العلوى لتتصل المقبرة بالقرايين الموضوعة فوق اللوحة ، (منظر ٣٢) . وهناك أدلة على أن الجزء العلوى كان كثيرا ما يشيد بعد الدفن بفترة وذلك لأنها فى حالات عدة بنيت بعيدا عن المقبرة التى أسفلها .

وكانت الأوانى توضع أيضا داخل المقبرة عند رأس أو أقدام الميت ، الى جانب الفخار الذى كان يوضع فوق اللوحة عند قمة الجزء العلوى

للمقبرة • وتظهر محتويات المقبرة مدى التأثير المصرى اذ نجد بها جعارين من الستياتيت والعقيق والجمشد وتماثم من القشاني مربوطة حول الأصابع أو العنق • وكانت أواني الكحل المصرية المصنوعة من الرخام لها شعبيتها بالاضافة الى المرايا المصنوعة من البرونز وبعض السكاكين • ومع أن الأسلحة كانت نادرة الا أن الحناجر المصرية قد وجدت أحيانا • وإذا استثنينا الفخار فاننا سنجد أن معظم محتويات المقبرة مثل الحلى وأدوات الزينة والآلات والأسلحة كلها ترجع الى أصل مصرى •

ومن المعروف أنه فى فترة ما أقيم حلف بين ملوك الهكسوس ورؤساء قبائل كوش واضعين أمراء طيبة وأتباعهم بين نارين • ومن ثم فقد اضطروهم الى أن يقفوا فى حالة دفاعية عدة سنين • وبقي الحال على هذا المنوال حتى جاءت الأسرة السابعة عشرة (١٥٧٠ - ١٦٠٠ ق م) وبدأت الروح المصرية تقوى بالتدريج وقد قامت حروب التحرير تحت حكم آخر ملوك الأسرة ، كامس • وفى السنة الثالثة من حكمه نادى بلاطه الى اجتماع فى طيبة وقال لهم :

« انى أتساءل ما فائدة قوتى عندما نجد قائد (هكسوس) فى افارس (تانيس) وآخر فى كوش وأنا أجلس بين أسيوى ونوبى كل منهما فى حوزته قطعة من مصر هذه ، ولا يمكننى أن أصل الى أبعد من منف • أنظر انه يستولى على خمون (اشمونين) ولا يمهل أحد فى نهبه وسلبه حتى « الستيو » (اسم يعطى للهكسوس) • اننى سأصارع وأبقر بطنه • ان أمنيتى هى أن أخلص مصر وأن أضرب الأسيويين » •

الا أن ناصحى الملك - حسب ما سجل - كانوا مترددين أو على الأقل حذرين ، ومن بين الأسباب التى كانت لا تدفعهم الى الهجوم هى ان « اليفنتين قوية » • ويدل ذلك على انهم اعتبروا حدودهم الجنوبية عند الجندل الأول بمعنى ان النوبة السفلى (واوات) لابد انها كانت مستقلة أو تحت سيطرة كوش • ولكن البقايا الأثرية تدل مع ذلك على أن التأثير المصرى كان قويا جدا فى هذه الفترة الى درجة أن المنطقة رغم عدم خضوعها لملوك طيبة كانت منطقة صديقة ، يقطنها مصريون ضمن سكانها •

ولم يهتم كامس بنصائح أتباعه فشن حروبا ناجحة ضد العدو الهكسوس • ويمكن أن نلاحظ مما سجل عن انتصاراته أن مناطق من النوبة كانت لا تزال تحت السيطرة المصرية لأنه يشير الى وجود قوات نوبية فى جيشه • ولقد كانت مقاومة الهكسوس لأعدائهم المحررين الطيبين

ضعيفة الى درجة أن ملكهم « ابيبي » بعث الى كوش يطلب النجدة ، ويقول
كامس مسترسلا :

« قبضت على رسول له ، بعيدا عن الواحة ، مسافرا جنوبا نحو
كوش ومعه رسالة مكتوبة من قائد أواريس : « أنا » عا أوسر رع « ابن رع
« ابيبي » أحيى ابن حاكم كوش . لماذا أصبحت قائدا دون علمي : ألم
تسمع بالذي فعلته مصر ضدي . ان القائد المصري « كامس » العظيم طردني
من أرضي ولم أصل اليه بعد . وبعد كل ما فعله ضدك فقد اختار تدمير
الأرضين ، أرضي وأرضك وخربهما . ابحر حالا الى الشمال ولا تكن
هيابا . انظر انه هنا معي لن أدعه يرحل قبل أن تصل . حينئذ
سنقسم مدن مصر هذه بيننا » .

واعتقد ان هناك مجالا للظن بان « كامس » توجه نحو الجنوب في
النوبة قبل أن يهتم بعدوه الأول في الشمال وذلك من أفاظ استغاثة من
الهكسوس وخاصة من تلك العبارة (بعد كل ما فعله ضدك) . ومع ان
الأدلة غير ملموسة الا أن اسمه واسم خليفته أحمس يظهران على لوحة
في توشكا . ولكن اذا كان كامس قد قام بمجهود حربي في النوبة فلا بد
أنه كان مجهودا ضئيلا جدا كاحتياط أولى لحماية حدوده الجنوبية قبل أن
يتوجه الى الحرب الرئيسية ضد الهكسوس . ولكن خليفته « أحمس » هو
الذي بدأ الحروب الجنوبية التي أسفرت عن استرجاع النوبة وتعمير المصريين
لها مرة أخرى .

الفصل الخامس

الأسرة الثامنة عشرة

اعتلى أحمس الأول ، مؤسس الأسرة الثامنة عشرة ، العرش عام ١٥٧٠ ق م . وأمضى الجزء الأكبر من حكمه فى حروب لطرد الهكسوس من دلتا مصر حتى وصلوا الى الجنوب الغربى من فلسطين ، وعندما انتهى من ذلك فى العام الثانى والعشرين من حكمه وجه اهتمامه الى حدوده الجنوبية وبدأ فى غزو النوبة ثانية .

ان أهم مصدر لنا عن هذه الحملة والحملات التى أعقبته قد عرفناه من مسيرة القائد الذى يحمل اسم الملك ، أحمس ، والذى ترك لنا تاريخ حياته منقوشا على جدران مقبرته فى الكاب . كان أحمس بن ابانا من أسرة نبيلة بقيت لعدة أجيال تحكم منطقة الكاب . وطوال فترة النضال ضد الهكسوس أظهرت هذه الأسرة ولاء تاما للملوك طيبة لذلك تمتعوا بحظوة ملوكها . وأعطى أحمس - منذ صباه - مركز القائد فى حرس الملك الخاص لأنه يقول « تبعت الملك على قدمى عندما ركب عربته » .

وعندما بدأت الحملات النوبية كان أحمس قد أصبح متمرسا ، له سجل طويل من الأعمال المجيدة التى قام بها . ويبدو أنه كان يقود ،

حينئذ ، أسطولا مصرية لابد انه قد مر من قناة سنوسرت الثالث عندما ساعد في غزو النوبة مرة أخرى . ويروي أحسن كيف ان « جلالته (أحسن) قد قام بمجزرة بينهم (أى النوبيين) وكيف ان « جلالته أبحر شمالا مسرور القلب من نشوة الانتصار (لأنه) قبض على الجنوبيين الشماليين » . ولا نعرف الى أى مدى وصل المصريون جنوبا في هذه الحملة ولكن لا شك ان النوبة كلها حتى الجندل الثانى ، كانت فى أيدي المصريين وانهم احتلوا أطلال قلعة بوهن الكبرى . ولقد عين رجل يدعى « ثورى » قائدا فى بوهن آنذاك ثم أصبح أول « حاكم لكوش » فى فترة الحكم التالية . ويبدو ان الحصن قد أعيد بناؤه وتوسيعه تحت اشراف « ثورى » لأننا نعرف ان الفرعون أحسن شيد معبدا الى الشمال من قلعة الدولة الوسطى خارج الأسوار وهذا يوحي بأنه كان يفكر فى توسيع الحصون التى كانت ستضم معبده والقلعة القديمة . وخلف «أمنحتب الأول» أباه «أحسن» فى عام ١٥٤٥ ق.م. ومع انه لم يسجل فى حكمه الا حملة واحدة الا أنه نجح فى تدعيم حدوده جنوبا حتى « سمنه » وندين أيضا لأحسن القائد بتفاصيل هذه المعركة اذ نجده يقول لنا : « أبحرت مع الملك « جسر كارع » (أمنحتب الأول) المبجل عندما توجه جنوبا الى كوش لتوسيع حدود مصر . وقبض جلالته على الحاكم النوبى وسط جيوشه » وبعد أن يصف امكانياته الحربية يواصل أحسن قائلا: « وجئت بجلالته الى مصر من البئر العلوى فى يومين . فكافأنى (الملك) بالذهب » . فاذا كانت البئر العلوية وصفا للجندل الثانى ، كما يبدو ، أو مكانا فى هذه المنطقة فان معنى ذلك ان المنطقة الشمالية لحدود « سمنه » كانت تعد مصرية لأنه من الصعب قطع مسافة كبيرة بالركب فى يومين » .

ولا نعرف تاريخ وقوع هذه الواقعة ضد كوش ولكن لابد أنها وقعت فى النصف الأول من حكم أمنحتب لأن هناك نصا يرجع الى السنة الثامنة من حكم هذا الملك نقش على صخور ايكونارتى ، وبعد هذه الحملة اتفق على تدمير النوبة وظهرت وظيفة « الوالى » تحت لقب « ابن الملك حاكم كوش » . وكان أول اسم فى سلسلة طويلة لأسماء كثيرة تعرفنا عليها أخيرا هو ثورى الذى كان حاكما لبوهن ويشغل أهم وظيفة ادارية فى النوبة ، وخلف أمنحتب الأول على العرش تحوتمس الأول (١٥٠٨ - ١٥٢٥ ق.م.) الذى بعث أولا برسالة الى ثورى حاكم النوبة ، ليعلمه

بالنبا • ونقش ثورى مرسوم التتويج على لوحة وضعت فى كوبان وبوهن •
والنص كما يلى :

« أمر ملكى لابن الملك ، حاكم البلاد الجنوبية ، ثورى المبجل • أنظر ،
بعث اليك هذا الأمر الملك لينبئك بأن جلالته أصبح ملك مصر العليا
والسفلى ، على عرش حورس الحى الذى لا مثيل له الى الأبد • اجعل القابى
كما يلى :

اللقب الحورى : « الثور القوى ، المحبوب من ماعت » •

السيدتان : « المشرق فى تاج الصل ، العظيم فى قوته •

حورس الذهبى : « خير السنين محيى القلوب »

ملك مصر العليا والسفلى : « عاخيران رع » •

ابن رع : « تحوتمس ، فليعيش أبد الآبدين » •

فلنقدم قرابين لآلهة اليفنتين فى الجنوب كما يلى : « اقامة الاحتفالات
السعيدة بالنيابة عن ملك الشمال والجنوب » عاخيران رع « المعطى
الحياة » •

واجعل القسم باسم جلالتي ، المولود من الأم الملكية سن سنسب التى
تتمتع بالصحة هذا بلاغ لاخطارك وليعرفك ان البيت الملكى فى خير
ورخاء •

السنة الأولى ، الشهر الثالث ، الفصل الثانى ، اليوم الواحد
والعشرون يوم عيد التتويج • «

اكتسب تحوتمس الأول بعد سنتين من تتويجه فعلا لقبه الحورى
« الثور القوى » لأنه أتم غزو كوش • فيدعى على لوحة فى « تومبوس »
جنوبى الجندل الثالث انه : « توغل فى وديان لم يعرفها أجداده الملكيون
ولم يرها الذين يلبسون التيجان المزدوجة • » والحقيقة ان هناك أدلة قوية
على وصول الجيوش المصرية الى منطقة دنقلة لأن تحوتمس أقام لوحة حدود
فى « كورجوس » فى المنطقة الجنوبية لطريق « أبو حمد » وهو الطريق
القديم الموصل لكوبان فى النوبة السفلى ، ويجوز أن تكون هذه اللوحة قد
أقامها المغيرون القادمون من كوبان عبر الصحراء وهى لا تثبت ان كل النهر
جنوبا كان فى أيدي المصريين • وعلى أية حال فلا شك ان قوة كوش دمرت

ونعرف ذلك من سيرة حياة « أحسن الكاوي » ذلك القائد العجوز الذي كان على رأس الأسطول الملكي . فيقول :

« قدمت سفينة الملك « عاخيران رع » (تحوتمس الأول) المبحل عند ابصاره جنوبا الى « خنت - هن - نوفر » لنخمد الثورة في المرتفعات وليوقف الاغارات في منطقة التلال. وأظهرت شجاعة أمامه في المياه الصعبة وفي قيادة السفينة عند المنحنى (دنقلة) فكافأني (الملك) وعينني قائدا للأسطول . وكان جلالته ٠٠٠٠ فغضب جلالته وأصبح كالفهد وصوب رمحه الأول الذي استقر في جسد الصريح . كان هذا ٠٠٠٠ (حاكم كوش ؟) بدون قوة أمام الصل الملهب في لحظة الهلاك . وجيء بأهلهم كأسرى أحياء ٠٠٠ وأبحر جلالته جنوبا وكل البلاد في قبضته وعلق هذا النوبي الحقيير من رجليه على مقدم سفينة جلالته ورسونا عند الكرنك . »

ولقد ترك لنا ثوري نصا آخر عند الجندل الأول مسجلا فيه ان الملك اضطر ، قبل الابحار منتصرا نحو عاصمته طيبة ، أن يطهر قناة سنوسرت التي كانت قد امتلأت بالحصى وكان قد قام بهذا العمل في السنة الثالثة بعد انتهاء الحملة . وهذا شيء غريب لأننا نتصور ان المفروض أن تكون القناة صالحة لتسمح بمرور الأسطول بعد الحرب . والتعليل هو أن السفن بنيت في النوبة جنوبي الجندل الأول في بداية الحرب وبعد انتهاء الحرب اعتبرت ضرورية للاستعمال في مصر نفسها .

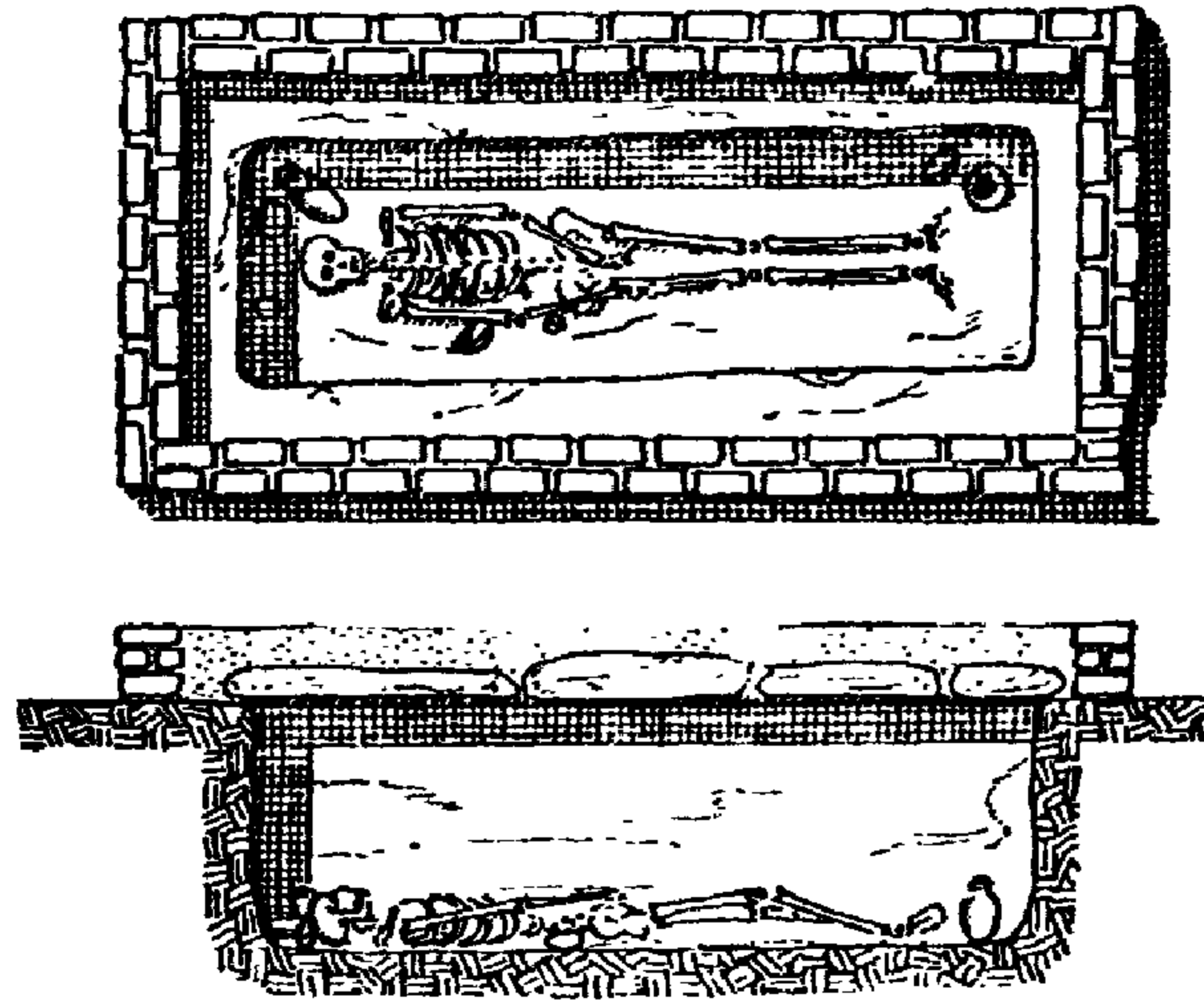
وهناك أدلة على أن « تحوتمس الأول » بنى سلسلة حصون في تومبوس وعلى جزيرة « ساي » ولا شك أنه في آخر حكمه كانت النوبة كلها ودنقلة أيضا في يد قوية . ولقد أعاد بناء كثير من حصون الدولة الوسطى ووسع بعضها . ويبدو أن هذا العمل العظيم أنجز تحت اشراف ثوري . واختيرت بوهن مرة أخرى لتكون مركز الادارة وأعيد بناء جدران حصونها وقويت . أما السور السفلي والخندق فقد ردما وغطيا بطريق معبد من اللبن يلتف حول البناء كله حتى أصبحت على شكل قلعة في وسط حصون جديدة . وهذه الحصون الجديدة بنيت على نطاق واسع وبطريقة أكثر احكاما . وحفر خندقا عرضه ستة أمتار وعمقه مترين على شكل محيط طوله ميل ومن ورائه شيدت الجدران التي حوت المدينة الجديدة وكان ارتفاع هذه الجدران اثني عشر مترا وسمكها خمسة أمتار ويتخللها أبراج مستطيلة في الواجهة الخارجية . وكان المسقط الأفقي لهذه الحصون على عكس حصن الدولة الوسطى ، شكله غير مستقيم وله زوايا واسعة ، أكبرها في الوسط تقريبا في الناحية القريبة مواجهها للصحراء . وداخل

هذه الزوايا وجدت بوابة كبيرة ذات ممر منحوت فى الصخر يعبر الخندق ويعتبر المدخل الرئيسى للحصن .

أما الحصون الأخرى ، فى النوبة السفلى مثل كوبان وايكور وعنيبه فقويت بينما بقيت الحصون ، جنوبى الجندل الثانى ، فى منطقة بطن الحجر مهجورة ، كما لم يهتم ببعضها الآخر ، ويمكننا أن نستخلص انه بعد امتداد منطقة الغزو نحو الجنوب أصبحت هذه الحصون غير ذات قيمة وان المجهود فى تشييد أبنية حربية تركز فى المناطق المكتسبة حديثا بعد الشلال الثانى . ولقد لوحظت مناطق عدة حول دنقلة بها بقايا لتلك الأبنية وحتى يهتم بها المتقرب لا يمكن أن نتأكد من هذه النقطة . ان ضرورة إعادة تشييد بوهن (حلفا) وميعام (عنيبه) وباكى (كوبان) فى النوبة السفلى واضح جدا ، فبوهن على رأس الجندل الثانى كانت مركز كل وحدات الجيش فى هذه المنطقة الحيوية كما كانت مقر تخلص البضائع الآتية من الجنوب والتي كانت تحمل على السفن الراسية على أرصفتها الحجرية . أما ميعام مركز الادارة فيما بعد ومقر الحاكم فقد كانت أكثر أهمية وتدل على ذلك أطلال جدرانها الضخمة ، وأخيرا كوبان - على النهر عند آخر نقطة من الطريق الحيوى المؤدى لمناجم الذهب فى وادى علاقى - كانت مهمة لأنها كانت تراقب أى احتمال لغزو من الجنوب عن طريق البحر متخذين طريق أبو حمد الصحراوى .

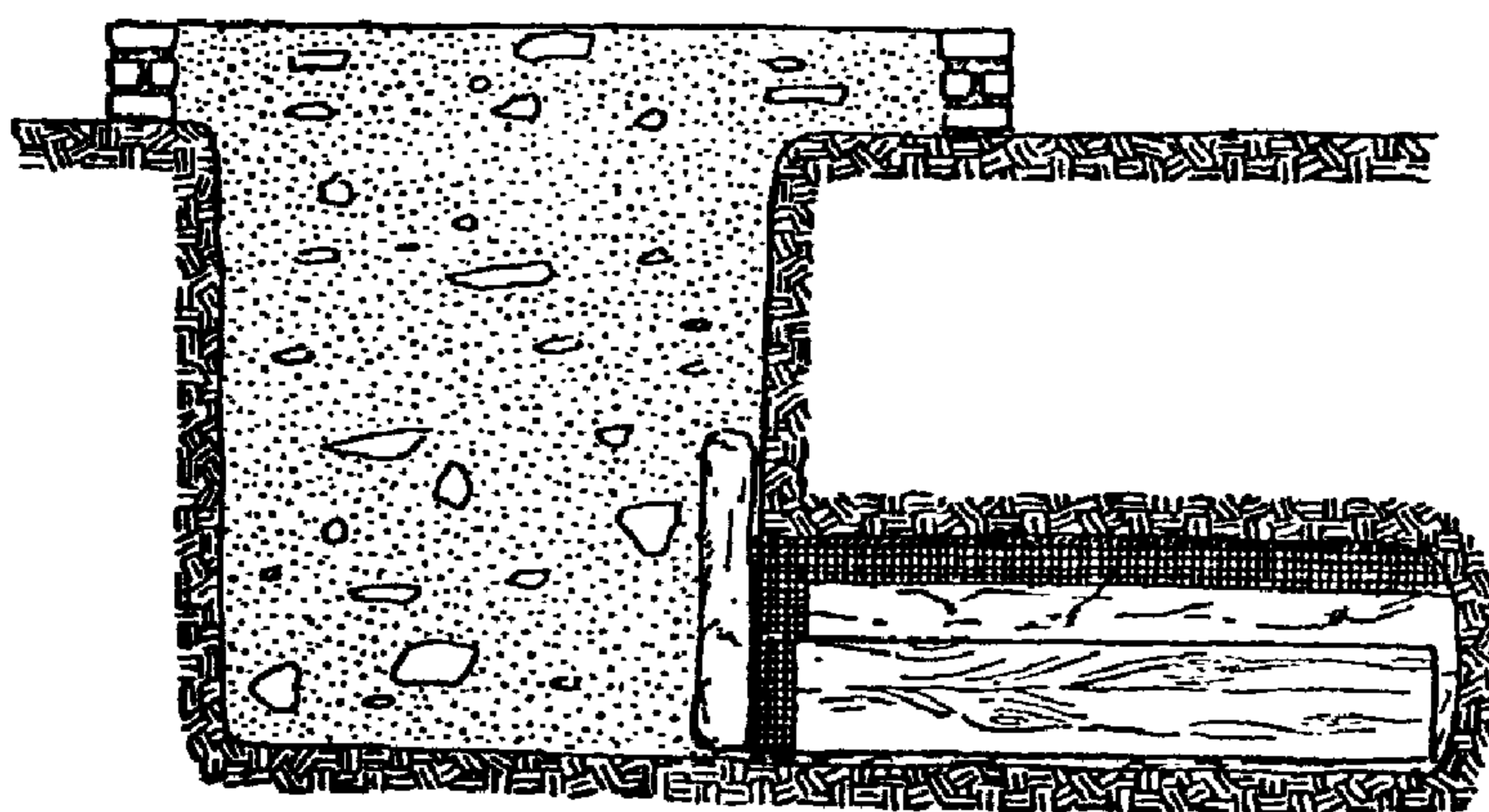
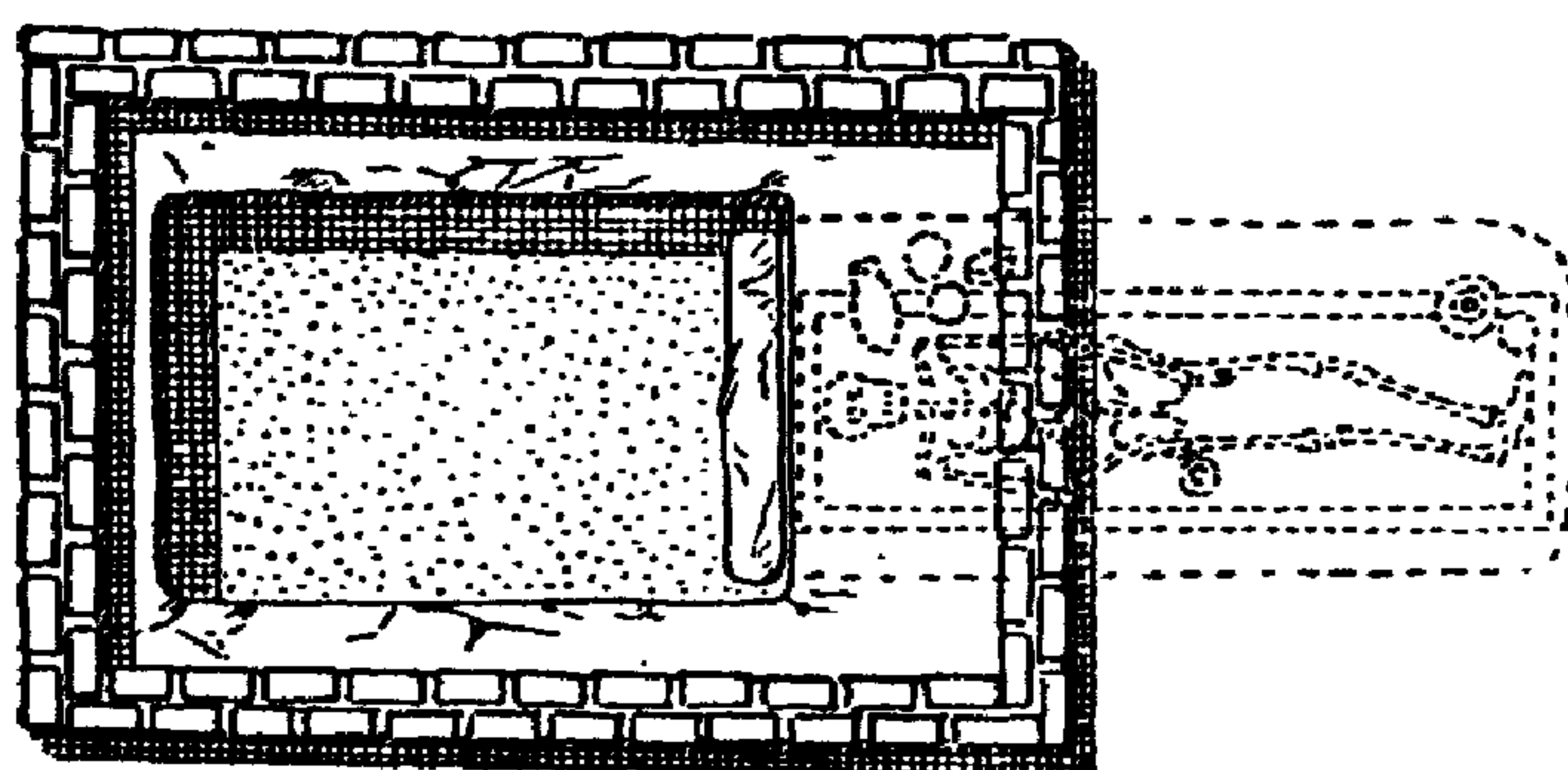
والآن لنلق نظرة على الجيش المصرى الذى استرجع بسرعة للفراعنة قوتهم فى النوبة . ان النظام العسكرى فى عصر تحوتمس الأول اختلف تماما عن النظام فى عصر سنوسرت الأول لأنه أصبح لا يعتمد على نظام الاقطاعيات ومن ثم أصبح لمصر الآن جيش وطنى حقيقى له قيادة محكمة البنيان لم ترها فى الدولة الوسطى . ان حروب التحرير ضد الهكسوس الغاصبين علمت المصريين أنه من الضرورى ايجاد جيش محترف وأن مصر لا يمكن أن تعتمد بعد ذلك على فرق نصف مدربة يقودها أشراف محليون لقد أصبحت قوة عسكرية من الدرجة الأولى لها جيش كبير يقوده جنود محترفون .

كان الفرعون كالعادة ، فى الحملات الكبيرة هو القائد الأعلى يعاونه أحد الوزراء باعتباره وزيرا للحربية ، ومجلس عسكرى . وكان الجيش مقسما الى مجموعات تضم كل مجموعة خمسة آلاف رجل وكل مجموعة تكون فرقة كاملة من الجيش . وتتكون الفرقة من المشاة وراكبى العربات الحربية وعلى رأسهم قائد . وكان المشاة يتكونون من ثلاث طبقات :

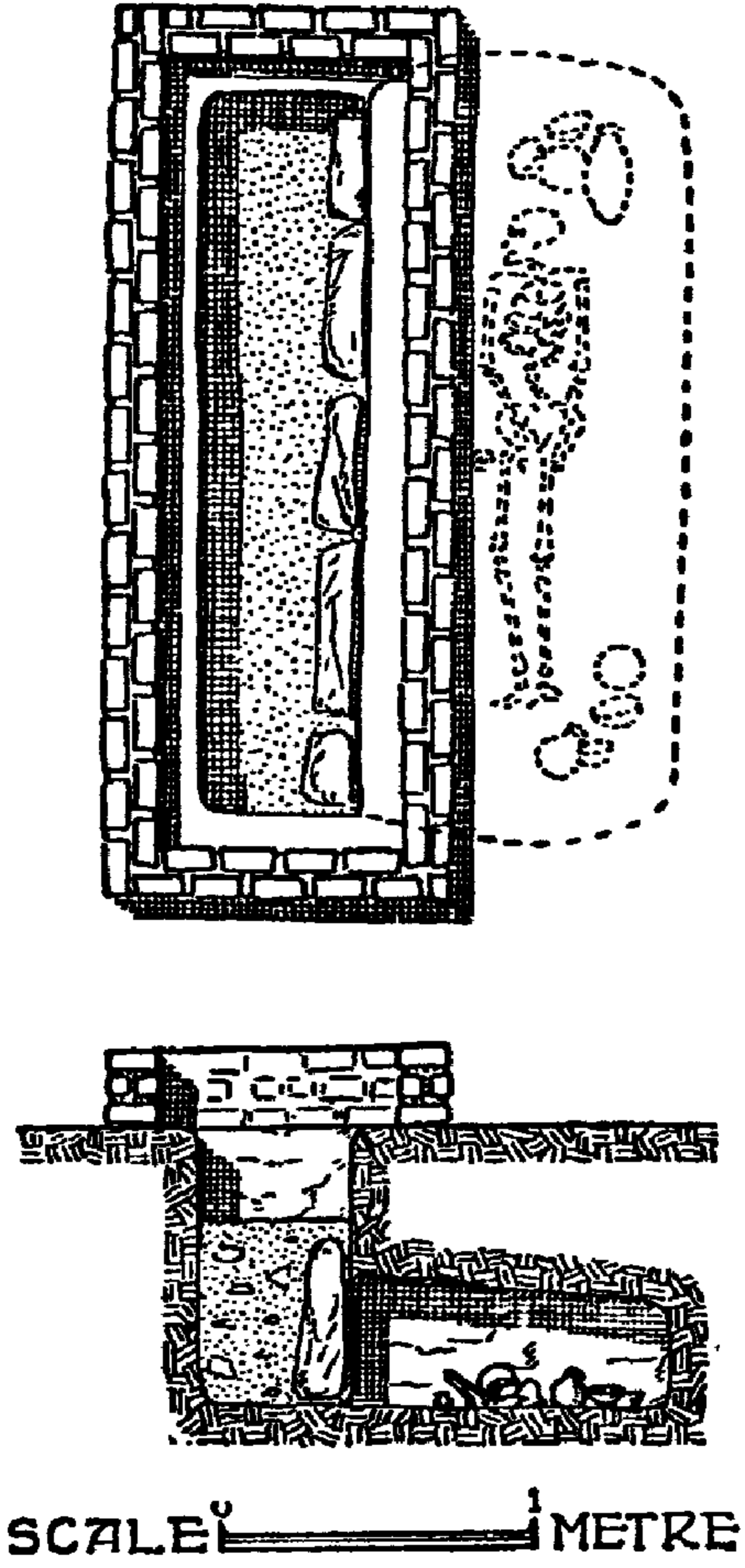


الشكل ٣٣

نموذج لمقبرة من الدولة الحديثة



الشكل ٣٤
نموذج لمقبرة من الدولة الحديثة

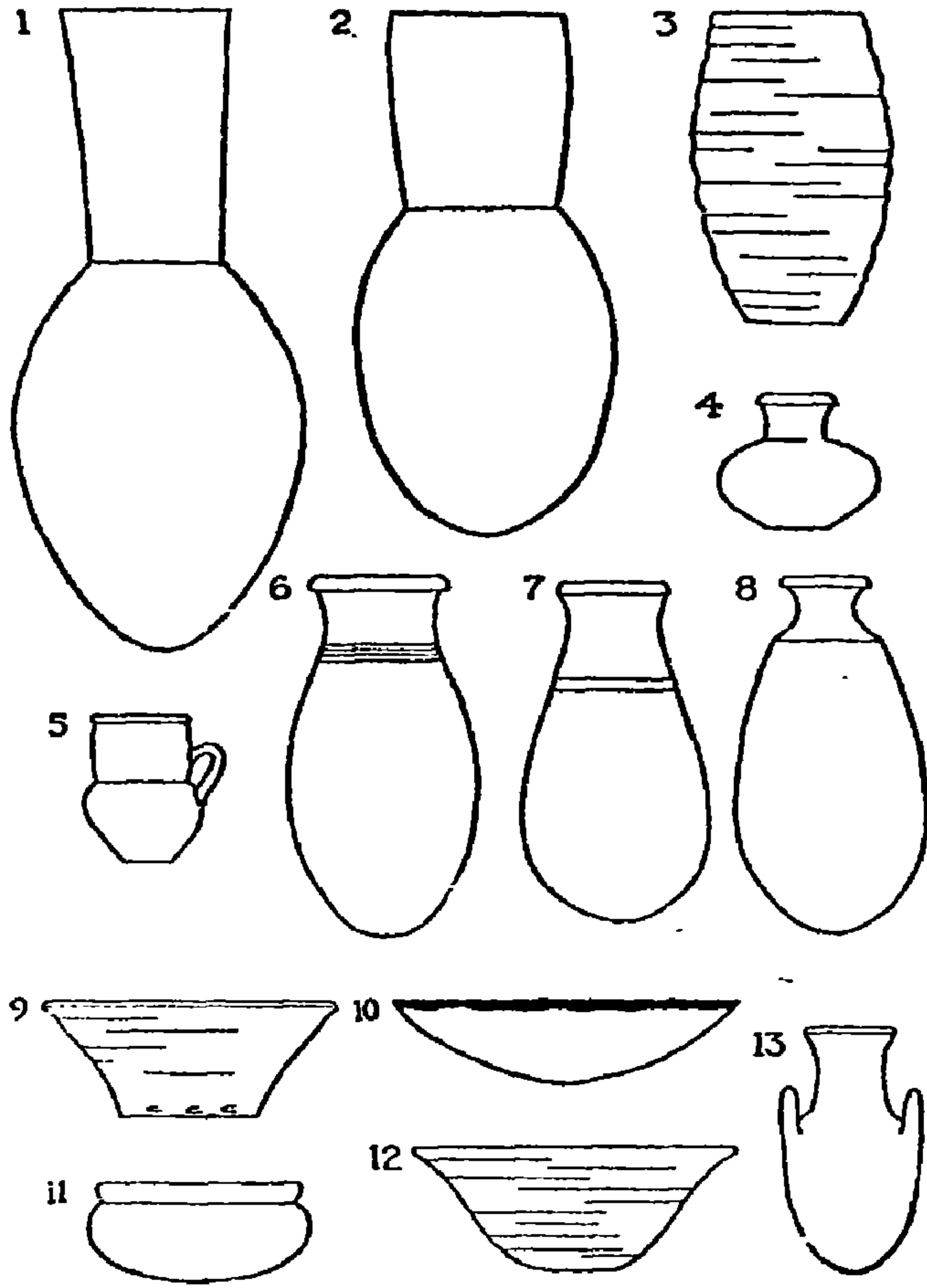


الشكل ٣٥
نموذج لمقبرة من الدولة الحديثة

« المجندون (متطوعون ومجنّدون أجباريا) والمدرّبون وهم دائمون والفدائيون ويقسم هؤلاء الى فرق كل فرقة فيها مائتان وخمسون رجلا تحت قيادة ضابط يحمل لواءهم في الحرب وفي الاستعراضات . ويليه في المرتبة ضابط أصغر يعرف بـ « أكبر الخمسين » ويبدو أنها كانت أصغر وحدة في الجيش . أما عن التسليح فكانت الفرق تزود بأسلحة تبعا لفصائل الجنود كمشاة ثقيلة أو مشاة خفيفة أو حاملي أقواس وهؤلاء يسلحون بالأقواس والسهم والبلط ودبابيس القتال والحراب والسيوف . أما العربات ذات العجلتين والحصانين فكانت مقسمة الى فصائل ، كل فصيلة بها خمس وعشرون عربة لكل عربة سائق وجندي ولكل فصيلة قائد يعرف بـ « قائد عربة العاصمة » وكل الفصائل كانت تحت قيادة قائد عام العجلات الحربية أما الجندي الذي كان في العربة فكان يسلح بقوس وعدة سهم عادة وكذلك بسيف ودرع ورمح . والى جانب الفرق المحلية المصرية، كان الجيش يضم فرقا من المرتزقة الأجانب منذ أقدم أيام الامبراطورية . ففي هذا العصر كانت هذه الفرق الأجنبية مجنّدة من القبائل النوبية وكانوا يستخدمون في فرق المشاة فقط . ومن الطريف أن نلاحظ بهذه المناسبة أنه أثناء التنقيب في مواقع الحصون لم يعثر الا على كمية قليلة جدا من الفخار النوبي داخل الحصون التي ترجع كلها تقريبا الى النوع المعروف بـ « كرما » والآتية من كوش . ولم يعثر الا على القليل جدا مما يرجع الى أواخر عصر المجموعة الثالثة من واوات . كل هذا يوحي بأن قواد الجيش في الامبراطورية اعتبروا انه من الخطورة أن يستخدموا نوبيين في المعسكرات الموجودة في أراضيهم الأصلية وهذا شبيه بما كان في عصر الدولة الوسطى .

ان ادارة جيش يغزو بلادا وعرة مثل بلاد النوبة لابد أنه كان صعبا جدا فالمواصلات بين المحطات العسكرية كانت وعرة ولا بد أن المراسلين كانوا فرقا حيوية وقد كان يرافق الجيش الكتبة العسكريون الذين كانوا غالبا مدنيين ونقرأ عن ألقاب مثل « كاتب التجمع » و « كاتب التوزيع » ويبدو من هذه الألقاب أن عملهم كان متصلا بمكتب ضابط الامدادات والتموين .

ان مرور الجيوش في النوبة السفلى في طريقها الى ساحة القتال في الجنوب الى جانب زيادة عدد المستعمرين المتصلين بالجيش والمحطات التجارية سرعان ما كان لها أثرها على اعتقادات وأسلوب عيش أهل المنطقة . لذلك فان كل ما تبقى من حضارة المجموعة الثالثة قد اختفى وهذا التغيير ملحوظ بالأخص في دفن الموتى نجد الميت وقد وضع على



الشكل ٣٦
نماذج لفخار النولة الحديثة

- ١ و ٢ - فخار أحمر
- ٣ - آنية حمراء خشنة الصنع
- ٤ - آنية حمراء
- ٥ - آنية صفراء
- ٦ و ٧ و ٨ - آنية حمراء
- ٩ - آنية حمراء خشنة الصنع
- ١٠ - آنية حمراء ذات حافة حمراء
- ١١ - آنية حمراء
- ١٢ - آنية حمراء خشنة الصنع
- ١٣ - آنية صفراء

ظهره وأرجله ممتدة • وفى الدفنيات الغنية كان يوضع فى تابوت خشبي •
أما المقابر فكانت لها ثلاثة أشكال الاول حفرة عادية مستطيلة (شكل ٣٣)
والثانية حفرة منحوتة فى الصخر تنتهى بحجرة الدفن (شكل ٣٤) وأخيرا
حفرة مستطيلة لها كوة جانبية فى أحد الجوانب الطويلة للمقبرة (شكل
٣٥) • وفى معظم المقابر يبدو ان تجميع الأدوات الجنائزية اتبع طريقة
معينة الى درجة اننا يمكن أن نعتبر انه فى عصر الدولة الحديثة نجد الى
جانب الفخار أشياء أخرى موضوعة على الشكل التالى :

طبق من الفخار الأحمر عند الرأس

آنية واسعة حمراء

آنية صغيرة حمراء

!دوات زينة مثل المرايا البرونزية والامشاط الخشبية •

الى جانب الذراع اليسرى •

آنية للدهن من الفخار الملون

طبق من الفخار الأحمر •

آنية كحل من الالبسترومرود

عند القدم •

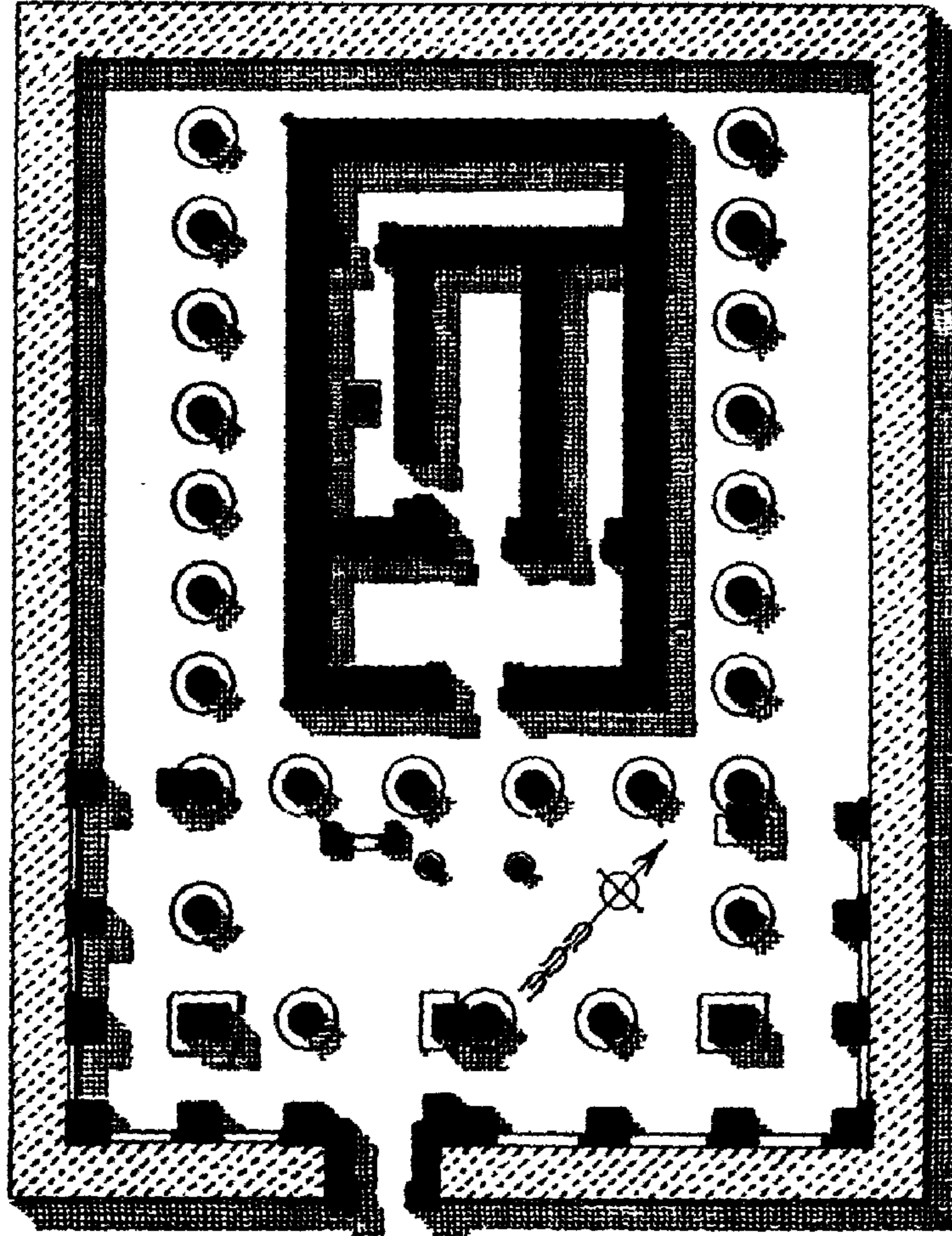
طبق من الفخار الأحمر •

آنية واسعة حمراء

آنية صغيرة حمراء

أما بين الأرجل فكانت توضع تماثيل أوشابتي من النوع المصنوع
من الفخار أو الطين أو القاشاني (شكل ٣٦) •

أما الحلى فتتكون من أقراط من البرونز والعقيق واليشب • خواتم
من الذهب والبرونز ، جعارين وتمائم من العقيق والسستيتيت والزجاج
والصدف • أما الاسلحة فيعثر عليها مع الميت أحيانا ولكنها قليلة جدا
خاصة فى النوبة السفلى (واوات) وإذا وجد فتكون رموس حراب برونزية
ورموس سهام ورموس بلط وخناجر • وهذه الأشياء كلها من النوع الشعبي
الا فى المقابر المنحوتة فى الصخر لأن أصحابها كانوا فى حالة أكثر رخاء
والفكرة العامة التى تعطينا لنا هذه المقابر الموجودة بعيدا عن المحطات
العسكرية هى ان النوبة ، بعد غزوها ، كان يسكنها جنس فقير يعتمد على
الأشياء الرخيصة المستوردة من مصر وان ليس لديهم ثقافة شخصية •



الشكل ٣٧

رسم تخطيطي لمسقط

معبد «بوهن» في الدولة الحديثة

اما فى ضواحي المستعمرات مثل ميعتم وبوهن فكان الحال يختلف وما عثر عليه فى المهاجر المنهوبة يشير الى أن أهل هذه المناطق اعتادوا مستوى عاليا فى المعيشة .

هكذا كان الحال فى النوبة فى أواخر حكم الفاتح العظيم تحوتمس الأول وليس غريبا أنه عند سماع نبأ موته فى عام ١٥٠٥ ق م اشتعلت الثورات فى الجنوب وقام ابنه تحوتمس الثانى بحملة ضد كوش فى السنة الأولى من حكمه وسجلت لوحة على الصخور بين أسوان وفيله ما يلى :

« جاء إحداهم ليبلغ جلالته بالأتى : ان كوش الحقيرة بدأت تتور هؤلاء الذين كانوا تحت إمرة سيد الأرضين يعتزمون العداء وبدعوا يضربونه ان سكان مصر (المستعمرين) يحضرون البحر وراء الحصن الذى بنسائه والدك أثناء حملاته ، ملك مصر العليا والسفلى عاخير كارع (تحوتمس الأول) الذى يعيش أبديا ، ليطرد البرابرة الثائرين النوبيين الذين فى « خنت هن نوفر » هؤلاء الذين هناك فى كوش الحقيرة » .

ان الإشارة الى شمال كوش يوحى بأن الثورة بدأت جنوبى الجندل الثانى وعلى ذلك اذن فمن الجائز أن تكون بوهن هى الحصن الذى استعمل كمأوى للمستوطنين المهددين لأن بوهن هى الحصن الكبير الوحيد فى المنطقة والذى يمكن أن يؤوى عددا كبيرا من الناس ومعهم ماشيتهم . وعندما سمع تحوتمس الثانى الاخبار، بعث بقوة عسكرية كبيرة الى النوبة، ولكنه لم يذهب معها بنفسه ربما لصغر سنه فلوحة أسوان تواصل :

« ثم وصل جيش جلالته الى كوش الحقيرة . . ان جيش جلالته قد قهر البرابرة ولم يترك أحدا من ذكورهم حيا وذلك حسب أوامر جلالته ماعدا أحد أبناء حاكم كوش الذى أسر حيا وأخذ مع قومه الى جلالته ووضعوا تحت أقدام الملك الطيب ، اذ أن جلالته ظهر على عرشه عندما أحضروا الأسرى الأحياء الذين قبض عليهم جيش مصر . وأصبحت هذه الأرض تابعة لجلالته كما كان الحال من قبل » .

وهكذا انتهت هذه الحملة التأديبية وبعد أسر أمراء كوش ، أعيد السلام ودعم بقوة فى الجنوب لعدة سنين مقبلة . ولقد عثر على اسم تحوتمس الثانى فى برقل ودكة حيث يبدو انه شيد معبدا له كانت أساساته تحت معبد بنى فيما بعد فى عهد الملك المروى اركامن وبطليموس الثانى . ولقد ظهر اسمه أيضا مع اسم والده فى سمينة حيث رسما وهما يقدمان الهدايا للاله آمون . أما الملكة حاتشبسوت التى تلت تحوتمس

الثانى على العرش فى عام ١٥٠٤ ق م فلم تجد ضرورة لجهود حربية فى النوبة لان الاراضى الجنوبية بقيت فى سلام خلال حكمها . ولقد بنت الملكة معبدا فى بوهن ومع أنه أصبح فى حالة يرثى لها الا انه لا يزال يحتفظ بمعالمه المعمارية ومناظره الملونة التى يمكن اعتبارها من أجمل ما عثر عليه فى النوبة . واما شكله العام فهو يتبع النظام العادى للمعبد الصغير فى هذا العصر : ذى مقصورة مقفلة ومسقوفة تحوى قدس الأقداس وحجرات جانبية وافناء أمامية (شكل ٣٧) ذات الأعمدة . وهذا البناء له ممران على جانبيه ، ولكل جانب ممر ذو أعمدة مستديرة من الطراز المعروف باسم بروتودوريك وهنـه الأعمدة احلى سمات معبد الديرالبحرى ومثلها أيضا كان موجودا فى الفناء المفتوح ويحيط المعبد كله جدار من اللبن له مدخل فى ناحيته الشرقية . وللأسف فان التناسق الذى كان يتصف به تصميم المعبد قد فقد بسبب الزيادات والاصلاحات التى قام بها زوج الملكة وخليفتها تحوتمس الثالث الذى عمل على ازالة خرطوشها من كل مكان وجد فيه . ان أسماء تحوتمس الأول والثانى تظهر على الرسوم ومن ثم فانه يبدو ان العمل قد بدأ فى المعبد قبل أن تعتلى حاتشبسوت العرش وعلى أية حال – فمما لا شك فيه – ان البناء الأساسى قد شيد فى عهدها .

ان الرسوم المهداة للاله المحلى « حورس » ، « سيد بوهن » كانت ذات طابع دينى تظهر الملوك وهم يقدمون القرابين للاله وللمعبودات الأخرى مثل آمون رع، ازيس، ساتيس، انوبيس ومنتو . ولقد شيدت حاتشبسوت أيضا معبدا للاله « حتحور » فى « فرس » . ولكن لم يبق منه الا أساساته وقطع مبعثرة من الحجارة .

بقيت الأمور هادئة طوال حكم تحوتمس الثالث . ومع ان الملك توجه نحو الجنوب بحملة فى أواخر سنى حكمه فلا بد وانها لم تكن الا استعراضا لقوته العسكرية اذ ان شهرة انتصاراته فى سوريا كانت كافية لردع أى فكرة ثورية فى كوش . أما واوات فقد أصبحت جزءا مكملًا لمصر . ولقد حكم الحاكم نحى البلاد بحكمة وعقل واهتم بتوصيل الجزية النوبية الى مصر . وفى حوليات تحوتمس الثالث كانت جزية واوات وكوش كما يلى :

واوات :

- السنة الحادية والثلاثون : اثنتان وتسعون بقرة وحصاد واحد .
- السنة الثالثة والثلاثون : عشرون عبدا مائة وأربعة من البقر وحصاد واحد .
- السنة الرابعة والثلاثون : مائتان وأربعة وخمسون دينا من الذهب عشرة من العبيد وعدد غير معروف من الماشية .
- السنة الخامسة والثلاثون : أربعة وثلاثون عبدا وأربعة وتسعون رأسا من الماشية وحصاد واحد .
- السنة الثامنة والثلاثون : الفئادبن وثمانية من الذهب وستة عشر عبدا وسبع وسبعون بقرة .
- السنة التاسعة والثلاثون : تسع وثمانون بقرة وثن فيل وابنوس .
- السنة الحادية والأربعون : ثلاثة آلاف ومائة وأربعة وأربعون دينا ثلاثة من الذهب . مائة وأربع عشرة بقرة وكمية غير معروفة من سن الفيل .
- السنة الثانية والأربعون : ألفان وثلاثمائة وأربعة وسبعون دين ، واحد كدت من الذهب وحصاد واحد .

كوش :

- السنة الرابعة والثلاثون : ثلاثمائة دين من الذهب ، ستون عبدا زنجيا ، مائتان وخمسين وسبعون بقرة ، عاج وابنوس .
- السنة الخامسة والثلاثون : سبعون دينا وكدت واحد من الذهب عدد غير معروف من العبيد ، ماشية ، عاج ، ابنوس وحصاد واحد .
- السنة الثامنة : مائة دين ، وستة كدت من الذهب ، ستة وثلاثون عبدا زنجيا ثلاثمائة وستة من البقر ، عاج وابنوس ، وحصاد واحد .
- السنة التاسعة والثلاثون : مائة وأربعة وأربعون دينا وثلاثة كدت من الذهب مائة عبد زنجي واحد وعدد غير معروف من الماشية .
- السنة الواحدة والأربعون : أربعة وتسعون دينا واثنان كدت من الذهب ، واحد وعشرون عبدا زنجيا وعدد غير معروف من الماشية .

ومع ان الكمية كلها من الذهب وتبلغ أكثر من ثمانمائة واثنتين وعشرين ألف دين - كانت ذات تأثير كبير لكثرتها فقد كانت الأشياء الأخرى ، قليلة جدا ، وربما كان هذا شاهدا على فقر البلاد بعد الحروب ومهما كان السبب فيد الفرعون لا تبدو ثقيلة . وأثناء حكم تحوتمس الثالث وصلت ادارة النوبة التي كانت في يد الحاكم « نجى » الى أعلى المستويات ومن الواضح ان العمل في مناجم الذهب وكذلك الطرق التجارية قد تمتعا بالأمان فلم تقلقها اغارات البدو . وكان من الطبيعي أن يتجه الملك في سياسته البعيدة المدى الى تطهير قناة سنوسرت الثالث عند الجندل الأول وأن يأمر صيادى اليغنتين أن يطهروها كل سنة . ان آثار تحوتمس الثالث في النوبة متعددة وربما يرجع ذلك الى احترامه لسلفه العظيم سنوسرت الثالث الذى أله كبطل غزا النوبة فقد أعاد بناء المعبد المتهدم فى حصن الدولة الوسطى الموجود فى « سمنه » بناء من الحجارة بعد أن كان مشيدا باللبن وكان المبنى الأصلي مخصصا للاله «خنوم» و«ددون» الاله الاعظم فى كوش . ولكن بعد إعادة بناء المعبد أضاف تحوتمس الى الالهين الموجودين فى قدس الاقداس سنوسرت الثالث ومن ثم أصبح المعبد مهدى للثالوث . وفى نقش على الجدار الغربى للمعبد من الخارج نرى تمثالا لسنوسرت الثالث فى مقصورة فوق مركب رملية وخلفها نرى تحوتمس الثالث يحتضنه الاله ددون . والنص الذى يتكلم فيه ددون يقول :

« ابنى المحبوب « من خبر رع » (تحوتمس الثالث) كم هو رائع هذا البناء الجميل الذى شيدته لابنى المحبوب ، ملك مصر العليا والسفلى « خع كاو رع » (سنوسرت الثالث) انك خلدت اسمه الى الأبد حتى يمكنك أن تعيش »

وتستكمل كلمات ددون على الجدار الآخر :

« انك جددت ولادته مرة ثانية على بناء للذكرى . انك قدمت له موائد قرابين متعددة من الفضة والذهب والبرونز والنحاس الاسيوى . ومكافأتك اذن هى حياة راضية مثل رع الى الأبد »

وخارج الجدار الغربى للمعبد نجد نص لوحة المقدمة :

« الاله الطيب « من خبر رع » (تحوتمس الثالث) لقد شيدته كبنائه لوالده ددون المهيمن على النوبة وملك مصر العليا والسفلى « خع كاو رع » (سنوسرت الثالث) مشيدا لهما معبدا من الحجر النوبى الأبيض

الفخم مع ان جلالته وجده اطلاقا من اللين . وكابني يحقق ما يتمناه والده
الذى ترك له القطين ورباه ليكون حورس سيد هذه الارض . قررت في
قلبي المقدس اننى يجب أن أشيد هذا المبنى ، وان أجعله عظيما كما أعطى
وان أديم بيته الى الأبد لأنه أصبح أعظم من أى اله . انه أعطانى الحياة
وكل الاستقرار والرضا مثل رع ، الى الأبد .

ومع انى تأليه سنوسرت حدث فى عصر يسبق عصر تحوتمس الثالث
الا أنه يبدو ان تخصيص المعبد المجدد فى سمنه كان أول اعتراف بهذا
التأليه . ولقد شيدت ابنية أخرى لتحوتمس الثالث فى النوبة العليا
(كوش) اذ شيدت معابد وحصون فى « قمة » « وأورونارتى » أيضا
وبعض أجزاء أساسيات معبد صولب العظيم الى جانب سمنه غالبا . ومن
الجائز أيضا أنه بنى معبدا على جزيرة « ساي » التى اختفت منذ زمن بعيد ،
كما أن هناك لوحة فى برقل تسجل ان حدوده الجنوبية وصلت حتى
« قرون الأرض » وهى منطقة جنوبى الجندل الرابع لازلنا نجهل مكانها .

أما فى كلابشة فى النوبة السفلى (واوات) فلقد كان يشاهد تمثال
« لتحوتمس الثالث » بالقرب من المرسى المؤدى الى معبد « أغسطس » موحيا
بأن الفرعون له جزء من المعبد المشيد قديما . كما انه من الجائز انه شيد
معبدا فى « قورطا » ، أو انه حتى منتصف القرن الماضى كانت هناك بوابة
نقش عليها اسمه . أما فى « عمدا » فقد بدأ العمل فى معبد الاله « رع حر
ماخيس » الذى انهاء ابنه امنحتب الثانى . كما انه نحت فى الصخر
معبدا فى « اليسى » خصصه لعبادة « حورس » و « ددو » و « سنوسرت
الثالث » . ونقشت لوحة من السنة الخمسين تظهره أمام حورس « ميعام »
والاله « ساتيس » . وفى قصر ابريم أربع مقصورات منحوتة فى الصخر
ترجع اثنتان منها الى عصر تحوتمس الا انها كانتا أصلا من عهد آخر
فالاولى كانت للحاكم نعى والثانية غالبا من أعمال حاتشبسوت ؛ ولقد
عثر فى « فرس » على قطع حجرية لمعبد بناه هناك . كما انه مسئول
عن الترميمات التى حدثت فى معبد حصن بوهن من عصر الملكة حاتشبسوت
ولقد سجل الحاكم نعى انتصار تحوتمس الثالث على لوحة كبرة ما زالت
واقفة فى فناء المعبد .

أما عصر « امنحتب الثانى » الذى خلف أباه فى عام ١٤٥٠ ق . م فكان
عصر سلام فى الجنوب ومن ثم اتجه الملك نحو آسيا وأولاهها كل اهتمامه ؛
وأنتم بناء معبد « عمدا » الذى بدأه والده وسجل عودته منتصرا من حملاته

في آسيا وتضحية السليبة الأمراء الأسرى على لوحة • وأنه شق ستة منهم على أسوار طيبة • أما الأمير السابع فنقرأ عنه في اللوحة :

« ثم المقلوب الآخر أخذ الى نباتا وعلق على أسوارها لاعلان انتصارات جلالته الى أبد الأبد في كل الأراضى وكل بلاد الزنوج » •

لقد أكمل «أمنحتب الثانى» عملية البناء الضخمة التى بدأها أسلافه فى النوبة ويبدو انه أكمل بناء المعبد الاول فى كلايشة • أما المقصورة الرابعة فى قصر ابريم فان أمنحتب الثانى هو الذى نحتها الا أن البعض يرون أن بانيها هو الحاكم « أوسرساتت » الذى خلف نحي المشهور • ولقد أكمل أمنحتب الثانى أيضا المعبد المشيد من اللبن الذى بناه أحمس الأول خارج الجدار الشمالى عند اطلال قلعة بوهن • وعثر على تمثالين راكعين لأمنحتب فى واد بالنجعه على بعد سبعين ميلا شمال الخرطوم ويستبعد أن يكون هذا هو مكانهما الأصلي •

ليس هناك أى دليل على نشوب حرب فى الجنوب حتى السنة الثامنة من حكم «تحتمس» الرابع الذى خلف «أمنحتب الثانى» فى عام ١٤٢٣ ق م وحسب نص منقوش على صخور جزيرة كونسو عند الجندل الأول وصلت أنباء ثورة فى واوات حركتها اغارة من كوش • ولا يبدو ان الخطر كان كبيرا لأن تنقل الجيش المصرى نحو الجنوب كان بطيئا متمهلا فقد كان الملك يقف فى كل معبد كبير يصادفه لتباركه الالهة وانتهى الأمر باخماد الثورة ورجوع الملك الى عاصمته مصطحبا عددا من الأسرى وضعوا فى معتقل عند معبده الجنائزى فى طيبة ولقد عثر على لوحة فى سور المعبد تقول :

« فرقة كوش الحقيرة التى أحضرها جلالته بعد انتصاراته » •

وكل ما نعرفه حتى الآن عن نشاط تحتمس الرابع المعمارى فى النوبة هو بناء صالة أعمدة أمام الأبنية الأساسية لمعبد عمدا • ومات الملك فى عام ١٤١٠ ق م • وخلفه ابنه أمنحتب الثالث الذى قام بحملة ضد القبيلة الزنجية فى أقصى الجنوب وكان هذا فى السنة الخامسة من حكمه وتوضح غزواته مدى حدود السيطرة المصرية فى السودان • اذ أن حملته كانت تبدو كأنها حملة تأديبية أكثر منها حملة حربية وكلف الحاكم «مرموزه» بتجنيد فرقة نوبية من مناطق بين باكى (كوبان) وميعام (عنييه) ولم تتأثر واوات بهذه الظروف الا فى أنها كانت توفر الرجال للتجنيد • ولقد سجلت هذه الحملة على لوحة فى سمنه تتضمن قائمة للأسرى والذين



الشكل ٣٨

منظر من مقبرة الوزير « حوى » فى طيبة

قتلوا ويدل العدد الضئيل المشار اليه على مدى الأهمية القليلة لهذه الحملة :

زئوج احياء	١٥٠	راس
حامل اؤواس	١١٠	راس
زنبيات	٢٥٠	راس
خدم الزئوج	٥٥	راس
أطفالهم	١٧٥	راس

الجملة ٧٤٠ راسا حية

٣١٢

أيدي (قتل)

١٠٥٢ راس مجموع القتل والاسرى .

وبينما كانت جهود أمنحتب الثالث الحربية فى النوبة موضع فخر الا ان البلاد كانت بائسة تحت رحمته وكان نشاطه المعمارى فى هذه المنطقة من امبراطوريته يدلى بالتقدير . فلقد شيد فى صولب أجمل معبد فى الجنوب بناء من الحجر الرملى على أساسات غير متقنة ومع ذلك فما زالت بقايا هذا المعبد مثيرة للاهتمام رغم حالته المتهدمة ولا بد انه كان عند بنائه يضارع معابد الاقصر العظيمة ولا تعجب اذا كان التصميم يرجع الى المهندس نفسه . كان الطريق الموصل الى المعبد يحده من جانبيه تماثيل جرانيتيه لكباش وأسدين يعتبران من الكنوز الفنية فى المتحف البريطانى ولقد عثر على هذه التماثيل فى برقل حيث نقلت عندما حكم الملوك الكوشيون مصر والنوبة فى الأسرة (٦٥٦ - ٧٥١ ق م) .

ولقد شيد أمنحتب الثالث معبدا لزوجته « تي » فى « سدنجا » شمالى صولب بنحو ثلاثة عشر ميلا ولم يبق منه الا عمود واحد .

لم تؤثر ثورة أمنحتب الرابع الدينية على النوبة كما لم تبدد الاضطرابات السياسية الهدوء الذى ساد مصر . ومن الأدلة على قوة قبضة المصريين فى الجنوب ان الحكام الكوشيين لم يحاولوا أن يستفيدوا من الظلام الدامس الذى خيم على حكومة الامبراطورية فى هذا العصر وقد شيد أمنحتب الرابع فى « سسبى » خلال سنواته الأولى قبل أن يغير اسمه الى اخناتون ، مجموعة من ثلاثة معابد ذات أساس واحد كونت نواة مدينة صغيرة مسورة ومقصورة مخصصة للاله الجديد آتون . وربما كان اخناتون هو الذى أسس مدينة جماتون فى « كاوا » أمام دنقلة وليس غريبا أن يكون هذا

الفرعون قد أنشأ تلك المستعمرة في وقت متأخر من حكمه إذ لم يعثر على أى بناء قبل عصر « توت عنخ آمون » الذى بنى معبدا صغيرا هناك .

وأثناء فترة الحكم القصيرة لحليفة اخناتون « سمنخ كارع » بقى الحال هادئا . فى النوبة تحت اشراف الحاكم تحوتمس واستمر الحال على هذا المنوال تحت حكم توت عنخ آمون أيضا الذى أصبح ملكا سنة ١٣٦٢ ق.م وكان « حوى » حاكم النوبة حينئذ قد بنى مقبرة فى طيبة تعتبر نقوش جدرانها مهمة جدا لأنها تصور مراسيم تقليده حاكما كما تصور جزية الجنوب بالتفصيل . ونعرف من هذه المناظر والنصوص التى تصاحبها حدود المنطقة التى كانت تحت اشراف الحاكم . ويمكننا أن نقدر المسئوليات الواسعة لحامل هذه الوظيفة ونفوذه ، هذا النفوذ الذى سيكون له أثر فعال فيما بعد مع خلفاء حوى . ان مراسيم تقليد المنصب تظهر حوى فى مصاحبة رجال البلاط أمام توت عنخ آمون الجالس على العرش ويقف أمامه موظف يعرف برئيس البيت الأبيض . ويوجه الكلام لحوى قائلا : « هذا هو ختم فرعون ، (الحياة ، الرخاء ، الصحة) الذى أعطى لك المنطقة من نخن الى نباتا » .

ان المسافة بحرا من نخن ، الكاب الحالية ، شمال الجندل الاول ، الى نباتا فى منطقة دتقلة فى السودان أكثر من ثمانمائة ميل . وأعطى حوى خاتم الوظيفة الذى يلقب « ابن الملك حاكم كوش » . ثم هناك منظر آخر يصور حوى فى احتفال مع عائلته وموظفين - والنص الذى يعلو المنظر يقول : « الآتى ، مكرم ، من البلاد بعد أن نصب أمام الاله الطيب ليكون ابن ملك وحاكم البلاد الجنوبية ، حوى » .

أما فى مناظر الجزية فهناك لمحة غريبة وهى ظهور حاكمين أحدهما حوى والآخر أخوه « أمنحتب » الذى يدعى أيضا ابن الملك حاكم كوش وليس غريبا أن يكون للحاكم نائب ولكن الغريب أن يلقب النائب « ابن الملك » أيضا . ويمكننا أن نستخلص من هذا ان الاراضى الجنوبية كانت واسعة جدا للدرجة انها احتاجت لحاكمين أحدهما لواوات والآخر لكوش .

وفى المنظر الأول لتقدمة الجزية نرى الملك جالسا على العرش والجزية أمامه مكونة من سبائك ذهبية وفضية وأوان من الذهب والفضة ، وعربة ودروع وأثاث . أما المنظر الثانى فيصور الحاكم وهو يستقبل ثلاثة

صفوف من النوبيين وصفا من المصريين (١) ومن الطريف ان نلاحظ ان الرؤساء النوبيين يرتدون الرداء المصرى مع اننا نراهم فى المناظر المماثلة فى مقبرة الوزير « رخميرع » من عصر تحوتمس الثالث ، يرتدون لباسهم الوطنى . وفى هذا دليل على أن تمصير الجنوب تقدم كثيرا فى مدى مائة سنة ومن بين التقدمة التى أحضرها الرؤساء النوبيون ابتكار متعددة الألوان ووراء كل هذه المناظر ست سفن كتب فوقها : « الوصول من كوش حاملين هذه الجزية الطيبة من أحسن وأبقى ما فى البلاد الجنوبية . رسو ابن الملك حاكم كوش حوى عند مدينة الجنوب (طيبة) ، والمنظر الأخير لمجموعة من مناظر الجزية يصور حوى ينتظر متكئا على عصاه تصاحبه عائلته ليستقل مركبا منبسطة الشراع مهيأة للرحيل الى النوبة . وهناك سفينة أخرى ليست معدة للرحيل وضعت عربته وجياده فوقها ومن الواضح أن أعماله الرسمية فى العاصمة انتهت فقد كان الحاكم يتأهب للرحيل جنوبا .

ولقد استمرت عمليات البناء فى النوبة تحت اشراف حوى فشيده لسيده مدينة صغيرة مسورة ومعبد فى فرس سماه « سحتب - ائتر » « مصالحة الآلهة » وواضح انه كان يحيى ذكرى صلح توت عنخ آمون مع الديانة القديمة وانتهاء الآتونية .

والى الجنوب من أبو سمبل على بعد بضعة أميال فى « عدة » نجد مقصورة « باسر » الصخرية حاكم خليفة توت عنخ آمون ، آى ، الذى كان آخر ملك فى الأسرة ، وعلى جدرانها نرى منظرا لملك ربما يكون إى يتعبد أمام آمون ورع وبتاح ومنتو وساتيس .

(١) اللفظ الأعلى يصور ثلاثة أمراء نوبيين ، اثنين راكبين وثالثا منبطحا . ولم يكتب إلا اسم واحد من هؤلاء الرجل وهو « حكانفر » أمير « ميعام » الذى عثر على مقبرته فى « توشكا » وقامت بالتنقيب سلفينيار بيل . (انظر ص ٩٣) والمجموعة تضم أميرتين نوبيتين أحدهما تركب عربة يجرها ثور (شكل ٣٨) .

الفصل السادس

الأسرة التاسعة عشرة

ان كان قد حدث أى ضعف فى النوبة فلا شك انه كان نتيجة لسوء النظام الذى ساد فترة حكم الملوك الأربعة السابقين فلقد أعاد «حور محب» الامور الى مجاريها بسرعة وكان قد اعتلى العرش فى عام ١٣٤٩ ق م٠ ومع ذلك فالتقهقر كان قد بدأ ولم تعد مصر تقبض على البلاد بسهولة كما كانت فى عصر امنحتب الثالث ٠ ويبدو ان حور محب زار النوبة مرتين، مرة عندما كان قائدا للجيش قبل أن يغتصب العرش ومرة ثانية بعد ان أصبح فرعوناً ومع ان هذه الحملة سجلت على جدران مقصورة فى «سلسلة» الا أن هذه الحملة لم تكن أكثر من تقدم ملكى لينال المغتصب رضا شعبه فى الجنوب ٠ ولم يعرف أحد أفضل منه القيمة السياسية للمحاربين الكوشيين فهم يجندون بأعداد ضخمة فى الجيش المصرى والاحتفاظ بولائهم غاية فى الاهمية له ٠ وبقي باسر ، الذى كان يحكم منذ العصر السابق ، فى منصبه مع حور محب ولذلك فانا نعتقد ان الفرعون الجديد قد تأكد من ولاء الادارة المصرية فى النوبة .

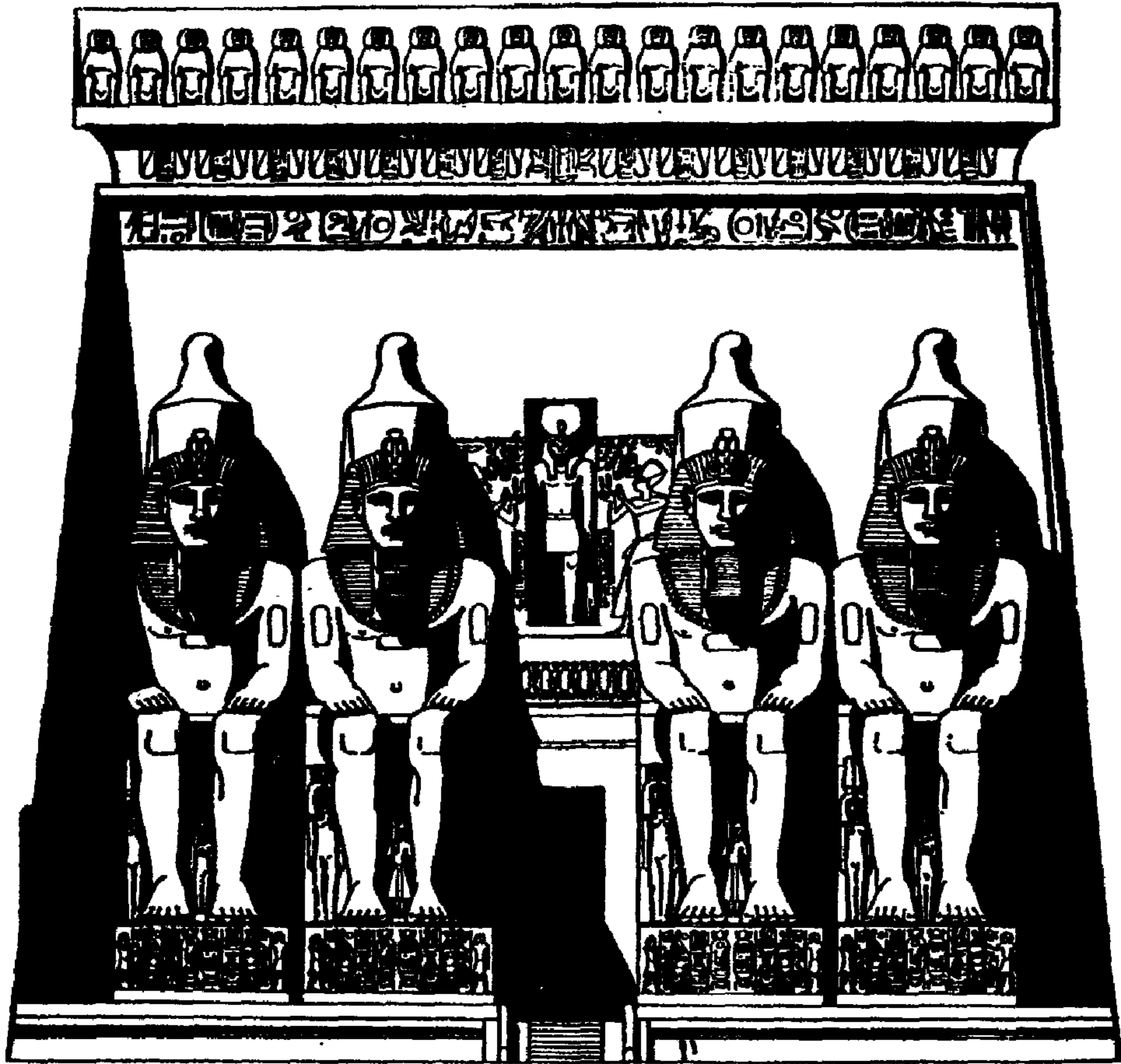
وأثناء الحكم القصير لرمسيس الاول الذى خلف حور محب ، لم تسجل أية حروب فى النوبة ، وقد سجل ماعرف من جهوده هناك على لوحة

عشر عليها شمبليون في معبد حاتشبسوت في بوهن . وتسجل اللوحة هباته للمعبد وتتكون من زيادات في عدد الكهنة وعبيد المعبد اناثا وذكرورا قد تأكد من ولاء الادارة المصرية في النوبة .

أما الملك التالي سیتی الأول ، الذي اعتلى العرش في عام ١٣١٣ ق م فلقد وجه عنايته الى العمل في مناجم الذهب النوبية . وكان الانتاج في وادی علاقى قليلا بسبب عدم وجود الماء . وليزيد هذا الانتاج حفر بئرا في المنطقة لم تصل الى مستوى الماء ، ولكن خليفته رمسيس الثانى هو الذى جنى ثمار تلك الجهود . ولقد وصفت هذه اللوحة المشهورة في كوبان ، ولقد شيد سیتی الأول مدينة في عمره وكبرت هذه المدينة حتى أصبحت مركز الحكومة في كوش ومقر نائب الحاكم . ليس لدينا دليل مادی عن جهوده الحربية غير انه ربما قام بحملات تأديبية غير ذات قيمة لانها لم تسجل ضمن مناظر حروبه على الجدار الشمالى الخارجى لصالة أعمدة معبد الكرنك في طيبة . ويرى البعض انه هو الذى بدأ في نحت أعظم بناء في مصر الفرعونية الا وهو معبد أبو سمبل والدليل على ذلك جزء داخلى لأحد الأبواب نقش عليه نص مؤرخ من السنة الأولى من حكم خليفته رمسيس الثانى ويظهر ان جزءا كبيرا من الداخل كان قد تم نحته عندما كتب النص . وهناك مناظر لجهود حربية كثيرة في النوبة في عصر رمسيس الثانى ولكن لم تسجل عليها التواريخ أو المناطق التى نشبت فيها هذه الحروب الى درجة ان الاحساس العام هو أن هذه الحملات خيالية . اذ يبدو انه كان من المهم لفرعون أن يكون له انتصارات في النوبة لتوازن انتصاراته في آسيا . ولا شك ان حملات تأديبية على الجنود الجنوبية للامبراطورية كانت مهمة من حين الى آخر ولكن السكون والسلام قد سادا الاراضى الجنوبية عامة والدليل على ذلك هو النشاط المعمارى الواسع الذى كان لا يمكن أن يوجد لو ان بلاد النوبة كانت في حرب مستمرة .

واتجه اهتمام رمسيس في السنة الثالثة من حكمه الى تنمية مناجم الذهب وخاصة مناجم « أكيتا » التى تشبه مناجم وادی علاقى . وحسب النص الذى عشر عليه في كوبان التى تقع على الطريق المؤدى لهذه المناجم كان الملك في منف عندما :

« جلس جلالته على عرش كبير من الالكتروم مرتديا التاج ذا الريشتين يعد البلاد التى تعطيه الذهب ويدبر الحطط لحفر الآبار فى الطرق الخالية من الماء بعد ان سمع أن الذهب كثير فى بلاد اكيتا بينما الطريق هناك وعمر لا ماء فيه . واذا ذهبت بعض القوافل لغسل الذهب فان نصفهم هو



الشكل ٣٩

محاولة تصميم فكرة المهندس المصري القديم في واجهة
المعبد الكبير في « أبي سمبل »

الذى يصل فحسب ، لأنهم يموتون من العطش فى الطريق هم ودوابهم التى توصلهم . والمياه التى يحملونها فى القرب لا تكفيهم للذهاب والاياب ، ومن ثم لم تكن هناك حصيلة ذهب من هذه البلاد ، بسبب عدم وجود الماء .

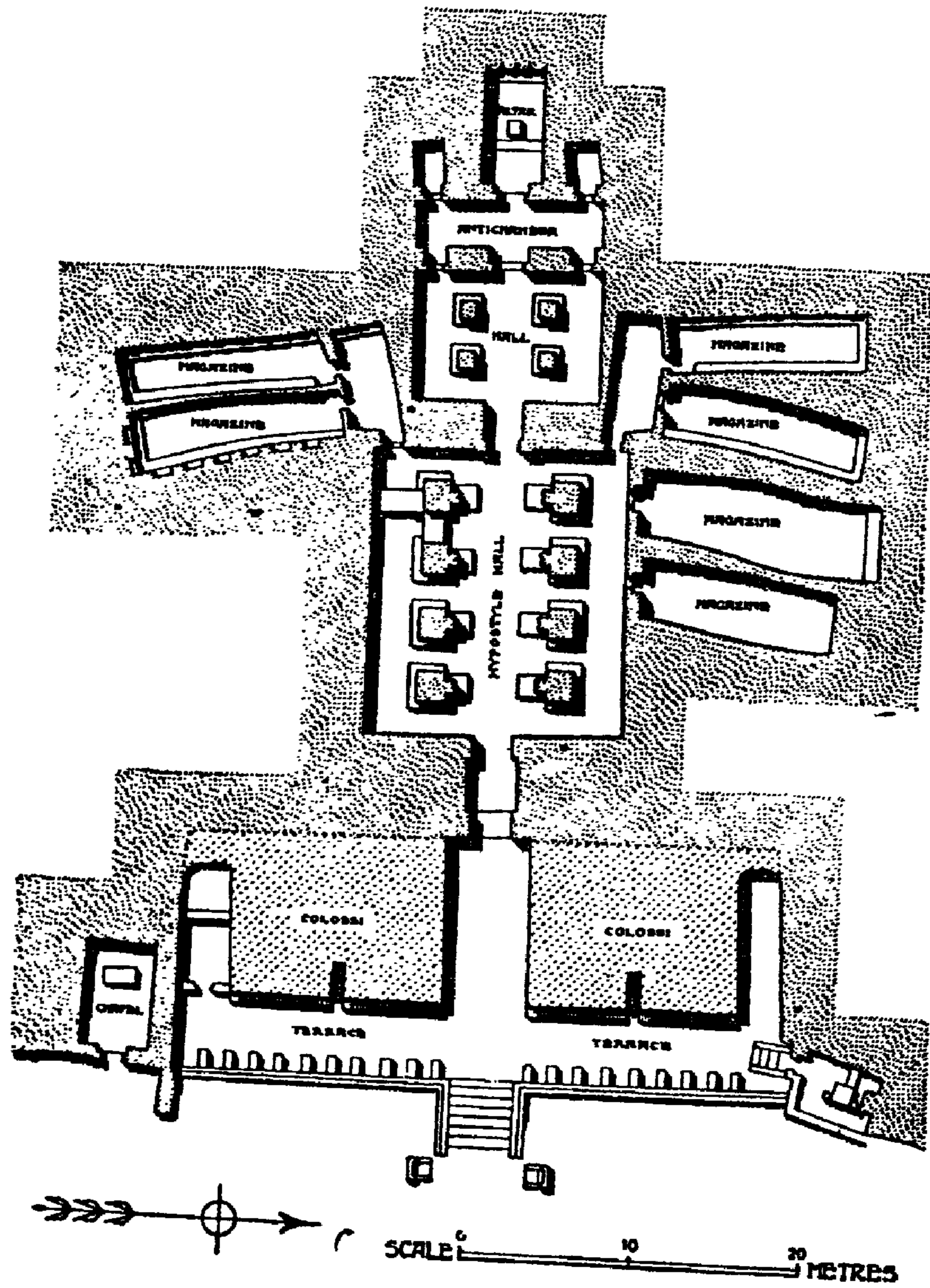
وعندما استدعى الملك بلاطه للتشاور قال له حاكم كوش :

« أما عن بلاد اكيثا فلقد كانت تنقصها المياه منذ أيام الاله ، انهم يموتون عطشا وكل ملك سابق أراد أن يحفر الآبار هناك ولكنه لم يفلح . ولقد عمل بالمثل الملك « من مارع » (سيتى الأول) وأمر بحفر بئر عمقها ١٢٠ كوبيت هذه المرة . انها مهجورة على الطريق لأنها لم تجلب ماء . »

أمر رمسيس بعد ذلك أن يعيدوا المحاولة فى بئر والده وبلغه ، فيما بعد ، عن طريق خطاب من الحاكم أن المحاولة كانت ناجحة . ولقد ضاعت معالم هذه البئر ومن الطريف أن نتصور ان إعادة كشفه يضمن إعادة فتح مناجم وادى علاقى . فمن المعروف انها كانت لا تزال منتجة ولكنها غير اقتصادية لعدم وجود الماء .

كانت جهود رمسيس الثانى المعمارية فى النوبة واسعة مثل ما كانت فى مصر فقد شيد الى جانب تحفته فى أبو سمبل معابد فى بيت الوالى وجرف حسين ووادى السنبوع وعكشا والدر فى النوبة السفلى (واوات) وفى عمرة فى النوبة العليا (كوش) ومن الجائز أن تكون هناك عمائر أخرى فى النوبة العليا لم يكشف عنها بعد لأن هناك مناطق واسعة لم ينقب فيها رجال الآثار .

ان معبد أبو سمبل ، أكبر معبد منحوت فى الصخر فى العالم ، ويعتبر آية فى العمارة والهندسة القديمة . (شكل ٣٩) فقد نحت فى قطعة صخرية على الضفة الغربية للنيل أمام القرية الحديثة « فارك » فى موضع غاية فى الجمال ولكن لم يكن هذا هو السبب الوحيد فى اختيار المكان فهناك أدلة على أن التلال كانت لها أهميتها وقدسيتها قبل بناء المعبد . ان فارك على الضفة الشرقية من النهر تقع فى منطقة واسعة من الاراضى المزروعة وليس هناك من سبب يجعلنا نعتقد ان الأرض كانت على حال آخر فى العصور القديمة عندما كان موقع المدينة (مواجهها للمعبد) وبالقرب من المعبد كانت هناك مدينة صغيرة تعرف « بابشك » ، لذلك يمكننا أن نستخلص ان المعبد كانا يقعان فى منطقة سكنية فى عصر رمسيس الثانى . وعلى أية حال فمن الصعب ان نتصور لماذا توجد مثل



الشكل ٤٠
معبد « أبو سمبل » الكبير

هذه العمائر الضخمة فى منطقة بعيدة فى البلاد ، ولذلك تعليلان : إما ان يكون تل أبو سمبل له قدسية ما ، أو ان الفرعون اراد أن يبهـر جيرانه فى منطقة قريبة من الجندل الثانى فيريهم قوته وثرائه . وإذا كان هذا هو السبب فانا واثق انه نجح فى ذلك . ولقد اختلفت آراء الفنانين والمهندسين والأثريين فى قيمة المعبد ككنز فنى اذ وصفه أحد رجال الآثار المعروفين « بالمارد البغيض » ولكن ، آخرين ، خاصة الذين رأوه عدة مرات ، اعجبوا به واعتبر كثيرون واجهته الكبرى احلى مظاهر قوة وعظمة مصر القديمة (شكل ٣٩) .

وكما ذكرنا من قبل ، فهناك أدلة على أن أصل الفكرة فى تشييد معبد فى أبى سمبل كانت لسيىتى الاول ولا شك ان جزءا كبيرا من الداخل كان قد نحت قبل أن يعتلى رمسيس العرش سنة ١٣٠١ ق م ولكن الى أى مدى كان سيىتى مسئولاً عن الشكل الأخير وخاصة الواجهة هذا مالا نعرفه . وكالعاده لا يرجع رمسيس أى فضل لمن سبقوه . وعلى أية حال فلا بد انه عندما تكفل به ، كان العمل متقدما وجرت العادة فى العمائر المنحوتة فى الصخر أن تنتهى من الواجهة قبل أن ينحت الداخل وعلى ذلك فمن الجائز ان التماثيل الضخمة الأربعة التى تعتبر أهم ميزة فى البناء كانت لسلف رمسيس . وعلى أية حال فإن الفخر كله يرجع اليه لانشائه هذا البناء العظيم وخاصة انه فى منتصف عملية البناء نراه يصدر أوامر لموظف يدعى « رمسيس استاهاب » لبناء المعبد . ونقرأ فى جزء من هذه اللوحة ما يلى :

« أنظر ، انا جلالتى (له الحياة ، الرخاء ، الصحة) فهو متيقظ ليجد كل فرصة سانحة ليقوم بأعمال جليلة لوالده حورس سيد « هـى » (اسم لمنطقة مجاورة لأبى سمبل) مشيدا له بيتا سيظل عشرة آلاف سنة بعد نحته فى جبل « هـى » الذى لم يفعله أحد من قبل الا ابن رع آمون سيد . . ان قوته فى كل البلاد . تأتى له بعد عدد كبير من العمال بقوة السيف فى عديد من البلاد .

ان القول بأن أحدا لم ينحت الجبل الا ابن امون سيد . . ربما يرجع الى سيىتى ولكن للأسف ان آخر الجملة محو فلا يمكننا أن نتأكد من هذه النقطة وعلى أية حال فان لها معنى مع انها تعد غريبة إذا كانت ترجع الى والده سيىتى .

وحسب النص قام أسرى الحرب ببناء المعبد وأنهوا عملهم قبل سنة ١٢٥٩ ق م وكرس هذا المعبد لعبادة «رع حر ما خيس» مثل معابد عديدة

فى النوبة • وهذا الاله قد اندمج مع الشمس ويصور عادة على هيئة بشرية ورأس صنقر مرتديا قرص الشمس • والغرض من المعبد ومكانه هو عبادة الشمس فى الفجر وكانت تدخل الشمس قدس الأقداس فتضىء الداخل فى أوقات معينة من السنة فى الفجر • ولا يزال كما كان الحال قديما ، تجزية لا ينساها الزائر حينما يقف فى البهو الأمامى فى الفجر ويراقب أشعة الشمس وهى تكشف تدريجيا عن روعة هذه التحفة المعمارية ، وأخيرا تدخل الى قدس أقداس إحدى العقائد القديمة ويقدر روعة هذا المنظر اليوم فلا بد وأنه ليس الا ظلالا لما كان قديما عندما كانت تلك النقوش على جدران ملونة بالألوان البراقة التى كان الفنان المصرى القديم موفقا فى اختيارها •

أما أهم ملامح واجهة المعبد فهى التماثيل الأربعة الضخمة للملك التى نحتت فى صخر التل • وهذه التماثيل الجالسة ، اثنان على كل جانب من جوانب المدخل ترتفع أكثر من ٦٥ قدما وتمثل الملك رمسيس مرتديا التاج المزدوج لمصر ، وعلى جانبيه كل تمثال وبين الأرجل نجد تماثيل للملكة نفرتارى وبعض الأطفال الملكيين ومع أنهم مثلوا بحجم كبير إلا ان شكلهم يبدو صغيرا بالنسبة للتماثيل الضخمة • وكل من المجموعات الأربعة تقف على قاعدة عالية نقش عليها خرطوش رمسيس ومجموعة من الأسرى الآسيويين والزنوج • أما العروش التى على شكل صندوق والتى تجلس عليها التماثيل فقد نقشت بالمجموعات التقليدية التى تمثل اتحاد الأرضين والواجهة التى تكون المنظر الخلفى للتماثيل الأربعة فقد نحتت على شكل صرح ذى كورنيش نقش عليه صف من القروم مرفوعة الأذرع الى أعلى على هيئة تعبد لشرق الشمس • وفوق المدخل نجد تمثالا لاله الشمس «رع حور ماخيس» له رأس الصقر الذى خصص له المعبد •

ويوصل المدخل الى بهو كبير به صفان من أربعة أعمدة مربعة تتكىء عليها تماثيل ضخمة للملك واقفا مرتديا التاج المزدوج وحاملا العصا والمذبة ولقد كسيت الأعمدة وجدران البهو الذى يصل ارتفاعه الى ٣٠ قدما بمناظر ونصوص دينية وأعمال الملك الحربية فى نضاله ضد الحيثيين فى سوريا والكوشيين فى السودان أما السقف فزين بمناظر تقليدية وهى الخرطوش والعقاب ذى الجناحين الممدودين •

ونجد فى الجدارين الشمالى والغربى مداخل تؤدى الى مجموعة من الحجرات كانت تستعمل غالبا كمخازن للكهنة فمناظر الجدران كلها دينية •

أما الباب الأوسط في الجدار الغربي فيوصل إلى بهو صغير تحمل سقفه أربعة أعمدة مربعة والمناظر كلها في هذا البهو ذات طابع ديني . ونصل بعد ذلك إلى غرفة صغيرة توصل إلى قدس الاقداس الذي يحوى ثلاثة أبواب في الجدار الغربي اثنان على جانبي الدار توصلان إلى حجرات غير منقوشة وأما الوسطى والتي تستند إلى محور المعبد المستقيم فتوصل إلى قدس الاقداس . وفي الجدار الغربي لقدس الاقداس نجد أربعة تماثيل جالسة تحت في الصخر ، وهي تماثيل معبودات المعبد : بتاح ، آمون ، رمسيس نفسه ورع حارماخيس وفي وسط الحجرة نجد أمامهم مائدة قرابين غير منقوشة وكانت الضحايا والقرابين تقدم عليها عندما كان نور الشمس المشرقة يدخل في الفجر ولقد هشم المسيحيون غالبا وجوه تماثيل الآلهة الأربعة . ومع ذلك ففي ضوء الفجر الخافت لا زالت هذه التماثيل تبدو رائعة لمن ينظر إليها ولقد كتب « ارثر ويجال » منذ أكثر من خمسين سنة : « لا يشعر الإنسان في أي وقت آخر وفي أي مكان آخر من مصر بقيمة روح المصري القديم في العبادة » .

وعلى مسافة قريبة ، شمال المعبد الكبير ، نحت رمسيس معبدا صخريا صغيرا للملكة نفرتاري خصصته لعبادة الآلهة حاتحور ومع أن عظمة المعبد الكبير قد حُجبت هذا المعبد إلا أنه يجب وصف مبنى الملكة كأحد العمائر ذات الجمال الرائع في هذا العصر في النوبة . ويوجد في هذا المعبد نصان أحدهما في الصالة الأساسية والآخر على الواجهة . ونقرأ في الأول :

« شيد رمسيس كآثر لزوجته الملك الكبرى نفرتاري ، محبوبة موت — منزلا منحوتا في جبل النوبة النقي من الحجر الرملي الأبيض كعمل أبدى » .

أما النص الثاني فجاء فيه .

« رمسيس مري آمون ، محبوب آمون ، مثل رع إلى الأبد ، شيد منزلا من أبنية ضخمة لزوجته الملك الكبرى نفرتاري ذات الوجه الجميل . ان جلالته أمر بأن يبني بيت في النوبة منحوت في الجبل . ولم يصنع مثله أبدا من قبل » .

ان العبارة الأخيرة « لم يصنع مثله من قبل أبدا » يجب أن تؤخذ كتصريح تقليدي بأن المعبد الصغير لم يشيد بالطبع قبل معبد رع حر ماخيس الذي ، كما قلنا من قبل بدأ في بنائه سيتي الأول غالبا .

كنا نود أن نعرف ان كان التصميم المعماري للمعبد من عمل

المهندس نفسه لأن النحت والمناظر تبدو كأنها من عمل الفنان نفسه . أن
الواجهة على شكل بيلون طولها ٦٠ قدم وعرضها ٤٠ قدما وكانت تنتهى
أصلا على شكل الكورنيش وعلى كل جانب من جانبي المدخل المؤدى الى
الداخل نجد ثلاث مشكاوات تقف فيها تماثيل ضخمة يصل ارتفاعها الى
٣٣ قدما وهى للملك والملكة فى مجاميع كالآتى: على الجانب الشمالى للمدخل
نجد رمسيس مرتديا التاج المزدوج ثم نفرتارى مرتدية قرص الشمس
والقرون وريش اريس ثم رمسيس مرتديا التاج «اتف» . أما فى الجانب
الجنوبى فنجد رمسيس مرتديا التاج الأبيض ثم نفرتارى مرة أخرى مرتدية
تاج اريس ثم رمسيس مرتديا التاج الأبيض . والى جانب كل
تمثال نجد تماثيل صغيرين يمثلان طفلين ملكيين : أبناء أو أقرباء الملك من
الأمراء وبنات أو قريبات الملكة من الأميرات . أما المدخل فيوصل الى صالة
أعمدة حمل سقفها على ستة أعمدة مربعة زينت كل منها من الأمام بمنظر
الشخصيخة يعلوها رأس الالهة حاتحور . أما رسوم الجدران فهى تمثل
الملك مصاحبا الملكة يضحيان بزنجى أمام آمون ، وليبى أمام « رع حار
خيس » هذا بالإضافة الى المناظر الدينية الأخرى . أما جدران الصالة
العرضية وقدس الأقداس فقد نقشت بمناظر دينية تملأ الجدار الغربى فنقش
عليه منظر بارز للالهة حاتحور على هيئة البقرة ويقف رجل ربما يكون
الملك تحت رأسها . أما على الجدار الشمالى للمقصورة فنرى الملكة فى حضرة
الالهات «موت» و «حاتحور» تقدم لهم البخور وعلى الجدار الجنوبى نرى الملك
يصب مياه التطهير أمام تماثيل له ولنفرتارى .

ولقد شيد رمسيس الثانى معابد مهمة أخرى فى النوبة السفلى هى :
معبد بيت الوالى ، ومعبد جرف حسين ومعبد السبع والدركلها نحتت
فى الصخر جزئيا ، ومع انها رديئة الصنع الا أن مناظرها ونصوصها مهمة
بالنسبة لتاريخ النوبة .

إن معبد «بيت الوالى» مكون من فناء ثم صالة سقفها محمول على عمودين
مربعين ثم قدس الأقداس ذى مشكاة فى الجدار الغربى تحوى بقايا ثلاثة
تماثيل منحوتة فى الصخر . ومع أن هذه التماثيل صعب التعرف
على شخصيتها الا أننا نجزم انها تمثل الملك مؤلها ومعه الهان آخران
خصص المعبد لهما . وأهم ما يسترعى النظر فى هذا المعبد هو مجموعة
المناظر المنقوشة على الجدران الجانبية للفناء الخارجى وهى تمثل الحروب
ومع ان الحملات النوبية والأسبوية لم تكن أكثر من مظاهره حربية الا ان
هذه المناظر لها قيمتها ليس فقط من أجل مناظر القتال الواقعية ولكن

لتصوير الجزية النوبية أيضا • وهذه المناظر ذات الألوان الزاهية يمكن رؤيتها على جدران الصالة المصرية الرابعة في المتحف البريطاني من عمل «جوزيف بونومي» منذ عدة سنوات • وكان قد صنعها قبل أن يضع الجص • وعندما أزالها لم يترك أى أثر للألوان على الأصل •

والمنظر الأول يمثل هجوما على قرية نوبية فى أقصى الجنوب والنص الذى يعلو العدو يقول : « الذين يتعدون على حدوده » ويعنى ذلك انها جملة تأديبية عند الحدود • ونرى رمسيس فى عجلته الحربية يتبعه أميران هما «أمون حر أون امف» والأمير «نجاع ام واست» يهجمون على مجموعة من الزنوج المسلحين بالاقواس والسهام وهم يقرون الى معسكرهم فى وسط النخيل • ويحمل محاربان زنجان زميلهما الجريح ونرى النساء والاطفال يتدافعون فى ذعر ويلى ذلك منظر للملك جالسا فى خيمة على عرشه يتقبل هبات كوش يقدمها له نبلاء مصريون من بينهم حاكم كوش «أمون أم اوبت» ابن الحاكم السابق «باسر» • ويكافئ «أمون أم اوبت» بسلاسل ذهبية جزاء لخدماته • ان الجزية المتنوعة مكونة من خواتم ذهبية واثاث من الابنوس والعاج وجلود فهود وأقواس وبخور ودروع وعاج وأبنوس وريش نعام وبيض نعام • علاوة على ذلك نجد حيوانات أخرى حية من بينها قروود وفهود وزراف ووعول وكلب وثيران ذات قرون منحوتة ونعامة • ولكن الهدية الثمينة كانت منضدة بديعة يتدلى منها جلود ومزينة بالزهور ويحملها الحاكم المصرى بنفسه • ولقد رافق الجزية أسرى زنوج من بينهم سيدتان احدهما تحمل طفلها فى منلة • وضور أيضا منها منظر لمجموعة من الجنود النوبيين المسلحين بالحراش كدليل على انهم استخدموا فى الحملات التأديبية ضد بلادهم • وكشاهد أيضا على اطمئنان الحكم المصرى فى الجنوب حينئذ •

ولقد بنى معبد جرف حسين فى أواخر حكم رمسيس تقريبا لأن الذى قام بالعمل فيه «ستاو» الذى كان آخر حكامه • ولقد خصص هذا المعبد للاله بتاح وصمم على نمط معبد أبو سمبل ولكنه بنى بطريقة خشنة وليس له أى أهمية معمارية • أما الجزء المنحوت فى الصخر فنجده عبارة عن فناء مفتوح يحيط به على جوانبه الثلاث ممر مسقوف ذو أعمدة على شكل زهرة اللوتس على الجانب الشرقى وأعمدة مربعة ترتكز عليها تماثيل ضخمة لرمسيس فى الجانبين الشمالى والجنوبى • ويحمل سقف الصالة أعمدة مربعة ترتكز عليها تماثيل ضخمة للملك على هيئة أوزيرية • أما قدس الأقداس فيحوى تماثيل منحوتة ، فى حالة يرثى لها للاله بتاح

ورمسيس مؤلها وبتاح تاتنن وحاتور • أما نقوش المعبد ونصوصها فهي ذات طابع ديني وليس لها أى أهمية تاريخية •

وبنى معبد السبع المخصص «لرع حار مخيس» و «آمون» على نمط معبد «جرف حسين» نفسه • ولكن بناءه ظل محفوظا فى حالة جيدة أكثر من معبد جرف حسين • غير أن صناعته لم تكن جيدة ويمكننا أن نرجع بناءه الى الفترة الأخيرة من حكم الملك • ويبدأ المعبد بطريق على جانبيه تماثيل لأبى الهول وتمثالان ضخمان للملك وهذا الطريق يوصل الى مدخل على شكل بيلون ينتهى الى فناء مفتوح كبير على جوانبه ممرات ذات أعمدة مربعة يرتكز عليها تماثيل للملك • ثم نصل الى الجزء المنقور فى الصخر والمكون كالعادة من صالة الأعمدة ذات السقف المحمول على اثنى عشر عمودا مربعا أمام ستة منهم نجد تماثيل ضخمة للملك • أما الحجرات الداخلية وقدس الاقداس فقد زينت بمناظر ذات طابع ديني وعلى الجدار الشرقى من قدس الاقداس نجد تماثيل منحوتة فى الصخر لآمون ورمسيس و«حار مخيس» • أما معبد «الدر» فقد نقش جدرانها برسم حملات رمسيس الثانى المهمة فى النوبة وهى تشبه رسوم معبد «بيت الوالى» فتظهر الملك مهاجما الكوشيين المنعورين الذين يهرعون الى معسكراتهم فى التلال وبين الأشجار • والجرى يحملهم زلاؤهم الى المعسكرات لينقلوا نيا الهزيمة لنسائهم • كل شئ يجرى فى ذعر وفرع حتى القروء والثيران التابعة للزئوج نجدها تجرى بينما يحيط المصريون بالأسرى • وهذه المناظر المصورة على الجدار الشرقى لصالة الأعمدة تصف الحوادث نفسها التى صورها فنان آخر فى معبد «بيت الوالى» •

ومن الملاحظ ان النوبة السفلى لم تذكر مطلقا فى جميع تسجيل تلك الحملات (واوات) كعدوة ومن الواضح ان هذه الأرض كانت تعتبر جزءا من مصر • وكان أهلها متمصرين الى حد كبير وكان لزعمائهم ونبلائهم أسماء مصرية • وغير ذلك فقد ازدادت النوبة فى أهميتها وبالنسبة للسياسة الداخلية فى مصر • فلقد كانت تزود مصر بالجيش المشهور بالبسالة كما كانت تزودها خاصة بالذهب • وقد أصبحت وظيفة حاكم كوش أقوى وظيفة فى الدولة ، وكما سنرى فيما بعد ، أصبح الذين يتولون هذا المنصب من القوة بحيث أمكنهم هز العرش نفسه •

وعندما مات رمسيس الثانى فى عام ١٢٣٤ ق.م خلفه ابنه الثالث عشر «مرن بتاح» ولقد وجه بغزوات الليبيين وسكان البحر الأبيض فلم يبق عنده الوقت الكافى ليتجه نحو النوبة ولكن هناك لوحة فى معبد

عمدا تسجل حديثا وجهه لرعاياه في الجنوب مطالباً بمزيد من جهود
حربية بعد الانتهاء من الحروب الليبية . ولكن غالباً لم تكن الا حملة من
الحملة التي تظهر القوة على الحدود الجنوبية . وبموت «مرن بتاح» سنة
١٢٢٢ ق.م حدثت منازعات بين أفراد الأسرة المالكة تشبه منازعات
التحامسة في الاسرة السابقة ولا زال ترتيب التوالى موضع جدل . ويبدو
ان « امون امسيس » اغتصب العرش وان الخلفاء الشرعيين « سبتاح »
وزوجته الملكة «تاوسرت» قد استرجعوه بمساعدة النوبيين، ولقد عين موظف
اسمه «سيتى» كحاكم كوش وفي الوقت نفسه رشا موظفين في الادارة
النوبية ليساعدوا في تعيينه حاكماً .

هذه الحوادث كلها سجلت على لوحة أقامها « نفرحور » في معبد
حاتشيسوت في بوهن :

« السنة الاولى للاله الطيب «رمسيس سبتاح» معطى الحياة ، المدح
لكا الخاصة بك يا حورس ، سيد « بوهن » . فليهب الحياة والرخاء
والصحة ولياقة للخدمة ، وفضل وحب لكا رسول الملك في كل
بلد ، كاهن اله القمر « جحوتى » الكاتب « نفرحور » ابن « نفرحور »
كاتب ارشيف فرعون (الحياة الرخاء والصحة) عندما جاء ومعه مكافآت
لموظفى النوبة وليحضر ابن الملك في كوش ، ستى ، فى بعثته الاولى .

ولقد بقى الحاكم الجديد مخلصاً فى منصبه « رئيس بلاد ذهب آمون،
كان عليه أن يشرف على أهم مصادر هؤلاء الكهنة الأقوياء وبالتالي مكتسباً
مساندتهم للملك ولنفسه وعندما مات سبتاح خلفه سيتى الثانى الذى
يمكن اعتباره هو الحاكم القوى . وعلى أية حال فلقد انتهى حكم سيتى
الثانى عصر الاسرة التاسعة عشر . وبذلك اقترب اليوم الذى يتدخل فيه
الحاكم وجيوشه النوبية فى الشئون المصرية .

الفصل السابع

الأسرة العسرون

توافر « ست نخت » ، الذى أصبح ملكا فى عام ١١٩٧ ق م ، على أرجاع الأمور الى مجاريها داخل البلاد بعد فترة القلق التى كانت سببا فى انتهاء الأسرة السابقة . ولذلك لم يهتم بالنوبة ولم يعثر على أثر أو تسجيل من عصره فى الجنوب . أما خليفته رمسيس الثالث فلقد قام بإظهار قوته فى الجنوب عن طريق حملات حربية بسيطة سجلت على جدران معبدته فى مدينة هابو ، ولم يسجل نص مكتوب مع هسده المناظر الا أسماء المناطق الجغرافية التى استولى عليها ولقد كتبت داخل شكل بيضاوى يعلوه الجزء العلوى لأسير مربوط .

ولا نعرف بالتأكيد ما تبقى من كوش فى أيدي المصريين فى هذا العصر ولكن ما نعرفه هو أن قوة فرعون فى الجنوب بدأت تتقلص . ونحن نشك فى أن الحدود كانت تمتد الى أبعد من حدود سنوسرت الثالث . وعلى أية حال فلقد عثر على اسم رمسيس الثالث فى معبد عند حصن سمه لذلك يمكننا أن نستنتج ان منطقة الشلال الثانى كانت فى أمان تحت إدارة المصريين وكانت مصر تعتمد أكثر وأكثر على جنودها

الكوشيين ومن بين موظفي الحاكم كان هناك « قائد حاملي أقواس كوش » الذى كان ولا شك رجلا ذا قيمة وأهمية فى قصر فرعون . ولقد اضطربت الأحوال فى آخر أيام رمسيس وخاصة بعد الكشف عن مؤامرة القتل التى قامت بها إحدى ملكاته « تى » . ومن بين الموظفين الكبار المشتركين فى المؤامرة كان قائد حاملي أقواس الكوشيين عرف باسم « بين أم واس » ويعنى « الشرير فى طبيعه » ولقد أغرته أخته على المؤامرة وكانت هى إحدى سيدات الحريم . ومع انه لم يذكر ذلك الا انه ليس من الصعب ان نتصور قيمة مثل هذا الرجل الذى يقود الفرق الكوشية ولكنه لا يدين بالولاء لأحد بالذات . وللأسف فالآثار المتصلة بمؤامرة الحريم قليلة قصيرة وتعطينا تفاصيل طفيفة حتى اننا لا نعرف لو الجيوش الكوشية كانت معسكرة فى العاصمة أو فى الجنوب . وعلى أية حال فهى تشير الى ان القوة العسكرية النوبية أصبحت عاملا مهما فى المسائل السياسية فى مصر . وكان الحاكم حينئذ هو « حورى » . ويبدو أنه لم يشترك فى المؤامرة لأن ابنه واسمه « حورى » أيضا ، خلفه فى المنصب فى عصر خليفة رمسيس الثالث ، أى رمسيس الرابع الذى اعتلى العرش فى عام ١١٦٤ ق.م ولم تصل إلينا أية معلومات عن جهود حرية لرمسيس الرابع ولخليفته رمسيس الخامس فى النوبة . وبقي حورى ابن حورى فى منصبه وهذا كل ما نعرفه عن الحالة النوبية فى هذه الفترة . ما عدا ما جاءنا عن أحوال المنطقة فى عصر رمسيس الرابع . ففي التلال وراء عنبيه أى « ميعام » التى كانت عاصمة النوبة حينئذ شيد رجل يدعى « بننوت » مقبرته . وتعتبر هذه المقبرة البسيطة المنقورة فى الصخر فريدة لعدة أسباب . فلقد كان نادرا جدا لموظف كبير ان يدفن فى النوبة لذلك لم يبق من هذه العمائر الا القليل جدا . فالمقابر الصخرية البسيطة غير المنقوشة مثل ما عثر عليه فى بوهن متعددة لانها شيدت لموظفين مصريين صفارا أو لنوبيين أغنياء . ولكن فكرة الدفن بعيدا عن الوطن كانت غير مقبولة للذين كان فى وسعهم أن يفعلوا ذلك . والسؤال هل كان « بننوت » نوبيا مثل « دجحوتى - حتب » الذى شيد مقبرة منقوشة فى « دبيرة » فى عصر الملكة حاتشبسوت ؟

لقد كانت وظيفة « بننوت » الاساسية « نائبا لواوات » وكان أيضا « رئيس المحاجر » و « رئيس خدم حورس سيد ميعام » . والدليل الآخر على ان النسوبة كانت وطنه ان اثنين من أقاربه عملا « أمين خزينة سيد الأرضين فى ميعام » و « كاتب البيت الأبيض ومحافظ ميعام » ولكننا لم نعثر على مقبرتى هذين الموظفين الهامين فى عنبيه . فربما كانت الأسرة

من مصر وان «بنتوت» هو الذى أراد أن يدفن فى النوبة . ولقد سجل بفخر على جدران مقبرته أن الملك كافاه بآيتين من الفضة لأنه نصب تمثالا لرمسيس السادس فى معبد رمسيس الثانى فى الدر . ولقد سلم الحاكم الهدية له فى حفل كبير اذ كان الملك قد سلمه الآيتين شخصيا أمرا أن يعطيها لنائب «واوات» . ولقد سجل «بنتوت» أيضا فى مقبرته باسمه بأملاكه فى النوبة التى تكون دخلا للصرف على القرابين المقدمة لتمثال الملك . ويعنى ذلك أن معظم الاراضى حول «ميعام» كانت أملاك خاصة للأسرة المالكة .

وازدادت قوة كهنة آمون الذين يملكون مناطق الذهب فى النوبة على اعتبار أنها ملك لاله وحافظوا على هذه السيطرة أحيانا بالنفوذ وأحيانا أخرى بالتمرد . فهناك دليل على ثورة تزعمها الكاهن الأكبر لآمون فى عصر الملك رمسيس التاسع ومنذ ذلك الحين أصبح البيت المالكة تتنازعه حروب أهلية صغيرة . وفى حكم آخر ملك فى الأسرة «رمسيس الحادى عشر» قامت ثورة اشترك فيها الليبيون ، ولقد أخذها الحاكم «بانحسى» وفرقة النوبية ومنذ ذلك الحين يبدو أن من كان يحكم النوبة بذهبها وجنودها كان يحكم مصر نفسها . ولقد خلف «بانحسى» الكاهن الأكبر لآمون «حرى حور» الذى اتخذ منصب وزير أيضا . وأخيرا بوساطة الثروة والقوة العسكرية الجنوبية التى كانت فى يديه اغتصب العرش وأصبح ملكا فى عام ١٠٨٥ ق.م ولكنه لم يستطع أن يمد سلطانه على مصر كلها اذ أنه بعد الحروب الأهلية التى انتهت الأسرة استولى «نس باتب جد» على العرش فى الدلتا وحكم فى قانيس بينما كان «حرى حور» ملكا فى مصر العليا فقط . وبعد موته اتحدت مصر تحت حكم الملوك الثانيسين الذين كونوا الأسرة ٢١ ومع ذلك فلقد بقى كهنة آمون أمراء أقوياء يتمتعون باستقلال ذاتى .

وفى هذا العصر الذى ساد فيه الضعف والاضطراب لابد أن تكون سلطة مصر فى النوبة قد تدهورت بسرعة . وكان «حرى حور» قد عين ، قبل موته ، ابنه «بعنخى» حاكما على كوش فليس غريبا أنه بعد ذلك بعدة سنين اتخذ الغازى الكوشى الاسم نفسه ومع أن هذا غير مؤكد إلا أنه يحتمل أن يكون الحاكم «بعنخى» قد نقل إخلاصه نحو الجنوب وأصبح مؤسسا للبيت المالكة فى نباتا وهم الذين أصبحوا فيما بعد قراعنة الأسرة فى مصر .

ويبدو أن النوبة السفلى (واوات) المتمصرة هي التي بقيت كشاهد لامبراطورية ضائعة ولكن كوش أصبحت بعد ذلك نصف مستقلة . فقبل ذلك بقليل كان كهنة آمون قد شيدوا نسخة مماثلة للكرنك في جبل برقل قريبا من نباتا حيث قام معبدهم الضخم . ولقد استقر هناك مصريون كثيرون منهم كهنة وموظفون وتجار وتزاوجوا مع اهل المنطقة مكونين مايمكن ان نسميه « حكومة منفى » في عام ٩٥٠ ق.م عندما كان الوطن تحت سيطرة ملوك الأسرة ٢٢ الذين كانوا من أصل لىبى . وكانت نباتا قد أصبحت مدينة جميلة بها معابد وقصور حيث ترعرعت الحضارة المصرية الكوشية وأصبح لها طابع مميز لها . ومن المحتمل ان يكون انتاج مناجم الذهب قد بعث الى الجنوب بدلا من الشمال . وأكثر من ذلك رؤسائها اعتبروا أنفسهم الحكام الشرعيين على وادى النيل متخذين اللقب القديم « ملك مصر العليا والسفلى » وانقلبت الاوضاع على المسرح السياسى ، اذ أن كوش كانت هي التي ستفزو مصر .

الفصل الثامن

الأسرة الخامسة والعشرون

يبدو أن الأسرة المالكة التي انحدرت من «بعنخي» ابن «حريحور» كانت سلطاتها قد توطدت كحكام لكوش قبل أن يحاولوا تأكيد سيادتهم على مصر . ولقد كانت الجبانة الكبرى في «كورو» تستقبل موتاهم منذ عام ٨٦٠ ق.م . أي أكثر من مائة سنة قبل أن يقوموا بغزو الشمال . ان أسلاف الأسرة الخامسة والعشرين بالصلة إلى جماعة أخذوا بالحضارة المصرية ولو أنهم ينحدرون من أصل كوشي ، لعله يرجع إلى رؤساء مدينة كرما . ولقد دفن في كورو ستة عشر سلفا لبعنخي - غازي مصر - وتطور مقابرهم يحكي قصة هذا التغيير من خلال أدلة أثرية مؤكدة .

ان أقدم المقابر تتكون من حفرة تعلوها كومة طينية مستديرة والجثة ترقد بانحناءة على جانبها الأيمن والرأس إلى الشمال . وسوف نجد أن الكومة قد كسيت بالحجر ثم تطورت إلى جزء يعلو سطح الأرض مبنى من الحجر ومستطيل الشكل وينتهي أخيرا إلى الشكل الهرمي الكوشي ، بينما أصبحت المقابر أكثر اتقانا ، وأخذت شكلا مصرية ، فان توجيه الدفنة قد تغير من شمال جنوبي إلى شرقي غربي . ولكن بعد أن اتبعت الطرق

المصرية في الدفن ، تخلقت معها عادة نوبية واحدة : وهي وضع سرير في المقبرة يوضع فوقه الميت على هيئة النائم . هذه الطريقة كانت منتشرة في النوبة العليا والسفلى منذ أقدم العصور وبقيت منتشرة حتى العصر المسيحي الذي أزال كل بقايا الوثنية في القرن السادس بعد الميلاد . ولكن الطبقة الحاكمة في كوش قد أصبحت بصفة عامة منذ عصر « كاشتا » ، والد « بعنخي » ، مصرية الفن والعمارة والديانة والثقافة والجنس ، اذ نتجت روابط وثيقة بزواج أجيال من المستوطنين المصريين بأهل المنطقة . ولقد مات « كاشتا » ملك كوش سنة ٧٥١ ق.م . ولكنه كان قد بدأ قبل موته في غزو مصر وكان يتحكم في جزء كبير من مصر العليا ، وسواء أكان هذا عن طريق السلم أم عن طريق الحرب ؟ فهذا ما لا نعرفه بعد . ولكننا لم نثر على أي أثر من هذا العصر في النوبة السفلى (واوات) وربما يرجع ذلك الى أن المنطقة أصبحت ساحة قتال خربتها الجيوش المتنازعة . وقد اختفت آثار القوة المصرية التي كانت قد بقيت منذ آخر الأسرة الواحدة والعشرين تماما وأصبحت المقاومة أمام تقدم كوش غير ذات قيمة . وكانت الأسرة المتنافسة في مصر السفلى تحارب لتكتسب السلطة المفردة ومن ثم فقد كان من المستحيل أن توحيد الصفوف لمواجهة الكوشيين حتى أنه عندما اعتلى « بعنخي » العرش كان الجزء الجنوبي للبلاد حتى « هراقليوبوليس » في الشمال تحت إشراف « نباتا » الى حد كبير . ثم جاء محرر مصري هو « تفنخت » وكان أميراً من أمراء الدلتا ، استطاع توحيد مصر السفلى تحت حكمه واتخذ لنفسه لقب الفرعون ثم توجه نحو الجنوب وواصل حتى « هراقليوبوليس » وحاصرها وكان هذا الحصار هو بداية النضال الذي انتهى بانتصار كوش وتأسيس الأسرة الخامسة والعشرين . ولقد سجلت هذه الحوادث على لوحة جرانيتية وضعها « بعنخي » في معبد « جبل برقل » حيث عثر عليها سنة ١٨٦٣ وهي الآن في متحف القاهرة . ويعتبر هذا الأثر من أهم الوثائق الأثرية التي تكشف لنا لأول مرة عن النوبة القديمة كقوة من الدرجة الأولى ستتحدى جيروت آشور ولكن من غير أن تنجح في ذلك . ان القصة التي تحكي انتصار النوبة محرقة للعواطف ومسرودة بطريقة بديعة الى درجة أنني لا أتردد في تقديم أجزاء منها ترجمها « برستد » بإسهاب .

وتسجل اللوحة التاريخ : « السنة الواحدة والعشرين لملك مصر العليا والسفلى « مري - أمون » « بعنخي » وهو تاريخ اقامته اللوحة في

« نباتا » بعد وقوع الحوادث التي خلدت عليها • ثم بعد ذلك نجد مقدمته تتكون من الفخر التقليدى لبسالة الملك ، وأخيرا تبدأ الملحمة :

« جاء أحدهم ليقول لجلالته : هذا حاكم الغرب ، الأمير العظيم فى « نتر » (منطقة وسط الدلتا) تفتخت ••• انه استولى على الغرب كله من الأراضى الخلقية حتى « اثت - تاوى » قادما نحو الجنوب على رأس جيش كبير بينما اتحدت الأرضين ورائه وجثا أمراء المدن المسورة وحكامها كالكلاب عند قدميه • لم تغلق الحصون أبوابها فى أقاليم الجنوب • « مراتوم » (ميدوم) « برسنخم - خبر رع » (ربما اللاهون عند مدخل الفيوم) معبد سبك (كروكوديلوبوليس عاصمة الفيوم) « برمجل » (البهنسة) « ثكنش » • وكل مدن الغرب لقد فتحو الأبواب خوفا منه • ثم اتجه شرقا ففتحو له أيضا : « حات بنو » (الحيبة) « توجى » « حاتستنى » ، « برنب تبع » (اطفيج) • أنظر انه يحاصر « هراقليوبوليس » وقد استولى عليها ومنع الدخول اليها أو الخروج منها محاربا كل يوم • لقد عاين المنطقة كلها وعرف كل أمير مكانه وحدد لكل رجل تابع لأمير وحاكم مدينة محصنة مكانه •

لقد تقبل « بعنخى » هذه الأخبار بعدم اهتمام وعلما أنه قد ضحك ، وكما ظهر فيما بعد ، فقد كان على حق فى أن يضحك • لأنه كان يعرف قوته اذ أن كوش كانت فى أوج قوتها بينما كانت مصر تتدهور وتمزقها الخلافات الداخلية • وعلى أية حال فان أتباعه المصريين لم يفكروا مثله • أما الذين كانوا فى الشمال فقد طلبوا النجدة •

« هؤلاء الأمراء وقواد الجيش الذين كانوا فى مدنها كانوا يبعثون كل يوم لجلالته قائلين : « هل ستبقى صامتا ناسيا أقاليم الجنوب ؟ بينما « تفتخت » يتقدم فى غزوه دون أن يجد من يوقفه • ان « نملوت » ، أمير « حت - وعرت » خرب حائط « نفروس » وحطم مدينته خوفا من ان يستولى عليها (تفتخت) ليحاصر مدينة أخرى • أنظر انه يذهب ليلحق « بتغنخت » بعد أن خرج عن طاعة جلالته (بعنخى) وانه ينتظر مع « بعنخى » كأحد أتباعه فى اقليم « أوكسرنخوس » ويقدم له بقدر ما يرغب كل ما يعثر عليه • (من هدايا) •

ان خبر تفهقر تابعه « نملوت » ، الذى كان ملكا محليا « لهرموبوليس » (الاشمونين) قد حرك « بعنخى » اذ ظهر أن قوة « تفتخت » كانت تتحرك بشكل خطير نحو الجنوب الى طيبة وتستكمل الملحمة :

« ثم بعث جلالته الى الأمراء وقواد الجيش الذين كانوا في مصر ...
أسرعوا الى ميدان المعركة ، وحاربوا ، حاصروا هرموبوليس وأهلها ،
واستولوا على ماشيتها وسفنها التي على النهر . لا تسمحوا لفلاحها أن
يذهبوا الى الحقول ، لا تسمحوا للفلاح أن يحرق الأرض ، أغلقوا حدود
اقليم الأرنب (الاقليم الذي كانت هرموبوليس عاصمته) قاتلوا ضدها
يوميا ، . ففعلوا هذا .

وبعد أن اتخذ هذه الاجراءات السريعة مع جنوده في مصر ، أعطي
الملك أوامره لجيشه في النوبة ان يتقدم الى مصر ، أمرا :

« لا يعوقنكم شيء ، نهارا أو ليلا ، كما لو كنتم في لعبة الشطرنج ،
واثبت في مكانك في المعركة واضغط عليه (العدو) من بعيد . ان قال
للمشاة وراكبي العجلات الحربية الذين ينتمون الى مدينة أخرى «انجدوني»
فامكث حتى تأتي فرقتك لتقاتل كما يقول . ولكن اذا كان حلفاؤه مدينة
أخرى فاجعل أحدهم يهرع اليهم ، لتقاتل أولا هؤلاء الأمراء الذين انضموا
اليه من الليبيين والجنود المفضلين . وقل : « اننا لا نعرف بماذا كان
يصرخ ليجعلهم يخضعون . جهز أحسن ما في اسطبلك من جياد الحرب
وارسم خط القتال . انك تعرف ان أمور هو الاله الذي بعثنا » .

ويحذر « بعنخي » جنوده بعد أن أعطاهم نصائح القتال ، من أنه
حتى الأقوياء ليس لهم أى قدرة دون مساعدة آمون ويأمرهم اذا وصلوا الى
طيبة أن يصلوا اليها من أجل الاله ، « أنر لنا الطريق حتى نقاتل في ظل
سيفك » . ونحن نعرف أن جنود « بعنخي » بعد أن مدحوا ملكهم أبحروا
شمالا ، ووصلوا الى طيبة وعملوا بنصائح جلالته . فتوجهوا شمالا هناك
وخاض الجيش النوبى معركته الأولى لتأكيد سيادة وادى النيل ، وعند
مرورهم بالمدينة المناوثة « هرموبوليس » التي كانوا قد استولوا عليها ،
كان الجيش النوبى الرئيسى قد وصل الى مقربة من « هرقليوبوليس » .
ويقول النص :

لقد أبحروا شمالا في النهر . . ووجدوا سفنا عديدة قادمة نحو
الجنوب محملة بالقادة والجنود والبخارة والرجال البواسل من الأراضي
الشمالية قد جهزوا بأسلحة حربية ليحاربوا ضد جيش جلالته . ثم حدثت
بينهم مجزرة كبرى لانعرف عدد قتلاها . وأسرت جنودهم وسفنهم وأحضروا
أحياء حيث كان الملك (نباتا) .

وتقدمت القوات النوبية بعد هذا الانتصار البحري نحو « هرقليوبوليس » التي كانت لا تزال محاصرة من « نفنخف » وحلفائه وسجلت قائمتهم التي ذيلت بهذه الملاحظة أن « كل أمير من حكام المدن المحصنة في الغرب وفي الشرق والجزر التي في المنتصف كان يجمعهم عقل واحد كتابعين للقائد الأكبر في الغرب ، وحاكم المدن المحصنة في الشمال ، كاهن « نيت » سيدة « سايس » ، وكاهن سم للاله « بتاح » ، « تفنخت » ولم تكن سياسة بعنخي في لوحته أن يستهين بقسوة المعارضة فيقلل من شأن عمله العظيم في غزو مصر .

وكان الجزء الأول من المعركة التي استغرقت يومين لغزو « هرقليوبوليس » على شاطئ البحر وانتهت بانتصار النوبيين وانسحاب جيش « تفنخت » إلى الضفة الغربية . وقد استمرت المعركة إلى اليوم التالي :

« عندما أضيئت الأرض في الصباح الباكر ، عبر جيش جلالته ليحاربهم . والتحم الجيشان وقتل عدد كبير من الناس وجيـئـد لا حصر لها . وكانت الهزيمة أكيدة لمن نجا من القتل فاتجهوا نحو الشمال هرباً من عنف القتال وخرأوته » .

ان الملك « نملوت » (النمرود) الخائن ، عندما علم أن عاصمته « هرموبوليس » مهددة وبعد أن علم بالمصيبة التي حلت « بهرقليوبوليس » قد لجأ إلى جيوش « تفنخت » المنسحبة واتجه نحو الجنوب ونجح في أن يتفادى العدو ويدخل « هرقليوبوليس » . وعندما سمع القائد النوبي بوجوده حاصر المنطقة بأحكام وبدأ الحصار الطويل ، لكن بعنخي غضب عندما وصلت إليه أخبار تقسيم الحرب ، فقد اعتبر أن العمل لم ينته بعد :

« هل سمحوا لجزء من الجيش الشمالي أن يبقى ؟ أو سمحوا لمن هرب منهم أن يذهب ليقص معاركه ؟ دون أن يتسببوا في موتهم أو في إبادتهم عن آخرهم ؟ اننى أقسم : كما يحبني رع ! وكما يفضلني آمون ! اننى سأذهب بنفسى شمالاً حتى أدمر ما صنعه (تفنخت) وحتى أجعله يتراجع عن القتال إلى الأبد » .

ولقد قرر « بعنخي » أن يتولى القيادة ، ولكن أنباء فوزه العسكري المتتالي لم تجعله يهدأ وخاصة بعد أن استولوا على « اكسرويوخوس » (البهنسة) « وتشنه » (طنه) « وحاح - بنو »

(الحيبه) . ووصل الملك الى « طيبه » . وبعد احتفاله بعيد رأس سنة آمون أبحر شمالا الى المدينة المحاصرة « هرموبوليس » (الأشمونين) . ويقال لنا :

« ان جلالته خرج من قمره السفينة ليجد عربته مجهزة والجياد معدة ثم ذهب جلالته غاضبا كالفهد ليؤنب جنوده قائلا : « هل يعنى ثباتكم فى القتال أن تبطئوا فى انجاز أعمالى ؟ هل السنة أقبلت على آخرها عندما خاف منى الشماليون ؟ أن ضربة قوية عنيفة ستقرعهم » وأقام لنفسه معسكرا على الجانب الجنوبى الغربى « لهرموبوليس » وحاصرها تماما وشيد جسرا يحيط بالجدار وبنوا برجا ليرفع حاملى الأقواس عندما يصويون سهامهم ، وقاذفى الأحجار عندما يقذفون الأحجار ، وكان يقتل أناس منهم كل يوم » .

ان أحكام الحصار وعنف الهجوم المستمر قد أتى بنتيجة سريعة ويقال لنا أن : « هرموبوليس » فقدت رائحتها الذكية المعتادة وأصبحت قذارتها تزكم الأنوف ، وفى بداية الاستسلام : جاء رسل للملك ومعهم هدايا من بينها تاج الملك المهزوم « نملوت » وجاءت زوجته وبناته الى نساء « بعنخى » يتوسلن اليهن أن يتوسطن له ولقد نجحن فى ذلك اذ أن « نملوت » لم يقتل عندما استسلم . ودخل الغازى النوبى الى « هرموبوليس » منتصرا واتجه نحو قصر « نملوت » وهناك قبل ولاء حريم عدوه ولم يعجبه جمالهن اذ يقال لنا : « لم ينظر اليهن جلالته » . ثم زاد اسطبلات القصر وحزن عندما وجد الجياد وقد تعذبت من الجوع أثناء الحصار . « فبعنخى » كان يحب الجياد حبا شديدا ويرى البعض أن « بعنخى » هو الذى بدأ عادة دفن الجياد حول المقابر الملكية فى « كورو » .

وضمت كل ممتلكات « نملوت » الى الخزينة الملكية ووهبت صومعته الى معبد آمون فى طيبة . وعمول « بفنف - دى - باست » حاكم « هراقليوبوليس » الذى بقى تابعا مخلصا ودافع عن مدينته بنجاح ضد أعداء « بعنخى » معاملة مختلفة وعندما وصل الى الملك حاملا الجزية اشار الى نجدة مدينته كالآتى : « لقد قبض على العالم السفلى وأغرقنى فى الظلام الذى يضىء عليه النور الآن . لم أجِد صديقا ثابتا فى يوم القتال العصيب . ولكنك أيها الملك يا قدير قد طردت الظلام من حولى » ولا نعرف كيف كوفىء « بفنفدى - باست » ولكنه غالبا لم ينس ولاءه . وبينما كانت الجيوش النوبية تتقدم فى

اتجاه رأس الدلتا استسلمت المدن واحدة بعد أخرى دون قتال . اذ أن نداء الفرعون كان كافيا : « انظر ، هنالك طريقان أمامك اختر ما تشاء . افتح وستعيش ، أغلق وستموت . اننى لن أمر من مدينة مغلقة » وكانت المقاومة قليلة حتى وصل الى « منف » ، تلك المدينة المتكبرة التى كانت عاصمة مصر تحت حكم الفراعنة الأول . وكانت قد تجاهلت نداء الاستسلام « ان أهل « منف » سيكونون فى أمان تام « ولن يبكى طفل » ، وأغلقت المدينة أبوابها . وفى المدينة العتيقة التى كانت رمزا لمصر الموحدة ، وقعت المعركة الأخيرة حيث شعر « تفتخت » أنه قوى ويمكنه أن يقاتل . ولقد سجل النص ما يلى :

« انظر أن ر سايس « هذا (تفتخت) قد وصل الى « ممفيس » فى المساء وهاجم بالمشاة والبحرية وبكل ما هو جيد فى جيشه وعددهم ثمانية آلاف من الرجال مهاجما بهمة : « أنظر أن منف مملوءة بجيوش من أحسن جنود الشمال ، وتفيض الصوامع بكل أصناف الشعير والقمح والحبوب ، وكل أسلحة الحرب . انها (منف) محصنة بجدار . ولقد شيدت شرفة عظمى بمهارة . ان النهر يتدفق فى الجانب الشرقى ، ومن ثم ليست هناك فرصة للهجوم من تلك الناحية . وهناك مراعى تملؤها الماشية ، والمخازن مزودة بكل شيء ، فضة وذهب ونحاس وملابس وبخور وعسل وزيت » .

وهكذا اطمأن الملك الى قوة المدينة ومحمياتها وقدرتها على تحمل الحصار ومن ثم يستطرد فيقول :

« اننى سأذهب وسأعطى شيئا لرؤساء الشمال وسأفتح لهم أقاليمهم (أى أعطى لهم استقلالهم) ولن تمر الا بضعة أيام حتى أعود . « وامتطى حصانا ولم يطلب عجلته الحربية وذهب شمالا خاشيا لجلالته » . ويستمر النص :

« وعندما طلع النهار فى الصباح الباكر ، وصل جلالته الى « منف » وعندما حط شمال المدينة وجد أن الماء قد وصل الى السور والسفن راسية عند سور « منف » . ورأى جلالته انها كانت قوية وأن الجدار كان مقوى بحاجز وأن الشرفات بها رجال أشداء . ولم يجد طريقة للهجوم . وقال كل رجل فى جيش جلالته رآه بناء على قانون الحرب . ولقد قال كل رجل « فلنحاصرها ان فرقها متعددة » وقال آخرون « فلنشق طريقا اليها . فلنرفع الأرض على جدرانها . ولنربط برجا ونرفع الصواري ونجعل العارضة جسرا اليها .

سنقسمها على هذه الطريقة من كل جهة من الأرض العالية ومن الشمال حتى نرفع الأرض على جدرانها وحتى نجد طريقا لأقدامنا .

وقرر « بعنخي » أن يقتحم المدينة وبدأ بالاستيلاء على الميناء وكل سفنه كاملة ، بحيث نفذت فكرة استعمال الصواري والعوارض كجسور توصل الى أعلى الجدران . وهي طريقة هجوم استعملها الفينيقيون عندما استولوا على قسطنطينية سنة ١٢٠٣ م وبهذا الهجوم كان يجب تنظيم السفن أولا ، ويقال أن : « أن جلالته صف بنفسه السفن ثم أمر جلالته جيشه قائلا « الى الامام ضدها ! اصعدوا الجدران ! .. ادخلوا المنازل التي على النهر . اذا وصل أحدكم على الجدار فلا يتردد امامه حتى لا تصده الفرق المعادية » .

ويشير الى أنهم بعد ان استولوا على الجنوب ووصلوا حتى الشمال فانه سيكون مذلا لهم أن يطردوا من على أبواب « منف » وأجبروا على أن يواجهوا الحصار .

وعلى أية حال فالهجوم كان ظافرا :

« ثم أخذت منف كما لو كان فيضان قد أغرقها وقتل عدد كبير من الناس هناك وأسر عدد آخر وأخذوا الى حيث كان جلالته » .

ومن الواضح أن المدينة تركت للنهب والسلب ولكن في اليوم التالي أعاد الملك النظام فيها فبعث القواد داخل المدينة ليحموا المعابد وثبت الكهنة في مناصبهم المختلفة . ونظفت المدينة بالنظرون والبخور . ثم ذهب « بعنخي » الى معبد « بتاح » حيث اعترف به الاله .

وعندما وصلت أخبار سقوط المدينة الى أقاليم هذه المنطقة فتحت أبواب مدينهم وهرب حكامها وخضع أمراء كثيرون من الأراضي الشمالية للنوبيين وقدموا الجزية لهم وأخيرا توجه « بعنخي » الى « هليوبوليس » وإلى معبد « رع » حيث اعترف به كملك . ولكن « تفنخت » ما زال يقاوم . فعسكر مع بقية قواده في مدينة تعرف بـ « مسد » ، حيث قضى على سفنه وزاده بالنار عندما أدرك أن الحالة ميثوس منها وبعثت فرق ضد هذا الحصن الأخير وأخيرا سمع « بعنخي » بإشراح أن « قتلنا كل رجل وجدناه هناك » . وعلى أية حال لم يكن « تفنخت » من بين الأموات لأنه التجأ الى إحدى جزر أخراش الدلتا . ومن هناك بعث برسالة استسلام طالبا أن يبعث اليه نائبا عن الملك ليشهد يمين الطاعة والولاء للظافر . وقبل « بعنخي »

التماس الرحمة وبعث رئيس الكهنة « بدى - آمون - نستاوى » وقائد الجيش « بورمى » ليشهدا يمين الطاعة وقيل :

« انه قدم (تفنخت) له (بعنخى) فضة وذهبا وملابس وأحجارا نفيسة ثم ذهب الى المعبد ، ليتعبد للاله ، ويطهر نفسه بيمين مقدسة ، قائلا : لن أعصى أوامر الملك ولن أخالف ما يقوله ولن أقوم بعمل عدائى ضد أمير من غير معرفتك . اننى سأفعل كل ما يريده الملك ولن أخالف ما يأمر به » فرضى جلالته حينئذ .

سنرى فيما بعد كيف حفظ هذه اليمين وعلى أية حال فالنص يوضح أن « بعنخى » كان راضيا وقد أصبح فعلا - باستسلام آخر الأمراء والملوك الصغار فى الدلتا - أصبح فرعوننا على كل وادى النيل من الحدود الجنوبية لكوش حتى ساحل البحر الأبيض . وينتهى النصر كالآتى :

« ثم حملت السفن بالفضية والذهب والنحاس والملابس وكل شيء صلب من البلاد الشمالية وكل محاصيل سوريا وكل الأخشاب الطيبة من أراضى الاله . وأبحر جلالته جنوبا مسرورا القلب بينما عم الفرح الشرق والغرب وابتهج الشاطئان فغنوا طربا وهم يقولون : « أيها العظيم ، أيها الحاكم ، أيها العظيم » بعنخى ، أيها الحاكم ، أيها القوي انك تأتى بعد أن ظفرت بالسيطرة على الشمال . انك تجعل من الثيران انثا . ما أسعد قلب السيدة التى حملتك والرجل الذى أنجبك أن كل من فى الوادى يشكرون تلك البقرة التى ولدت ثورا . انك الى الأبد وبأسك يدوم يا حاكم طيبة المحبوب » .

لا شك أن « بعنخى » اعتبر نفسه الفرعون الشرعى الذى عاد ليطالب بحقه . ومن الملاحظ أن العدو لم يوصف طوال النص الذى سجل هذا الانتصار بأنه مصرى ولكنه وصف دائماً أنه من الأرض الشمالية . انه كان ابن آمون الذى حضر ليعيد قوة وبأس الاله الكبير ومما لا شك فيه أن عددا كبيرا من المصريين وخاصة الكهنة الطيبين كانوا يساندونه مع أن جيشه كان يغلب عليه العنصر النوبى الا أنه كان يحوى أيضا مصريين عسديدين . لذلك يجب ألا يعتبر انتصار « بعنخى » غزوا نوبيا بل لقد كان نوعا من البعث ذلك لأن مصريين كثيرين نظروا اليه من خلال هذا الضوء .

أعاد بعنخى - عند رجوعه الى « نباتا » - بناء معبد آمون الكبير وزينه بكثير من الأسلاب التى لا شك كان قد أخذها أثناء غزوه

للشمال . وربما كان هو الذي نقل الأسود الجرانيتية والكباش من معبد « امنحتب الثالث » في « صواب » الى « نباتا » - العاصمة التي كان ينوى أن يحكم منها النوبة ومصر . ومن الغريب أن رجلا له قدرة « بعنخي » ومهارته يتبع سياسة غير مألوفة ولا صالحة إذ أنه ترك مصر دون ادارة مركزية موجودة داخل حدودها في طيبة مثلا أو في منف . لقد كان هذا بمثابة قرار حدد مستقبل البلاد .

كان « تفنخت » ينتظر خروج النوبيين ليتراجع عن استسلامه ويبحث في قسمه إذ أنه قد أصبح فعلا ذا قوة كافية ليسترجع لقب فرعون . وبعد أن حكم جزءا كبيرا من مصر السفلى خلفه ابنه « باك - أن - رنف » سنة ٧٢٠ ق.م. بينما نجد في الوقت نفسه أن الأمراء المطرودين الذين ينتمون الى العائلة البويسطية « اوسركون » الثالث « وتكلوت الثالث » قد استرجعوا طيبة وحكموها حتى عباد النوبيون يقودهم « شباكو » شقيق « بعنخي » الذي خلفه سنة ٧٠٧ ق.م. ولسوء الحظ فليس لدينا وثائق معاصرة لغزو « شباكو » لمصر وليس لدينا الا تقرير « مانيتو » - المؤرخ المصري - مما يبدو أنه كان نهاية الحملة . ويقول لنا « مانيتو » أنه قبض على « باك - أن - رنف » ابن « تفنخت » وأحرقه حيا . واستفاد « شباكو » من تجربة سلفه ، فنقل عاصمته من « نباتا » الى « طيبة » وهكذا استطاع بعد أن وحد وادي النيل تحت حكمه أن يشعر بقدرته على تحدى قوة آشور التي كانت حينئذ في أوج مجدها وقوتها في غرب آسيا . وتامر مع « يوداه » وشجع الولايات الصغيرة على مقايمة تقدم الآشوريين . فحصل على أن يقول ذلك التعقيب المهيمن الذي سجل في كتاب الملوك (التوراه) « والآن انظروا لقد اتكلت على عكاز هذه القصة المرضوضة ، على مصر ، التي اذا توكا أحد عليها دخلت في كفه وثقيبتها . وهكذا هو فرعون ، ملك مصر ، لجميع المتكلمين عليه » . وعلى أية حال « فالقصة المرضوضة » لبث نداء أجد الحلفاء وعندما حاصر « سناخريب » « أورشليم » ، بعث « شباكو » جيشه الى « فلسطين » تحت قيادة ابن أخيه « طهارقا » . ولكن انتشار الطاعون أرغم الجيش الآشوري على الانسحاب ولم تتلاحم قوات « شباكو » و « سناخريب » ، ولكن لم يكن ذلك غير مهلة قصيرة فقد بقى التهديد باعتماد من الآشوريين قويا ، الى درجة أن السياسة الخارجية « لشباكو » وخلفائه كلها أصبحت مركزة في هذا الاتجاه . وربما يكون هو السبب في أن العاصمة الادارية ومقر الملك في الامبراطورية المصرية الكوشية أصبح في « تانيس »

في غرب الدلتا بينما استبقت « طيبة » و « نباتا » أهميتهما كمقر ديني .

وخلف شباكو ابن أخيه « شباتكا » الذي بقى في الملك لمدة سنتين أشرك أخاه الصغير « طهارقا » في الملك وكان لا يزال في العشرين من عمره ومات « شباتكا » بعد خمسة أعوام فأصبح « طهارقا » الحاكم الوحيد لكوش ومصر في عام ٦٩٠ ق.م. وفي بداية حكمه ابتسم له الحظ وتجد أثارا كثيرة ترجع لعصره في مصر والنوبة وسأشرحها فيما بعد

وفي يوم تتويجه في منف كانت والدته « آبار » موجودة لتشهد تتويج ابنها « كما رأت » ازيس ، ابنتها حورس على عرش أبيه . ففي شبابه المتكبر أرسل « طهارقا » يطلب الملكة الأم - التي لم يرها منذ مغادرته النوبة . وكانت النوبة قد أصبحت قوة عالمية وكان « طهارقا » يحكم وادي النيل من أقصى الجنوب في السودان حتى شواطئ البحر الأبيض . ولكن القوة الصاعدة لآشور كانت قد بدأت تمتد ظلالتها على حدود مصر الشمالية الشرقية . ونعتقد أن طهارقا كان قد حارب ضد عدوه الأعظم وقلبه « سناحريب » في « التيه » في عام ٧٠١ ق.م عندما كان على رأس الجيش المصري النوبي الذي بعثه عمه « شباكو » ليساعد « حزقيال » حاكم « يودية » . ولا نعرف مدى الاستعدادات التي قام بها « طهارقا » لمواجهة تهديد آشور إلا أنه سكن في « قاتيس » قريبا من حدوده المهددة وأنه طلب التحالف مع ولايات فلسطين .

وكان من حسن حظ الملك النوبي أن أمير طيبة كان يسانده في الوقت الذي أشرفت فيه الحرب على الاندلاع « فمنتو - أم - حات » كان رجلا ذا قدرة عظيمة وقد ترك لنا سجلا للغزو الآشوري .

وقد خلف « سناحريب » ، الذي مات عام ٦٨٦ ق.م ، على عرش آشور ، « اسرهدون » الذي هجم على منف واستولى عليها سنة ٦٧١ ق.م. بعد سلسلة من الانتصارات في شرق الدلتا . وتقول تقارير الآشوريين ما يأتي :

« في السنة العاشرة وفي شهر نيسان ذهب الجيش الآشوري الى مصر وفي الثالث والسادس عشر والثامن عشر من تموز ، أي ثلاث مرات ، نشبت معارك في مصر . وفي الثاني والعشرين استولى على « ممبي » (منف) مدينتها الملكية وأتخذ ملكها « طهارقا » نفسه بهروبه . ولكن قبض على أخيه حيا . ونقلت غنيمة ونهب أهلها وسرقت بضائعها . »

وادعى الآشوريون أنهم غزوا مصر بأكملها وأنهم أغادروا على النوبة نفسها لأن « أسرهدون » يقول لنا :

« ان « بعلو » ، ملك « تير » ، الذى اعتمد على « طاركو » (طهارقا) ملك « كسوس » (كوش) : لقد أخذت منه كل مدنه وأملاكه . لقد تغلبت على أرض « موسرى » (مصر السفلى) وأرض « باتورسى » (مصر العليا) وأرض كوش ، لقد حاربت بالحرية خمس مزارات والآن احكم كل بلاده » .

ونتساءل ان كان هذا التصريح حقيقيا . واذا كان الآشوريون قد دخلوا النوبة فلابد انهم لم يذهبوا بعيدا لأن يبدو ان « طهارقا » كان قد وجد الأمان فى وطنه الجنوبي . وكان مستعدا لأن يعيد الكرة مرة أخرى فى كفاحه لسيادة وادى النيل . وعلى أية حال فلا شك أنهم سيطروا على طيبة لأن اسم الأمير « منتو - ام - حات » من بين أسماء النبلاء الذين رضخوا للقاهر ومن ثم بقى فى منصبه . ويبدو أن « أسرهدون » تصور أنه بعزل النوبيين يمكنه أن يعتمد على ولاء المصريين الذين كانت سياسته ازاءهم متوازنة . فيقول لنا : « لقد رحلت كل النوبيين من مصر ولم أترك واحدا يطيعنى . لقد عينت فى كل مكان من مصر ملوكا جندا ومحافظين قوادا ورؤساء للميناء وموظفين واداريين . ولكن سياسته كانت خاطئة لأن عددا كبيرا مثل « منتو - ام - حات » بقوا فى حقيقة الامر أوفياء لطهارقا . وبعد أن رحل الغازى من مصر ، ظهرت بوادر ثورات . فأعد « أسرهدون » نفسه للرجوع الى النيل ليضمن فتحه ، ولكنه فى طريقه على رأس جيشه مات فى « حاران » . وفى هذه الأثناء كان « طهارقا » يتقدم شمالا ، حاشدا قوات من النوبة واستولى على منف وعلى مصر العليا . ولم يتحرك خليفة « أسرهدون » ، « آشوربانيبال » ، ومرت أكثر من سنة قبل أن تغزو الجيوش الآشورية مصر للمرة الثانية وانتصروا على « طهارقا » فى مدينة ما فى الدلتا ومرة أخرى هرب جنوبا الى النوبة تاركا مصر كلها فى أيدي الغزاة . وكانت هذه هى آخر مرة يرى فيها الشمال لأنه مات فى نباتا عام ٦٦٤ ق.م. ودفن فى هرمه فى « نورى » .

ومن الغريب أنه فى عهد زلزلته الحروب ، قام « طهارقا » بتشديد عماراته فى مصر وفى وطنه . ولقد زين الصالة الكبرى فى معبد الكرنك بطريق ذى أعمدة عظيمة لا يزال أحدها موجودا . وربما كان هو صاحب البيلون الذى لم يكمل عند المدخل الرئيسى للمعبد . كما أنه شيد أيضا

عمائر أقل أهمية في معبد الكرنك نفسه وفي مدينة هابو على الضفة الغربية للنيل . ومن وثائق مكتوبة يمكننا ان نستخلص أنه شيد عمائر أخرى في «تانيس» و «ادفو» . أما في النوبة فقد أقام عمائر أكثر ضخامة وفي «نباتا» رمم وزين معبد آمون الكبير كما نحت معبدا صخريا في الجبل المقدس هناك . وعلى الناحية البحرية للنهر كونت النواحية بحيث تظهر كواجهة صناعية مكونة من أربعة تماثيل ضخمة ، ويبدو ان ما تبقى من المعبد منحوت في الصخر من طراز معبد « أبو سمبل » نفسه ولكنه أكبر منه . ولكن عددا كبيرا من الوثائق تشكك في وجود هذه التماثيل المنحوتة في الصخر ويعتقد أنها ليست الا نتيجة عوامل طبيعية أثرت في الصخر . ولقد قيل ان على احد هذه التماثيل يوجد خرطوش لطهارقا . لذلك نعتقد أن الملك شيد هنا في جبل برقل ببناء نافس به في وقت ما «أبو سمبل» ولكن لا بد أن تقام حفائر وتنقيبات واسعة عند أسفل الجبل لتثبت هذه النظرية .

ومع أن الحصون الموجودة في منطقة الجندل الأول في عصر « طهارقا » كانت قد ضربت وتركت الا أنه بنى في «سمنه» معبدا صغيرا في منطقة الحصن . كما عثر في «بوهن» على أجزاء منقوشة يمكن ازجاعها اليه ، وهي في الغالب اضافة لمعبد حصن حاشبسوت أو لاي بناء آخر قد اختفى . ومقبرته الهرمية في « نوري » على مقربة من «نباتا» ، كانت أول وأعظم بناء جنائزي في الجبانة الملكية التي أقامها عندما ازدحمت الجبانة القديمة في « كوزو » .

وخلف طهارقا ابن أخيه « تانوتاماني » الذي وطد العزم ، بعد تنويجه ، على أن يضع مصر مرة أخرى تحت حكم النوبيين . ومن ثم توجه مع جيشه نحو طيبة حيث رحب به الأمير « منتو - أم حات » وأعطاه معونة اضافية . وسرعان ما استولى على منف ومصر السفلى ، قابلا خضوع حكام الدلتا الذين كانوا قد أصبحوا اتباعا «لا شور بانيبال» الآشوري . ولكن هذا الانتصار لم يدم طويلا لأن الغازي الآشوري سجل بعد موت طهارقا أن « شانداماني » (تانوتامون) ابن أخيه جلس على العرش ووضع قوته في (طيبة) وأونو (هليوبوليس) وجنح قواده لتحارب الجيش الآشوري الذي كان متجمعا في منف . فحاصروهم هناك وقطع عليهم طريق الهرب و «هل نجح» تانوتامون ، في أن يستولى على منف قبل وصول العاهل الآشوري هذا ما لا نعرفه ، مع أن التقرير المصري يدعى ذلك وعلى أية حال فان كل شيء يؤكد ذلك . وعندما

انتشر نبأ وصول « آشوربانيبال » ، هرب « تانوتامون » دون قتال الى نباتا ومرة أخرى أغارت فرقة عسكرية آشورية على وادي النيل .

وتقرير « آشوربانيبال » لهذه الحوادث كما يلي :

« وفي حملتي الثانية ، توجهت الى « مصور » (مصر) « وكوش » (النوبة) وسمع « تانداماني » (تانوتامون) عن حملاتي وأنتى وطئت أرض مصر فترك منف وهرب الى (طيبة) لينقذ حياته . ان الملوك والحكام والاداريين الذين وضعتهم في منف جاءوا ليقبلوا قدمي . وذهبت وراء « تانوتامون » في الطريق نحو طيبة مكان القوة . فهرب الى كيبك (نباتا) وغزت هذه المدينة (طيبة) كلها بمعاونة آشور واشتار . ولقد أخذت معي الى آشور فضة وذهبا وأحجارا كريمة وكل ممتلكات القصر وأقمشة ملونة ، وكتانا وجيادا ورجالا ونساء ومسلتين كبيرتين من المعدن النفيس تزنان ألفين وخمسمائة تالنت وبوابات المعبد أخذتها من قاعدتها . واستوليت على غنائم كثيرة من طيبة وتركت سلاحى يغضب على مصر والنوبة وظهرت قوتي ، ورحلت الى « نينوى » ، الى قصرى فى صحة جيدة ويدي مملكتان . »

ان هذا التقرير الواقعى لسلب ونهب طيبة ينبىء بانتهاء احدى مدن مصر العظمى لانها لم تسترد أبدا ما كانت عليه . والتنقيبات الحديثة قد أظهرت بقايا المنازل المحروقة فى الكرنك والتي أحرقها الجنود الآشوريون عندما تركوا أحرارا فى المدينة الأسير .

وعندما ترك « آشوربانيبال » المدينة المخربة ، رجع « منتو - ام حات » المخلص الوفى وقال لنا فى احدى نقوشه كيف طهر المعابد المعتدى عليها بعد غزو الاجانب النجسين فى الجنوب .

وبعد هذه المصائب لم يحاول « نوتامون » أن يرجع الى مصر وبقي فى النوبة حتى مات بعد ذلك بقليل . ودفن فى جبانة « كورو » . ومع أن خلفائه لقبوا بملوك مصر العليا والسفلى الا أن موت « نوتامون » ينبىء بنهاية سلطان النوبة على شمال وادي النيل . ان النوبة السفلى بين الجندل الأول والثانى كونت حازرا بين القطرين ، والتنقيبات الواسعة فى هذه المنطقة لم تعثر على أى أثر لمستعمرة من هذا العصر . ويبدو أن الأرض كانت غير مسكونة .

الفصل التاسع

العصر البطلمي المروى

انتهت سيادة النوبة المتقطعة على مصر بعد موت تانوتامون وكانت فترة سلطانهم قد امتدت جوالى سبعين عاما استمرت فيها الحروب بلا انقطاع ، ومع أن مصر مصر كان هو الانحلال التدريجى والتدمير النهائى كقوة عالمية الا أن أهلها فى هذا الوقت ، كانوا يعتبرون النوبة السفلى كارض محايدة تفصل بينهم وبين أعدائهم المحاربين فى الجنوب . أما الى أى مدى رحب المصريون « بالتحرير » النوبى فان هذا موضع جدل . ومع أن النهضة الدينية لآمون وعودها بتجديد مجد إمبراطوريتها كانت تملأ قلوب أهل مصر العليا بالغبطة إلا أن هذا الشعور لم يكن موجودا فى الدلتا . وعلاوة على ذلك فالحررون النوبيون لم يأتوا بالسلام ولكن بالحروب المستمرة والحكام الغرباء والجنود الأجانب . وبعد طرد النوبيين بقليل ضغط البابليون والميديون فى أوطانهم على الأشوريين المنتصرين فاضطروهم الى الرحيل عن مصر التى اتخذت مرة أخرى على يد بسامتيك وهو أمير من مصر السفلى أسس الأسرة السادسة والعشرين .

وقد حرصت بقية الأسرة الملكية فى النسوبة بعد أن رجعوا الى عاصمتهم نباتا على استعمال ألقاب قراعنة مصر التقليدية . فلم ينسوا ادعاءهم بأنهم الحكام الشرعيون لمصر ، ومن ثم كان التصادم بين القوتين مسألة وقت فحسب . ولكن فى هذه المرة هجمت مصر أولا ، ففى عام ٥٩٠ ق.م . اجتاحت « بسامتيك الثانى » النوبة على رأس جيش معزز بمرتزقة « يونانيين » و « كاريين » ويبدو أن الغرض من هذا الهجوم كان منع نشوب الحرب . فالتوبيين كانوا يتأهبون لمعركة أخرى مع أعدائهم الشماليين بعد انهزام المصريين فى آسيا . وعندما اعتلى ملكهم « اسبلتا » فى عام ٥٩٣ ق.م . العرش كان جيشهم قد وصل الى الجندل الثانى فى المنطقة المحايدة من النوبة السفلى مما شكل تهديدا لمصر . لكن المصريين انتصروا . والشاهد على ذلك نقوش عديدة لنصوص باليونانية على أحد التماثيل العظمى فى أبى سمبل . وأطول هذه النصوص يقول :

« عندما أتى الملك « بسامتيك » الى اليفتتين كتب هذا : هؤلاء الذين أبحروا مع « بسامتيك » بن « ثيوكليس » ووصلوا بعد « كركيس » الى أبعد مما يسمح به النهر . وهؤلاء الذين يتكلمون بلسان أجنبى كان يقودهم « بوتاسيمتو » . أما المصريون فكان يقودهم « أمازيس » . ويشير نقش فى الكرنك الى هذه الحملة ويقول انها وصلت حتى « بنويس » (تومبس) وأنه قد تم أخيرا ، بعد سحق التوبيين احتلال « أرض شاس » التى يعتقد أنها دنقله . ويعنى أنهم استولوا أيضا على نباتا . ويبدو أنهم لم يحاولوا الغزو الدائم ورجع الغزاة الى منطقة الجندل الثانى . ولقد عثر هناك على أسماء المرتزقة الكاريين فوق جدران معبد بوهن وعلى صخور تل الشيخ سليمان فى كور .

واذا كانت قوات « بسامتيك » قد احتلت « نباتا » فعلا فهذا موضع جدل ولا بد أنها كانت أكثر من غارة . وعلى أية حال ففى هذا الوقت نفسه انتقلت العاصمة السياسية من نباتا الى « مروي » فى الجنوب على الضفة الشرقية للنيل ما بين الجندلين الخامس والسادس . وبقيت « نباتا » العاصمة الدينية . ومع أفول التأثير القوى لكهنة آمون ، ضعفت المدينة ومع أفولها انتهى العصر الذى يتعارف مؤرخو السودان على تسميته بعصر نباتا .

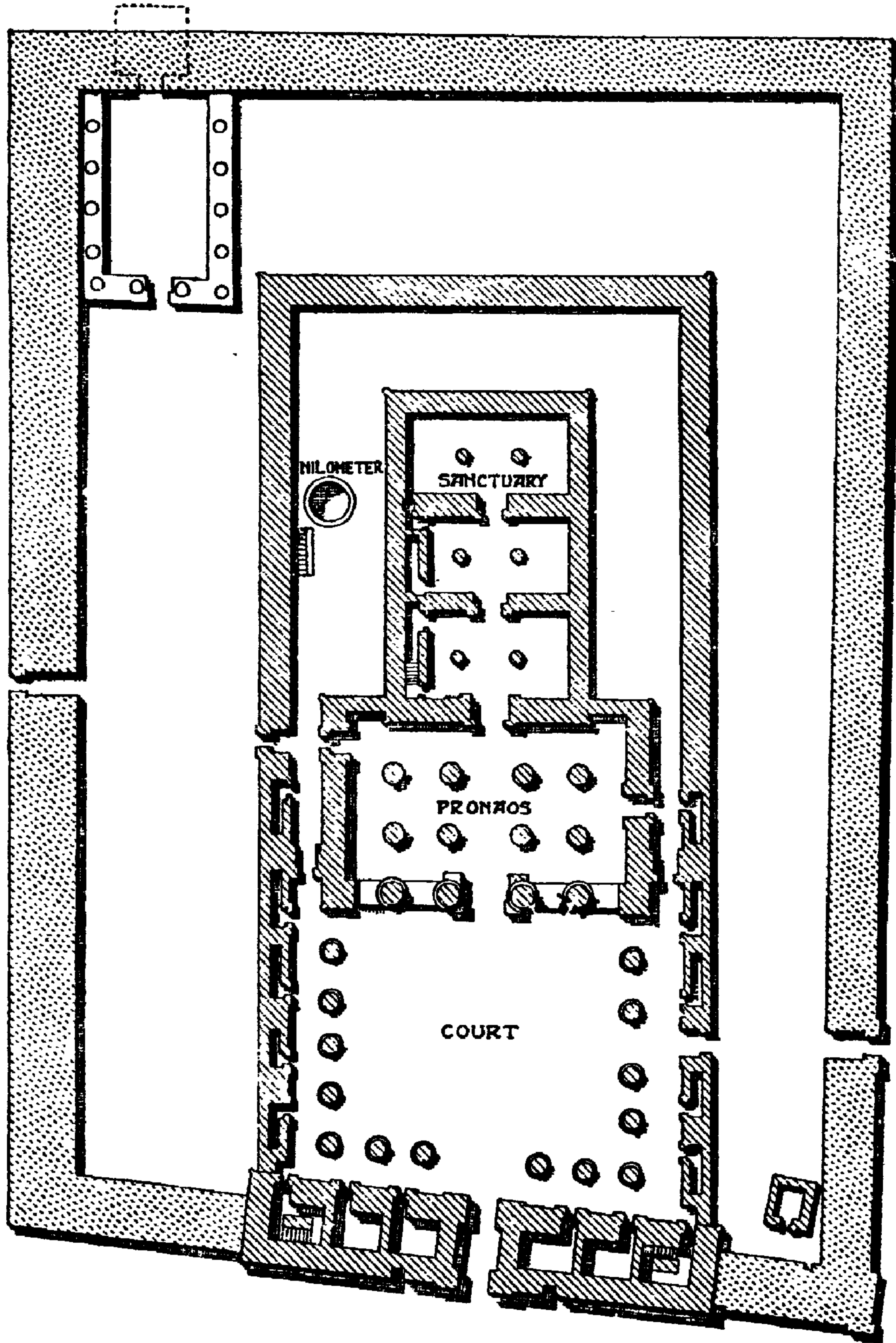
وبعد أن هزم « قمبيز » الملك المصرى « بسامتيك الثالث » فى « بلوز يوم » ، أصبحت مصر اقليما فارسيا ، فى عام ٥٢٥ ق.م . وبعد تهدئة البلاد اتجه الغازى العظيم نحو النوبة . ونحن ندين

« لهرودوت » بتقريره عن الأحداث التي تلت . ومما ذكره المؤرخ اليوناني ، أن « قمبيز » بعث جواسيسه الى النوبة ، وأن هؤلاء الرجال ، ادعوا أنهم سفراء آتون بالهدايا ، فاستقبلهم الملك النوبي في عاصمته « مروي » . ولكنه لم يخدع ، فرفض الهدايا وقال للرسل الفارسيين : « لم يبعثكم ملك الفرس بالهدايا لأنه يريد أن يصبح صديقا حميما ولا التقرير الذي تقولونه عن أنفسكم صحيح ، لأنكم أتيتم باحثين عن مملكة . وملككم أيضا ليس رجلا مستقيما . فلو كان مستقيما وعادلا لم يكن يطمع في أرض ليست ملكه أو أن يستبعد أناسا لم يخطئوا في حقه وأعطوه هذا القوس وقولوا له : « ان ملك أثيوبيا ينصح ملك الفرس بأنه عندما يستطيع الفرس أن يشدوا قوسا بهذه القوة بسهولة فليأت بجيش أقوى لمحاربة الأثيوبيين (الأصلاء) وحتى يحين الوقت فليشكر الآلهة على أنهم لم يضعوا في قلوب الأثيوبيين الطمع في بلاد لا يملكونها » .

ولقد أدى هذا الرد الى نتائج محتومة : فسار جيش فارسي نحو الجنوب ليواجه بكارثة سببها عدم وجود الاستعدادات الكافية وخاصة بالنسبة لسوء إدارة الجيش من ناحية المؤن وزجع « قمبيز » الى مصر ومعه باقى جيشه الذى يتضور جوعا بينما الجزء الأكبر منه قد مات جوعا في الصحراء النوبية . وكانت هذه المحاولة الفاشلة هي آخر محاولة من جانب الفرس لغزو النوبة من الشمال لعدة سنين . وبما أن الاتصال مع مصر كان قد أصبح صعبا لوجود الأرض المحايدة بين الجندل الأول والجندل الثانى فقد تدهورت الحضارة المصرية في الجنوب وحلت محلها حضارة غير أصيلة سماها الأثريون باسم عاصمتهم الجديدة « مروي » . ومع أن التأثير المصرى الدينى والفنى بقى هو الغالب على الحضارات المروية الجديدة الا أن التأثير الأفريقى والاغريقى كانا لهما مكانة أيضا . ان الكتابة الهيروغليفية المصرية أفسدت ولم تفهم الا من الكهنة وبصعوبة وتغيرت الأشكال وبالتدريج ظهر مكانها هيروغليفية المروية مكتوبة بخط مختصر وأصبحت فيما بعد هي طريقة الكتابة في لغة أهل المنطقة . وهذه الكتابة المروية « المختصرة » حللتها بعد جهد كبير عدة علماء ولكنها لم تزل غير معروفة لنا لأنها كتبت في لغة غير معروفة أيضا .

انتعشت الدولة المروية وتحررت من التدخل الاجنبى ونمت الى امبراطورية قوية وسيطر حكامها على شمال السودان كله . وبالتدريج انتشرت قوة وتأثير مروي في النوبة العليا كلها حتى انه في

THE TEMPLE OF KALABSHA

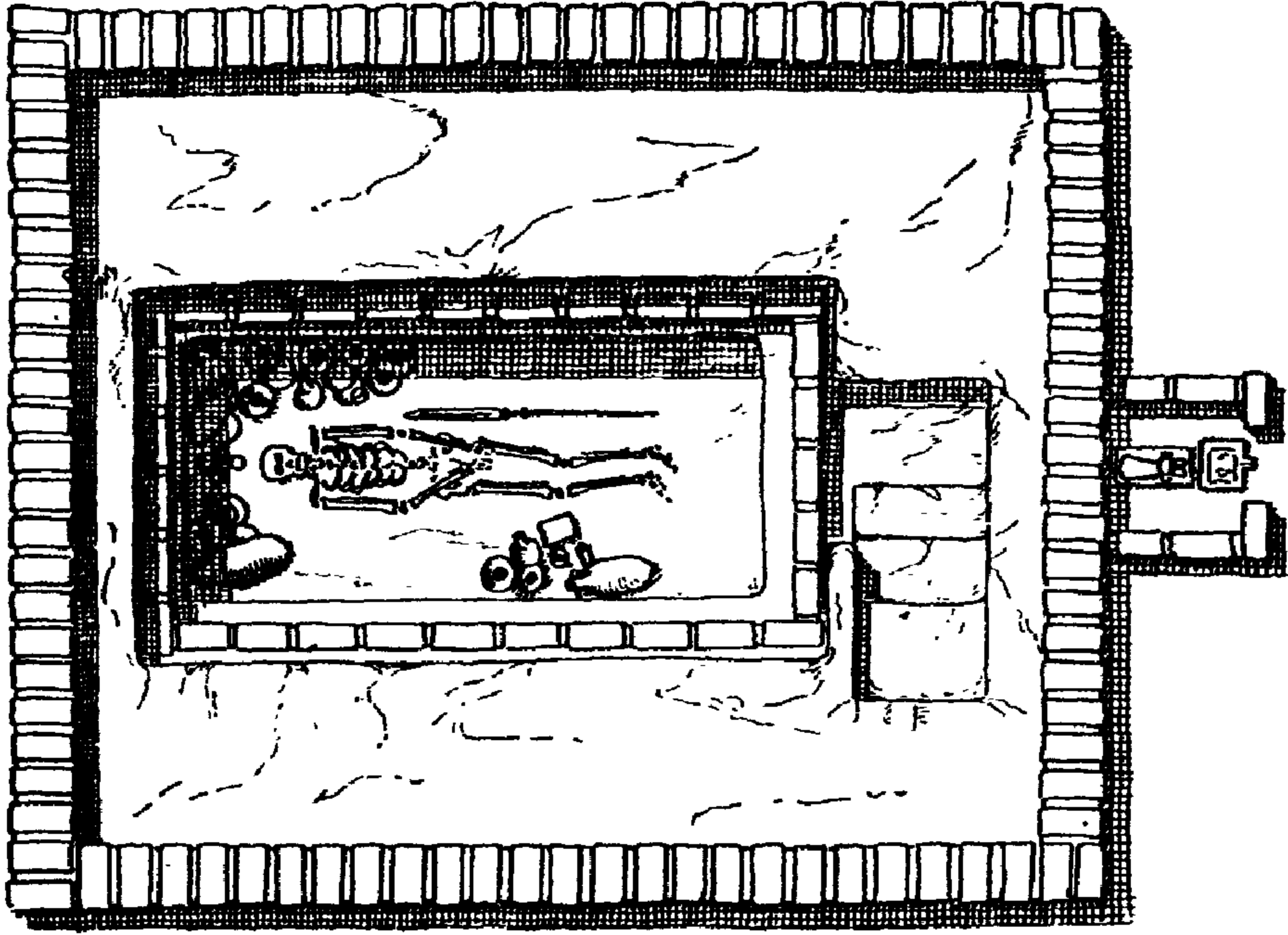
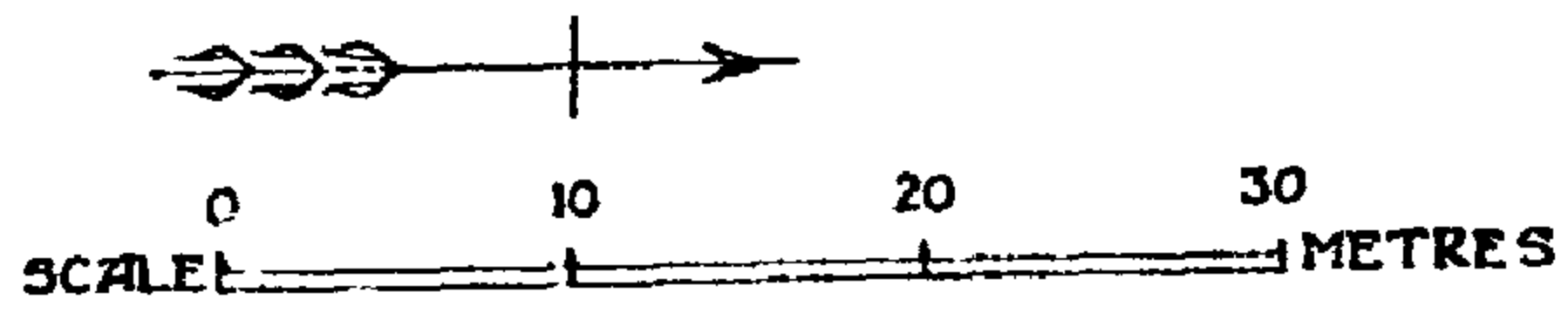


الشكل ٤١
معبد « كلابشة »

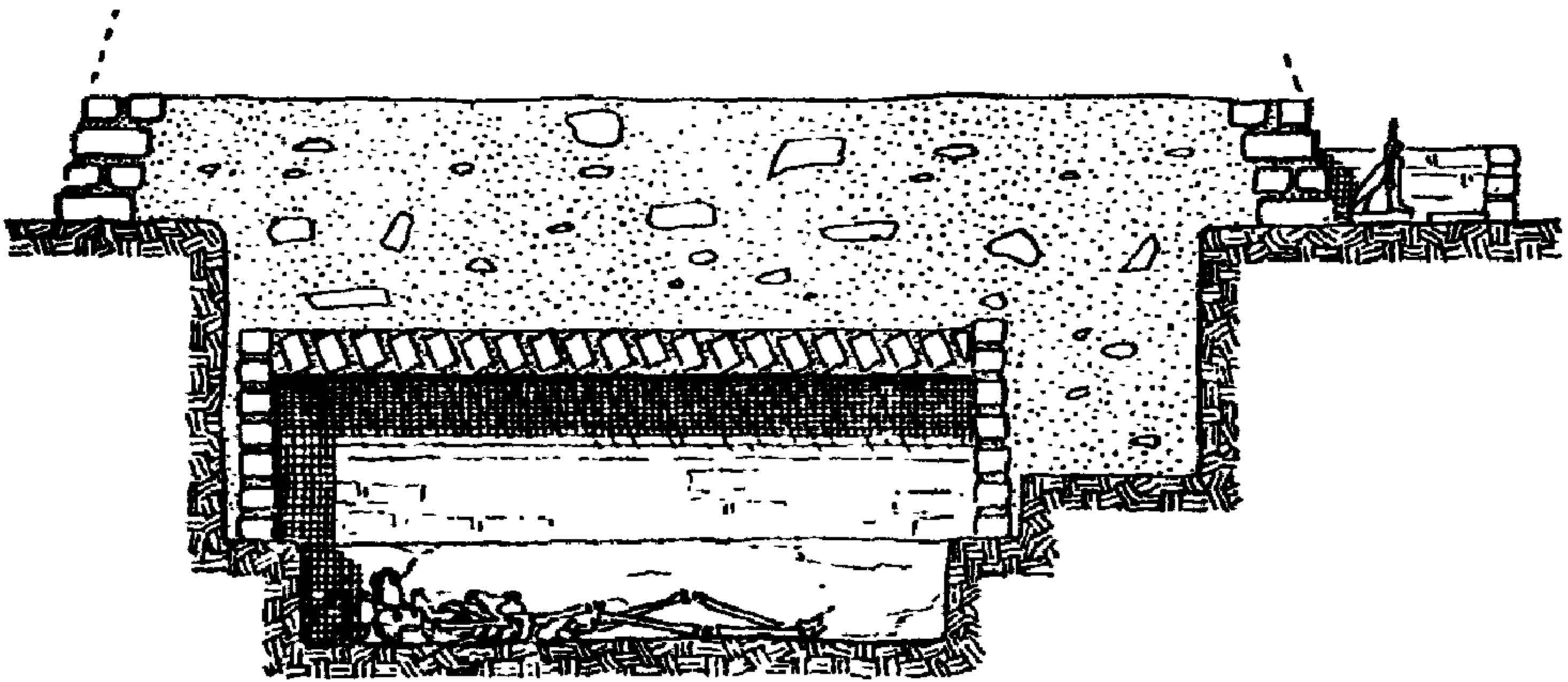
عصر الملك النوبى « أركامون » (ارجامنيس) كانت المنطقة كلها شمالا حتى « هيراسيكامنيوس » تابعة للإمبراطورية المروية . ووصولها شمالا حتى فييلة عرفت عند المصريين بـ « أرض الاثنى عشر فرسخا » وترجمته الاغريق بـ « دودكا سنخوينوس » . وهذه المنطقة أى «دودوكاسنخوينوس» كانت حينئذ مستعمرة كلها بالمصريين المحكومين من الفراعنة البطالمة . ومع أنها أصبحت لفترة ما تحت حكم مروي الا أنها كانت فترة قصيرة والبقايا الأثرية كلها تقريبا ذات طابع مصرى . وعلى أية حال، ففي عصر « بطليموس الرابع » ، يبدو أن سلطان الملك النوبى «أركامون» امتد على كل « الدودكاسنخوينوس » . شاملا فيله نفسها التى عثر فيها على آثار نقش عليها اسمه . أما فى « الدكة » فشيد المقصورة الداخلية للمعبد بينما أضاف بطليموس الرابع الفناء الخارجى أما الصالة التى تسبق قدس الأقداس فقد شيدها « بطليموس التاسع » عندما أعيد الحكم المصرى فى المنطقة ويبدو أن هذا المزيج الفريد من المجهود المعمارى الذى قام به الحكام النوبيون والمصريون كان تسوية ودية . على شكل تبادل مجاملات . ولكن أعتقد أن التحليل المقنع هو أنه فى وقت ما كان «أركامون» يقبض على « الدودكا سنخوينوس » ولكن ما لبث أن ضاع منه فيما بعد . وعلى أية حال فالعلاقات بين البلدين تبدو ودية وإلى الجنوب من « الدودكا سنخوينوس » المصرى نمت مستعمرة مزوية فى النوبة السفلى فى سلام . وبقي هذا الحال الطيب حتى موت كليوباترا (عام ٣٠ ق.م) فأصبحت مصر ولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية .

وسرعان ما أهتم الرومان بالنوبة السفلى وفى حكم الإمبراطور « أوغسطس » بنى معبد « كلايشة » الكبير وزيدت أجزاء فى مقاصير « دابود » و « دننور » و « دكة » . ويعتبر معبد « كلايشة » من أحسن معابد النوبة الباقية وكرس لاله النوبى « مندوليس » (شكل ٤١) وكانت المنطقة التى شيد فيها المعبد ذات أهمية دينية وهناك دلائل على وجود مقاصير سابقة شيدت فى عصر الأسرة الثامنة عشرة فى حكم « أمنحتب الثانى » ثم أعيد بناؤها فى حكم أحد الملوك البطالمة . مثل هذه الإنشاءات التى شيدها الرومان بعد استيلائهم على مصر بمدة قصيرة تظهر الأهمية التى أعطوها للنوبة . ومن الواضح أنهم فى هذا الوقت ، قصدوا مد الحدود جنوبا بعد المنطقة التى رضى عنها الملوك البطالمة .

وفي عام ٢٩ ق.م. وقع الوالى الرومانى « كورنيليوس جالوس » معاهدة مع رسل الملوك المرويين تنص على أن تصبح كل النوبة السفلى تحت حماية الرومان وفي الوقت نفسه تبقى جزءا من الامبراطورية المروية . وقطعا قبلت مثل هذه الاتفاقية تحت ضغط سياسى قوى ولا شك أن حكام مروى كانوا ينتظرون الفرصة السانحة التى ستمكنهم من الثأر . ولم ينتظروا طويلا ، فعندما أصبح الحكم الرومانى فى الشرق الأدنى مرتبكا بعد فشل الوالى الثالث « ايليوس جالوس » فى حملته العربية ، هجم النوبيون بجيش مكون من ثلاثين الفا وهزموا ثلاثة قبائل رومانية وهم الذين كانوا يكونون مفسكر الجندل الأول . وأخيرا احتلوا « سين » (أسوان) وحسب التقرير الرومانى لهذه الاحداث كان يقود الجيش المروى ملكتهم « كانداكى » . و « كانداكى » هى الكلمة المروية للملكة وربما تكون هذه السيدة المحاربة هى الملكة « أمايريناس » التى حكمت الامبراطورية النوبية فى هذا العصر . ولم يتم انتصارها لأن الوالى الجديد « جايوس بترونيوس » أسرع ومعه قوة بها عشرة آلاف من المشاة وثمانمائة خيال (فارس) فطردوا جنودها لقلعة سلاحهم عند « بيلكيس » (دكة) حيث هزموهم شر هزيمة . وانسحب ما تبقى من الجيش النوبى الى « بريمس » (قصر أبريم) وهناك فى هذا الجبل المحصن حاولوا أن يتركزوا . ولكن « بترونيوس » هاجم هذا الحصن المنيع ولم ينتصر الا لأن الدفاع لم يكن مهيا والقوة العسكرية كانت غير منظمة . ولم يقاوم النوبيون المنسحبون اذ أن حالتهم النفسية كانت متدهورة . وسرعان ما استسلمت « بريمس » أمام اكتساح الرومان . وبعد الهزيمة الثانية أصبح انسحابهم هزيمة انتهت بالاستيلاء على « نباتا » المركز الدينى والمدينة الثانية فى الامبراطورية المروية . وطلبت الملكة النوبية الصلح وسلم المعتقلون والسبابا المتخلفون عن الانتصار السابق الى « بترونيوس » الذى رجع الى مصر تاركا فرقة من اربعمائة رجل فى حصن « بريمس » الذى حدد الحدود - الجنوبية للامبراطورية الرومانية . ولكن بعد سنتين اضطر « بترونيوس » أن يرجع ليفك الحصار عن الحصن الذى حاصرته قوة نوبية كانت تريد أن تغزو الشمال وبعد فك الحصار عن قصر ابريم اضطرت الملكة النوبية الى التفاوض وأمرت بأن تبعث رسلا الى « ساموس » ليقابلوا الامبراطور نفسه . ومن الغريب أن أغسطس قابلهم بلطف وعادت الحدود الرومانية الى الحدود القديمة للدودكا سخونيوس عندهيرانسيكامنيوس . ولكن لم يتفق المرويون من



SCALE 0 1 METRE



الشكل ٤٢
مثل لقبرة « مروية »

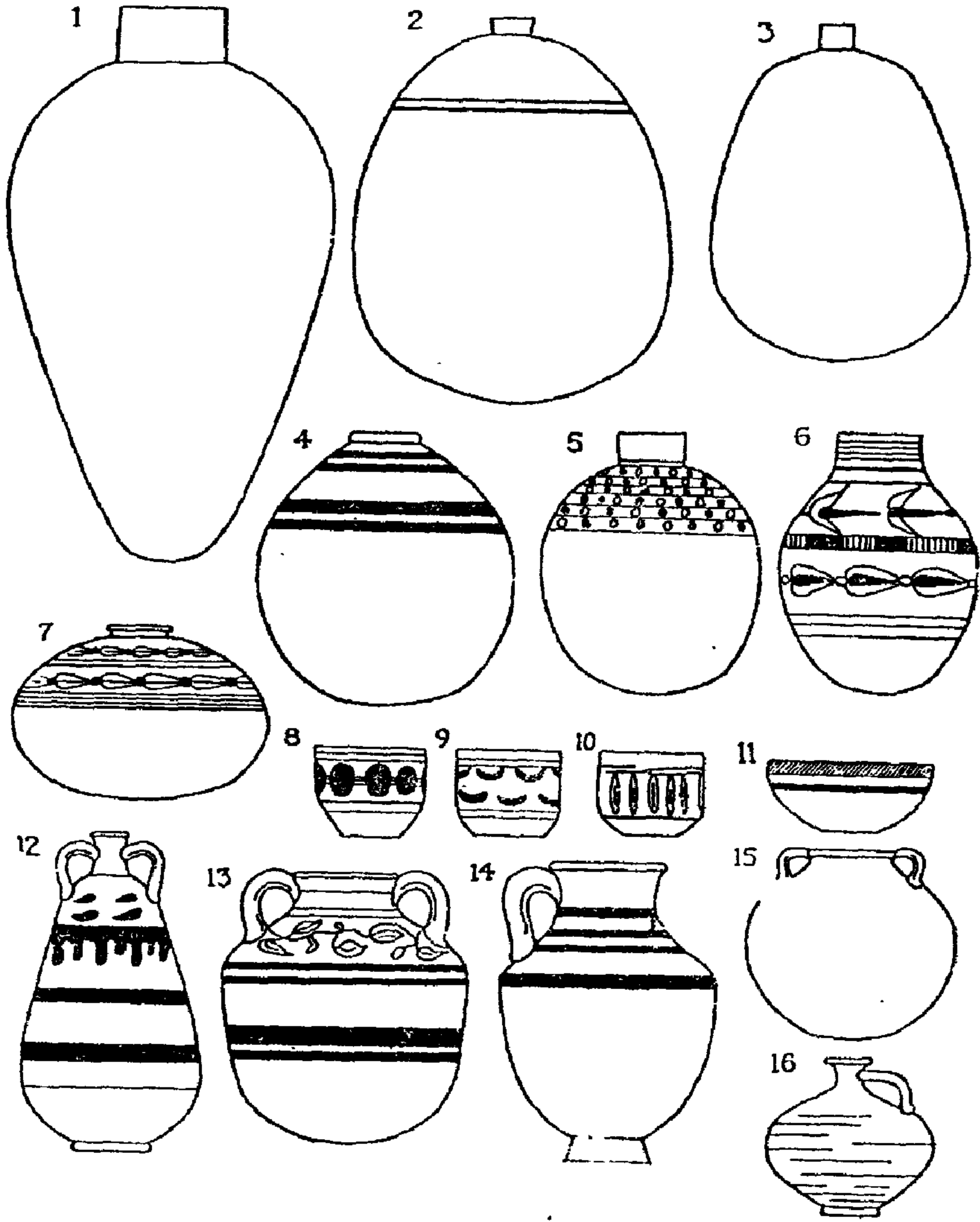
حروبهم مع روما ومع أن باقى النوبة كانت اسميا جزءا من إمبراطوريتهم
الا أن سلطتهم تلاشت بالتدريج .

وأقفرّت المدن والمستعمرات التى لم تخرب أثناء المعركة وأصبحت
مناطق كثيرة من البلاد غير أهلة بالسكان . ففى مراكز مهمة للحضارة
المروية مثل « كارانوج » لم يتبق الا ما يرجع الى الجزء الأول من القرن
الأول . والشئ نفسه يبدو واضحا بالنسبة للجبانات المروية المتعددة
اذ يمكن ارجاع تاريخ المقابر الفقيرة التى ترجع الى عصر متأخر فهى
متعددة ولكنها تظهر كل علامات التدهور السريع بالنسبة لسنوات
الرخاء قبل تدخل روما .

ان المقابر المروية الغنية التى عثر عليها فى النوبة عادة عبارة عن
نسخة مصغرة لمقابر الملوك والأمراء الموجودة فى جبانة مروي نفسها .
وهذه المقابر تتكون من حفرة كبيرة مستطيلة ذات افريز أو رف
يرتكز عليه أطراف سقف مقوس شيد من قوالب اللبن ويغطى بملاط
من الطين وأحيانا يستبدل الرف بجدران عمودية من قوالب اللبن
كسناد للسقف المبنى الذى يغطى الحفرة . والمدخل المؤدى لهذا الجزء
المقبى تحت الأرض يكون عادة عن طريق سلم صغير فى الجانب الشرقى .
أما الجزء الذى يعلو سطح الأرض فكان يبنى إما من اللبن أو يطن به
وكان على شكل هرم جوانبه شديدة الانحدار . ويزود الهرم بمشكاة
مبنية من قوالب اللبن أو مقصورة تحوى تمثال « الباء » وبقية القرايين
(شكل ٤٢) .

وكانت المقابر المتواضعة من نوعين : أما النوع الأول فيتكون من
ممر يوصل الى حجرة دفن منحوتة فى الصخر . وكان بابها مسدودا
بقوالب لبنية وقطع حجرية غير مشطوفة ويعلو حجرة الدفن هرم من
اللبن . أما النوع الثانى فيشمل حفرة بيضاوية لها كوة جانبية فى
الجانب الغربى وهذه كانت تحوى الدفنه .

وكان النوبي ، فى العصر المروى ، يدفن موتاه فى وضع ممتد على
ظهره ورأسه فى الغرب ولم يحاولوا تحنيط الجثث ولكن كان الجسم
يلف فى ملابس من الكتان أو الصوف . وكانت الدفنيات الغنية ، عادة ،
تضع ما يعرف بتمثال « الباء » ومائدة القرايين فى المقبرة . ووضع مائدة
القرايين طبيعى اذ انها امتداد للعادة المصرية التى تضع مذبحا صغيرا
خارج المقبرة تقدم فوقه قرايين مكونة من مأكولات ومشروبات للميت .
ولكن لا يزال معنى تمثال الباء غير مؤكد فليس لدينا مقابل له فى الطقوس



الشكل ٤٣ نموذج للفخار المروى

- ١ - ٣ - آنية حمراء
- ٤ - فخار أحمر ذو خطوط سوداء
- ٥ - آنية حمراء ذات رسوم حمراء وسوداء
- ٦ - آنية حمراء ذات رسوم بيضاء وسوداء
- ٧ - آنية حمراء ذات رسوم سوداء وحمراء فاتحة
- ٨ - آنية بنية فاتحة ذات رسوم سوداء
- ٩ و ١٠ - آنية بنية فاتحة ذات رسوم سوداء
- ١١ - آنية حمراء ذات رسوم سوداء وحمراء
- ١٢ - آنية حمراء ذات رسوم حمراء وصفراء
- ١٣ - آنية حمراء ذات رسوم حمراء وسوداء
- ١٤ - آنية حمراء ذات رسوم حمراء وسوداء
- ١٥ و ١٦ - آنية حمراء

الجنائزية المصرية القديمة . وبعض هذه التماثيل تمثل جسم آدمى ورأس طائر بينما بعضها يمثل شكل آدمى له أجنحة طائفة وتشابه هذه التماثيل صورة «الباء» التى كانت روح الانسان طائفة الى السماء بعد الموت والتى كانت ترجع من حين الى آخر لتزور بقايا الميت الموجودة فى المقبرة مما جعلت علماء الآثار يعتبرون هذه التماثيل المروية مماثلة لها . وربما يكون كذلك . ولكن يجب أن نراعى أن تكون هذه التماثيل صورة للميت من نوع تماثيل «الكاء» عند المصريين .

ولم يعثر الا على عدد قليل من المقابر المروية فى حالة جيدة فى النوبة فمعظمها نهب فى العصور القديمة والحديثة أيضا . ولكن المقابر التى عثر عليها كاملة لم يمسها أحد ، دلت ، بما تحويه من أدوات جنائزية على أن هؤلاء القوم قد عاشوا حياة على مستوى عال كله رخاء . وإلى جانب أشغال الخرز المتنوعة والأواني البرونزية والزجاجية وأدوات الزينة والآلات الحديدية والأسلحة الخ . نعب من نوع الفخار الجميل الذى جوته المقابر (شكل ٤٣) وكثير منها مثل الأباريق والأوعية والجراز ترجع الى أصل مصرى بطلنى أو على الأقل تقلد الأشكال الشمالية أما الأواني التى تعرف باسم الفخار الرقيق فهى مروية بحته فريدة من نوعها ترجع الى هذه الحضارة فقط أما الكاسات الصفراء الفاتحة والمزخرفة باللون الأحمر والأسود والبرتقالى فهى جميلة وتشهد مدن مثل « فرس » (بخورس) «وابريم» (شمالى) و «كارانوج» (أكن) على المستوى الحضارى العالى الذى عاشته النوبة قبل انسحاب السلطة المروية فى الشمال الذى أعقبه التدهور والخراب التام لمركز الامبراطورية حوالى منتصف القرن الرابع الميلادى .

الفصل العاشر

عصر المجموعة المجهولة

لم تتفق الامبراطورية المروية من الهزيمة الساحقة التي لقيتها على أيدي الرومان في عصر « بترونيوس » عام ٢٣ ق.م. وسع أن النوبة قد تمتعت بفترة من الرخاء تحت حكم الرومان في « الدود كاستخوينس » في الشمال والحكم الاسمي المروي في الجنوب الا أن فترة تغيير كبير كانت تقترب بسرعة . وهي الفترة التي احتلتها فيها مجموعتان من المحاربين والتي شهدت أيضا النزاع الأخير بين المسيحية والوثنية . وتعرف حضارة هذه الفترة ، التي انحدرت من الحضارة المروية ، عند رجال الآثار بالمجموعة (س) لاننا مازلنا لا نعرف إلى أي من الشعبين المقاتلين ترجع هذه الحضارة .

ولا شك أنه حتى أواسط القرن الثالث كانت النوبة • جنوبي « الدود كاستخوينس » لا تزال جزءا من الامبراطورية المروية المتدهورة . ومع ذلك فكان يحتل جزءا كبيرا منها شعب عرفهم الرومان باسم « بلمز » . ولا زالت معرفة أصل هؤلاء الناس أو كيف دخلوا النوبة ومن أين أتوا موضوع جدل . وهناك مسألة أخرى تعوقنا عن التعرف على هؤلاء

الدخلاء : فيبدو أن الكتاب الرومان والمسيحيين قد استعملوا لفظ «بلمز» ليشيروا الى كل سكان النوبة ، بنفس الطريقة التي وصف بها البريطانيون كل الاجناس المختلفة لناوئيمهم السودانيين تحت اسم (الدراويش) أثناء النزاع بين بريطانيا والمهدى فى آخر القرن الماضى .

وكما سنرى فى العصر الذى يقع بين القرنين الثالث والسادس الميلادى ، والذى انتعشت فيه حضارة المجموعة (س) ، كان يحتل النوبة جنسان مختلفان « البليمز » و «النوباتاي » ومع أن معظم المستندات تعتقد أن المجموعة (س) يجب اعتبارها نوباتاي فانى أعتقد أن حسب الحجج البحتة ، ان هذه الحضارة كانت تنتمى الى خصومهم الذين سماهم الرومان « البليمز » .

وكانت الامبراطورية المروية تضم بين رعاياها عدة اجناس ، ويشير « استرابو » أن « البليمز » كانوا من بينها . أما « اراستوثينيس » (عام ١٩ ق م) فيقول لنا أنهم عاشوا على الضفة الشرقية للنيل وأنهم كانوا رعايا أثيوبين (مرويين) وجيرانا للمصريين ولا نعرف الى أى مدى كانت البلاد محتلة جنوبا ولكن هناك وثيقة بطلمية تساند هذه الحقيقة وهى أنهم كانوا جيرانا للمصريين . فتشير الوثيقة أن رجلين عوقبا لاهمالهم عبادة « ازيس » ولشربهم النبيذ مع « البليمز » .

ويبدو أن البليمز احتلوا كل النوبة بالتدريج مع أنهم ربما بقوا رعايا مرويين الا أنهم فى منتصف القرن الثالث أصبحوا أقوىاء لدرجة أنهم هاجموا حدود الرومان فى عصر «دسيوس» مع أنهم طردوا فلم تؤخذ أى تدابير عقابية ضدهم . وفى الوقت نفسه انتهى كل اتصال بين مروى وروما لانه فى عام ٢٥٣ م بعث الملك المروى « تومن » سفراء برياسة « باسئون بن بايزة » الى « تريبونيس جالوس » حاملا هدايا لمعبد ازيس فى فيلة ونظن أن السبب الرئيسى لهذه السفارة كان استغاثة للمساعدة ضد القبائل البربرية (المتوحشة) للنوبة السوداء والذين كانوا يهددون مروى نفسها . وكانوا هم أنفسهم سبب نكسة مروى وسقوطها . ومع ان كل البقايا الأثرية فى النوبة فى تلك الفترة ترجع الى العصر المروى الا أن الأتباع « البليمز » حصلوا على استقلالهم بسبب الضعف الذى وصلت اليه الحكومة المركزية . وعلى أية حال فنجدهم فى عام ٢٦١ م يحاولون غزو مصر مرة أخرى ومع أن يوليوس ايميليانوس طردهم عند الجندل الأول فالظاهر أن نقطة « الدودكاسخونيس » بقيت فى حوزتهم .

وفي عام ٢٧٢ م استفاد « البليمز » من غزو أعلى « بالميرا » لمصر
وثورة المصريين تحت قيادة يوناني اسمه « فيمر » كان يتجر معهم .
فدخلوا مصر متحدين مع أعداء روما ووصلوا شمالا حتى « بطلمايوس »
(المنشية) و « كوبتوس » (فقط) التي احتلوها الى أن هزم « فيرموس »
و « البلميرين » على يد الامبراطور «أوريليان» وترك الامبراطور مصر تحت
قيادة « برويس » الذي واجه « البليمز » وأخذ يطردهم تدريجيا حتى
رجعوا الى النوبة في عام ٢٧٤ ميلاديا .

وهذه الهزيمة لم تؤثر في قوة « البليمز » المقاتلة لانهم اجتاحوا
مصر العليا بعد أن أصبح « برويس » امبراطورا في عام ٢٧٦ ميلاديا .
واحتلوا « بطلمايوس » و « كوبتوس » مرة أخرى . ولكنهم هزموا على
يد « برويس » أخيرا وأعاد حدود الامبراطورية الرومانية الى مكانها الأصلي
عند « هيراسيكانيس » (محرقه) ومن الجائز أن أهل مصر العليا
كانوا يميلون الى البليمز وكان أهل بطلمايوس يخالفونهم لان «زوزمايوس»
سجل أن « بطلمايوس » وطيبة قامتا بثورة وأصبحت حربا ناجحة في
البداية ولكن سحق « برويس » بطلمايوس نفسها والبليمز المحالفين
لها .

ولكن الإبقاء على منطقة «الدودكاسخونيس» كانت مهمة شاقة وأخيرا
في عام ٢٩٧ م قرر الامبراطور «ديوكليسان» أن ابقاء قوة دفاعية عظمى
لمراقبة « البليمز » المحاربين أمر غير ذي قيمة . وأعاد الحدود الرومانية الى
الجنبدل الأول وطلب من قوم عرفوا « بنوباتي » أن يحتلوا الأرض التي تركها
في النوبة الشمالية معتقدا أنهم سيكونون منطقة حرة بين مصر و «البليمز» .
« فالبليمز » حينئذ كانوا يسكنون بقية النوبة . اذن في المائتين وخمسين
عاما المقبلة احتل النوبة جنسان مختلفان . وترجع حضارة المجموعة من
الى احدهما فرجال الآثار لا يزالون غير متفقين في آرائهم .

ويعطى « بروكوبيوس » البيان التالي عن سياسة « ديوكليشان »
وعن الحوادث التي تبحث عنها :

« بين مدينة « أوكسوميس » (أيسنيا) حتى حدود الامبراطورية
الرومانية في مصر حيث المدينة المعروفة « باليفنتين » (أسوان) مسافة
ثلاثين يوما للمسافر ماشيا بسرعة . ويستقر في المنطقة الى جانب أجناس
مختلفة ، « البليمز والنوباتاي » ، وهم متعددون . ولكن « البليمز »
يستقرون في أواسط البلاد بينما « النوباتاي » يحتلون الجزء المجاور
للنيل . وفيما سبق ، لم تكن حدود البلاد ، تحت حكم الرومان ، تنتهي

هنا • ولكن كانت الحدود تمتد الى سفر سبعة أيام أخرى • عندما جاء الامبراطور « ديوكليشان » الى هنا لاحظ أن الجزية التي تدفعها هذه البلاد غير كافية لان الأرض هنا ضيقة وعلى مسافة قريبة جدا من النيل ويرتفع فيها الصخر الذى يكون بقية المنطقة فى هذه البلاد • وكانت قد استقرت فرقة عسكرية مهمة فى المنطقة لمدة طويلة فكانت أعباؤها حملا ثقيلًا على الخزانة • ولاحظ أيضا أن « النوباتاي » الذين استقروا حول مدينة الواحة (خارجة) كانوا ينهبون باستمرار كل ما فى البلاد • فأقنع هؤلاء البرابرة أن يتركوا مساكنهم وأن يستقروا على حوافى النيل ووعدهم أن يعطيهم مدنا كبيرة وأرضا واسعة أجود من التي كانوا يسكنونها من قبل • وظن أنهم بهذه الطريقة لن يزعموا منطقة الواحة كما أنهم غالبًا ما سيطردون « البليز » والبرابرة الآخرين • وبعد أن رضى « النوباتاي » بهذا الأمر بدعوا فى الرحيل بسرعة الى المناطق التي أقطعهم اياها ديوكليشان واستولوا على المدن الرومانية على ضفتى النيل ابتداء من « اليفنتين » • ثم قرر الملك أن يعطيهم وكذلك « البليز » كل سنة مبلغا محدودا من الذهب على شرط ألا يغيروا وينهبوا الحدود الرومانية • وظلوا يأخذون هذا المبلغ ، ولكنهم مع ذلك ظلوا يغيرون على هذه المنطقة لأنه من المستحيل أن تجعل البرابرة يتحالفون مع الرومان الا خوفا من الجنود • وعندما وجد الامبراطور جزيرة فى نهر النيل بجوار مدينة اليفنتين وضع فى هذه الجزيرة معسكرا قويا وبنى بعض المقاصير والمذابح الرومانية والمستعملة عند هؤلاء البرابرة • ووضع الكهنة من كل قوم فى هذا الحصن معتقدا أن الصداقة بينهم ستقوى لوجود كهنوت مشترك ولذلك سمى المنطقة فيلة • وهؤلاء القوم البليز والنوباتاي يعبدون كل الآلهة الأخرى التي يعبدونها الأغريق علاوة على ازيس وأوزيريس وخاصة « بريابوس » هذا ، غير أن البليز يقدمون الرجال قربانا للشمس •

ان ما قاله « بريكوبيوس » من أن البليز استقروا فى أواسط النوبة بينما النوباتاي عاشوا على ضفاف النيل جعل بعض العلماء يعتبرون أن البليز عاشوا فى المناطق الصحراوية وان أعداءهم كانوا أكثر مدنية وعاشوا فى المناطق الحصينة من البلاد • ولكنهم لم يتعدوا منطقة « الدودكاسخوينوس » ويظهر ذلك بما قيل عن « ديوكليشان » من أنه أمر النوباتاي أن يحتلوا المدن الرومانية على ضفتى النيل ابتداء من « اليفنتين » ولم تكن توجد مدن رومانية جنوبى « الدودكاسخوينوس » • ان حديث المؤرخ عن البليز الذين يضجون بآدميين للشمس يسترعى الانتباه بعد العثور على مقابر ملوك المجموعة (س) فى «بلانة» و «قسطل»

التي عثر فيها على ضحايا بشرية كعادة طبيعية . ان جنس النوباتاي غير مؤكد ولا يمكننا الا أن نرضى بما يقوله « بريكوبيوس » من أنهم في هذا الوقت كانوا قوما محاربين يحتلون منطقة الواحة في الصحراء الغربية . ويرجح البعض أنهم فرع من قبائل « النوبا » الذين انتقلوا من كردفان ، وطنهم الأصلي ، نحو الشمال قبل بداية العصر المسيحي بقليل . قاستقروا في الواحة تاركين الجزء الأكبر من جنسهم يغزو منطقة الجزيرة ويقضي في النهاية على الامبراطورية المزوية في القرن الرابع الميلادي . وبالإضافة الى ذلك فلقد عرفوا بالبربر الليبيين كما اعتبروا أنهم من نباتا العاصمة الأصلية لكوش . ومهما يكن الأمر فيبدو أن « النوباتاي » نفذوا خطة « ديوكليشان » ولم تصل إلينا أية معلومات عن معارك ذات أهمية ضد الحدود الرومانية حتى دخول المسيحية على يد « قسطنطين » الأول (٣٢٣ - ٣٣٧ ميلاديا) فوضعت أسس الحروب النهائية التي وقف فيها « البليز » المنتصرون في صف الوثنية القديمة . وفي عام ٣٩٠ م أصدر « ثيودوزيوس » بياناً لاجبار الناس في مصر على اعتناق المسيحية وأغلق المعابد ومنها بالطبع معبد ازيس على جزيرة فيلة حيث كان « البليز » و « النوباتاي » يتعبدون . وكان من نتيجة هذا الاجراء أن نشبت الحرب وأصبحت النوبة المقر الأخير للمعتقدات القديمة .

وفي هذا الوقت تقريبا زار المؤرخ اليوناني « أولبيودورس » إقليم « البليز » وبما أنه كان وثنيا ، فقد استقبل بترحاب . وتسجيل هذه الزيارة ذو قيمة لانه يوضح أن النوبة العليا كانت أرضا تابعة للبليز في عصر تثبت فيه البقايا الأثرية ان حضارة المجموعة س كانت تزدهر في كل المنطقة وان ملوك هذه المجموعة كانوا يحكمون من عاصمة تجاور مقابرهم في « بلانة » و « قسطل » . وهذا النص المهم يروى لنا :

« يقول المؤرخ أنه بينما كان في منطقة « طيبة » و « سين » (أسوان) يقوم بأبحاث تاريخية كان كهان البرابرة ، أي « البليز » في منطقة « تلميس » ، يفكرون في مقابلته لشهرته فيقول « وأخفوني ، حتى تلميس نفسها حتى اننى درست كل هذه المناطق التي تبعد عن « فيلة » بنحو خمسة أيام الى أن يصل جنوبا الى مدينة « بريما » (ابريم) وهي أول مدينة تتبع طيبة يقابلها في منطقة البرابرة ولذلك سماها الرومان في لغتهم « بريما » أي ، الأولى . ولا زالت تسمى بهذا الاسم مع أن البرابرة قد استولوا عليها من زمن هي ومدن أخرى مثل « فينكون » ، و « كريس » و « تافيس » و « تلميس » . ويقول انه سمع في هسنه

البلاد عن وجود مناجم الزمرد لذلك كان الزمرد متوفرا عند ملوك مصر ويقول ان الكهنة سمحوا لى أن أرى هذه المناجم التي لم يكن يسمح برؤيتها الا باذن ملكى . »

ان اشارة « أولمبيودورس » الى « البليمز » ووجودهم فى منطقة تلميس (كلابشة) يوحى بأنه فى هذا التاريخ (٤٠٧ - ٧٢٥ م) كانت منطقة «الدودكاسخوينوس» فى أيديهم وربما كانوا قد تحالفوا مع النوباتائى وتوجهوا نحو الشمال ردا على تحدى المسيحية . أما الرواية المهمة الأخرى التى ذكرها المؤرخ فهى ضرورة الحصول على الاذن الملكى بزيارة مناجم الزمرد . فهى تشير الى أن البليمز كانوا مجموعة من القبائل الصحراوية كما يعتقد البعض ، ولكن كانت هناك سلطة منظمة تحكم منطقة واسعة . وفى نضالهم ضد المسيحيين انتصر البليمز أولا وفى أواسط القرن الخامس الميلادى كانوا قد غزوا طيبة وحاصروا المسيحيين فى الأديرة . واستعان « بيون » أسقف اليفنتين بالامبراطور « ثيودوسيوس » طالبا المساعدة من البليمز والنوباتائى . ويدل هذا على أن الشعبين أصبحا متحدين فى عدائهم المشترك للمسيحية وكانت تساعدهم ، دون شك ، عناصر وثنية من سكان الأرض المحتلة أسهموا معهم فى وضع نوع من الحكومة المدنية نعرف وجودها من ثلاث وثائق كتبت باليونانية المروية . ويبدو أن هذه الوثائق قد عثر عليها فى « جبلين » وهى الآن فى المتحف المصرى . واحدى هذه الخطابات المترجمة تلقى ضوءا مثيرا على الحالة السيئة التى كان فيها الرومان فى طيبة حينئذ . ونقرأ :

«أنا «كاراكن» ملك البليمز الصغير ، أكتب الى أطفال «شارادون» ، «شارابتكور» و «شاراهيت» . انى قد أصدرت اليكم أمرى بتنظيم الجزيرة المعروفة بـ « تنسار » ولن يعوقكم أحد وفقا لأوامرى واذا قام الرومان بالمضايقات ولم يدفعوا الجزية فلن يمنعكم فيلارك ولا « هيبوتيرانوس » من أن ترغموا الرومان على دفع الجزية الطبيعية عن جزيرتى .

« كاراكن » الملك الصغير

« لايز » دومستيكيوس ، شاهد

« تويتكنا » ، دومستيكيوس ، شاهد

وهناك خطاب ثان بعثه ملك « بليمى » صغير اسمه « باشيتمسن » يعين فيه كاهنا اسمه بوا مديرا لجزيرة تانار التى كانت تقع بالقرب من منطقة جبلين .

ولكن لم يدم الأمر على هذا الشئوال . ففي عام ٤٥٢ م تأخر الامبراطور «مارسيانوس» في اتخاذ الخطوات اللازمة لحماية شعبه المصري . فتوجه قائده «ماكسيموس» لمحاربة «البليز» و «النوباتاي» المشتركة وهزمهم هزيمة منكرة حتى انهم توسلوا اليه طالبين السلام . ونحن ندين لتقرير «برسكوس» الذي سجل فيه الشروط المهينة التي اضطروا الي قبولها :

« ان «البليز» و «النوباتاي» بعثوا رسلا الي «ماكسيموس» يمثلون الأمتين طالبين هدنة للصلح . وقالوا أنهم سيحافظون على هذا السلام طوال مدة وجود «ماكسيموس» في طيبة وعندما لم يرض بهدنة لهذه الفترة من الزمن قالوا انهم لن يحملوا السلاح طوال حياته . وعندما لم يرض حتى بالاقترح الثاني وقعوا على هدنة سلام لمائة عام وافق فيها على أن يفك سراح الرومان الأسرى الذين قبض عليهم في هذه الحملة أو أي حملة أخرى من غير فدية وأن يردوا الأغنام والماشية التي أخذوها . وأن يدفعوا تكاليف الحرب ويسلموا أبناء العائلات الراقية كأسرى لضمان وجود الهدنة وطلبوا حسب العادة القديمة المرور الى معبد «ازيس» بدون قيود . وستكون المركب المستعملة لنقل تماثيل الآلهة تحت تصرف المصريين . فهؤلاء البرابرة يأخذون تماثيل الالهة في أوقات معينة الى بلادهم ويستعملونها للوحي ثم يرجعونها الى الجزيرة .

واعتبر «ماكسيموس» أنه من المرضى أن يصدق على المعاهدة في « فيلة » وبعث ببعض مثليه (الرومان) الى فيلة وكان أيضا ممثلو «البليز» و «النوباتاي» الذين سيصدقون على الهدنة حاضرين في الجزيرة . وبعد توقيع ما رضوا به سلم الأسرى الذين كانوا حكاما قدامى أو أبناء الحكام القدامى . فكانت واقعة لم يحدث أبدا أن أطفال «النوباتاي» و «البليز» أعطوا سبائا للرومان . ومرض «ماكسيموس» ومات ولما سمع البرابرة بموت «ماكسيموس» غزوا البلاد وأخذوا أولادهم .

واذا اعتبر «ماكسيموس» المسيحي أنه من السياسة أن يسمح للوثنيين بأن يمارسوا عبادتهم في « فيلة » فان هذا يعني أن نجاحه العسكري لم يكن شاملا ومن الواضح أن «البليز» كانوا لا يزالون قوة يعترف بها . والدليل على ذلك أنه بعد موت «ماكسيموس» ، اعتقد «فلورس» ، حاكم الاسكندرية ، أنه من الحكمة أن يتقاضى عن انقاذ الأسرى وأن يرضى نفسه بطرد الغزاة من الأراضي المصرية .

ولكن كان مصير الوثنية و «البليز» محتوما لأن تغفل المسيحية التدريجي بين «النوباتاي» جعلهم أصدقاء لروما بصرف النظر عن الهجمات

الصغيرة فالسلام الذي طلبه « ماكسيموس » يبدو أنه بقى لأكثر من ثمانين سنة .

لقد حدثت الدعوة لآخر معركة فى عام ٥٤٠ م عندما اهتدى ملك « النوباتاي » الى الدين المسيحى على يد المبشر « جوليان » وكانت الامبراطورة « ثيودورا » قد بعثته خصيصة لهذه المهمة . وأغلق معبد « فيلة » وبعثت تماثيل الالهة الى « قسطنطينية » . وكانت النتيجة المحتومة هى الحرب ضد « البليز » . ولا نعرف تفاصيل عن هذه المعركة ولكن انهزام « البليز » فى النوبة سجلها الملك « سلكو » فى لوحة باللغة اليونانية الركيكة على جدران معبد « كلابشة » (تلميس) ويبدو أن « سلكو » ، ملك « النوباتاي » ، كان الملك الذى اهتدى الى المسيحية وتختلف ترجمة هذا النص كما أن تفسيره صعب ولكن هناك حقيقة واقعة : هى أن « سلكو » قام بعدة حملات ضد عدوه الوثنى وانتهى الأمر بأن هزمه .

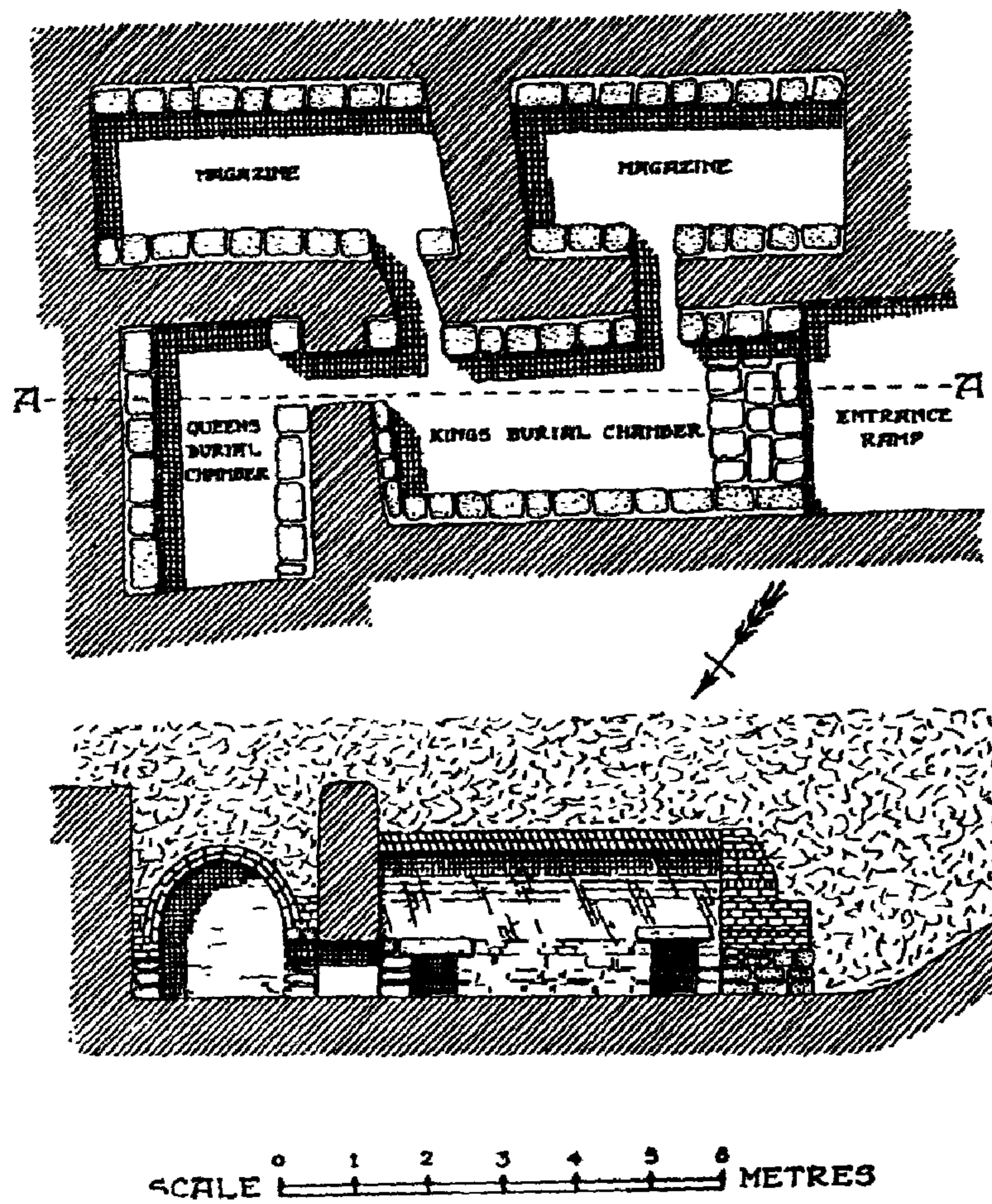
« أنا » سلكو ، الملك الصغير « لنوباتاي » وكل الأثيوبيين . ذهبنا الى « تلميس » و « تافيس » . لقد حاربت « البليز » مرتين ونصرني الله . وبعد ثلاث مرات انتصرت واحتللت مدنهم . واستقرت هناك مع جيوشى . فى المرة الأولى غزوتهم وتوسلوا الى . . وصالحتهم وأقسموا بمعبوداتهم ووثقت بقسمهم لاننى ظننت أنهم رجال شرفاء . فذهبت الى البلاد العليا وعندما أصبحت ملكا صغير لم أتبع الملوك الآخرين ولكنى كنت فى مقدمتهم . فاذا أراد أحدهم أن يتشاجر معى فلا أتركه يجلس فى بلده الا اذا كان يتوسل الى ويتضرع لاننى أسند فى البلاد السفلى وغزال فى البلاد العليا . لقد حاربت البليز من « بريمس » الى « تليس » مرة و (مع) « النوباتاي » الآخرين فى البلاد العليا . لقد أغرت على بلادهم ونهبتها لانهم أرادوا ذلك . ان أسياى البلاد التى تقاتلنى لا أتركهم يجلسون فى الظل بل فى الخارج فى الشمس . ولا يشربون المياه فى ديارهم . فأعدائى أخطف نساءهم وأطفالهم .

الى أى مدى كان الرومان يساعدون « سلكو » ، هذا ما لا نعرفه . ولكننا نعرف أن انتصاراته انتهت بهزيمة « البليز » كولاية ومعهم ذهبت آخر الاعتقادات الدينية والمبادئ الفرعونية المصرية . واذا اعتبرنا أن المجموعة (س) هم « البليز » فيلاحظ أنه فى وقت غزو « سلكو » تشير

الأبحاث الأثرية الى أن حضارة هذه المجموعة كانت تتقهقر واختفت أخيرا واستبدلت بالحضارة النوبية المسيحية التي اختلفت عنها تماما .

ولنفحص بقايا حضارة المجموعة (س) التي عثر عليها في النوبة حتى الآن . ولم يبق الكثير من المدن والقرى التي ترجع الى هذا العصر لانها كانت في وجودها ملاصقة للنهر ، وغير هذا ، فلقد كثر البناء فيها في العصور المتأخرة وخربت الى درجة أن الأرض التي كانت معمرة أصبحت صالحة للزراعة . ان المناطق الحصينة في النوبة قليلة الى درجة أن كل شبر من الأرض يعتبر شيئا ثميناً . والنتيجة أنه بعد الحروب أو الظروف السياسية كانت المستعمرة أحيانا تترك وتهجر فتحطم أبنيتها . وتستعمل المنطقة لزراعة محاصيل يحتاجون اليها بشدة . ولكننا أحيانا نجد أن أهل المجموعة س قد أقاموا مدنهم في أراضٍ جدياء وراء الأرض الحصينة التي كانت تحدد النيل . ومثل هذه المستعمرات أسفرت بعد التنقيب عن أساسات المنازل التي ترجع الى ذلك العصر والتي تشهد على حسن بنائها وتنظيمها مما يدل على انتمائها الى مجموعة متحضرة ومنظمة . ومثل هذه المدن عثر عليها في « كارانوج » و « وادي العرب » ولا بد أن المدينة المحصنة « ابريم » (برئيس) والتي كان المرويون قد بنوها - كانت بها مبان شيدت في عصر المجموعة س . ولكن هذه الأبنية ، ان وجدت ، فقد أصبحت أنقاضا تجت المبانى التي شيدها السكان فيما بعد ، وعلى أية حال فحفائر جمعية التنقيب في مصر والتي تزاوّل عملا في المنطقة الآن لابد أنها ستظهر أبنية يمكن ارجاعها اليهم .

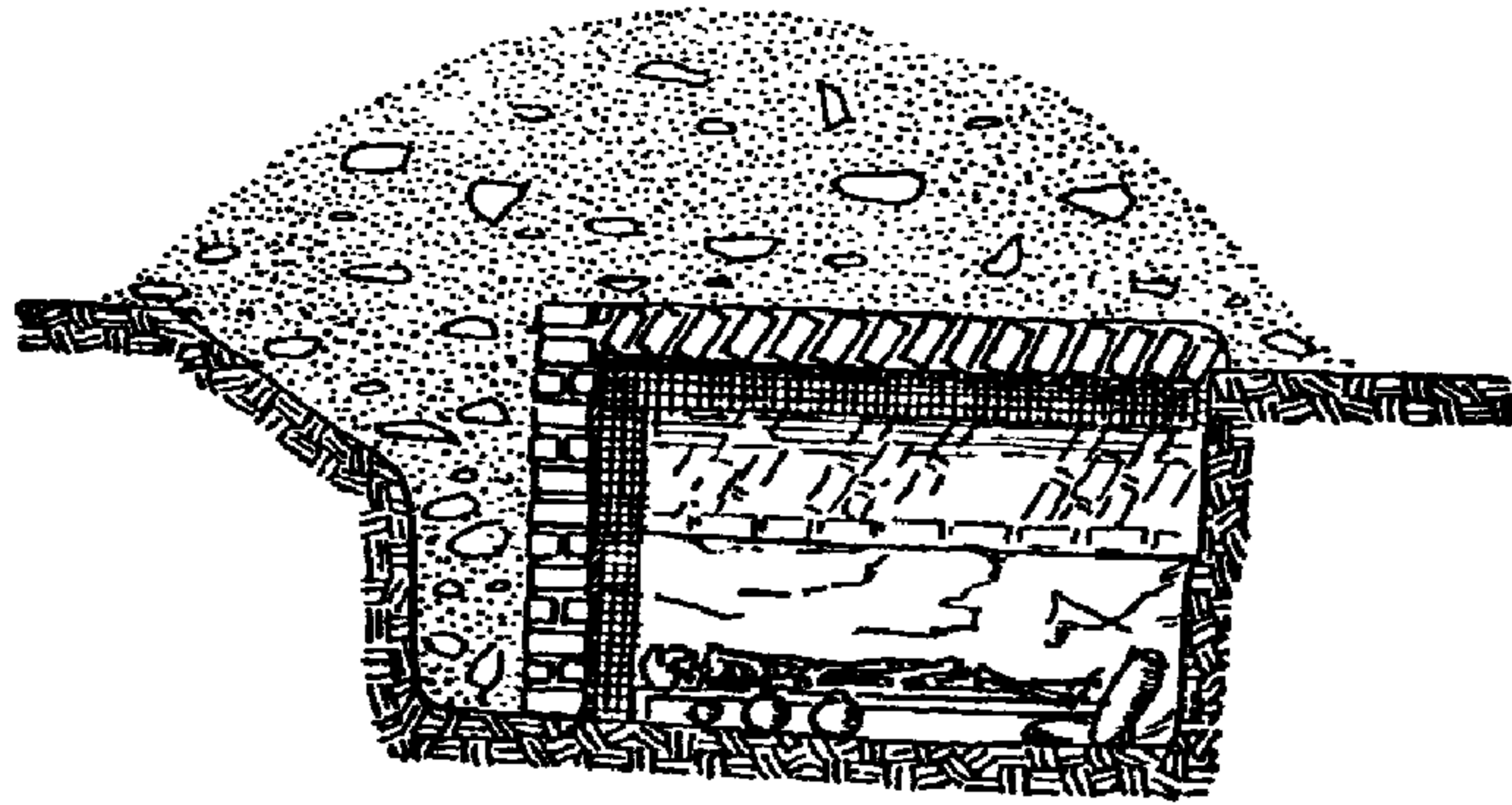
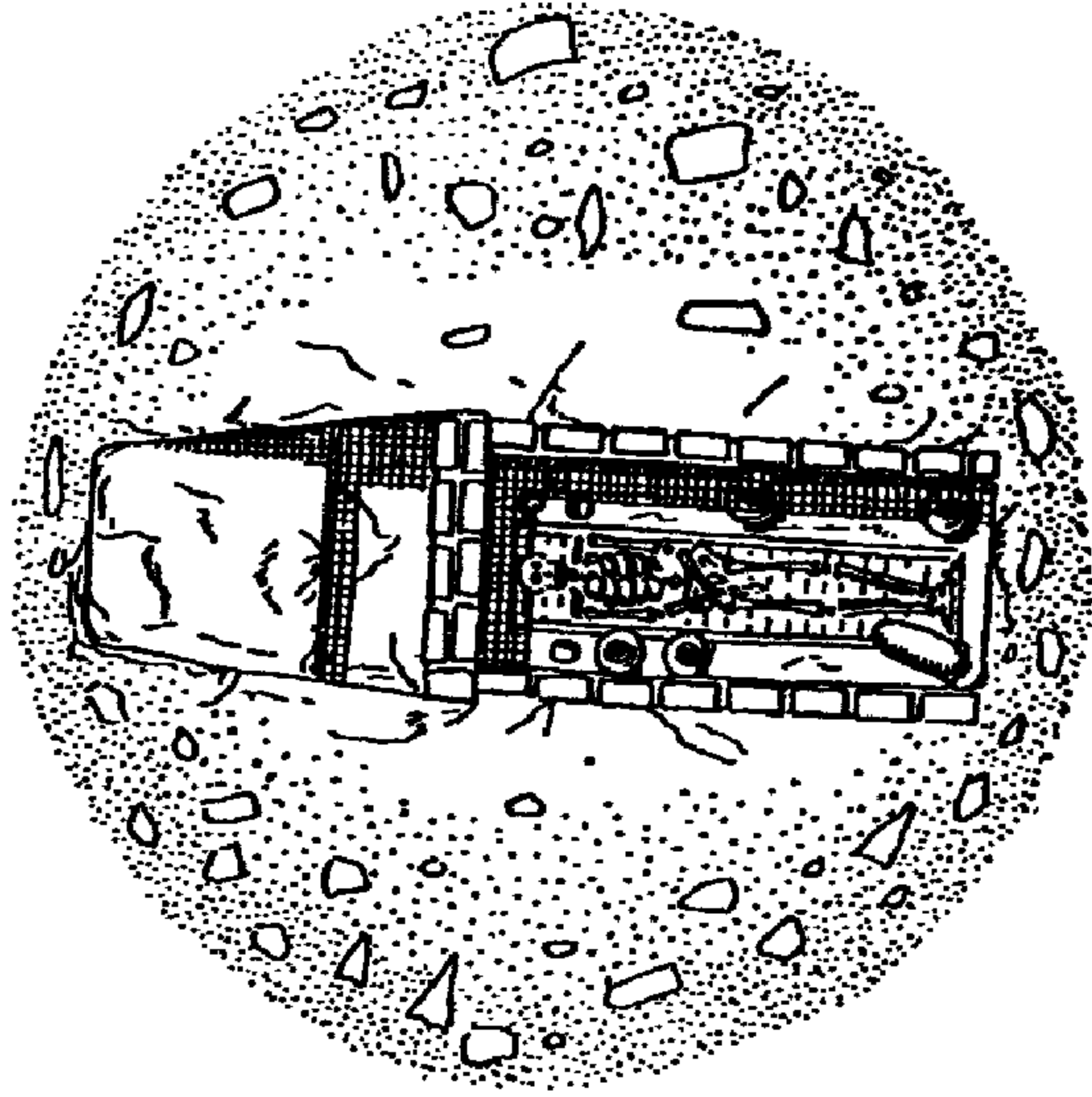
ومع أن مقابر ملوك المجموعة (س) والاشراف عثر عليها في « بلانة » و « قسطل » (انظر صفحات ٥٧ - ٩٠) فانه لم يعثر على عاصمتهم بعد . ولا بد أنها كانت موجودة قريبا من الجبانة الملكية . وعندما تم الكشف عن المقابر ، عثر على بعض البقايا لعمائر بالقرب من شاطئ النهر في « بلانة » ولكن أثبت الفحص أن هذه الأبنية ترجع الى عصر متأخر بالنسبة لعصر المجموعة (س) ويبدو أنها كانت ترجع الى العصر المسيحي . وعلى مسافة قريبة شمال « قسطل » نجد المدينة المحصنة « عدة » . وفي الغالب أن هذه المدينة هي العاصمة المفقودة لهؤلاء القوم . فلقد شيدت المدينة على تل تحيط بها جبانة واسعة . ولكن ، لسوء الحظ ، مثل « ابريم » ، كثر البناء فوقها في عصور متأخرة ويجب حفرها وفحصها فحصا دقيقا . وعلى أية حال ففي الجبانة المجاورة نجد دفنات متعددة على شكل كومات صغيرة تبدو




الشكل (٤٤)

أنها من أصل المجموعة س ولذلك نعتقد أن « عدة » كانت مقر الملوك الذين حكموا النوبة فى القرن الرابع والخامس والسادس قبل الميلاد .

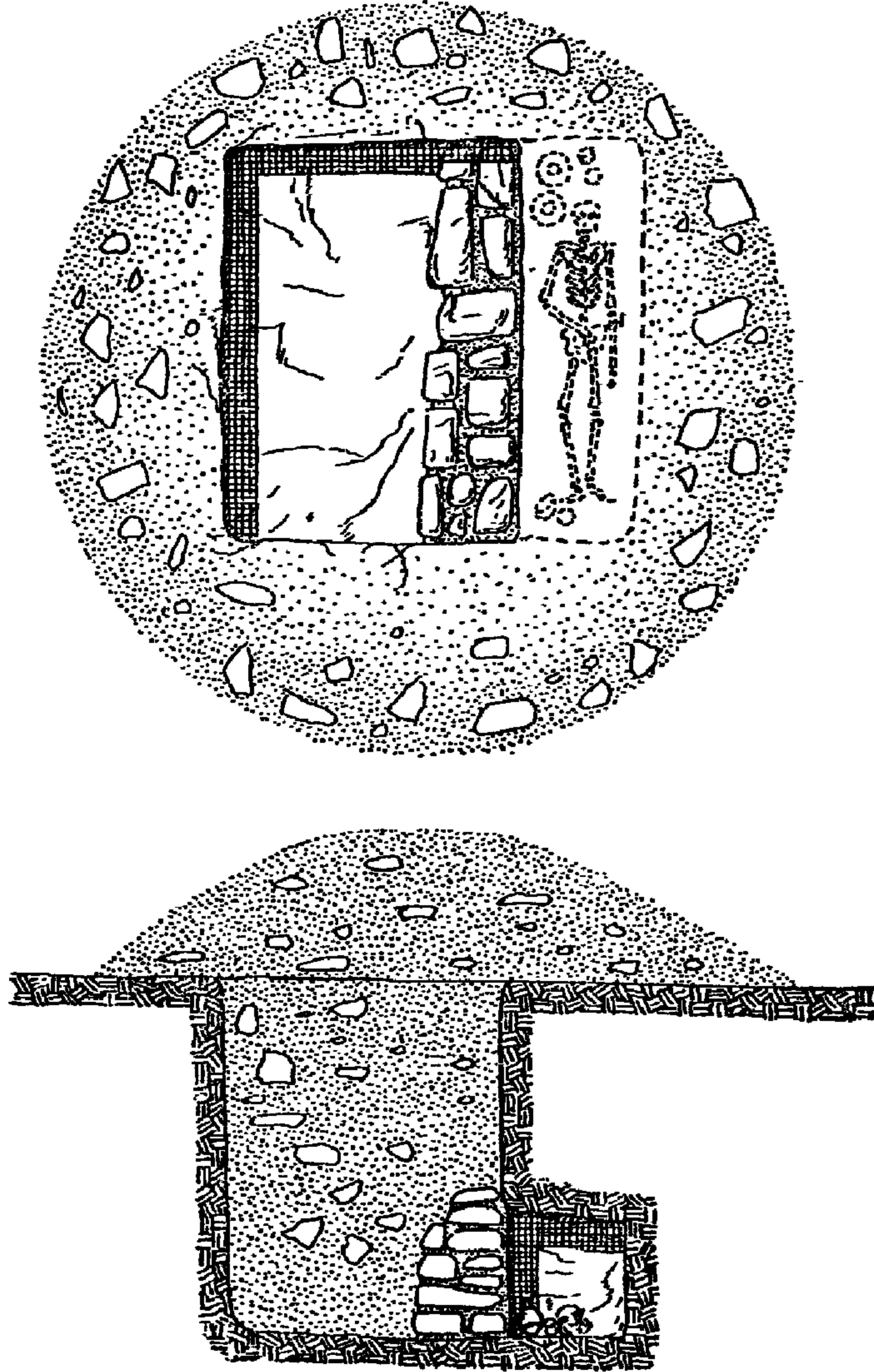
والى جانب المقابر الكبيرة للملوك المجموعة (س) والتي وصفتها فى الفصل الثالث من الباب الثانى فلقد كشف عد جبانات ترجع الى هؤلاء الناس (شكل ٤٤) ولذلك فمعلوماتنا كثيرة عن شكل مقابرهم ومحتوياتها وهى تشير الى أى مدى كان هؤلاء الناس منظمين ولهم معتقدات جنائزية واضحة لا تختلف كثيرا عن منطقة وادي النيل التى تمتد الى مسافة تبلغ ثلاثمائة ميل . ومع أن الجزء الذى يعلو سطح الأرض فى مقابر المجموعة س يختلف عن المقابر المروية فى أن الهرم المبنى أعطى مكانا لكومة مستديرة من الطين أو من قطع الحجر ، إلا أن الجزء المنقور فى الأرض بقى هو نفسه بكل تفاصيله ولا شك فى أن الحديث قد انحدر من القديم . ان المقابر المغطاة بكومة والتي كانت لعامة الناس تنقسم الى ثلاثة أنواع : ونراها على الأشكال ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ . وكان اتجاه الجسد يختلف كما كانت تختلف أيضا طريقة وضعه . فنجد بعضها مقرفص أو نصف مقرفص بينما نجد أيضا الجسد الممتد أو الموضوع على الظهر أو على الجانب . وتحوى المقبرة أواني فخارية مختلفة الأحجام الكبيرة جدا والصغيرة جدا وكلها منقوش بنقوش زاهية الألوان تشبه النوع المروي الرقيق الجوانب (شكل ٤٨ ، ٤٩) وقد عثر فى المقابر الأكثر ثراء على مصابيح برونزية وأوان وأدات للزينة وصناديق خشبية مطعمة بالعاج وأوان زجاجية وأدوات من الحديد وأسلحة ، أى كل ما كان يمكن أن يحتاجه الميت فى الحياة الثانية . وكان الجسد يلف عادة فى ملابس من الكتان والصوف وأحيانا يوضع على سجادة أو على سرير خشبي غير مرتفع . أما الفقراء فكانوا يدفنون معهم بعض الأواني الفخارية وأكوابا للشرب وأطباقا مليئة بالماكولات .



SCALE  METRE

الشكل (٤٥)

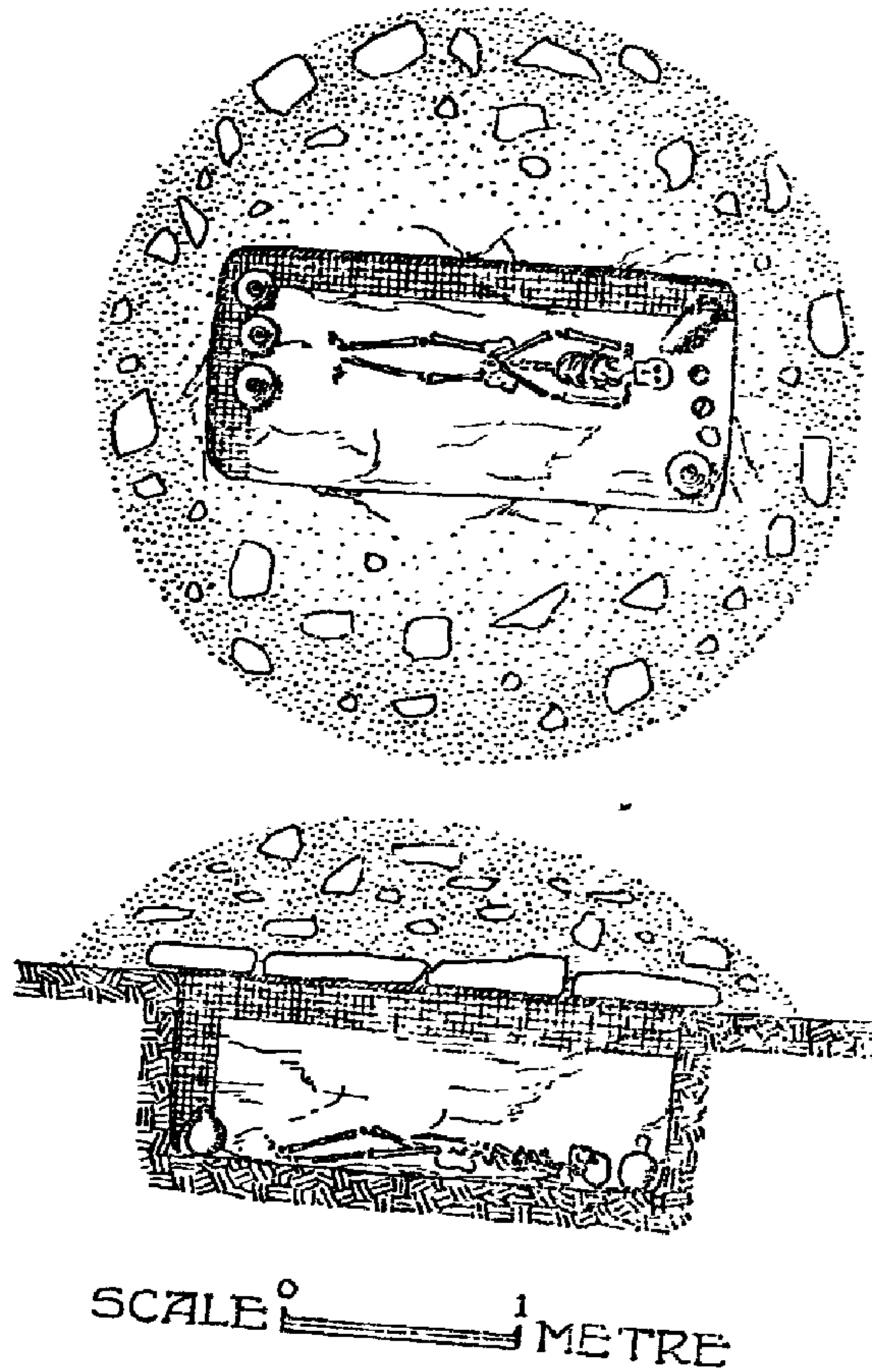
ونرجع الى السؤال المحير : من هم أهل المجموعة (س) « البليميز » أم « النوباتاي » ؟ ليس فى نيتى أن أكتب بالتفصيل عن هذا الموضوع الذى لا يزال موضع جدل لكثير من رجال الآثار . وهو موضوع يمكن أن تطرأ عليه دلائل جديدة فى أى وقت عن طريق معول الحفار . الا أننى أعتقد أنه لن يكون خارج الموضوع الآن أن أفحص ما نعرفه عن أهل هذه المجموعة من نتائج الحفائر الحديثة :



الشكل (٦)

نموذج لقابر من المجموعة الجهولة (x)

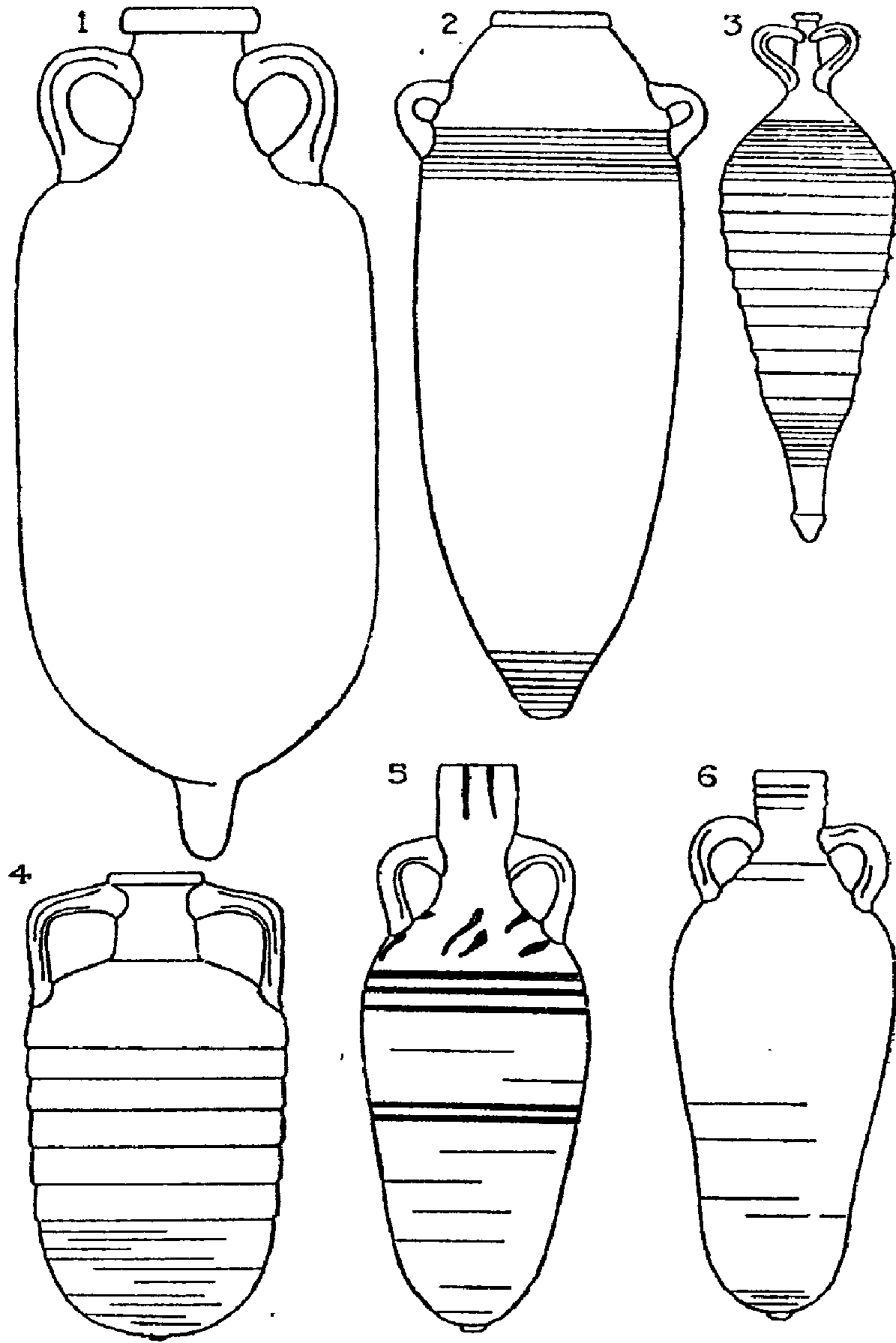
- ١ - كانت أجناسهم تنحدر من أصل مختلط قريب من المرويين ولكن من عنصر زنجى أقوى .
- ٢ - لقد احتلوا الجزء الأكبر من النوبة العليا والنوبة السفلى منذ عام ٢٥٠ ميلادية حتى ٥٥٠ ميلادية .
- ٣ - دفن ملوكهم فى مقابر يعلوها كومة كبيرة فى «بلانة» و «قسطل» .
- ٤ - يبدو أن مقر حكومتهم كان بالقرب من «بلانة» و «قسطل» .



الشكل (٤٧)

نموذج لمقابر من المجموعة المجهولة (x)

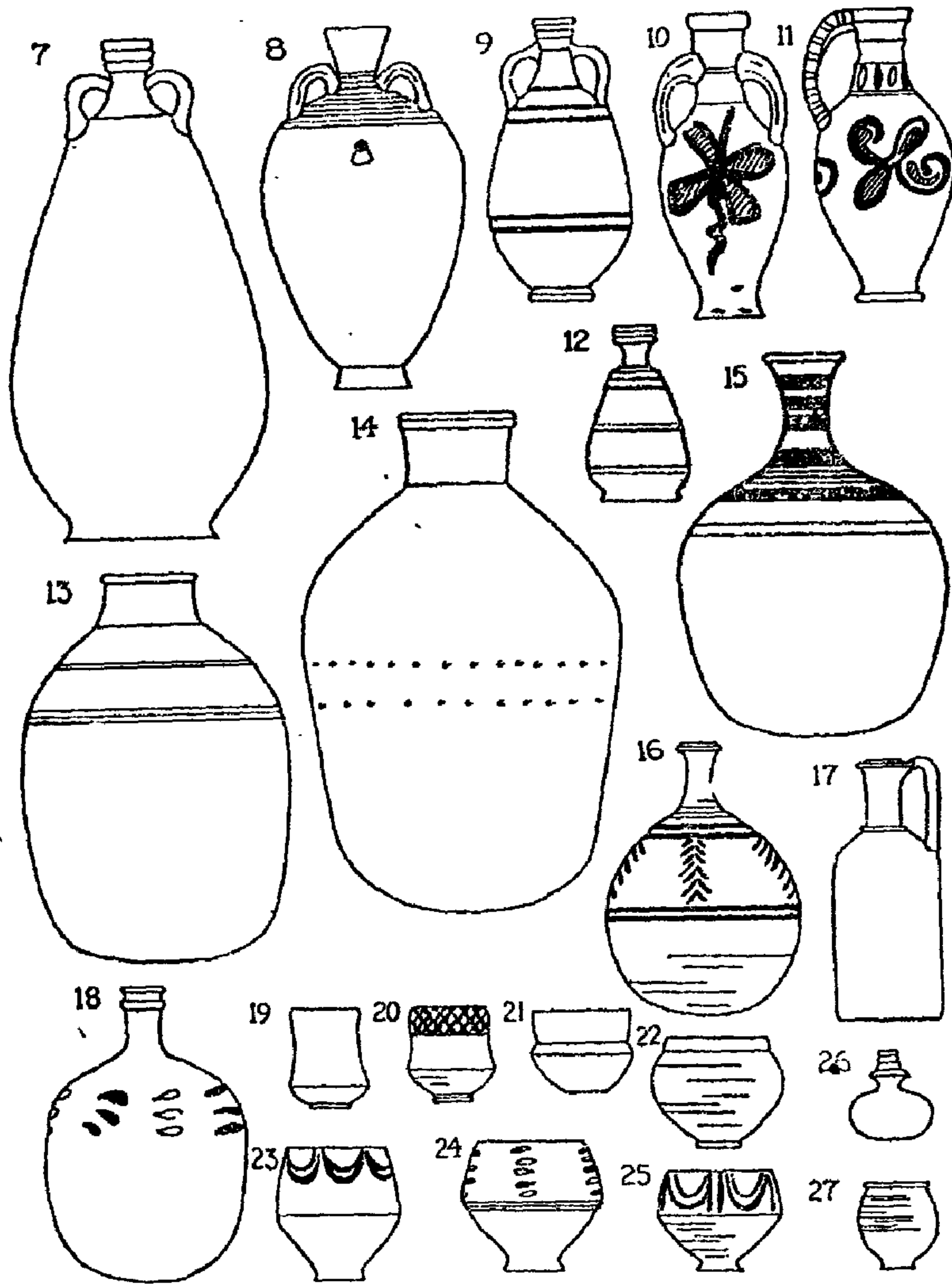
- ٥ - ان أكبر مركز تجميع لهم كان فى «كلايشة» (تالميس) «ابريم» (بريمس) «عدة» (عدوة) «فرس» (باخورس) ، «جاماي» ، «فركا» ، «ساي» و «واوى» .
 - ٦ - أكبر تجمع لمقابرهم يوجد حول منطقة « ابريم » .
 - ٧ - ان مدافنهم فى «ابريم» و «بلانة» و «قسطل» امتدت فى فترة لانقل عن مائتين وخمسين سنة .
 - ٨ - كانوا هم المستوطنين فى «ابريم» (بريمس) عندما زارها «أوليبيودورس» (٤٠٧ - ٤٢٥ م) الذى وصفهم « بالبليمز » .
 - ٩ - ان مقابرهم فى «ابريم» تمتد الى عصر متأخر عن مقابر «بلانة» و «قسطل» .
 - ١٠ - كانوا وثنيين يعبدون آلهة « مرو » ومصر القديمة .
 - ١١ - أتت حضارتهم بعد حضارة « مرو » مباشرة ولا شك فى أنها انحدرت منها .
 - ١٢ - اتخذ ملوكهم تيجان ورموز الملكية المروية .
 - ١٣ - أن تصميم مقابرهم تظهر علاقة واضحة مع الشكل المروى .
 - ١٤ - ان فخارهم متأثر بالفخار المروى ماعدا الأنواع التى استوردوها .
 - ١٥ - أساسهم الجنائزى يظهر تأثيرا وصنعة مروية وبيظانتيية .
 - ١٦ - واعتادوا فى حروبهم أن يستعملوا دروعا من جلد الشيران أما أسلحتهم فقد كانت من السيوف والبلط والأقواس والسهم والرماح .
 - ١٧ - لم يعرفوا أو عرفوا قدرا قليلا جدا من الكتابة .
- وفى تقريرى الرسمى عن كشف المقابر الملكية فى «بلانة» و «قسطل» والذى نشر فى عام ١٩٣٨ وضحت الأسباب لاعتبارى مجموعة (س) أنهم «البليمز» والحفائر فى عام ١٩٦٢ - ١٩٦٣ فى جبانة (ابريم) «بريمس» لم تعطينى أى سبب لتغيير رأى . ونظرا لأن الاسهاب فى هذا الموضوع بعيد عن هذا الكتاب فانى أعتقد أن الحقائق التى أجملتها فيما سبق هى فى نظرى ، الدليل لاعتبار حضارة المجموعة (س) تابعة للقوم الذين سماهم الرومان «البليمز» والذين اعتبروهم الأبطال الأخيرين للعقائد الدينية البالية لمصر القديمة .



الشكل ٤٨

نموذج لفخار حضارة المجموعة المجهولة (X)

- ١ - فخار أحمر - ٢ و ٣ - فخار بني ٤ - فخار أحمر أو أصفر ذو صبغة صفراء، فاتحة ٥ - فخار أحمر ذو رسوم سوداء ٦ - فخار أحمر ذو صبغة وردية •



الشكل ٤٩

نموذج لفخار حضارة المجموعة المجهولة (X)

٧ - فخار أحمر ٨ - فخار أصفر ٩ - فخار أحمر ذو رسوم سوداء ١٠ و ١١ فخار أصفر ووردي ذو رسوم سوداء وحمراء ١٢ - فخار أصفر ١٣ - فخار أحمر ذو رسوم سوداء وحمراء ١٤ - فخار أحمر ١٥ و ١٦ فخار أحمر أو فخار أصفر ذو رسوم حمراء وسوداء ١٧ - فخار أحمر ١٨ - فخار أحمر أو أصفر ذو رسوم بيضاء وسوداء وحمراء ١٩ - فخار أصفر ٢٠ - فخار أصفر ذو رسوم حمراء أو صفراء ٢١ - ٢٢ - فخار أحمر ٢٣ - ٢٥ - فخار أحمر ذو رسوم سوداء وبيضاء ٢٦ - فخار بني ٢٧ - فخار أحمر .

مصر وبلاد النوبة - ٢٥٧

المراجع

- Arkell, A.J. — Early Khartoum, Oxford, 1949.
- Arkell, A.J. — Shaheinab, Oxford, 1953.
- Arkell, A.J. — A History of the Sudan, London, 1955.
- Bates, O. — « Excavations at Gemmai », Harvard African Studies, VIII, 1927.
- Blackman, A.M. — The Temple of Dendur, Cairo, 1911.
- Blackman, A.M. — The Temple of Derr, Cairo, 1913.
- Blackman, A.M. — The Temple of Bigeh, Cairo, 1915.
- Breasted, J.H. — Ancient Records of Egypt, Chicago, 1906.
- Breasted, J.H. — A History of Egypt, London, 1951.
- Budge, E.A.W. — The Egyptian Sudan, London, 1912.
- Budge, E.A.W. — A History of Ethiopia, London, 1928.
- Chapman, S.E. and Durham, Dows — The Royal Cemeteries of Kush, III, Boston, 1952.
- Clarke, Somers — « Ancient Egyptian Frontier Fortresses », Journal of Egyptian Archaeology, III, 1916.
- Crowfoot, J.W. — « Christian Nubia », *ibid.*, XIII, 1927.
- Davies, Nina de G. and Gardiner, A.H. — The Tomb of Huy, London, 1926.
- De Villard, U.M. — La Nubie Médiévale, Cairo, 1935.
- Dunham, Dows — El Kurru, Boston, 1955.
- Dunham, Dows — Semna Kumma, Boston, 1960.

- Danham, D.W. — « Excavations at Gemmai », Harvard African Studies, VIII.
- Edwards, A.B. — A Thousand Miles up the Nile, London, 1877.
- Emery, W.B. and Kirwan, L.P. — The Excavations and Survey between Wadi esSebua and Adindan, Cairo, 1935.
- Emery, W.B. — The Royal Tombs of Ballana and Kostol at Abydos, Liverpool Annals of Archeaology and Anthropology, vol. X, 1922.
- Emery, W.B. — The Royal Tombs of Ballana and Rostol, Cairo, 1938.
- Emery, W.B. — Nubian Treasure, London, 1948.
- Emery, W.B. — Preliminary Reports on the Excavations of the Egypt Exploration Society at Buhen.
Kush, Vol. VII, 1959.
Vol. VIII, 1960.
Vol. IX, 1961.
Vol. X, 1962.
- Fairman, H.W. — Preliminary Reports on the Excavations at Amara West.
Journal of Egyptian Archaeology, XXIV, 1938.
» » » XXV, 1939.
» » » XXXIV, 1948.
- Firth, C.M. — The Archaeological Survey of Nubia. Reports, Cairo, 1912, 1915, 1927.
- Gardiner, A.H. — « The Defeat of the Hyksos by Kamose ». Journal of Egyptian Archaeology, III, 1916.
- Gardiner, A.H. — Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1961.
- Garstang J. Sayce, A.H. and Griffith, F.U. — Meroe, the city of the Ethiopians, Oxford, 1911.
- Gauthier, H. — Le Temple de Kalabchah, Cairo, 1911.

- Gauthier, H. — Le Temple de Ouadi es-Sebouâ, 1912.
- Gauthier, H. — Le Temple d'Amada, Cairo, 1913.
- Griffith, F.U. — » Oxford Excavations in Nubia », Liverpool Annals of Archaeology and Anthropology, 1921-22-23, 1928.
- Griffith, F.U. — Catalogue of the Demotic Graffiti of the Dodekaschoenus, Oxford, 1935.
- Hal, H.R. — The Ancient History of the Near East, London, 1932.
- Junker, H. — Bericht über die Grabungen der Akademie der Wissenschaften im Wien auf den Friedhöfen von El-Kubanieh Nord, Vienna, 1920.
- Junker, H. — Bericht über die Grabungen der Akademie der Wissenschaften im Wien auf den Friedhöfen von Ermenne, Vienna, 1925.
- Kirwan, L.P. — « A Survey of Nubian Origins », Sudan Notes and Records, XX, 1937.
- Kirwan, L.P. — The Oxford University Excavations at Firka, Oxford, 1939.
- Lepsius, C.R. — Denkmäler aus Aegypten und Aethiopien, Berlin, 1849-59.
- Macadam, M.F.L. — The Temples of Kawa, Oxford, 1949.
- Maspéro, G. — Les Temples immergés de la Nubie, Cairo, 1909-10, 1911.
- Michalowsky, K. — Polish Excavations at Faras, 1961, Kush X, 1962.
- Porter, B. and Moss, L.B. — Topographical Bibliography of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts, Reliefs and Paintings, vol. VII, Oxford, 1951.
- Posener, G. — « The Location of the Land of Kush during the Middle Kingdom », Kush, vol. VI, 1958.
- Randall-Maciver, D. and Woolley, C.L. — Areika, Philadel-

- phia, 1909, Karanog, Philadelphia, 1910, Buhen, Philadelphia, 1911.
- Reisner, G. — *The Archaeological Survey of Nubia, Report for 1907-8*, Cairo, 1910.
- Reisner, G. — « *The Viceroys of Ethiopia* », J.E.A., London, 1920.
- Reisner, G. — « *Excavations at Kerma* », Harvard African Studies, vols. V and VI, Cambridge, Mass., 1923.
- Reisner, G. — « *The Meroitic Kingdom of Ethiopia* », J.E.A., London, 1923.
- Reisner, G. — *Clay sealings of Dynasty, XIII from Uronarti Fort* », Kush III, 1955.
- Reisner, G. — *The Egyptian Forts from Halfa to Semna* », Kush VIII, 1960.
- Roeder, G. — *Debod bis Bab Kalabsche*, Cairo, 1911, *Der Tempel von Dabka*, Cairo, 1913.
- Saïe-Söderbergh, T. — *Aegypten und Nubian*, Lund, 1941.
- Saïe-Söderbergh, T. — « *A Buhen Stela from the Second Intermediate Period* », J.E.A., London, 1949.
- Saïe-Söderbergh, T. — *The Nubian Kingdom of the Second Intermediate Period*, Kush, IV, 1956.
- Saïe-Söderbergh, T. — *Preliminary Report of the Scandinavian Joint Expedition*, Kush X, 1962.
- Schiff Giorgin, M. — *Reports on the Excavations at Soleb*, Kush, VI, 1958, VII, 1959, VIII, 1960, IX, 1961, X, 1962.
- Smither, P.C. — *The Semnah Despatches*, J.E.A., London, 1945.
- Steindorff, G. — *Aniba*, Cairo, 1935-1937.
- Vercoutter, J. — *Kor est-il Iken ?* Kush III, 1955.
- Vercoutter, J. — « *Upper Egyptian Settlers in Middle Kingdom Nubia* », Kush, V, 1957.
- Vercoutter, J. — « *The Gold of Kush* », Kush, VII, 1959.
- Weigall, A.E.P. — *Report on the Antiquities of Lower Nubia*, Cairo, 1907.

فهرس اللوحات

ص ١ الى ٣ النوبة :

أصدقائنا ، الطبيعة ومقرنا .

من ٤ الى ٢١ بلانة وقسطل :

الكومات (٤)

هيكل عظمى لأحد ملوك المجموعة (س) وبعض الادوات (٥ - ٦)

حلي الخيل الفضية (٧ - ٩)

تيجان فضية (١٠ - ١١)

مصوغات فضية (١٢ - ١٥)

قطع برونزية (١٦ - ١٩)

أسلحة (٢٠)

الصندوق المطعم (٢١)

من ٢٢ الى ٢٦ بوهن :

الكشف عن القلعة . (٢٢ - ٢٤)

رفع معبد حاتشبسوت (٢٥)

الكشف عن المدينة (٢٦)

٢٧ قصر ابريم :

منظر عام للقلعة .

٢٨ الى ٢٩ فيلة وكلايشة :

الجوسق والفناء الخارجى ، فيلة (٢٨)

معبد ازيس فى فيلة (٢٩ ألف)

معبد كلايشة (٢٩ ب)

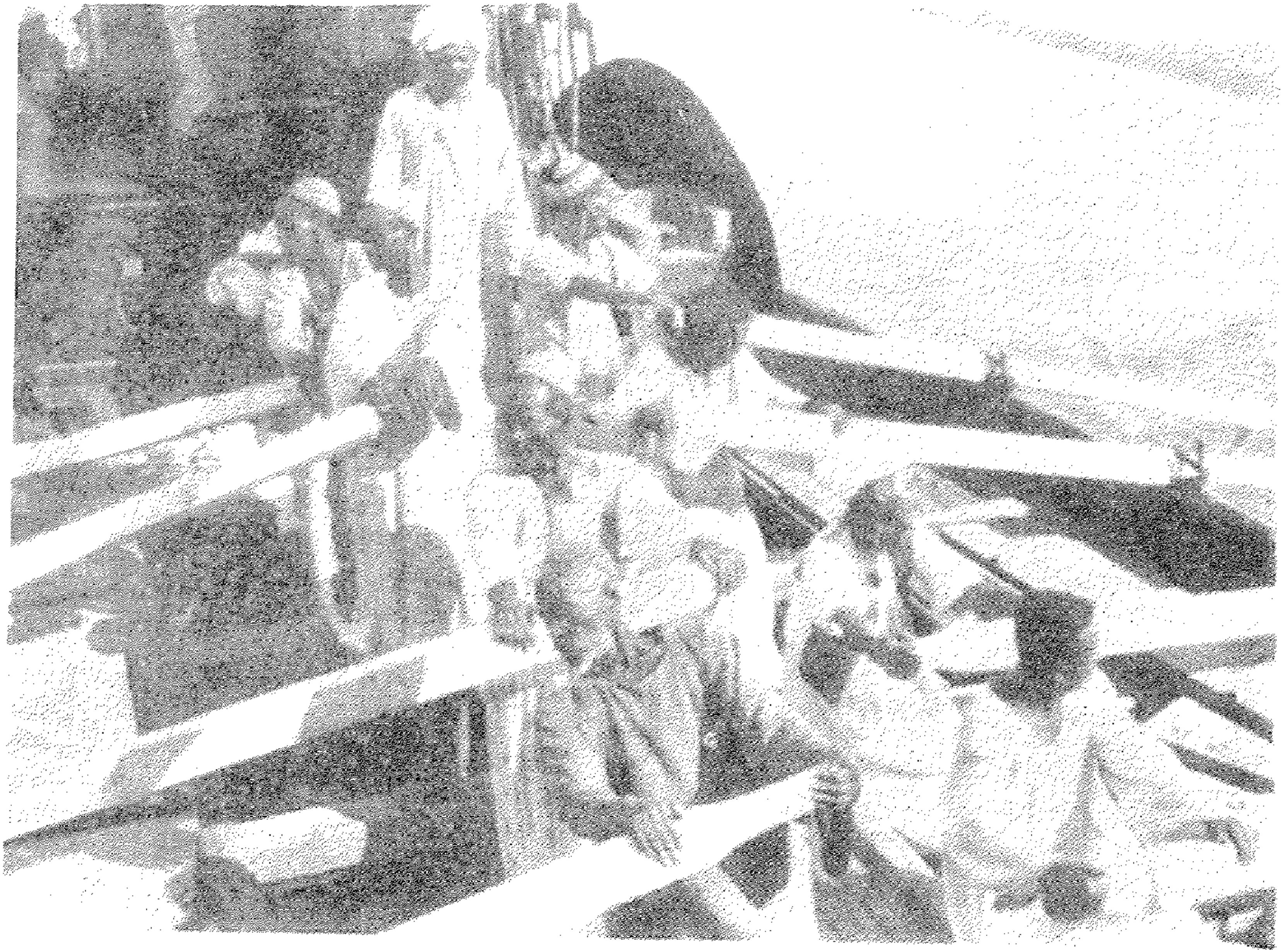
٣٠ الى ٣١ أبو سمبل :

المعبد الكبير ومنظر جانبى لثمائيله (٣٠)

واجهة معبد الملكة نفرتارى (٣١)

٣٢ الجند :

قواسه نوبيين ومشاه مصرين



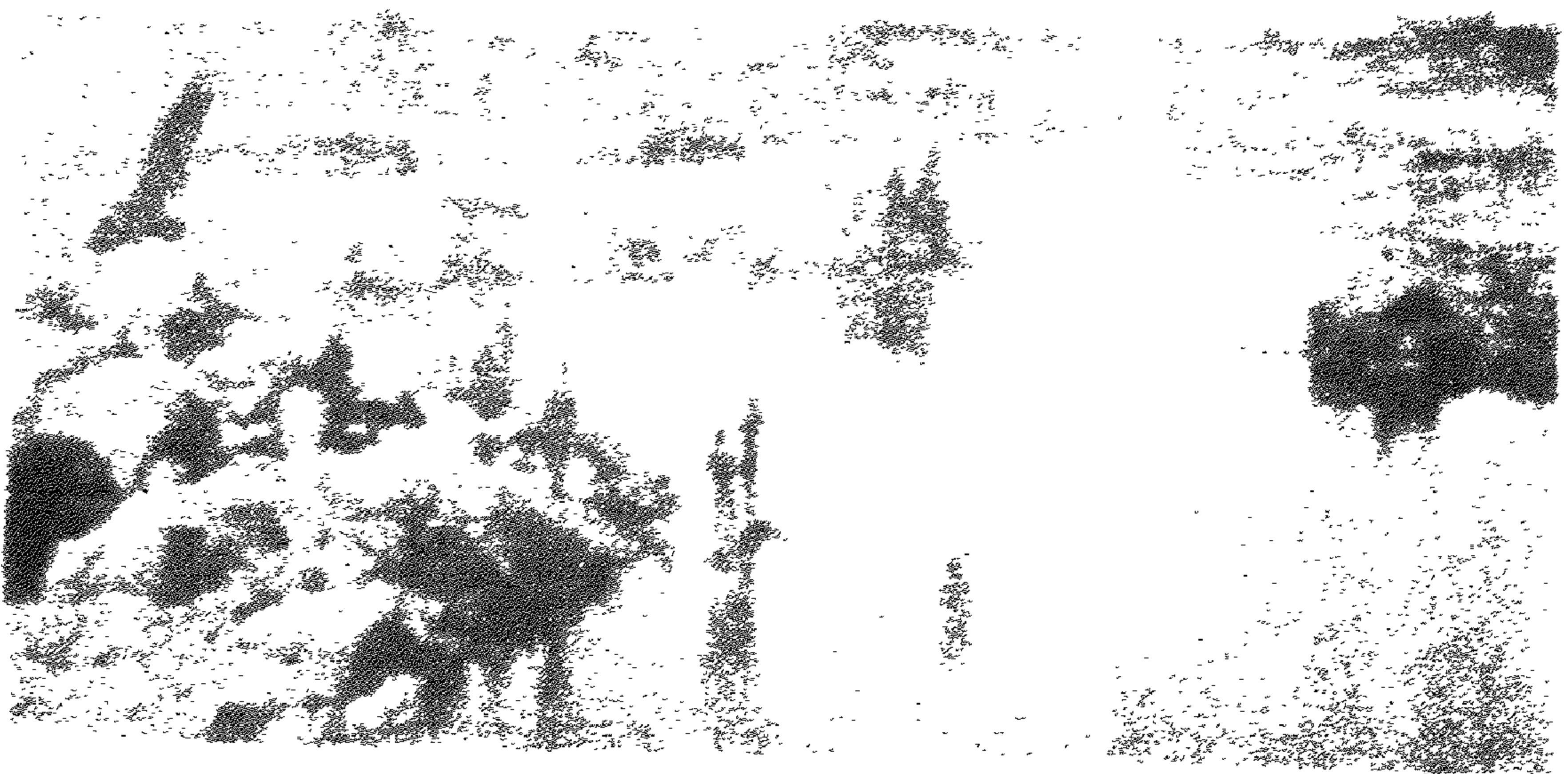
لوحة (١)

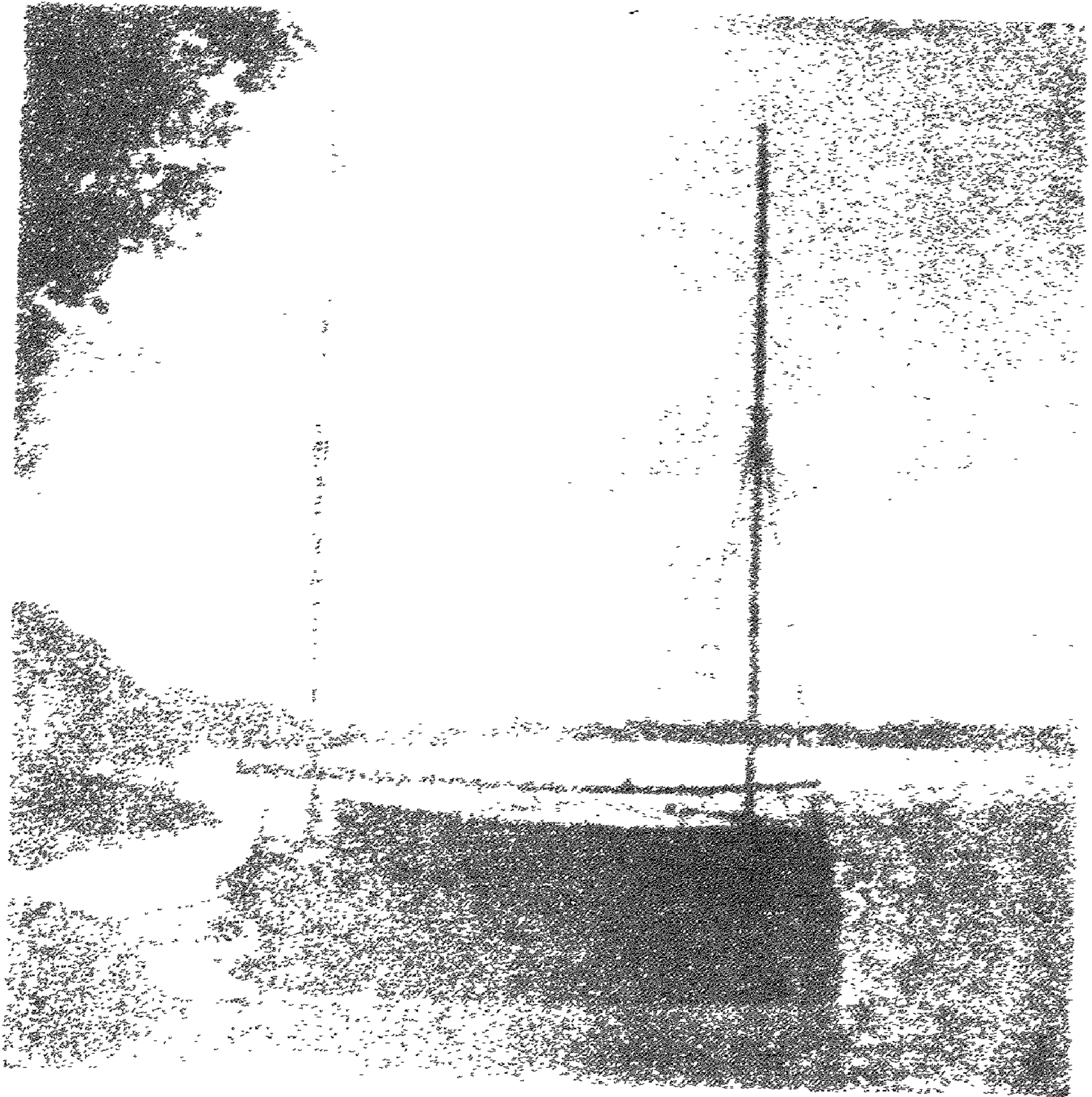
اصداؤنا النوبيون





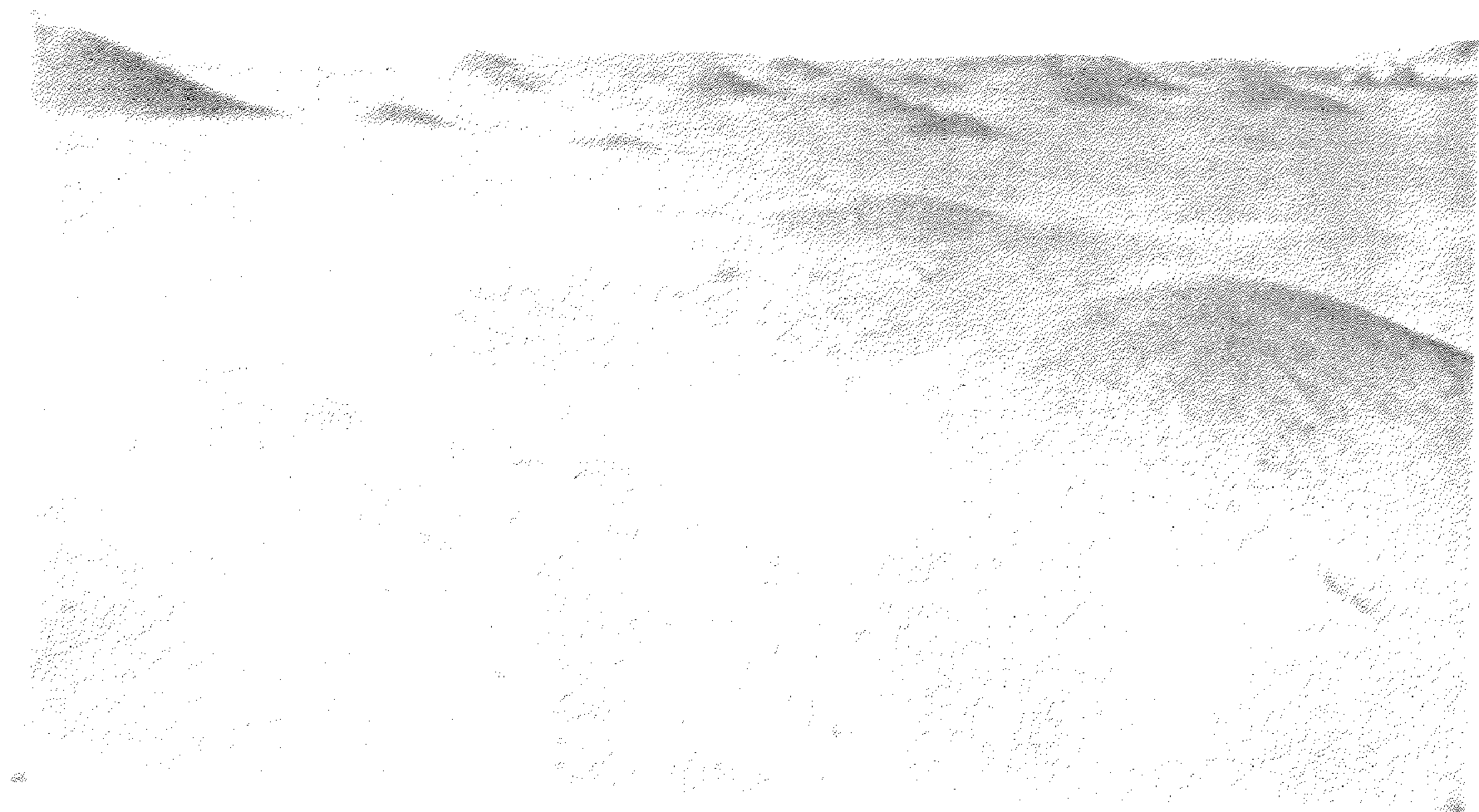
لوحة (٢)
الطبيعة النوبية





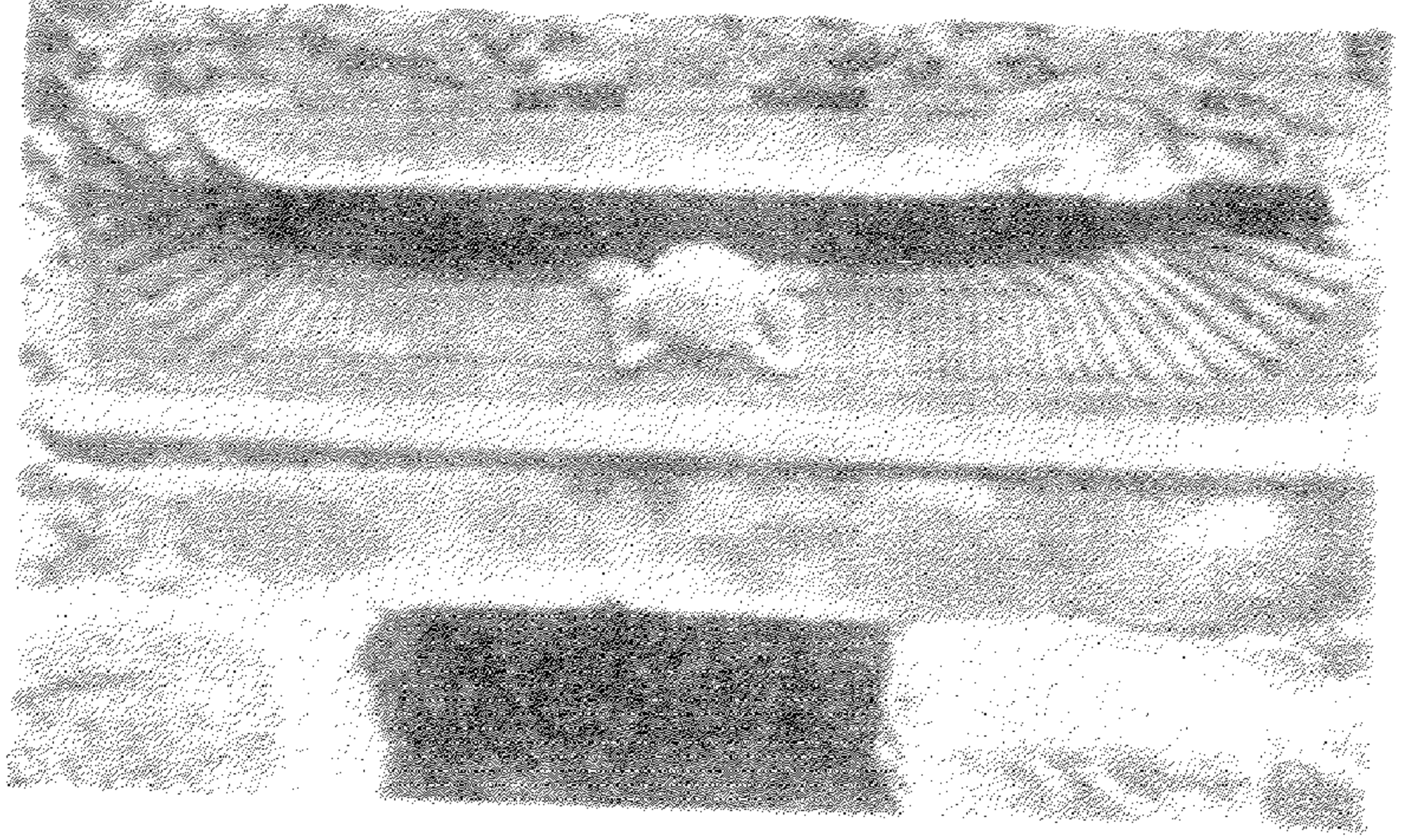
لوحة (٣)
مقرنا



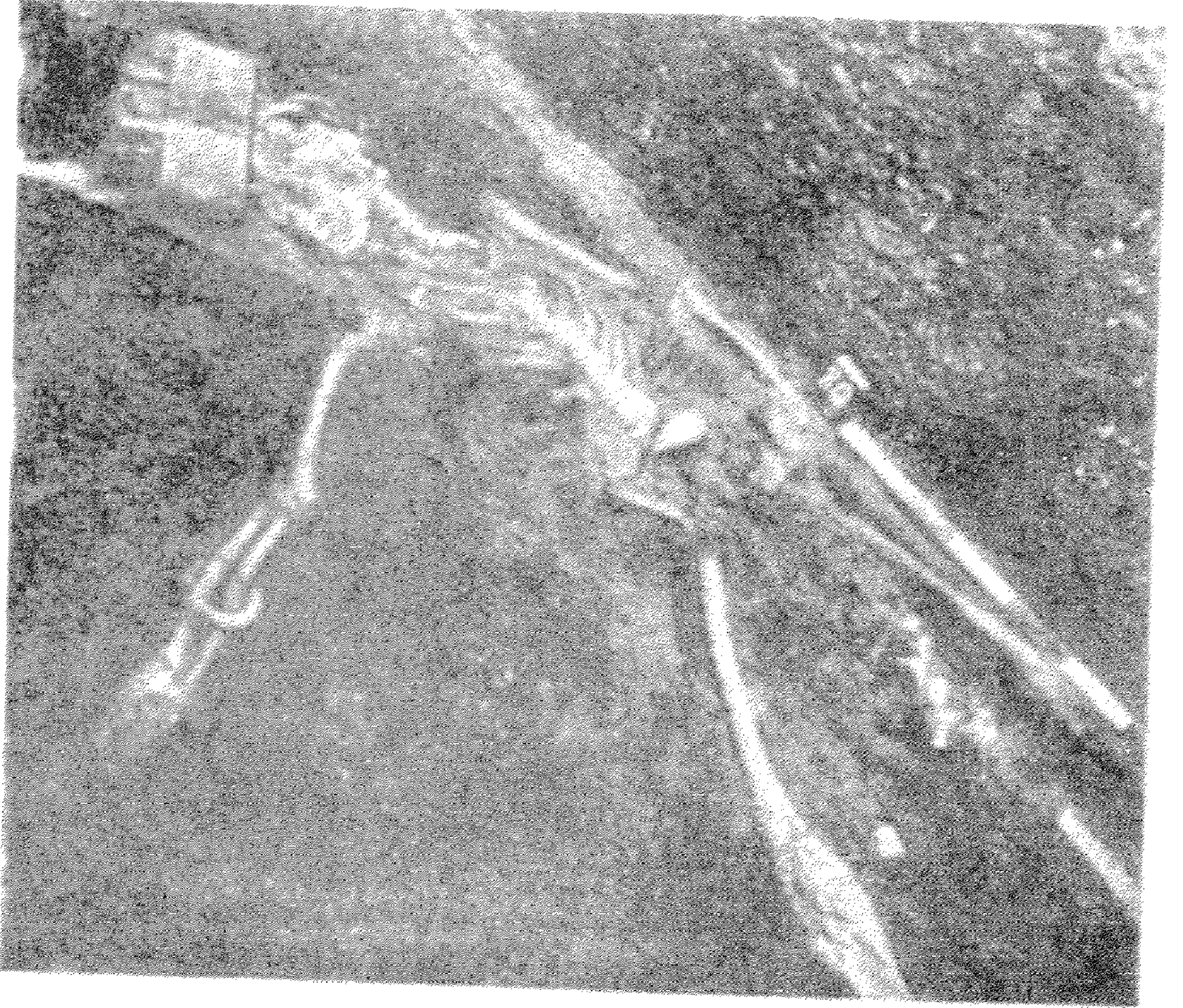


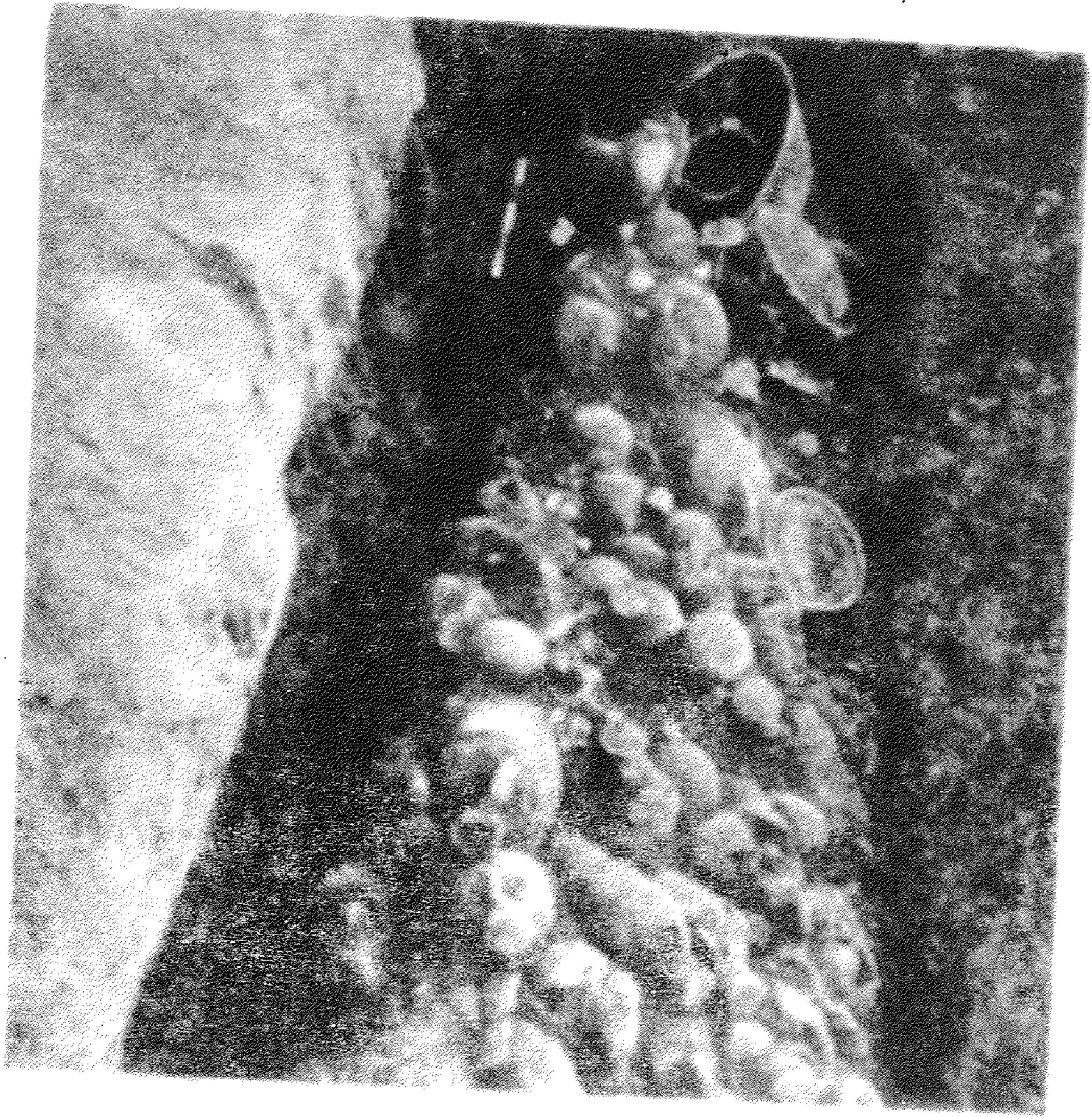
لوحة (٤) بلانة وقسطل



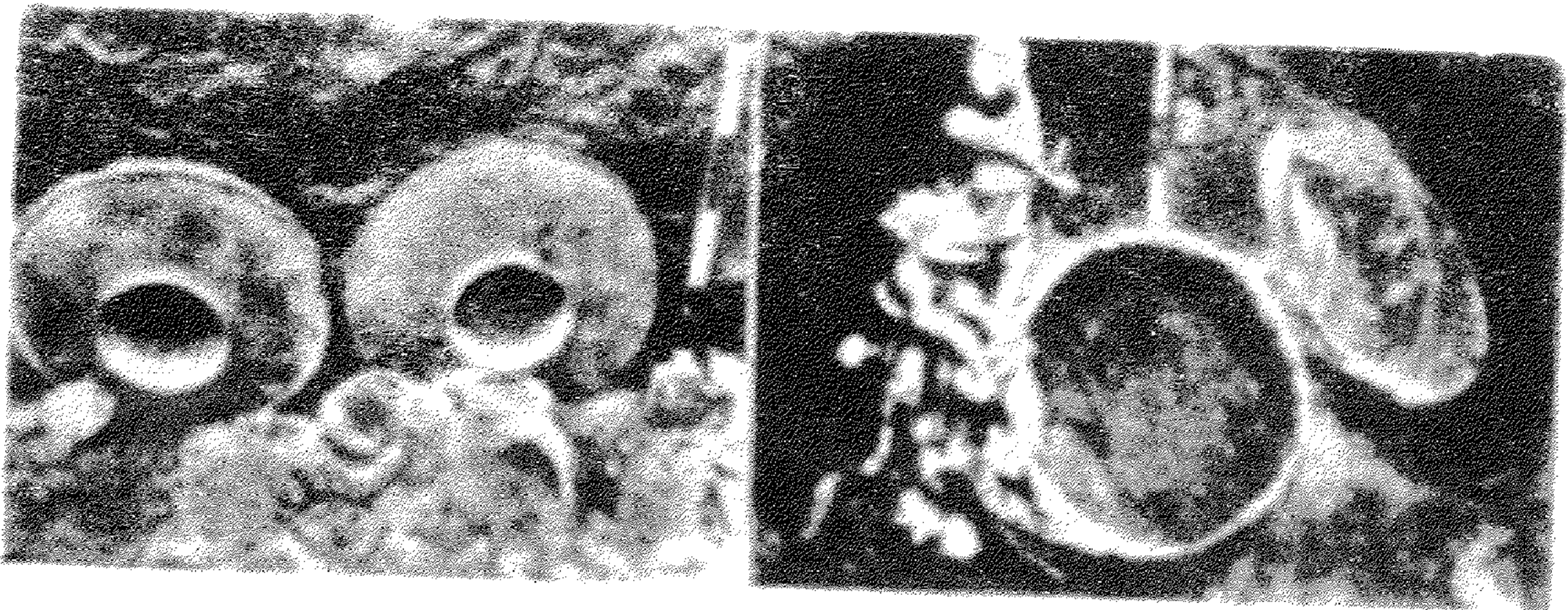


لوحة (٥) بلانة وغسطل



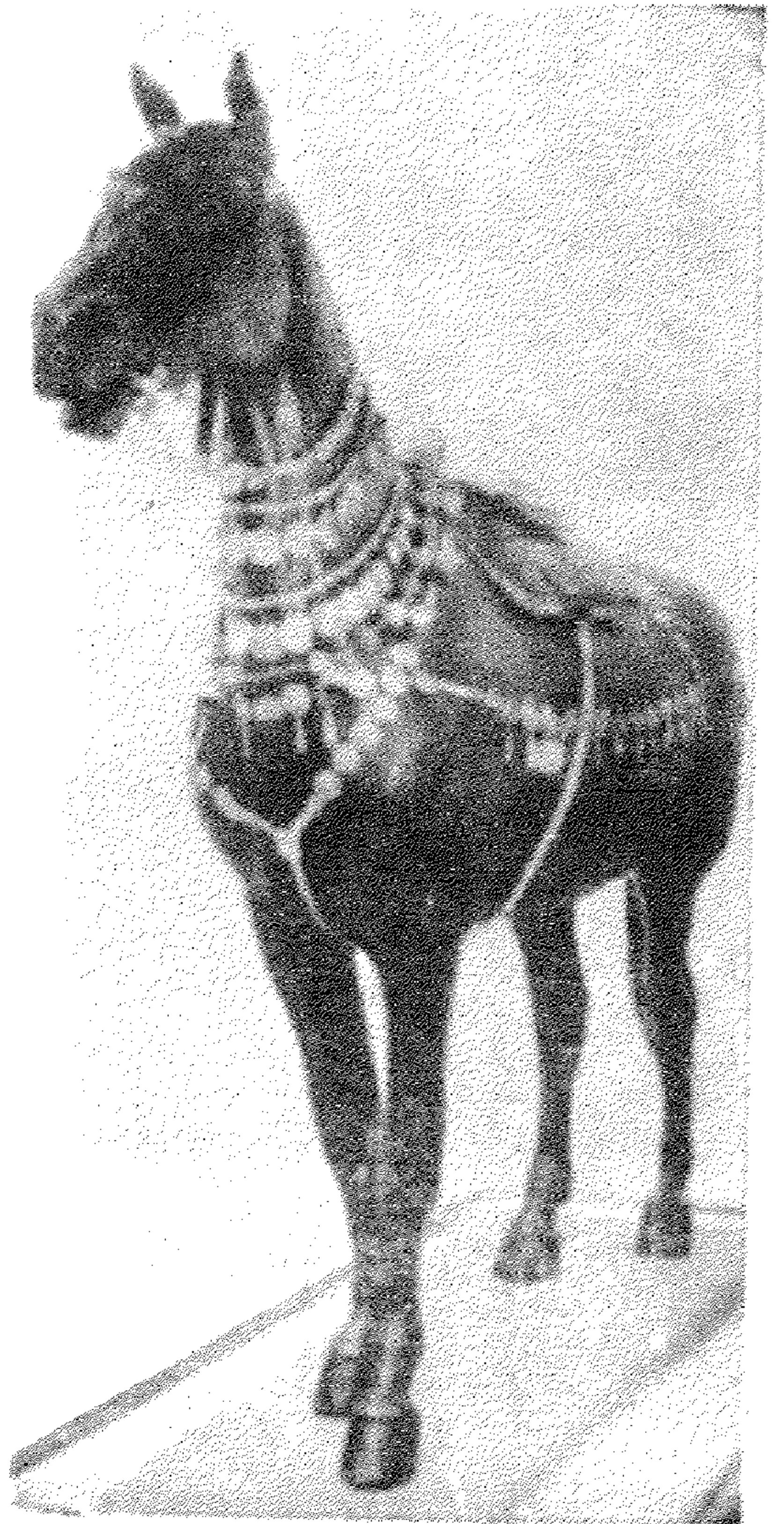


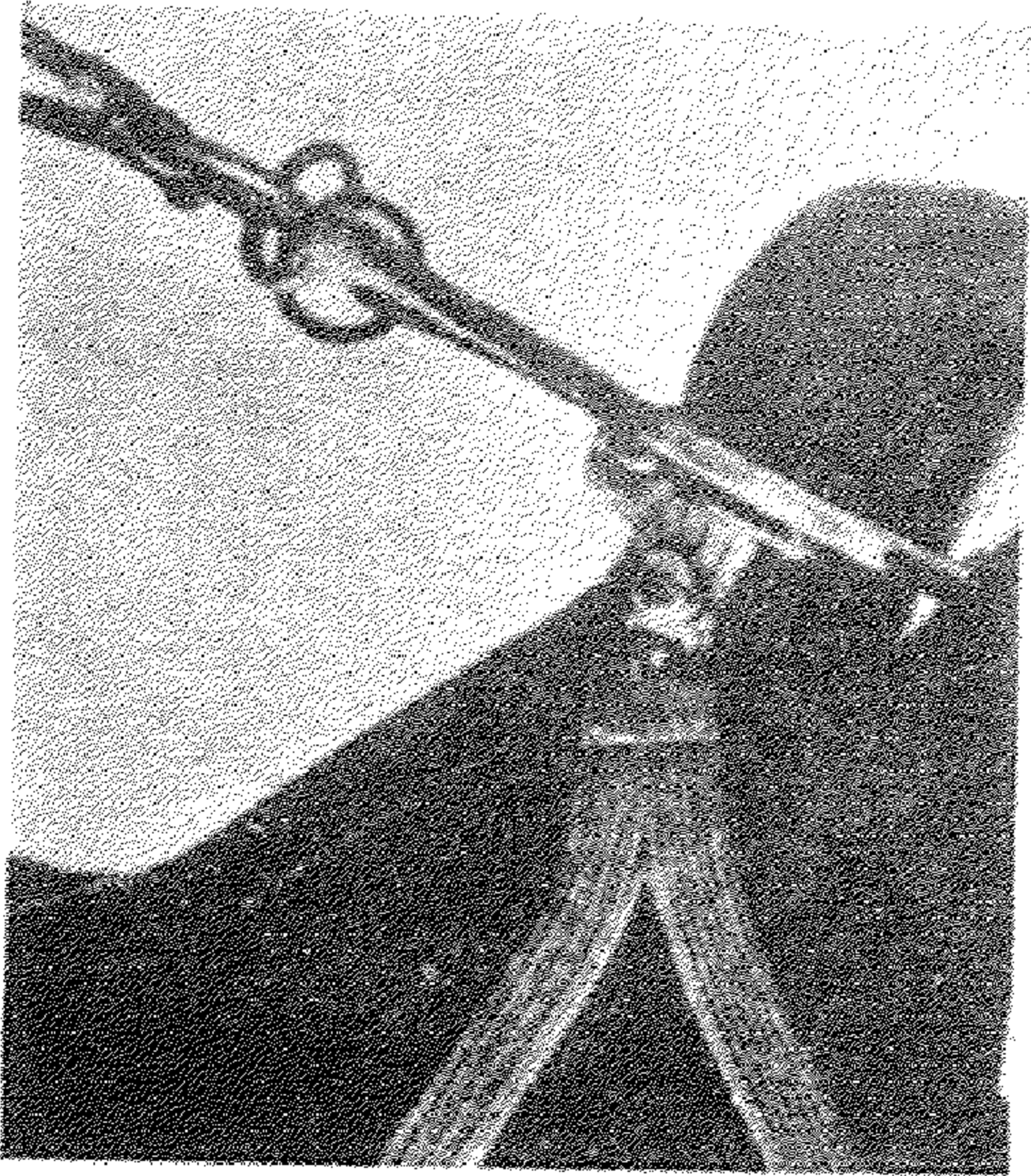
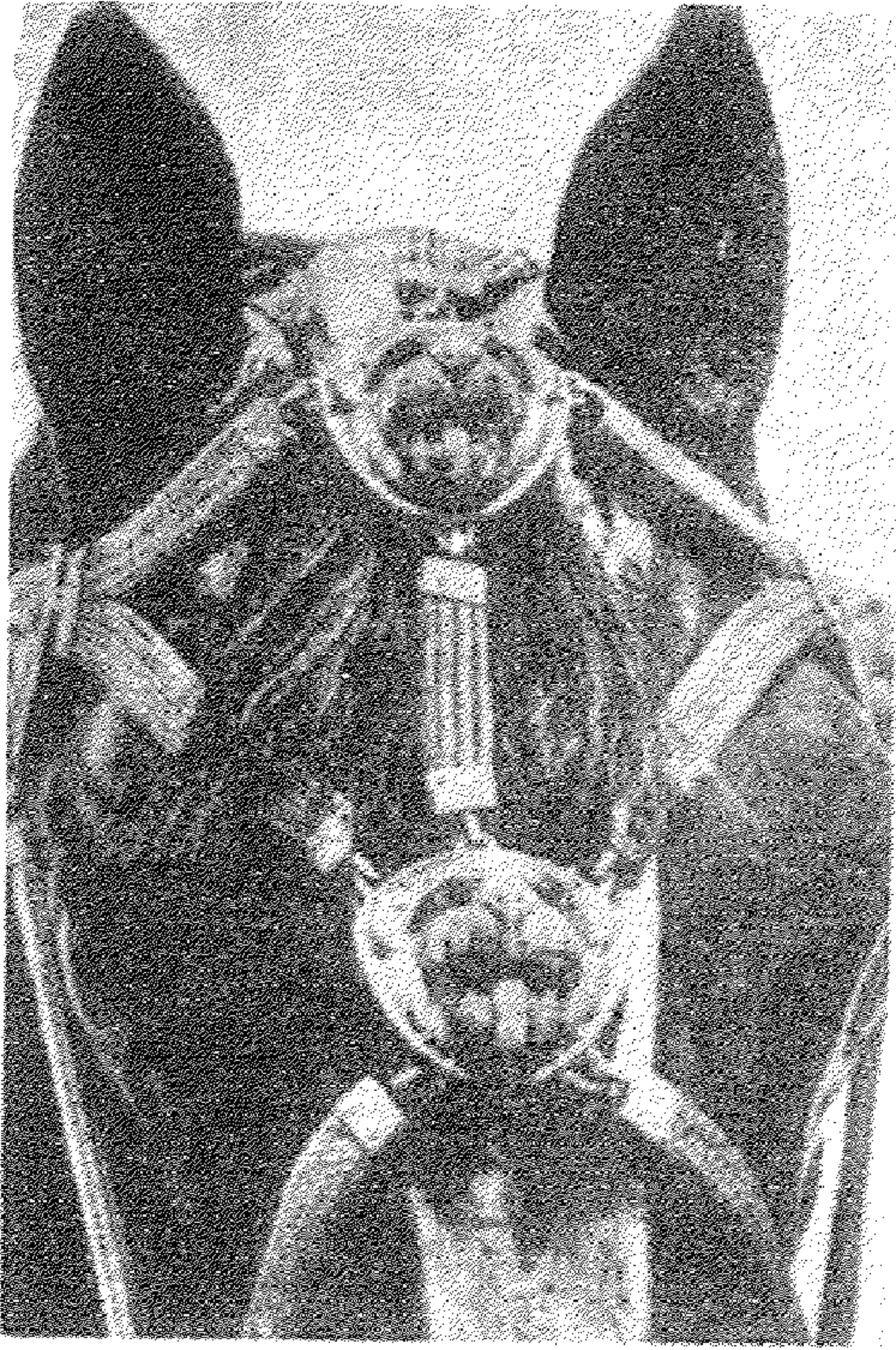
لوحة (٦)
بلانة وقسطل



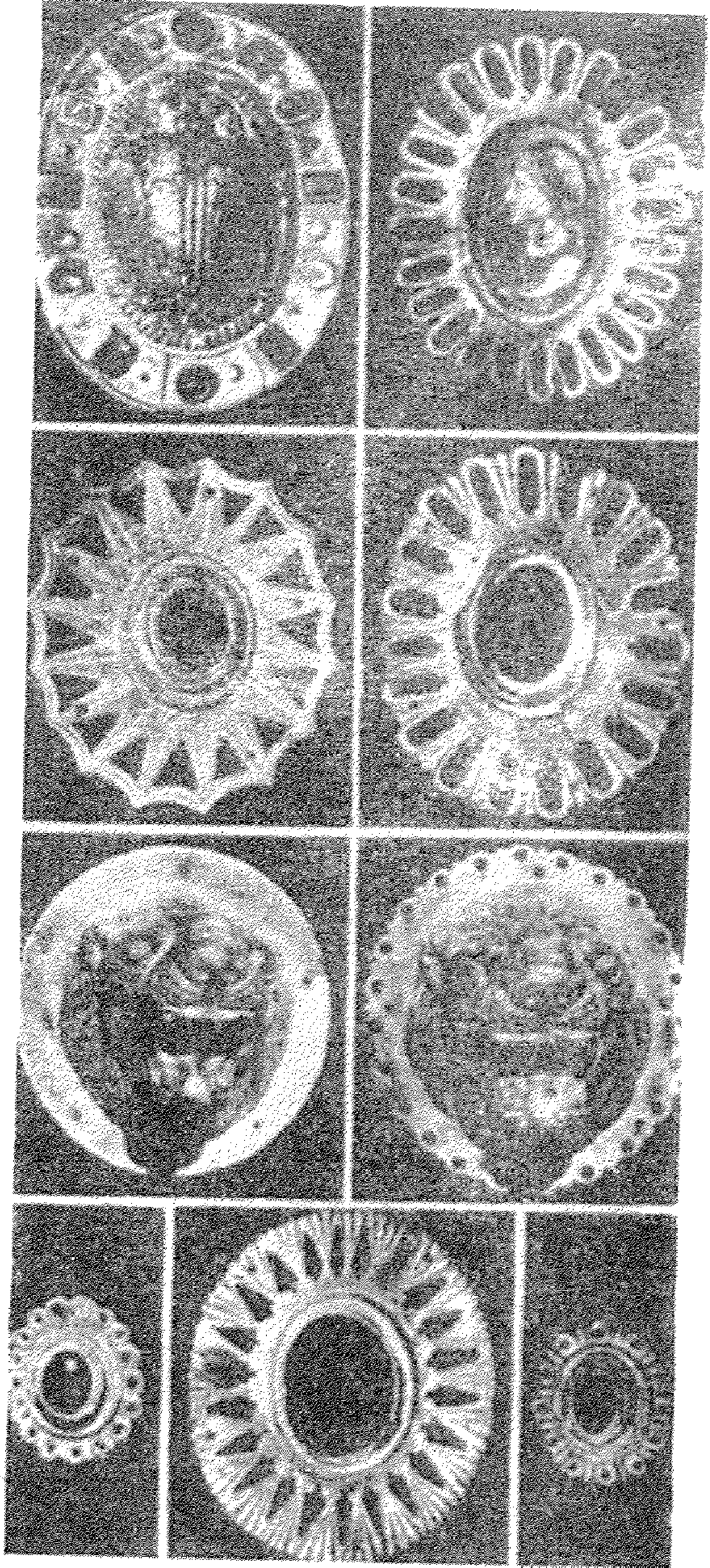


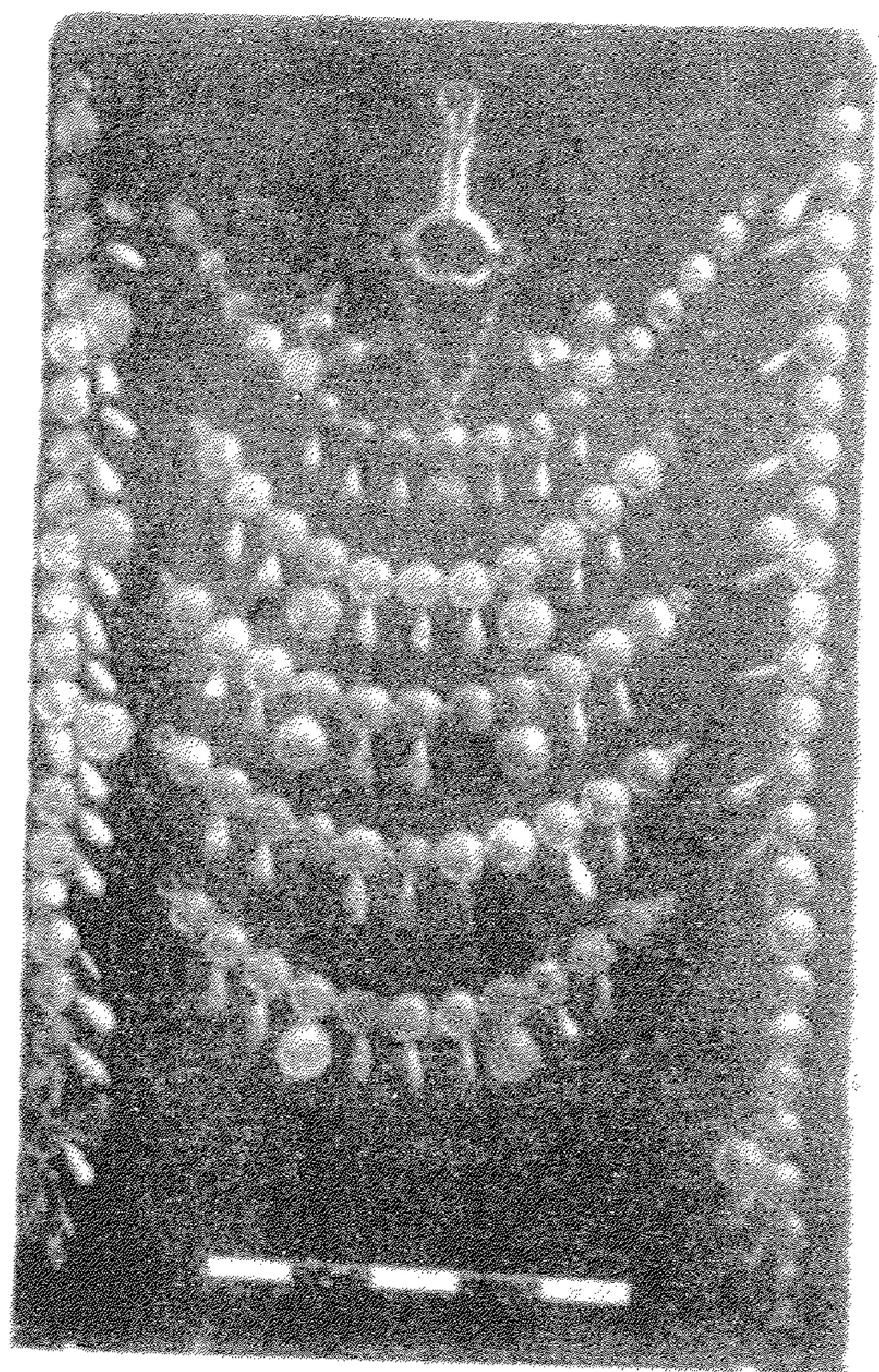
لوحة (٧)
بلانة وقسطل



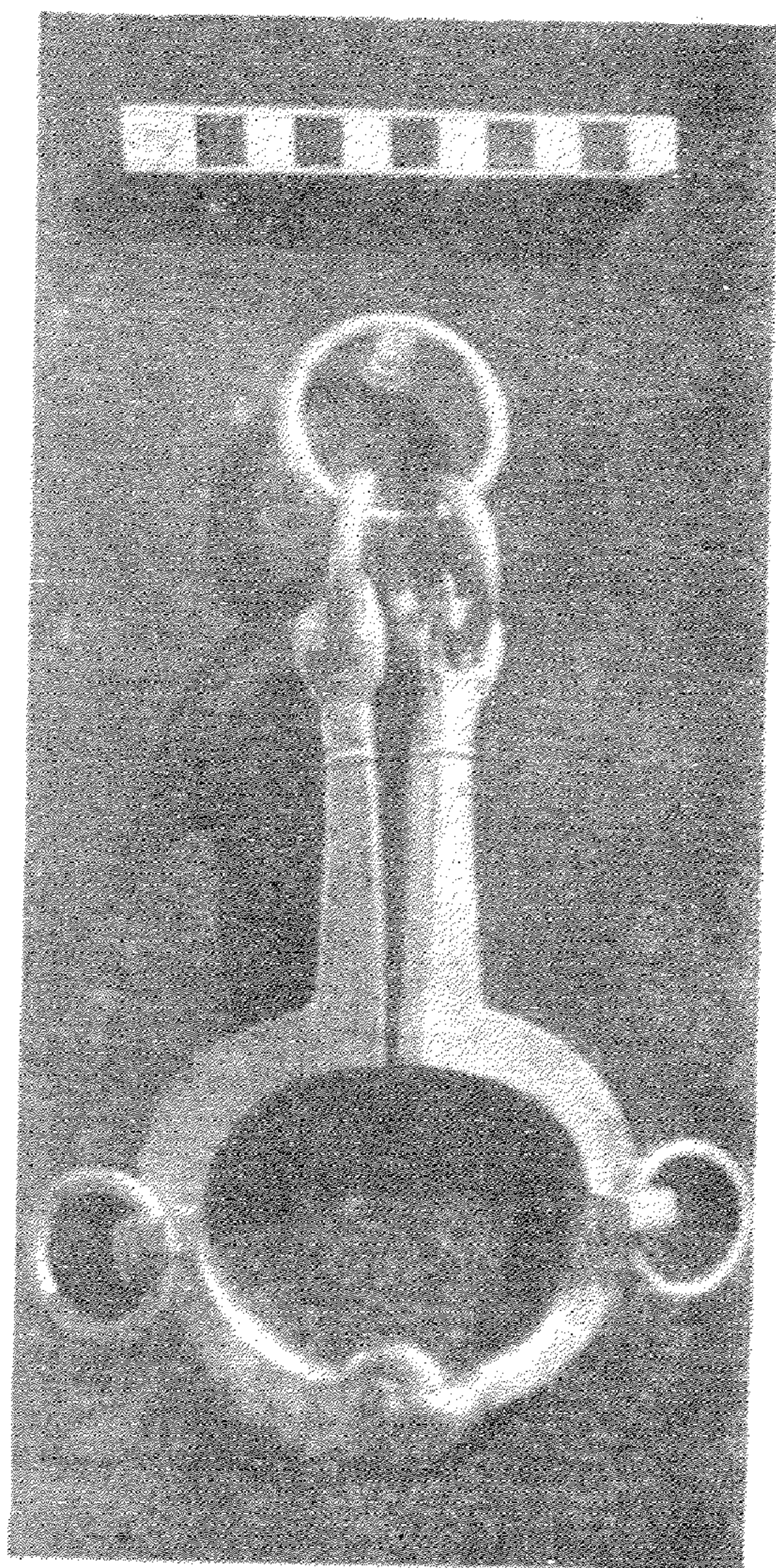


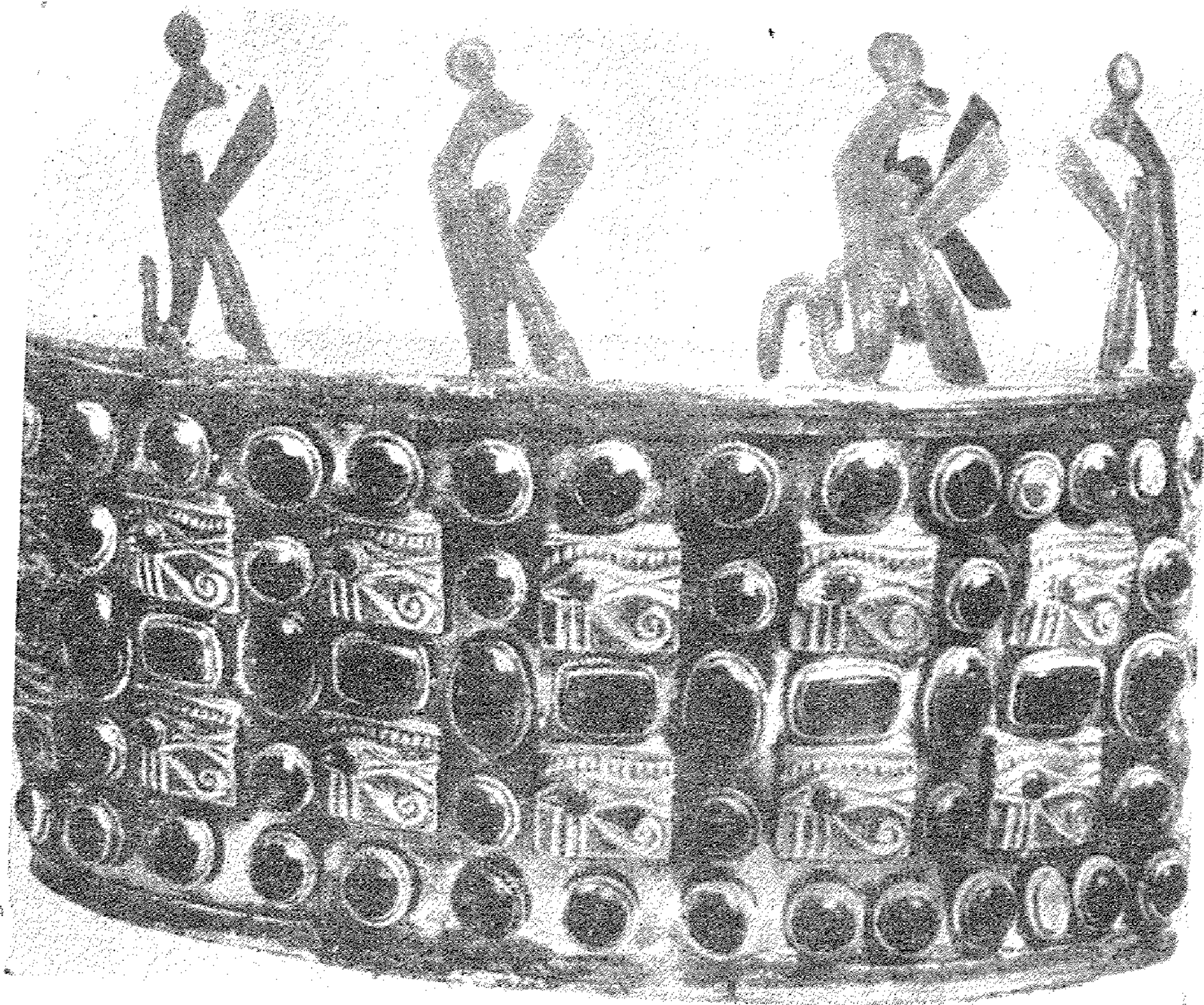
لوحة (أ)
بلانة وفسطل



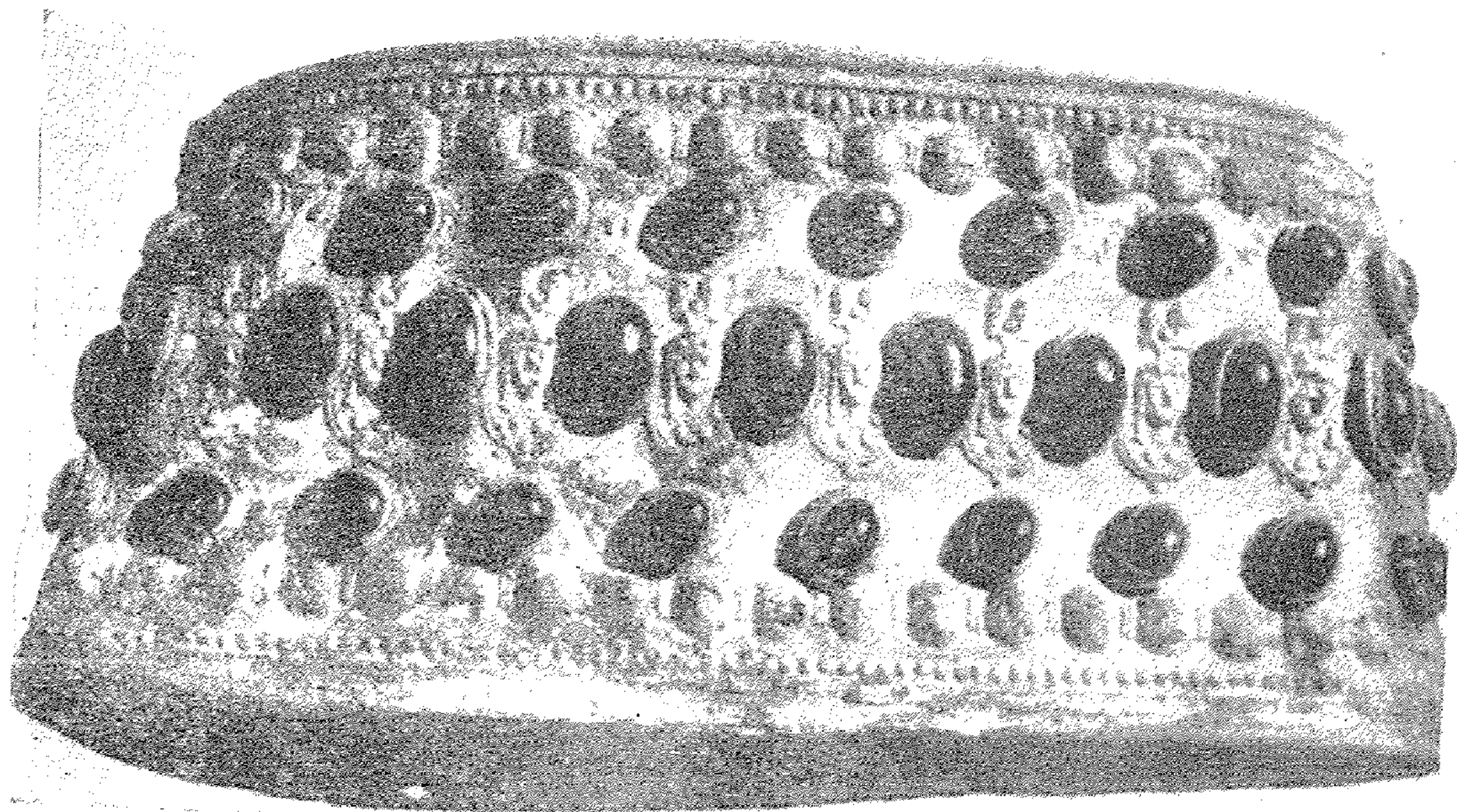


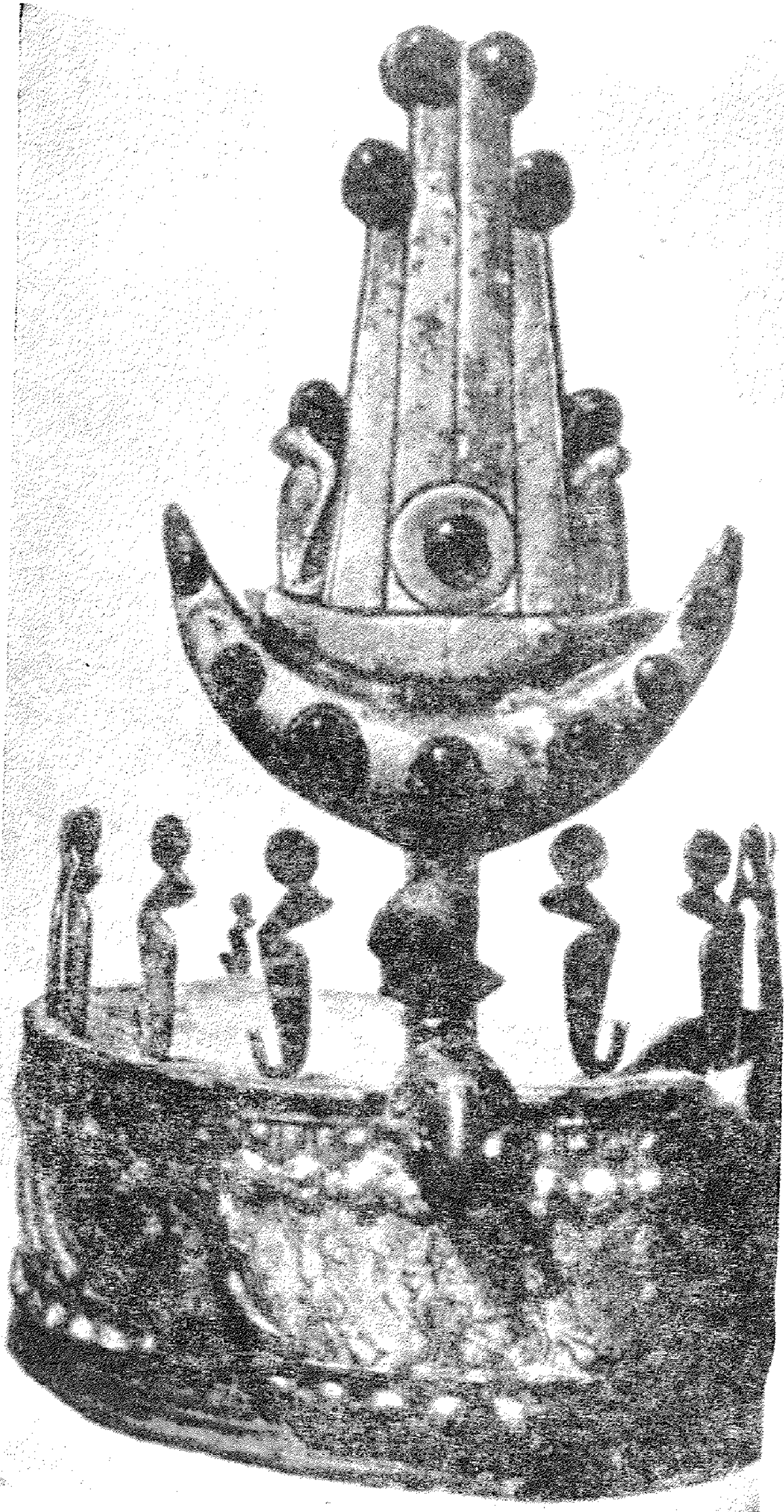
لوحة (٩)
بالآلة وقسطل



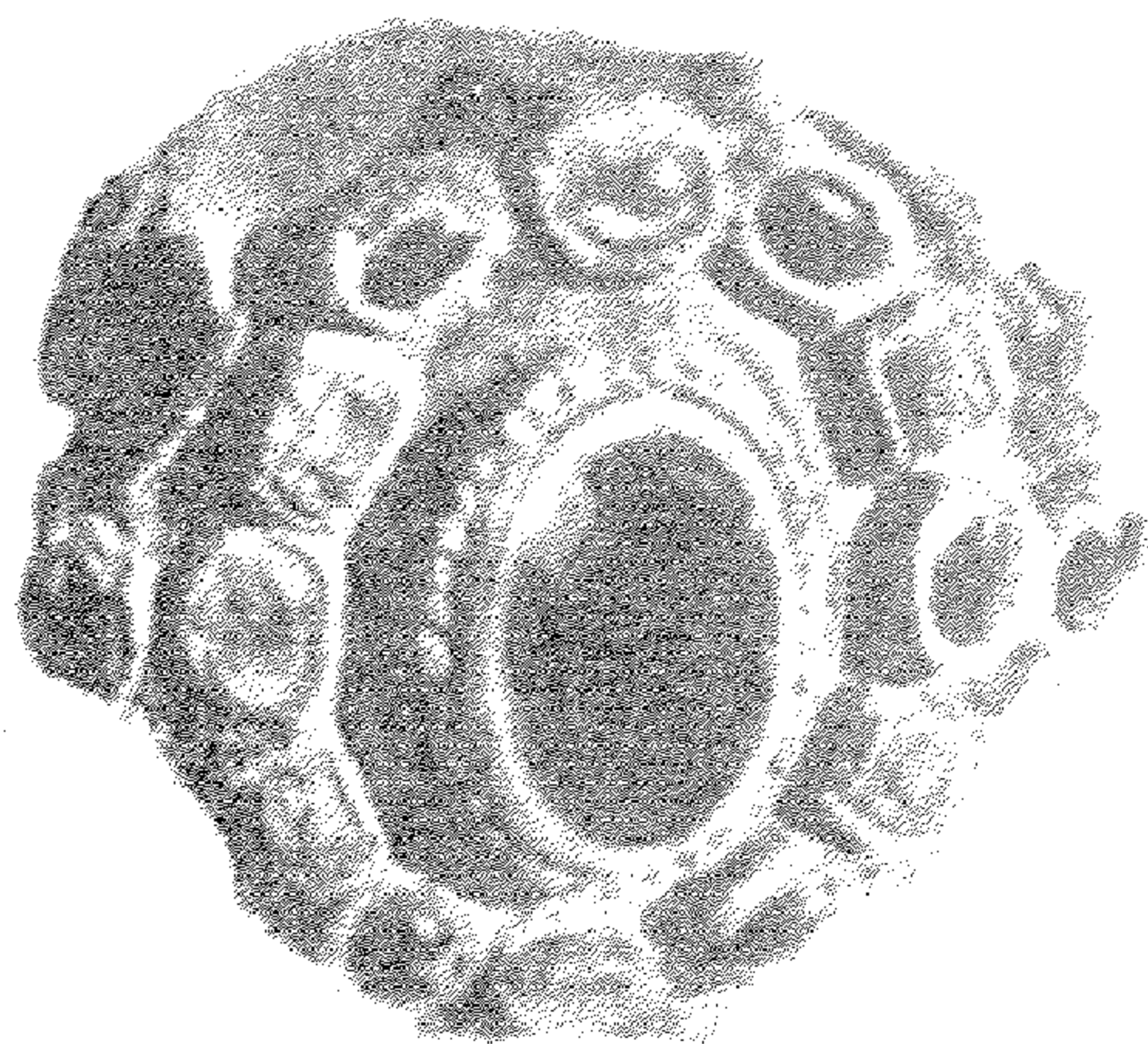
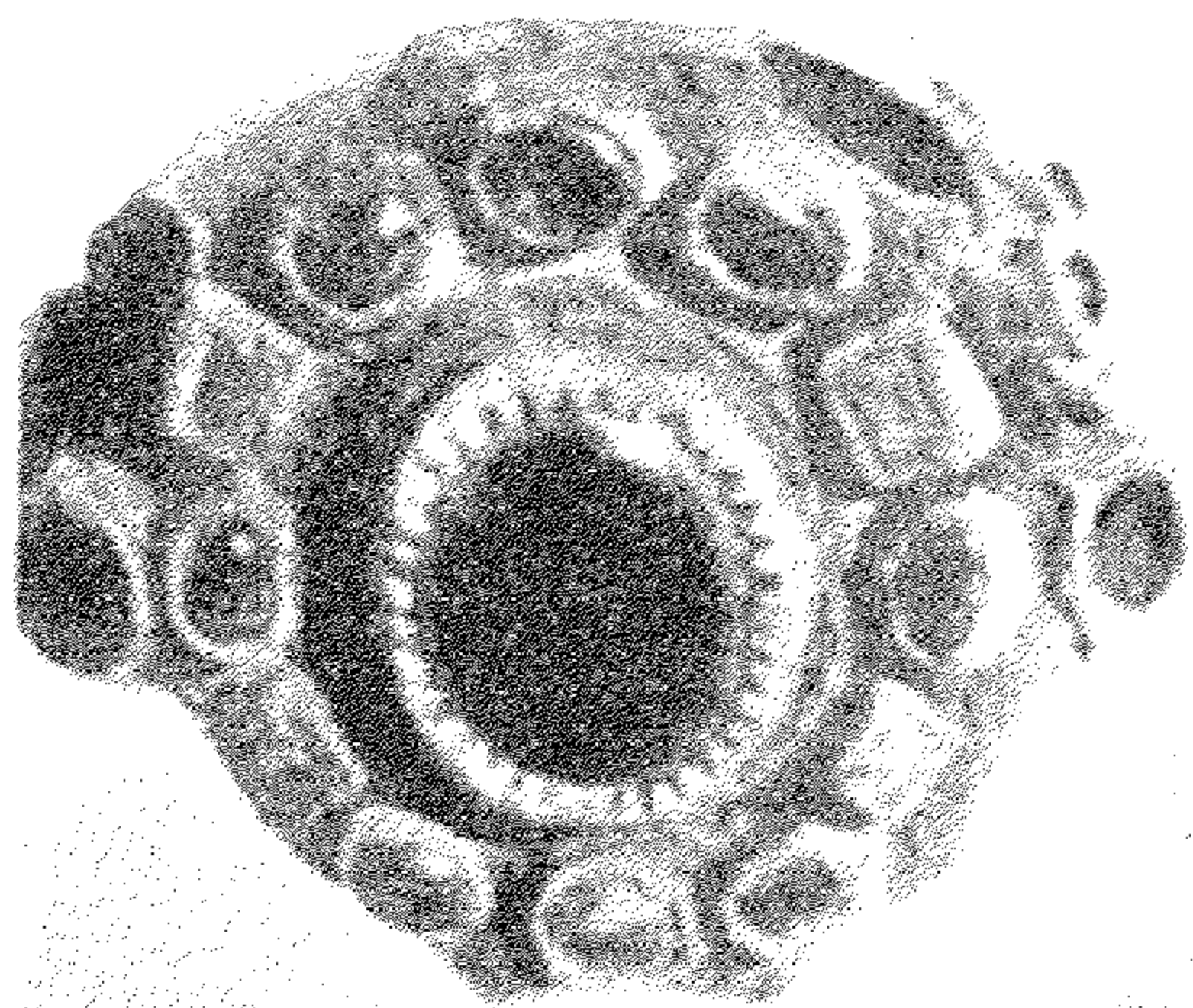


كوحه (١٠)
بلانة وفسطل

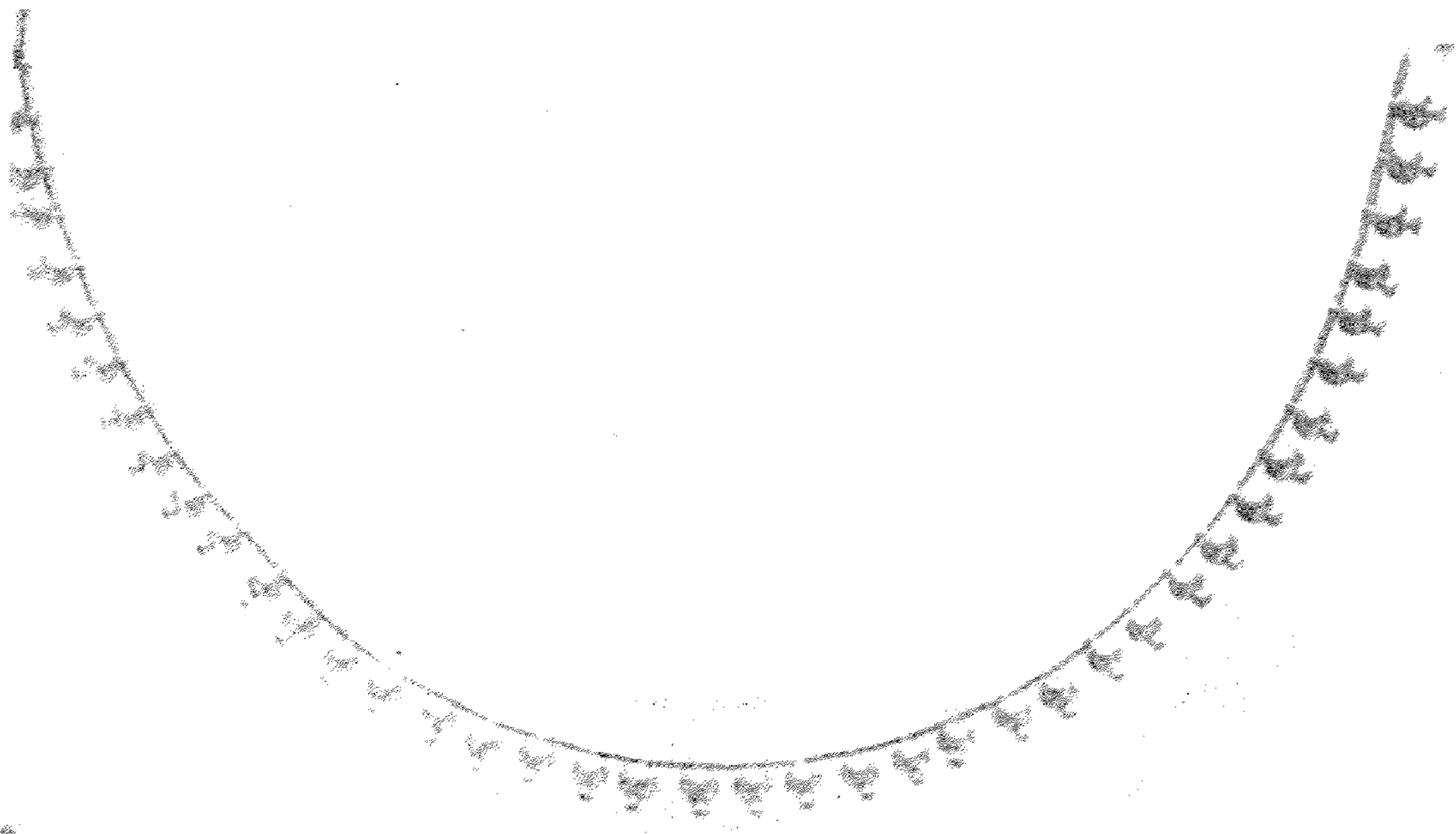


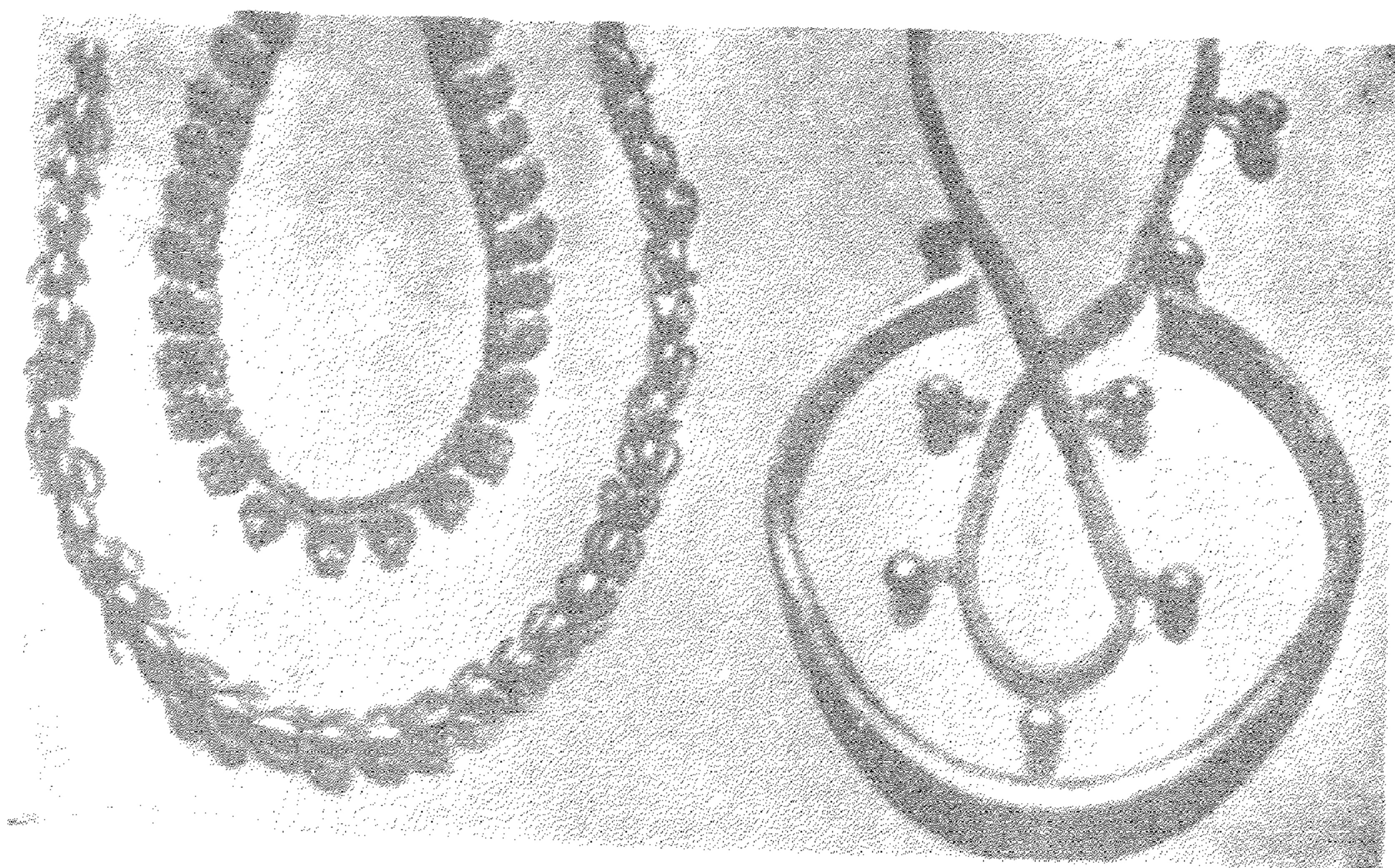


لوحة (11)
بلانة وقسطل

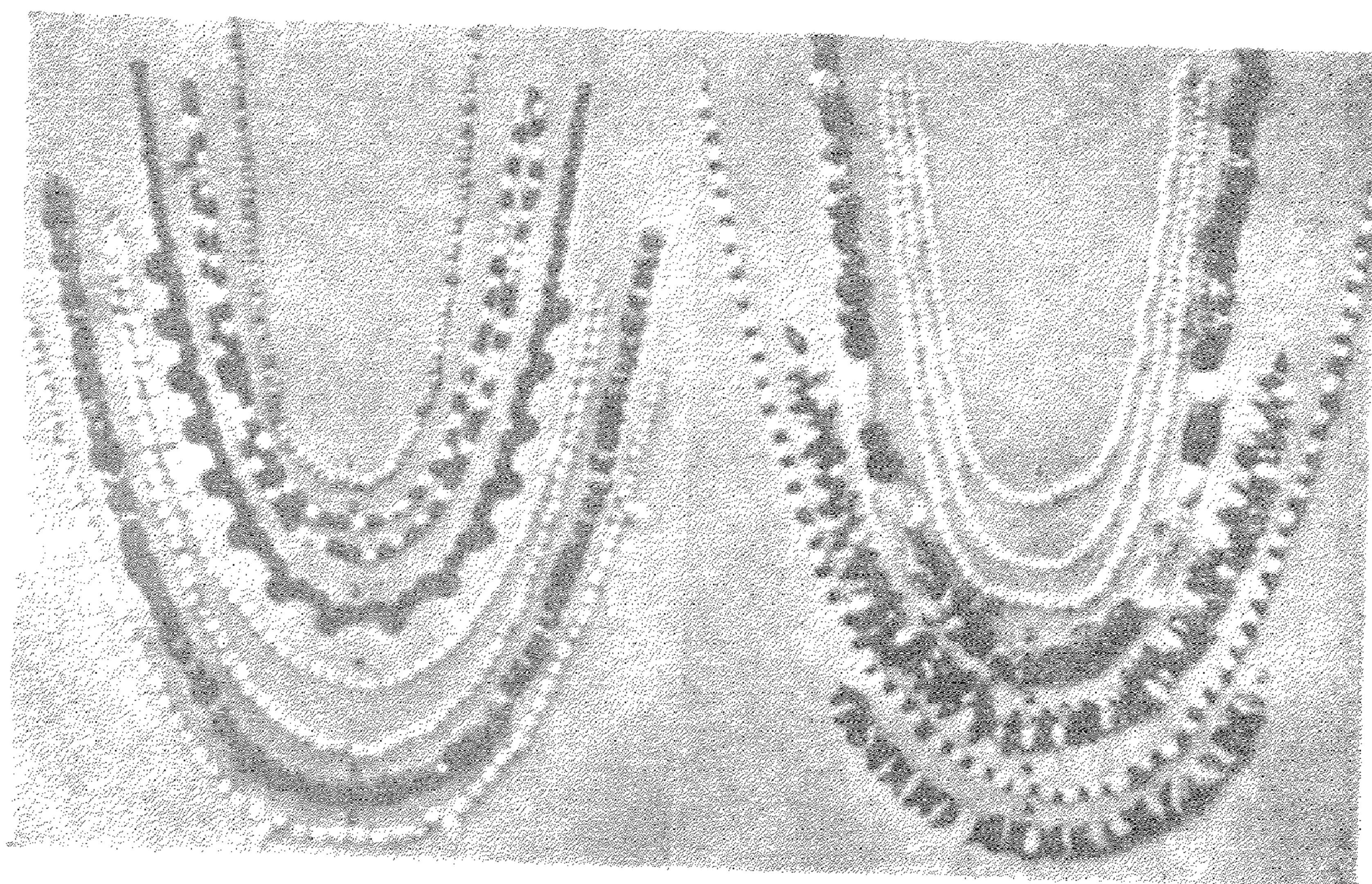


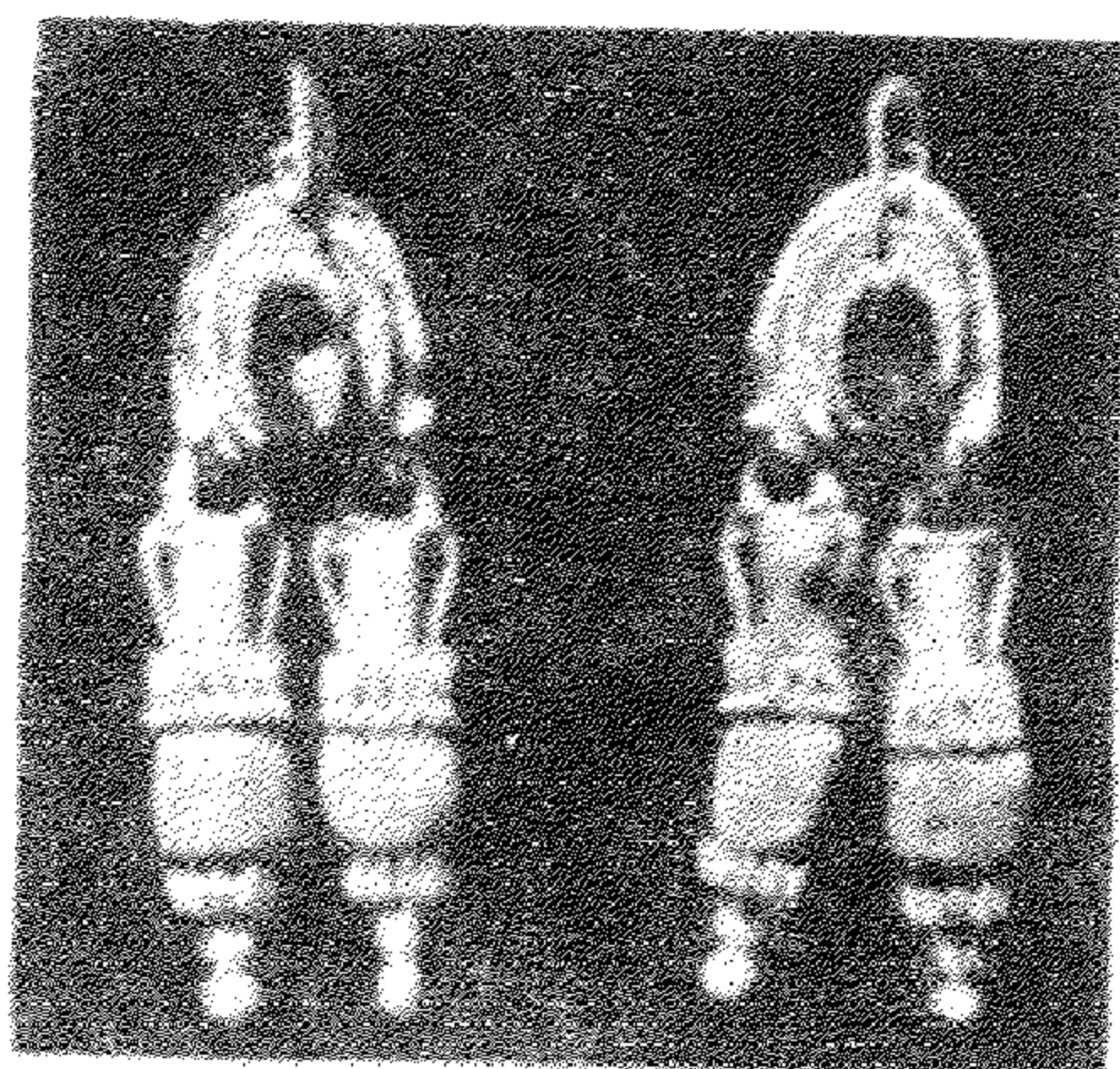
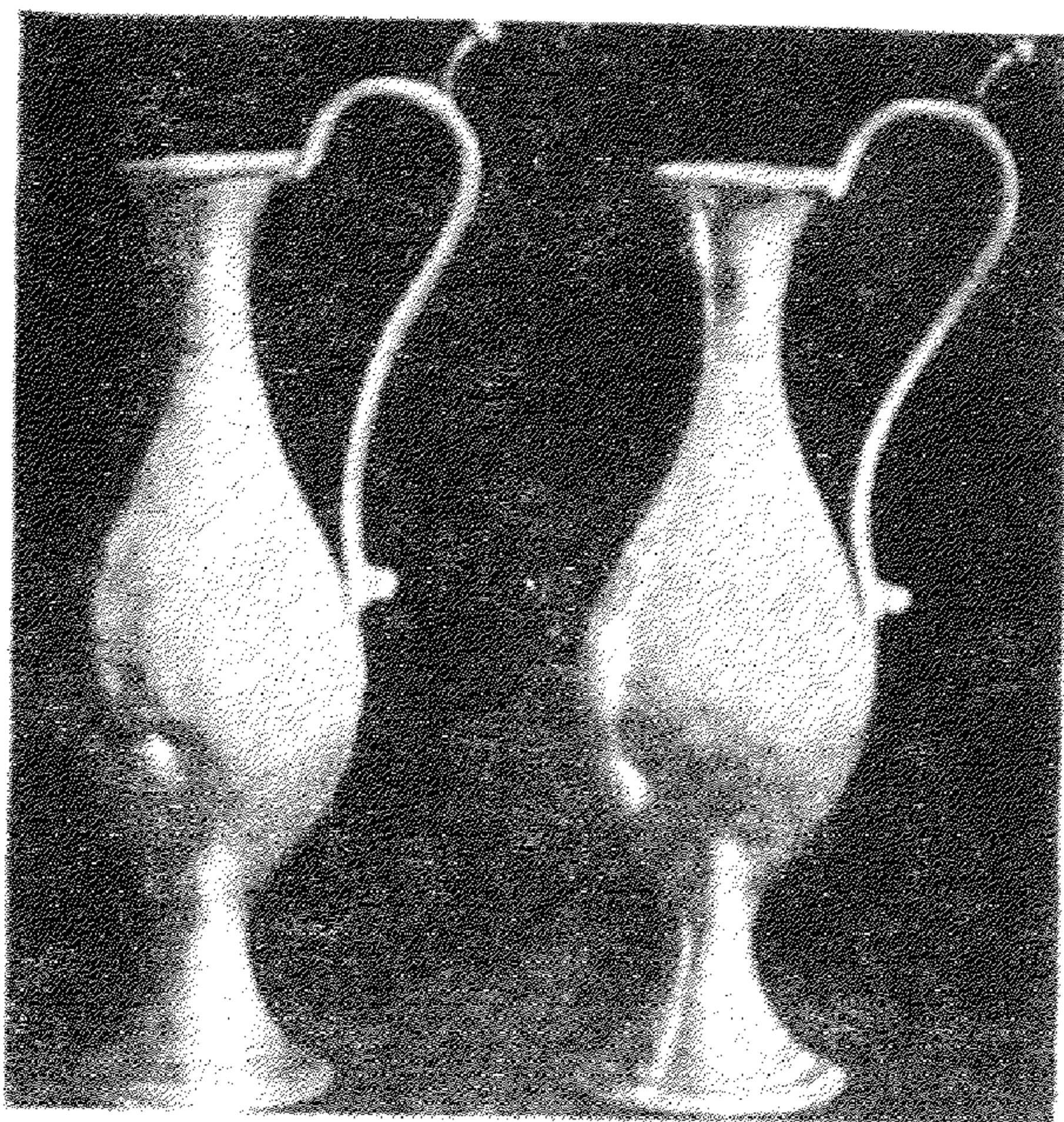
لوحة (١٢)
بالآلة وقسطل



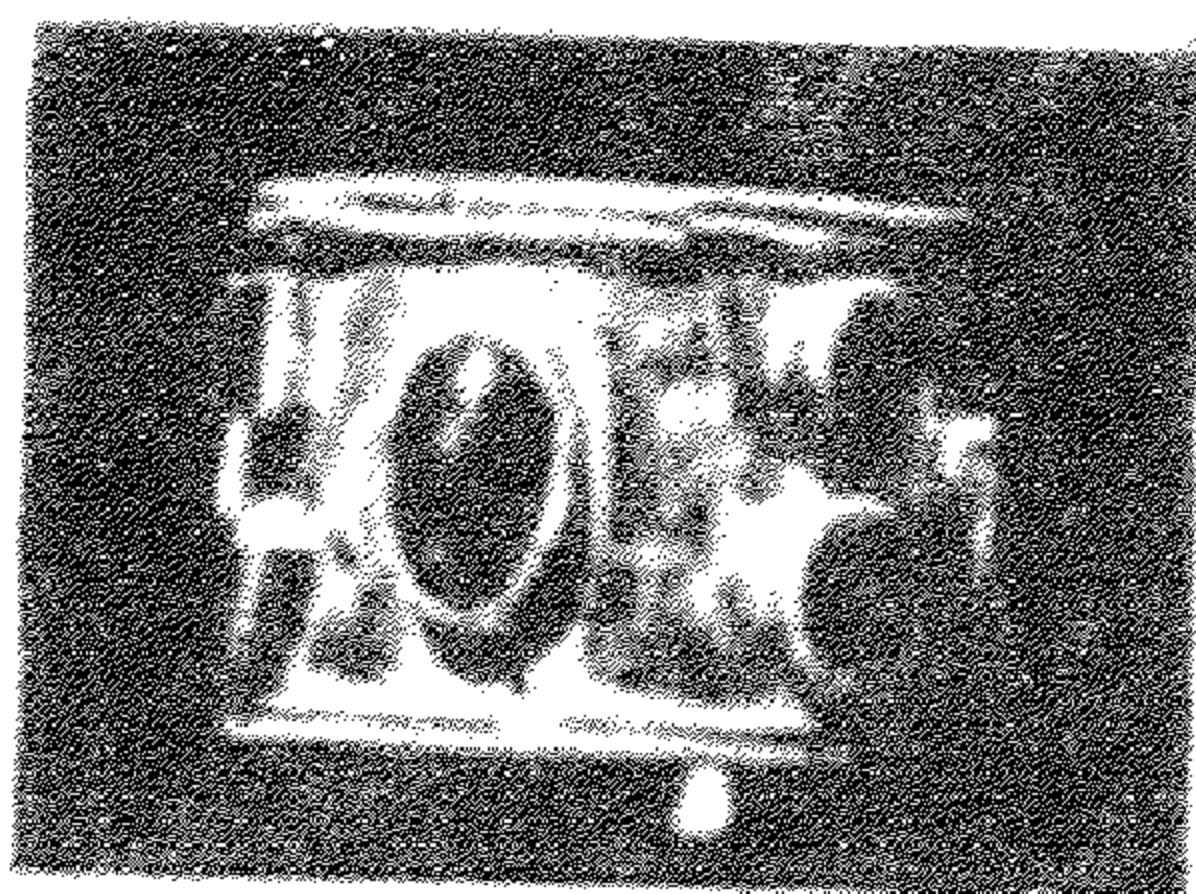


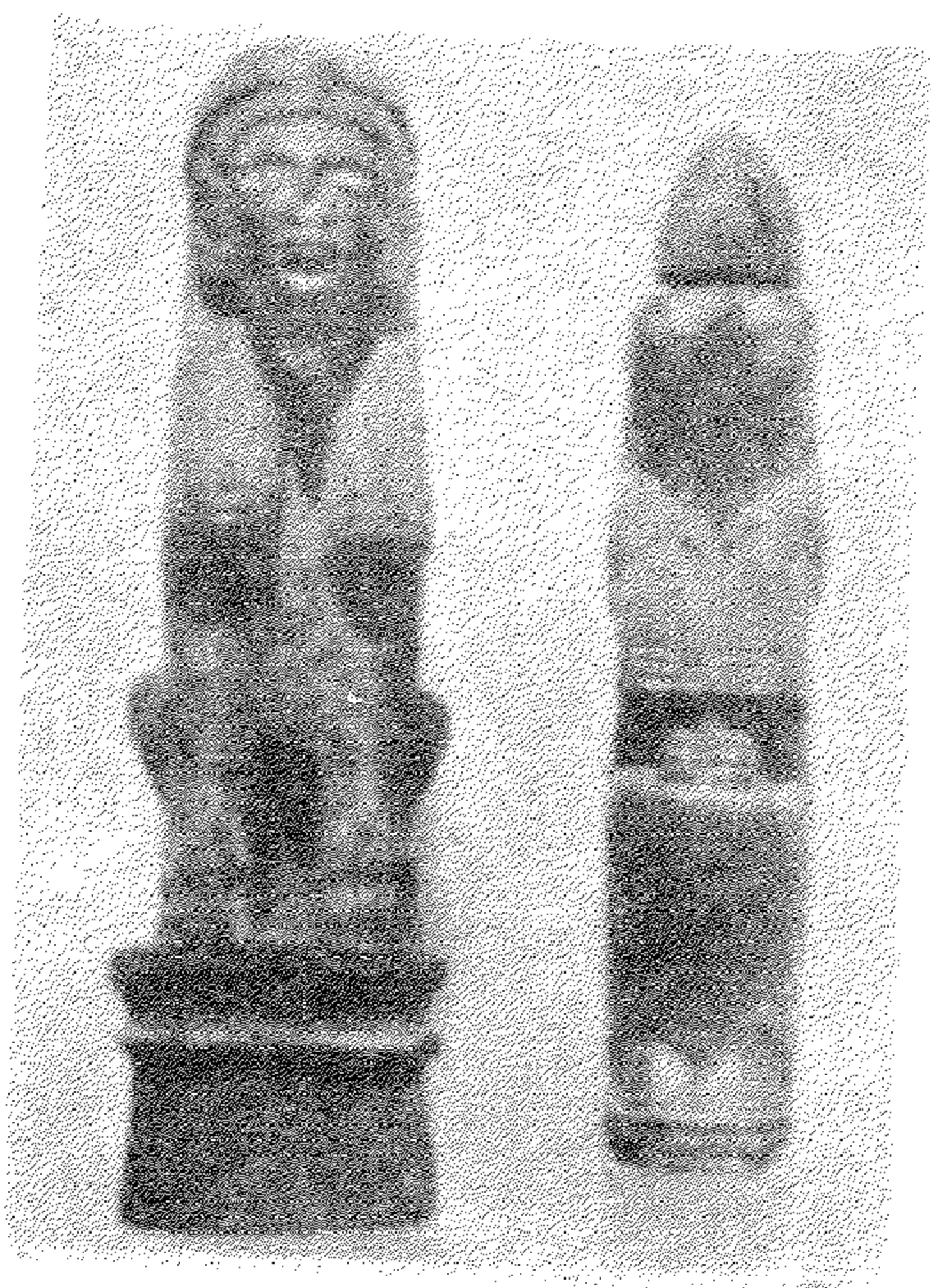
لوحة (١٢)
بلانة وقسطل



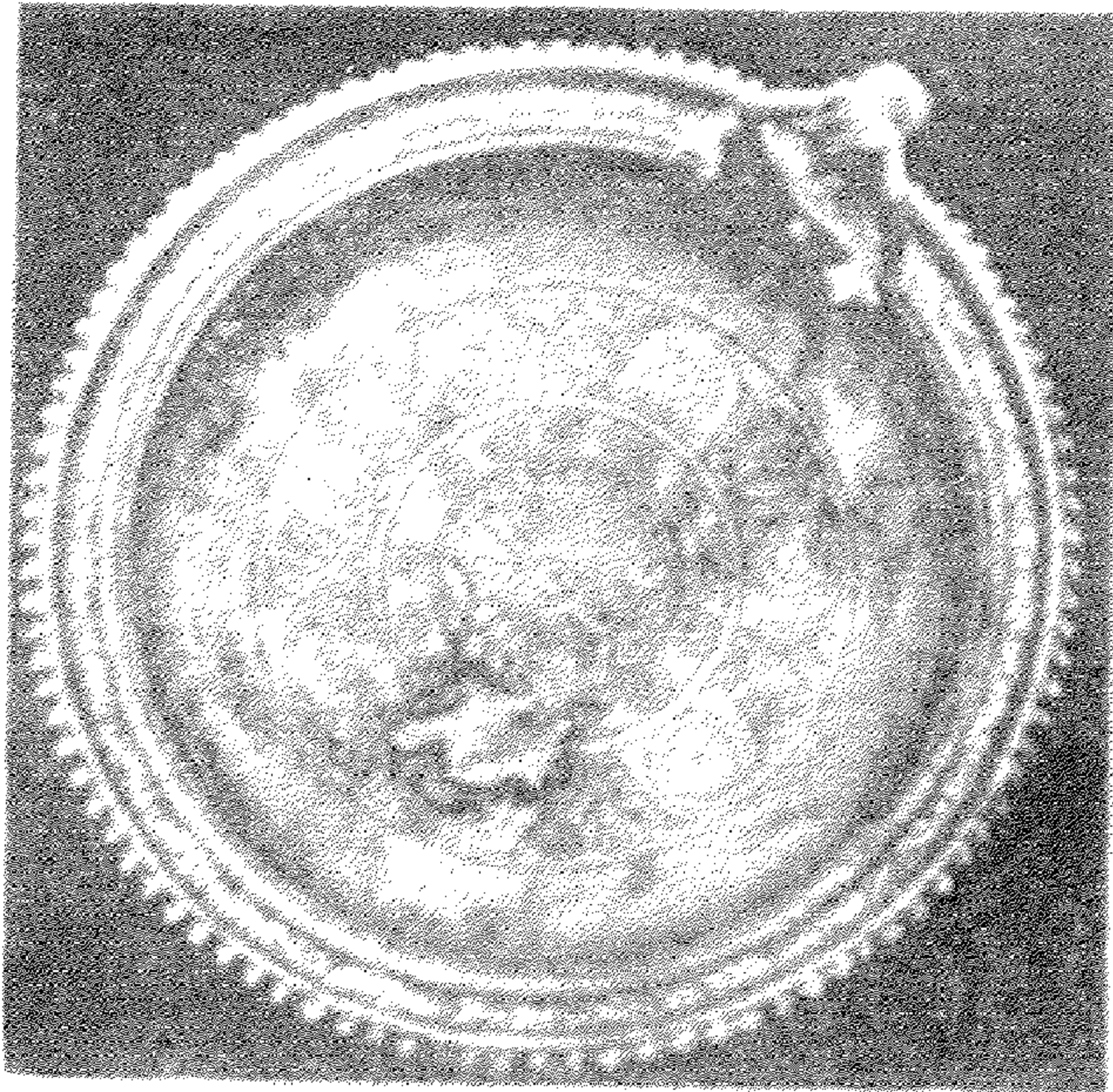
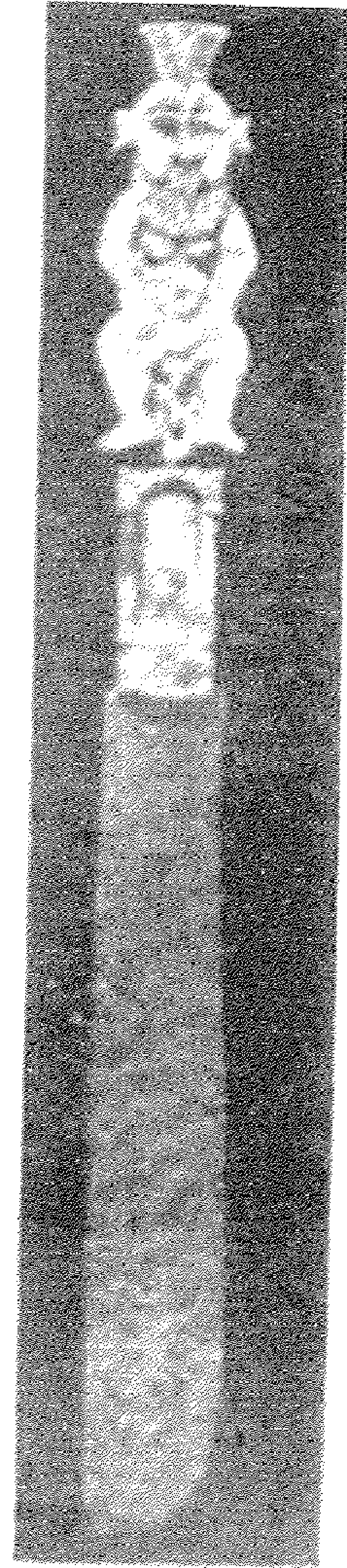


لوحة (١٥)
بلانة وقسطل



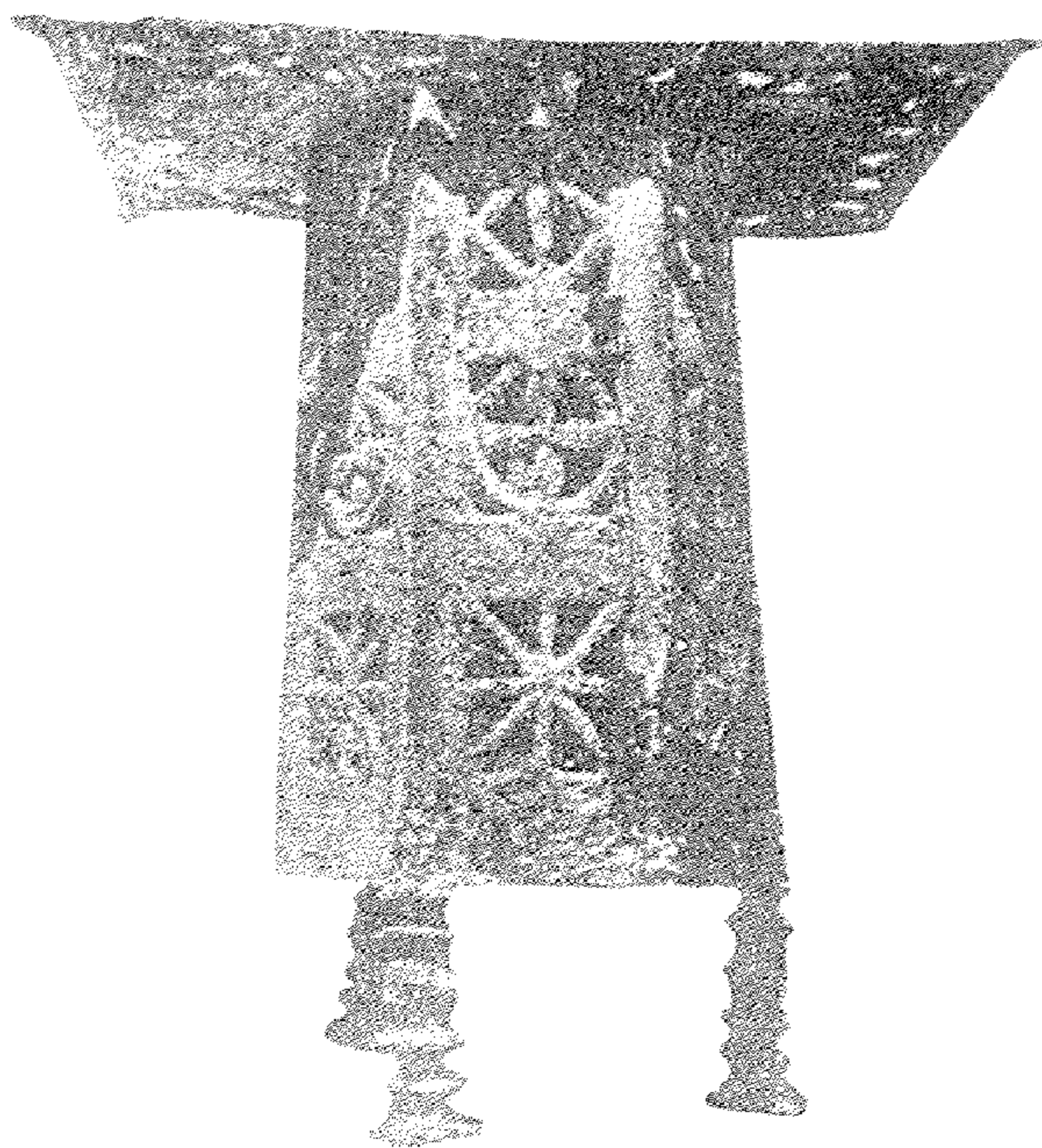
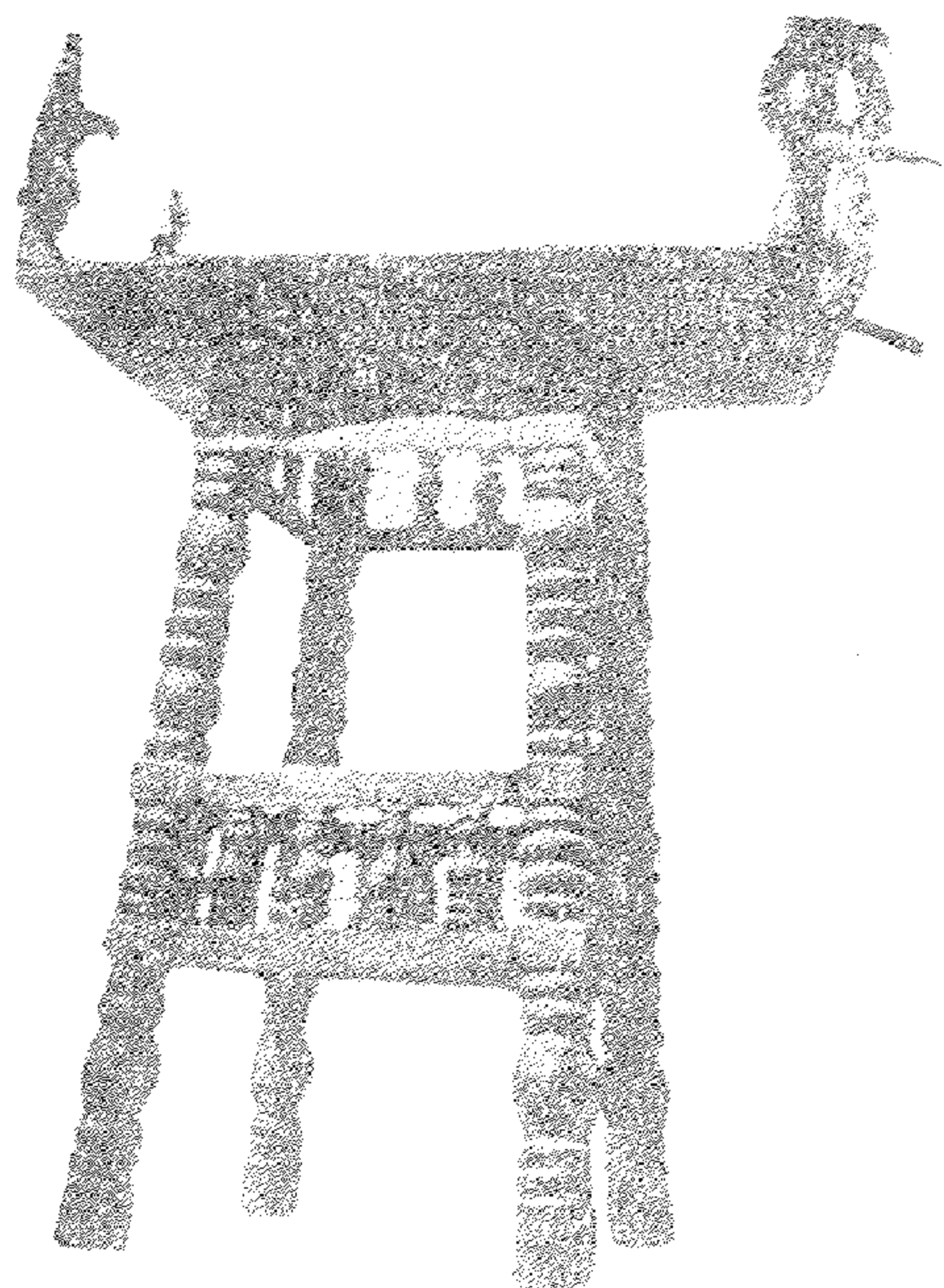


لوحة (١٤)
بلانة وقسطل



لوحة (١٦)

بلانة وقسطل

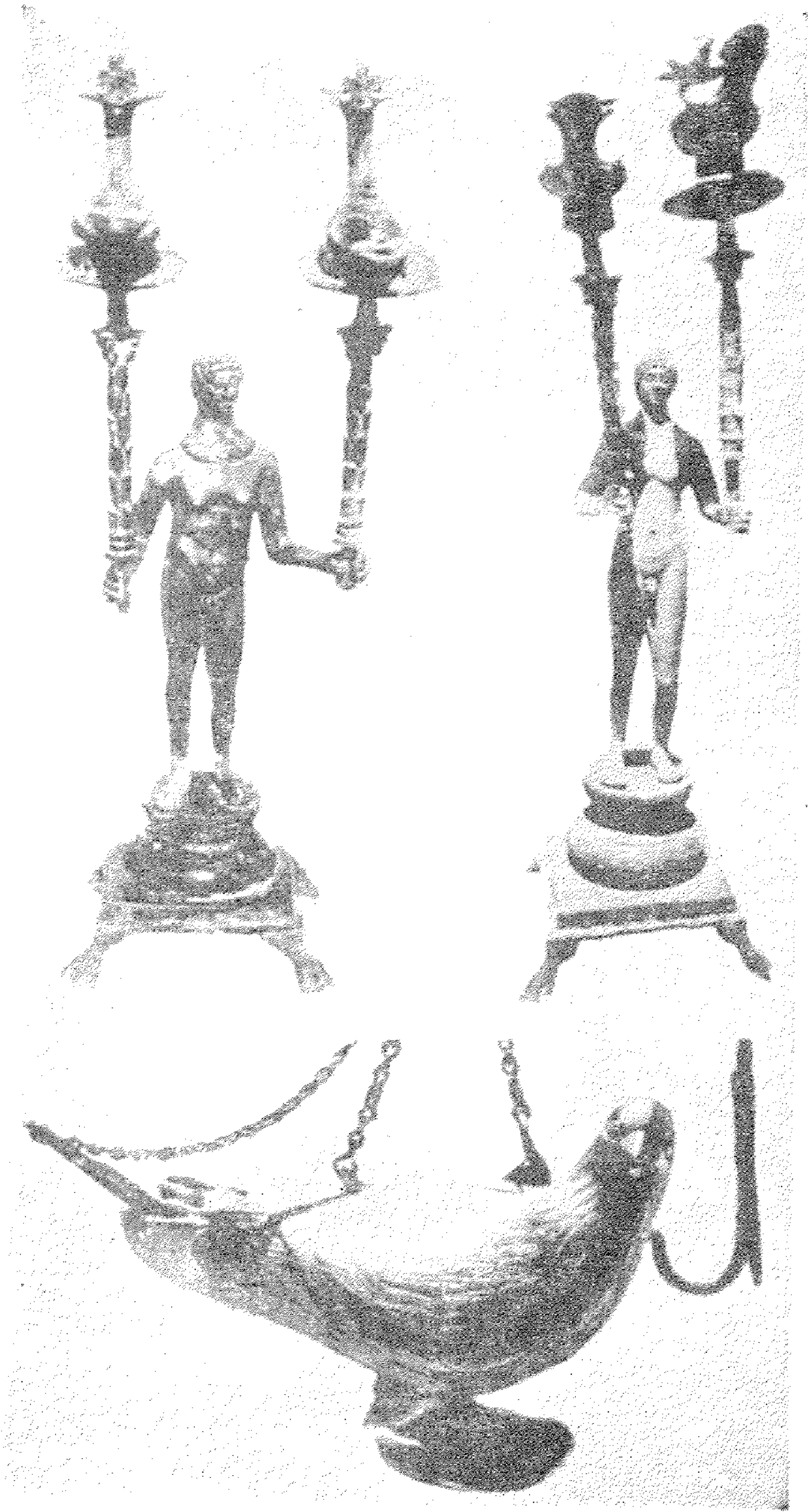


لوحة (١٧)
بلانة وقسطال

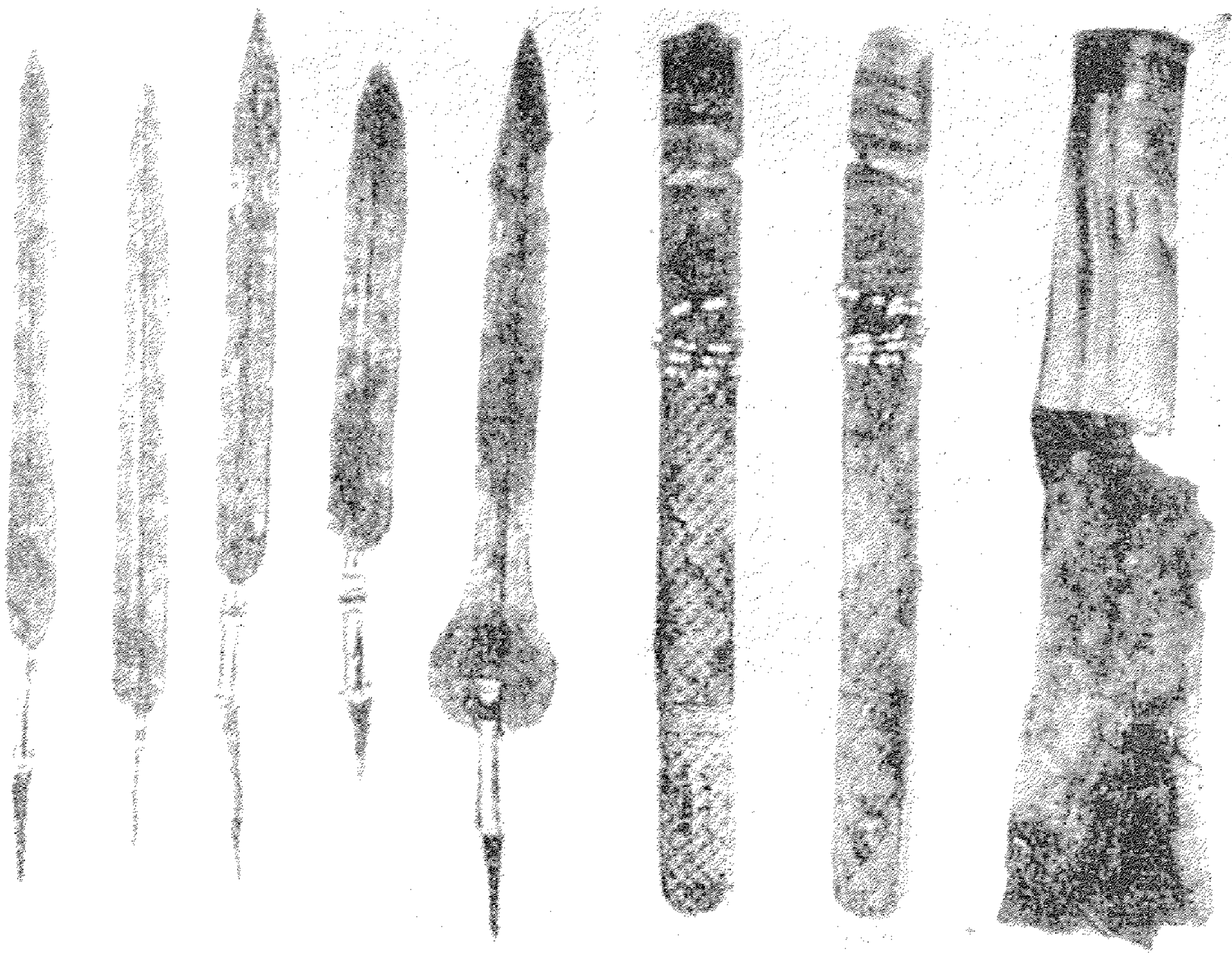




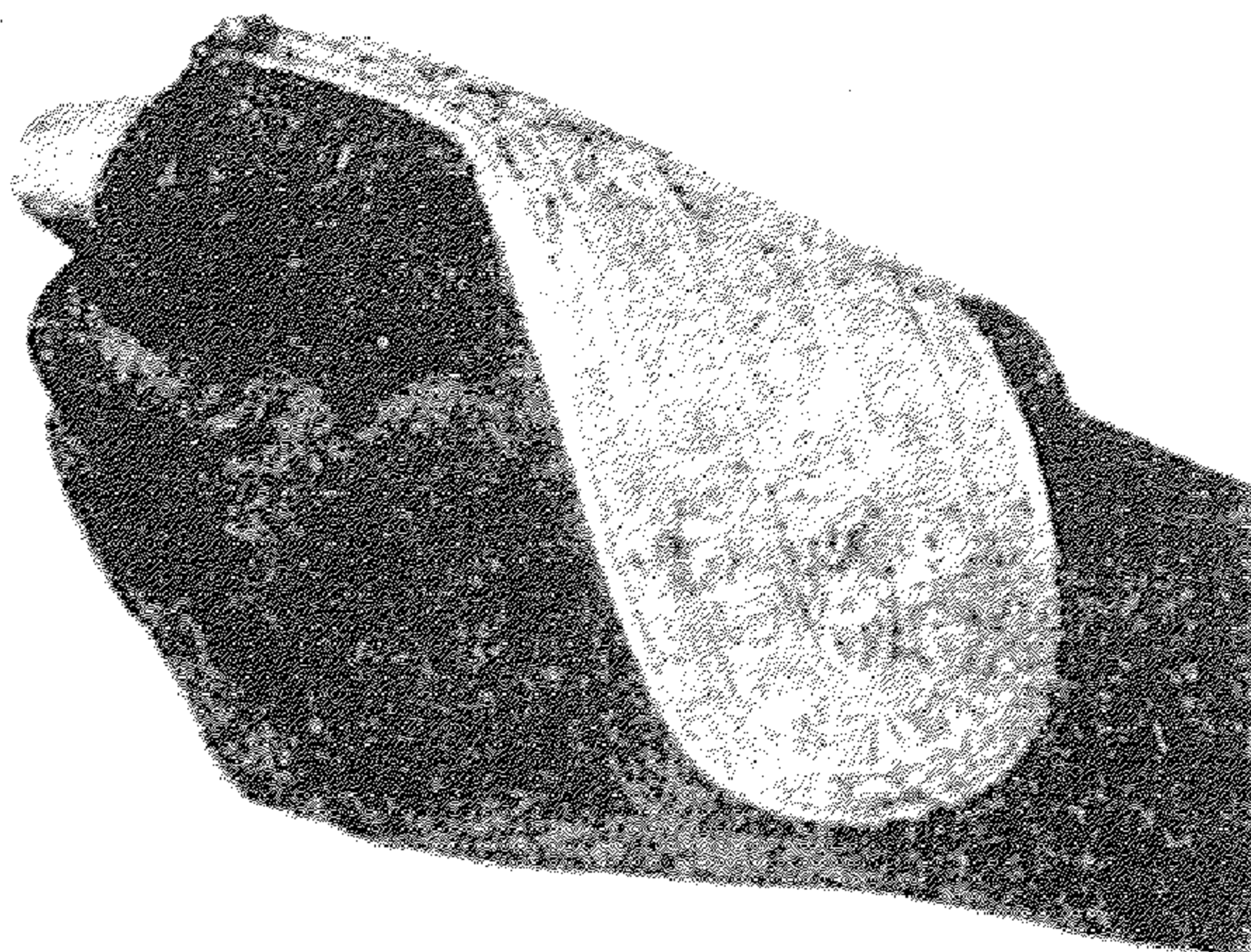
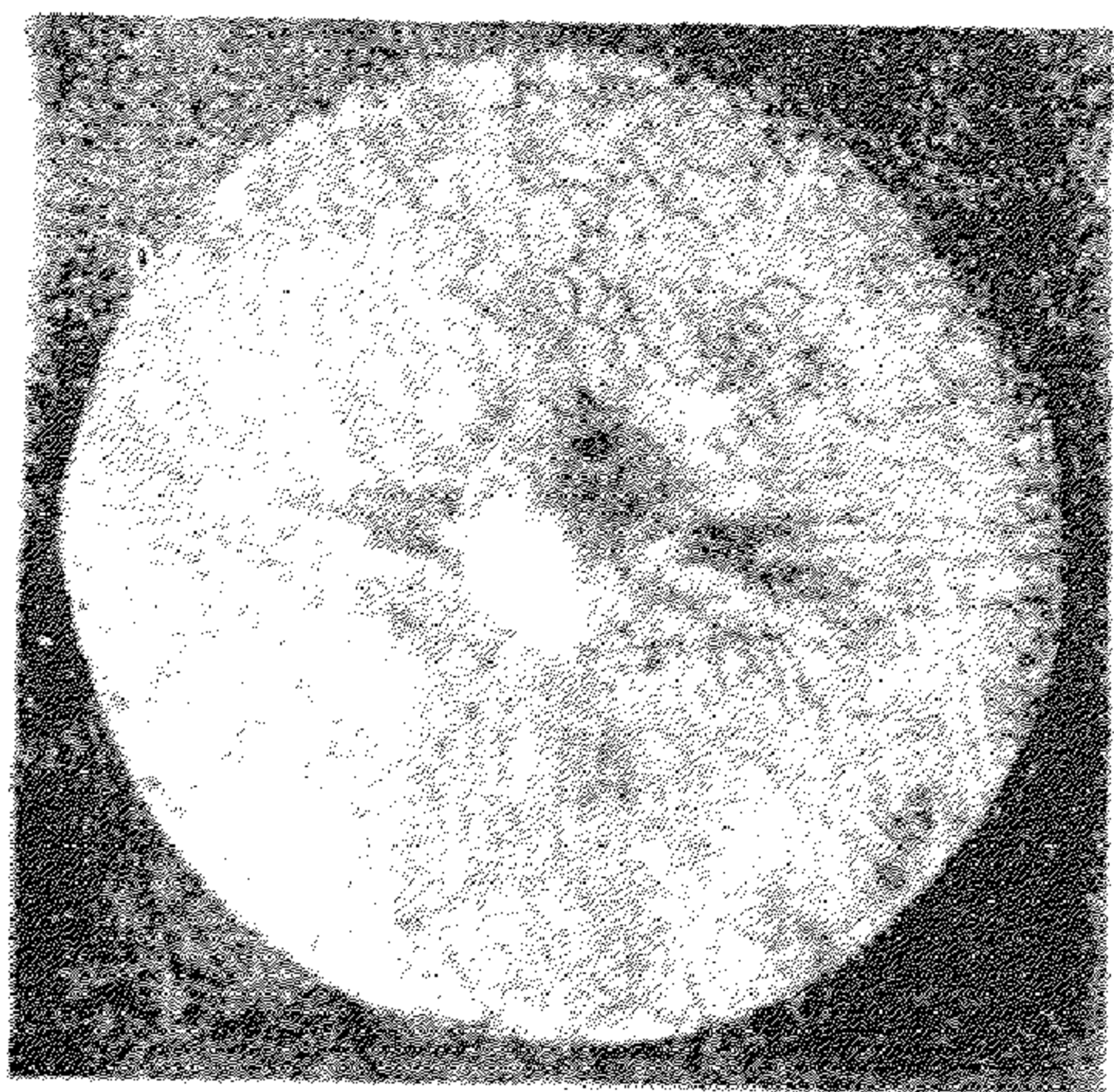
لوحة (١٨) بلانة وقسطل

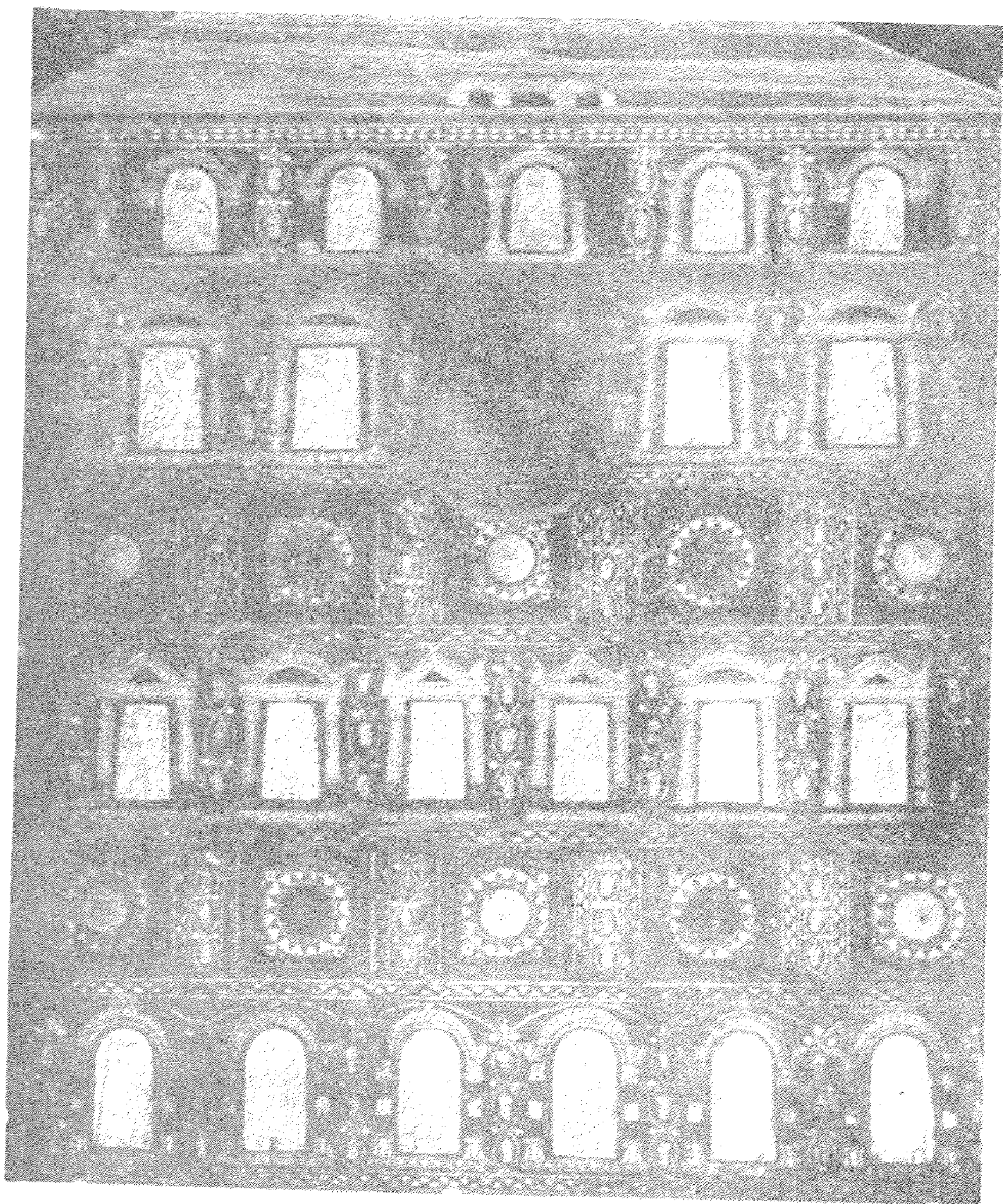


نوحة (١٩) بلانة وقسطل

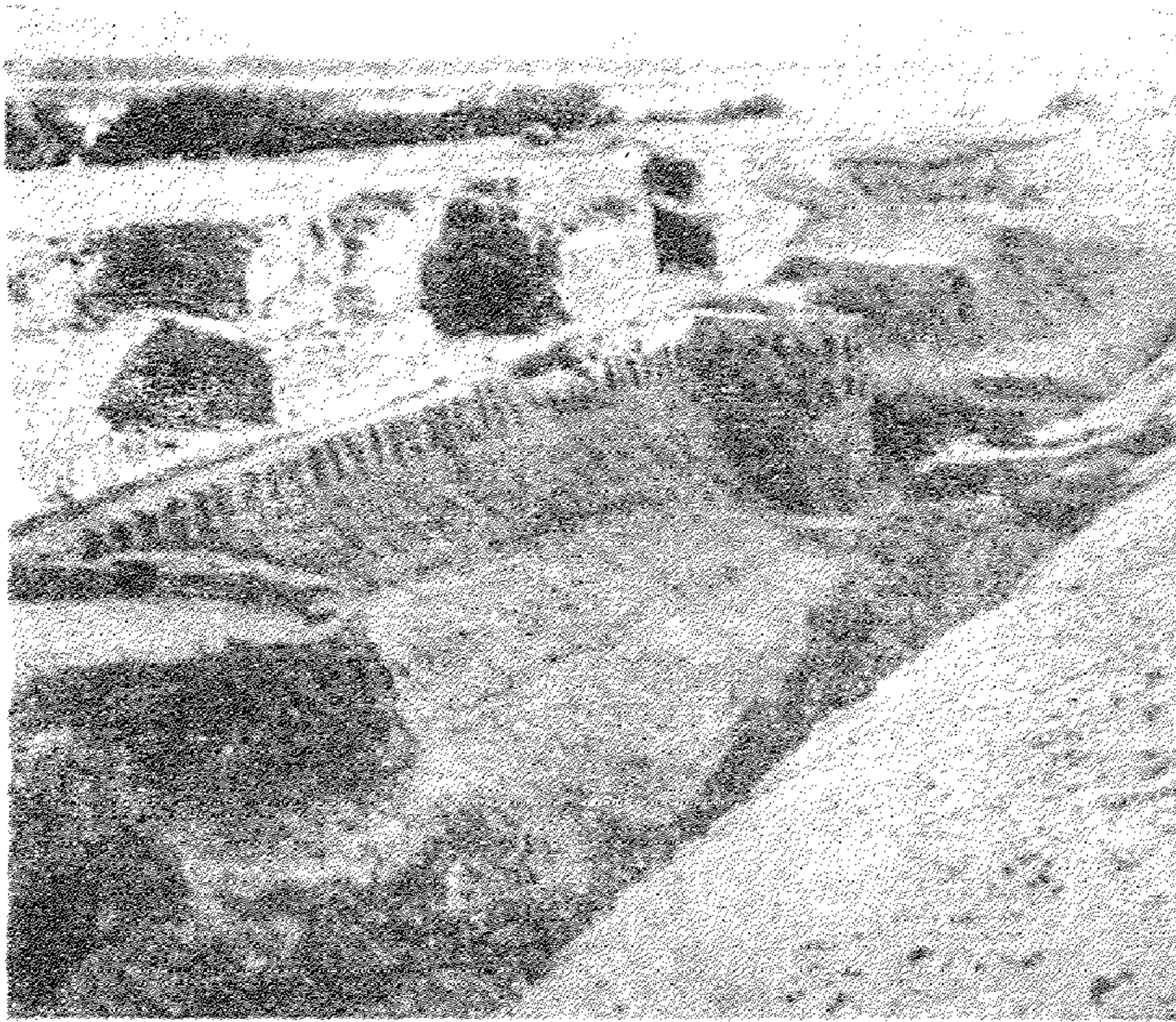


لوحة (٢٠) بلانة وقسطل

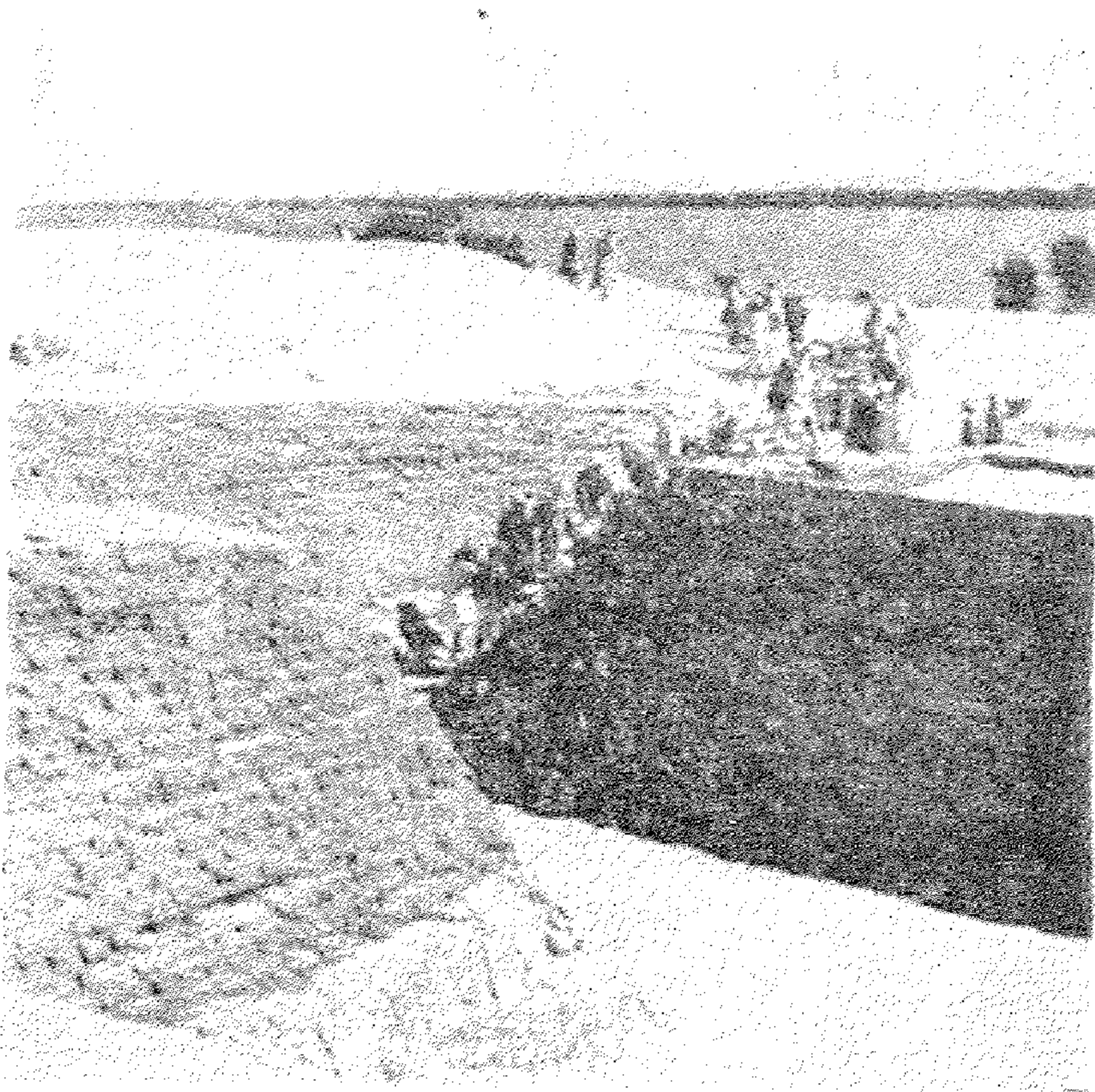


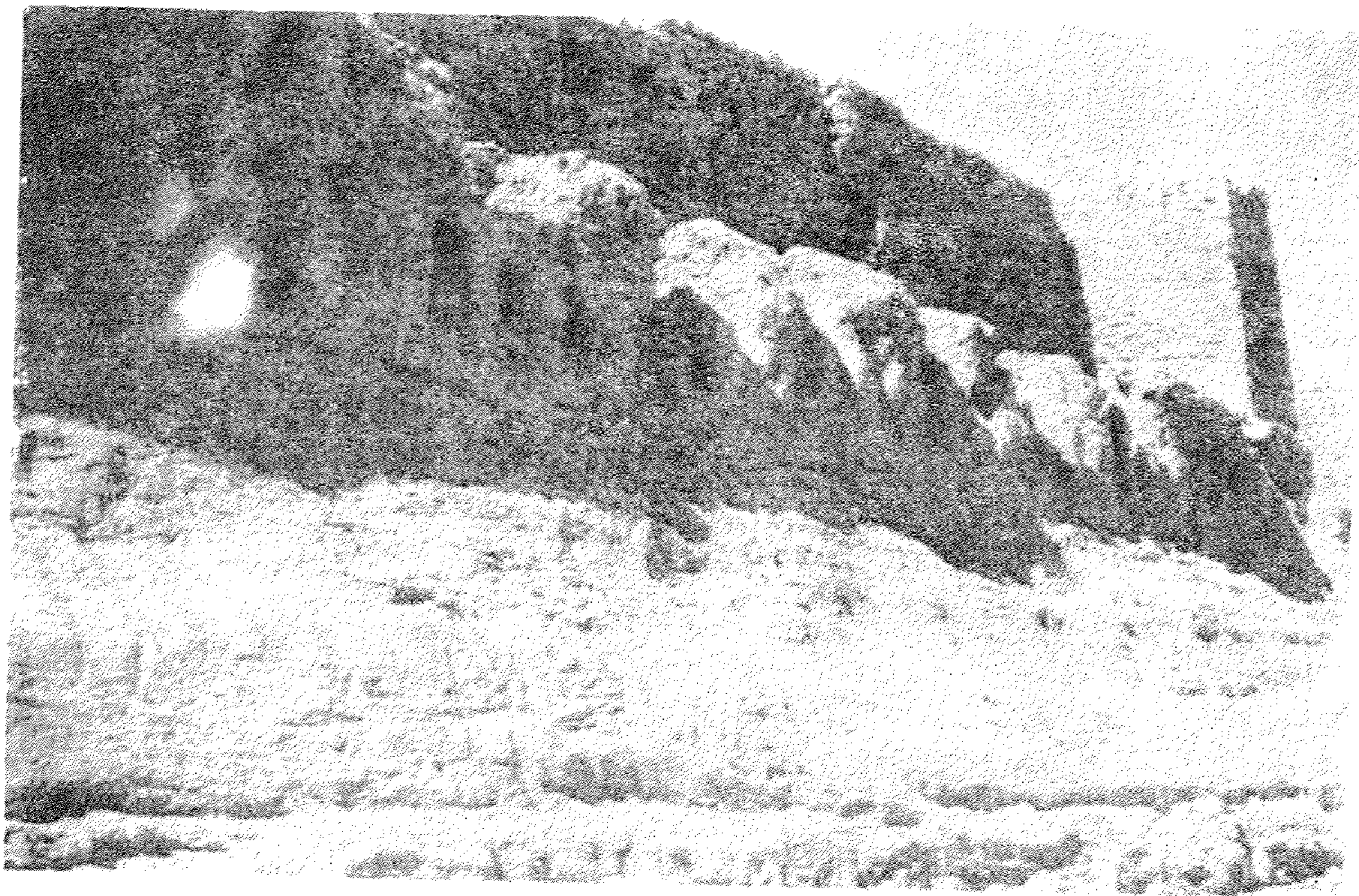


لوحة (٢١) بلانة وقسطل

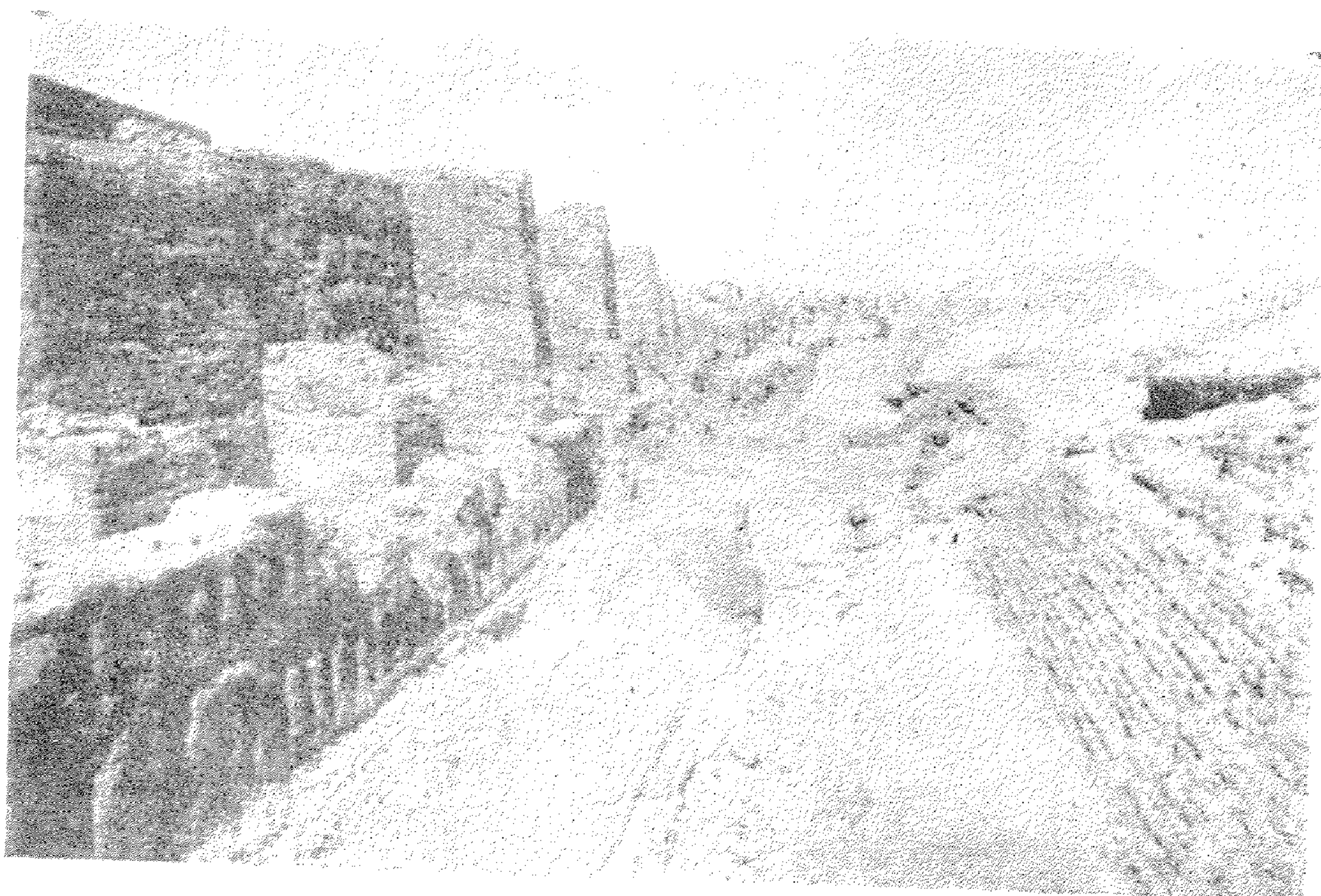


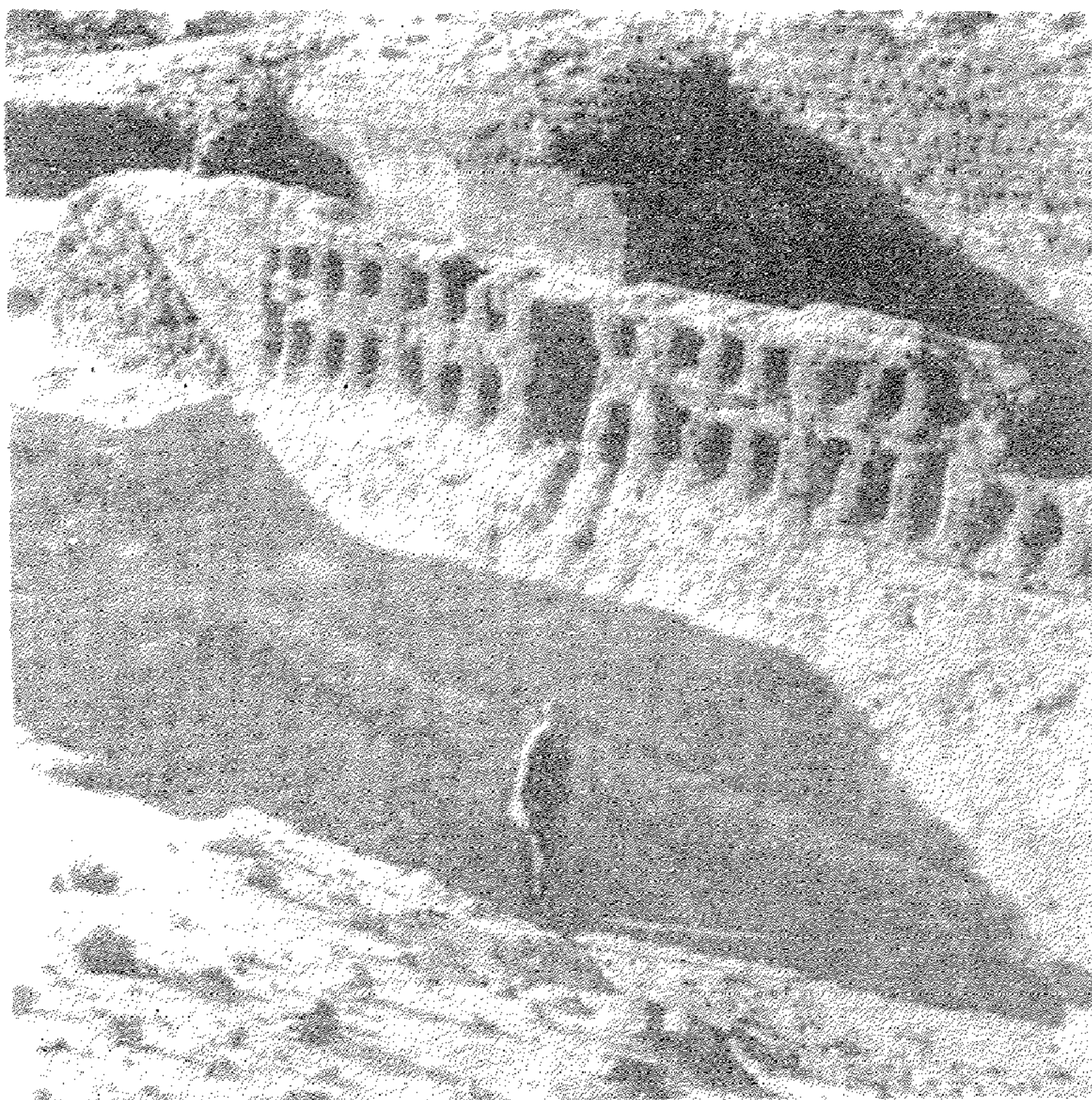
لوحة (٢٢) بوهن



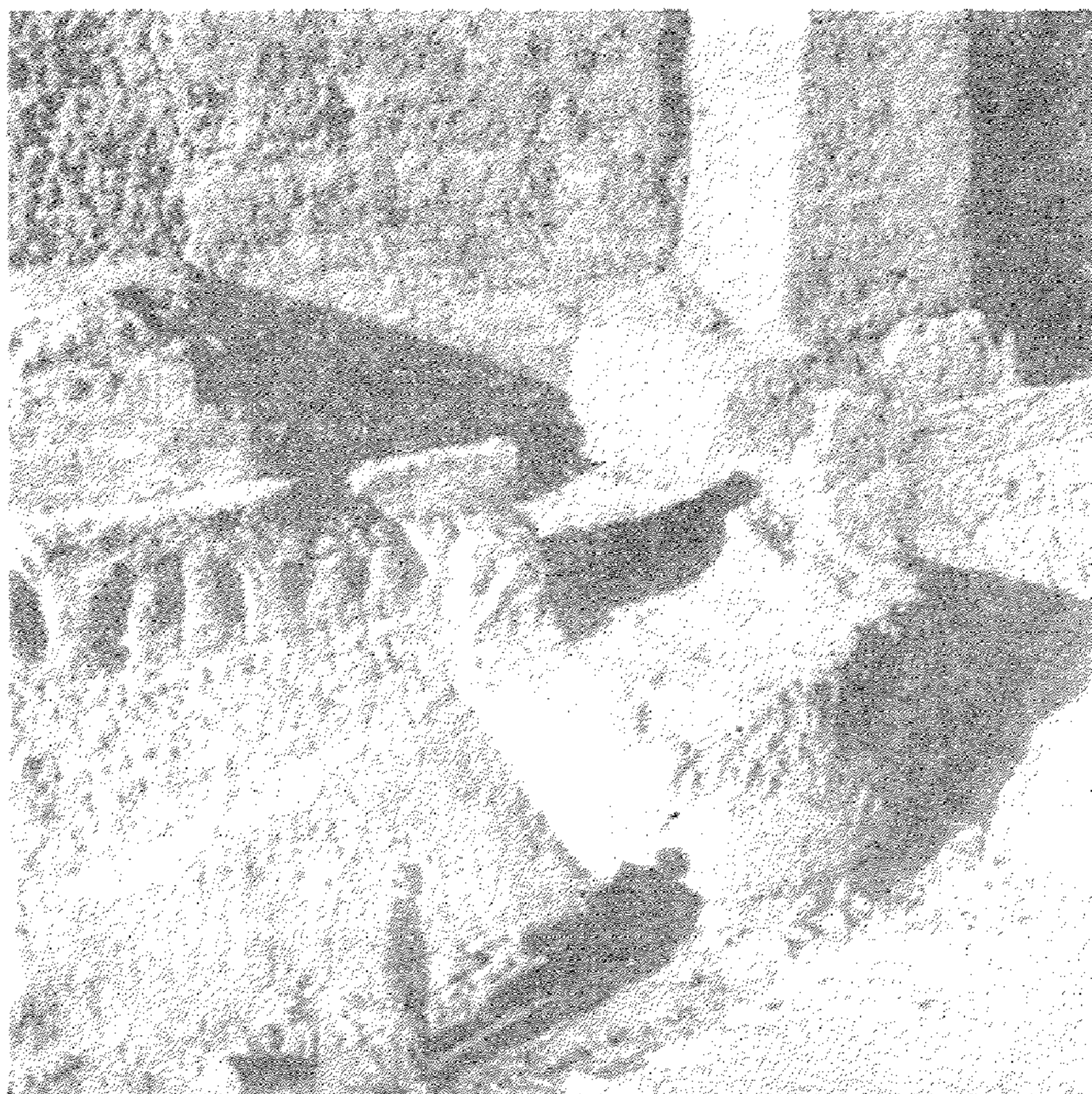


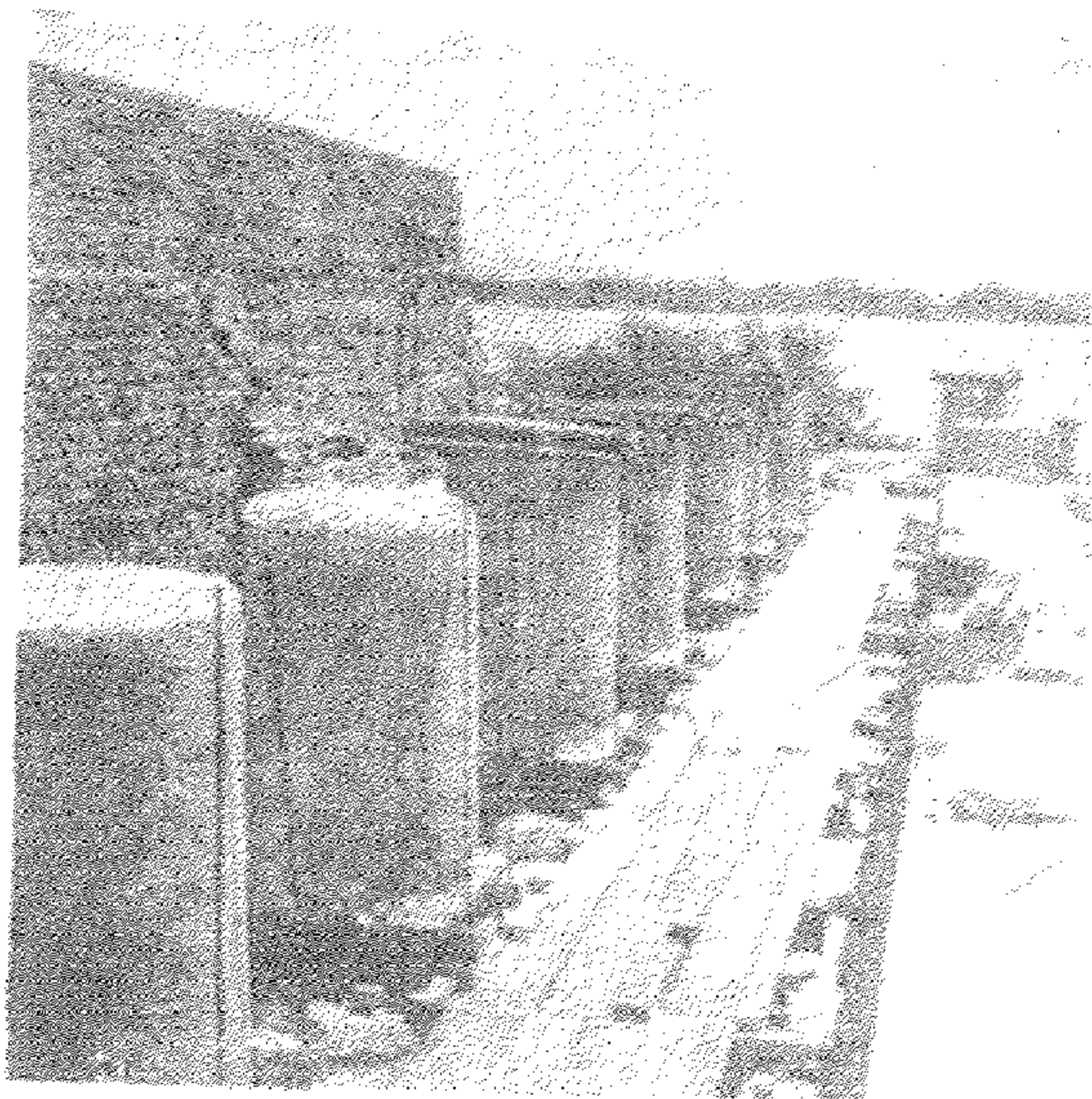
لوحة (٢٣) بوهن



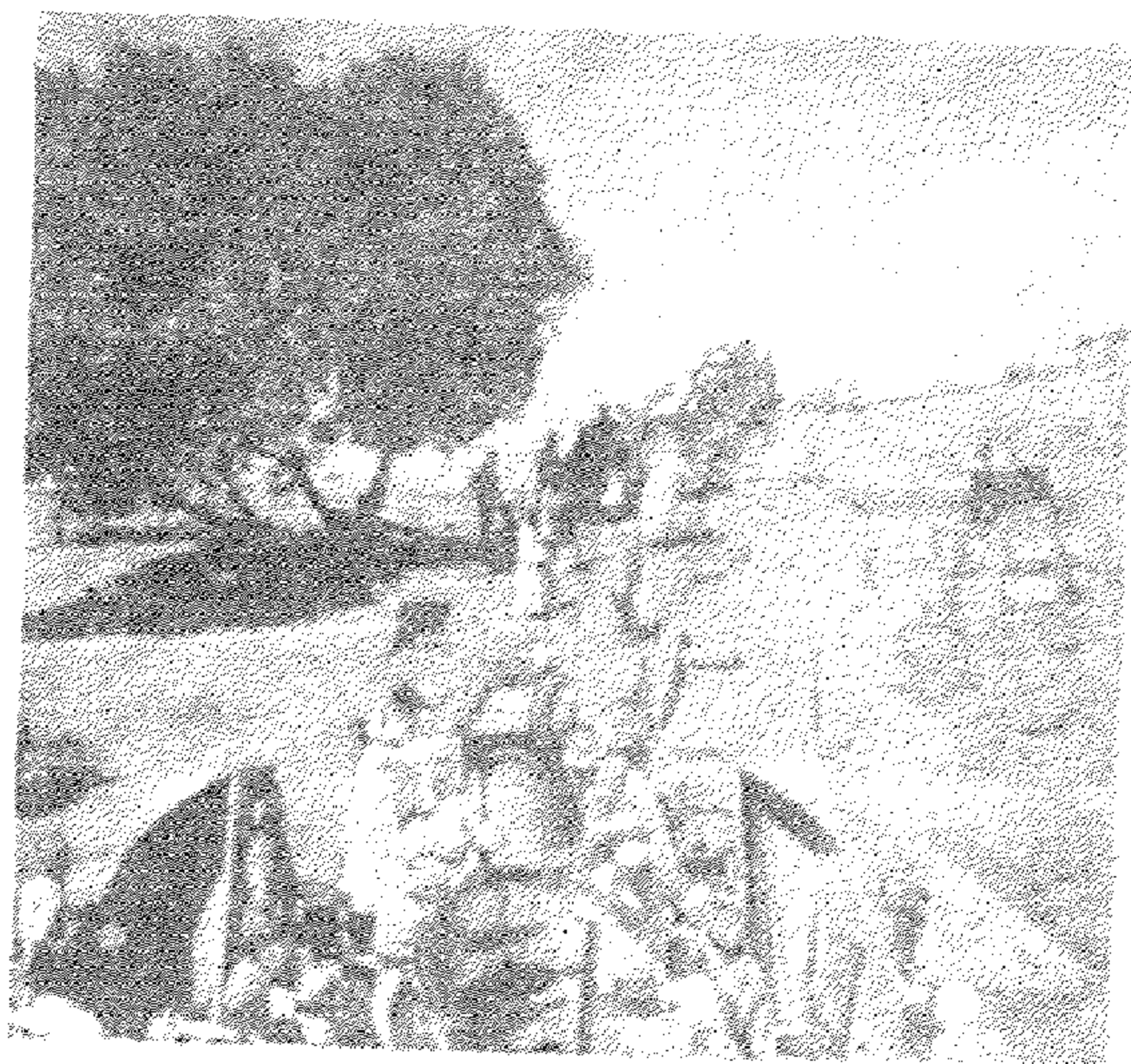
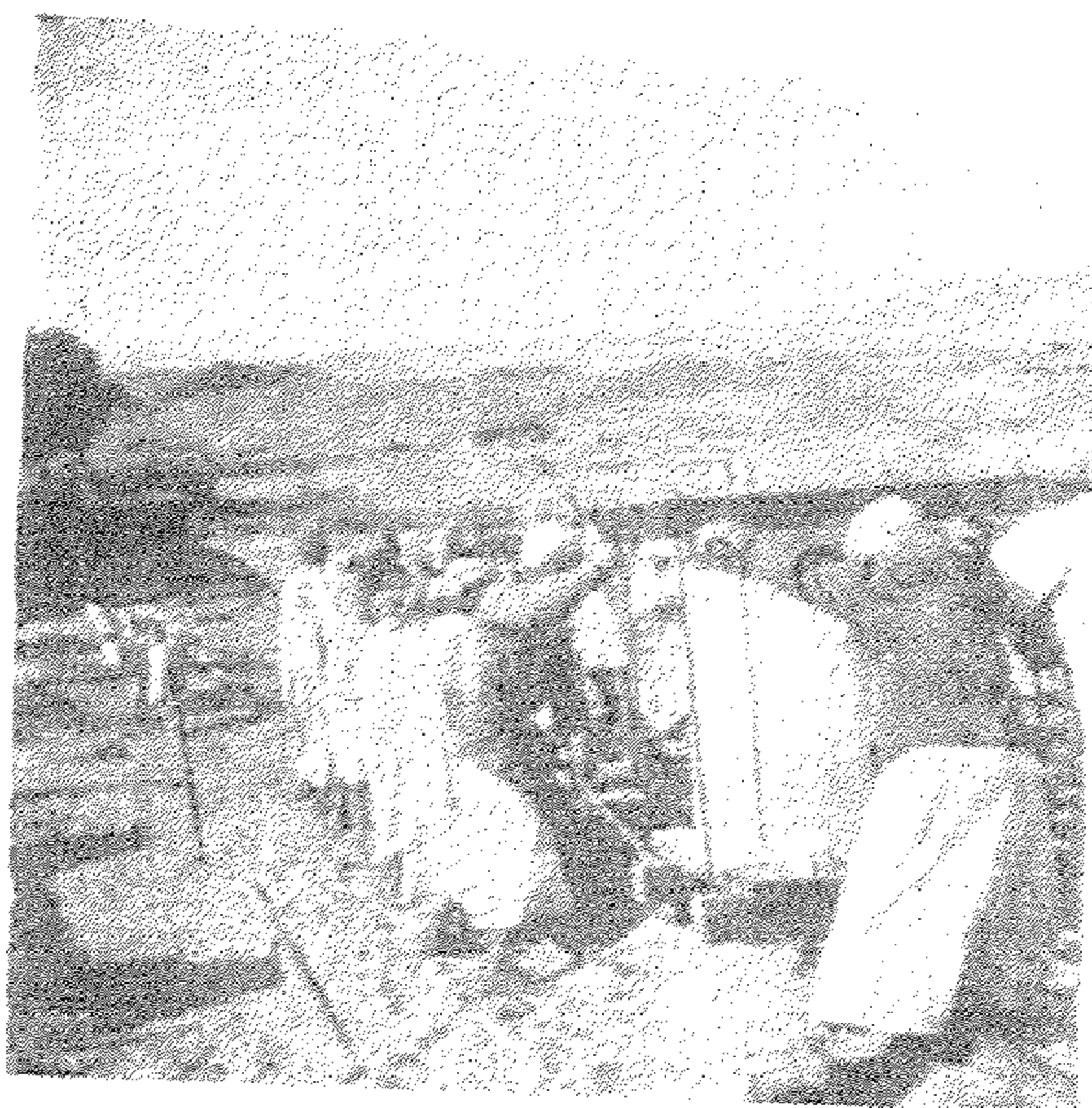


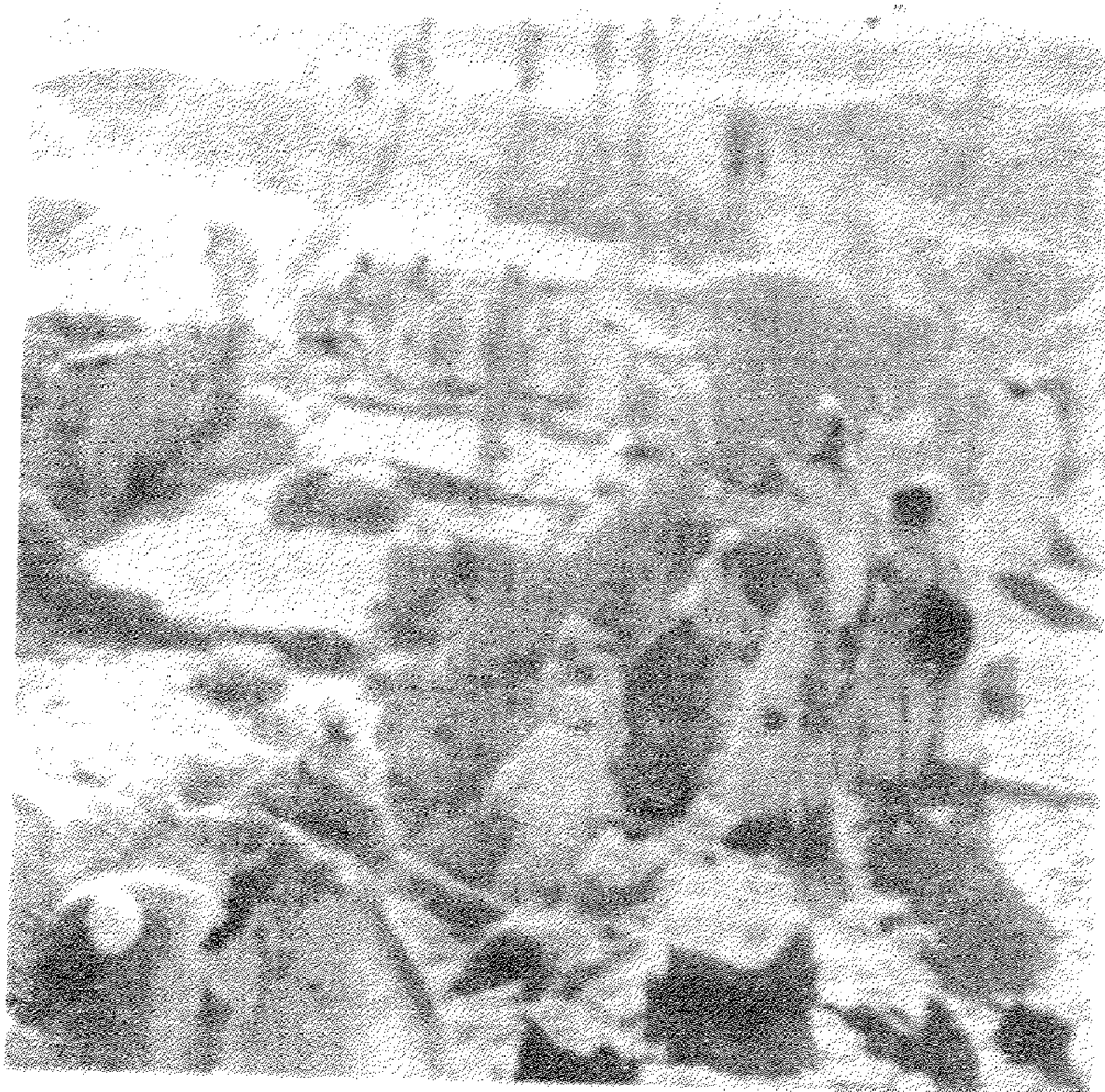
لوحة (٢٤) بوهن





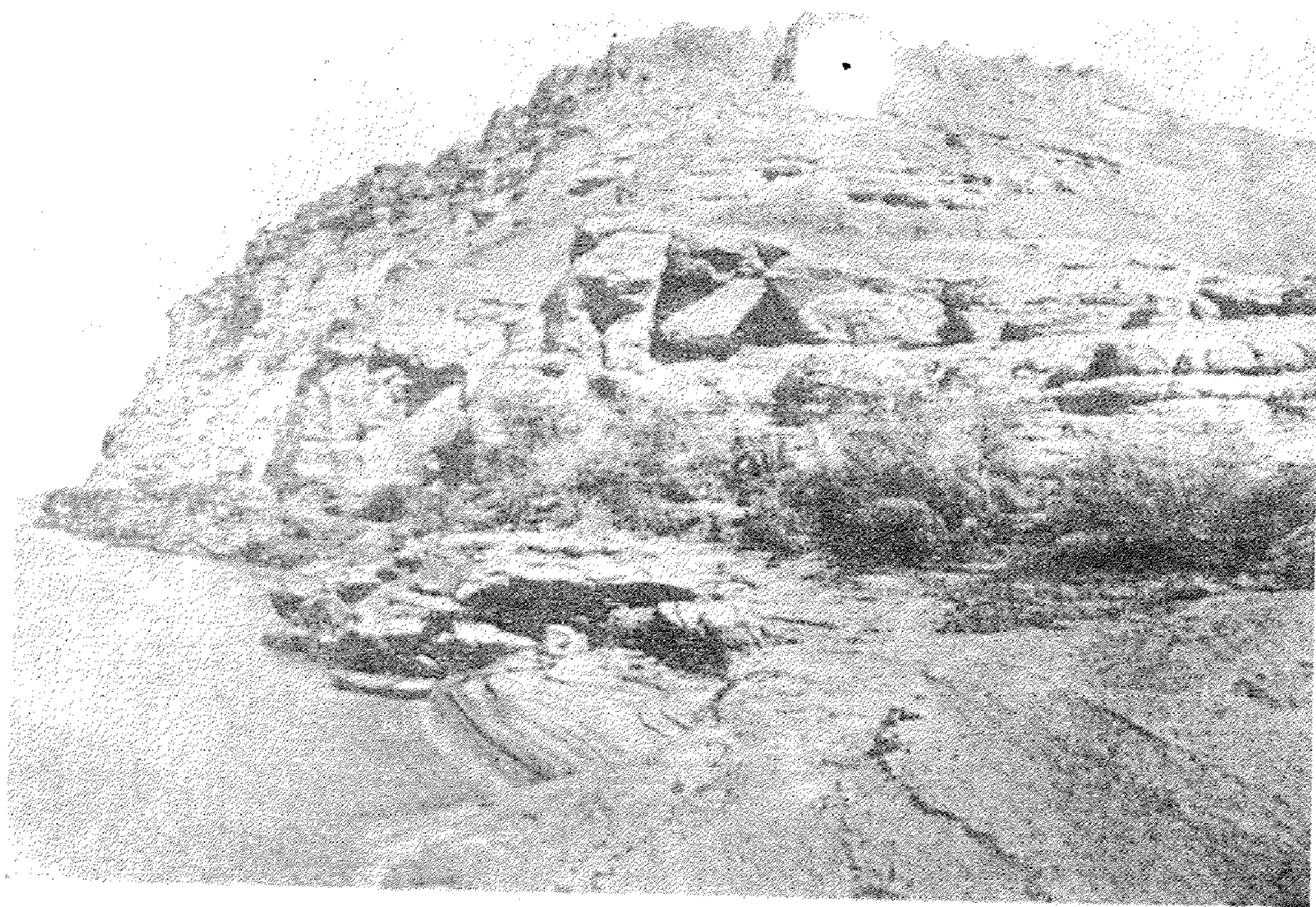
لوحة (٢٥) بوهن



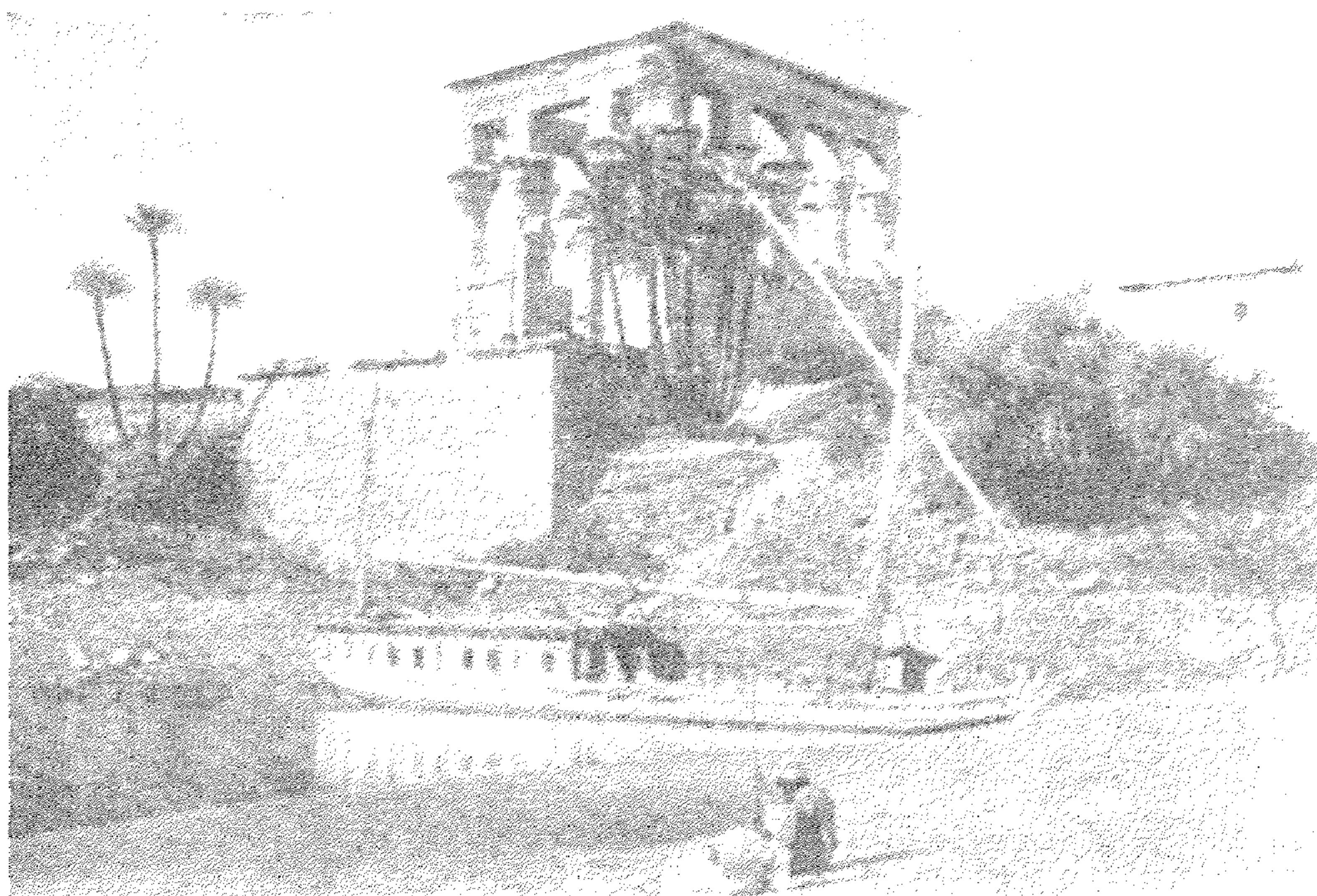


لوحة (٢٦) بوهن



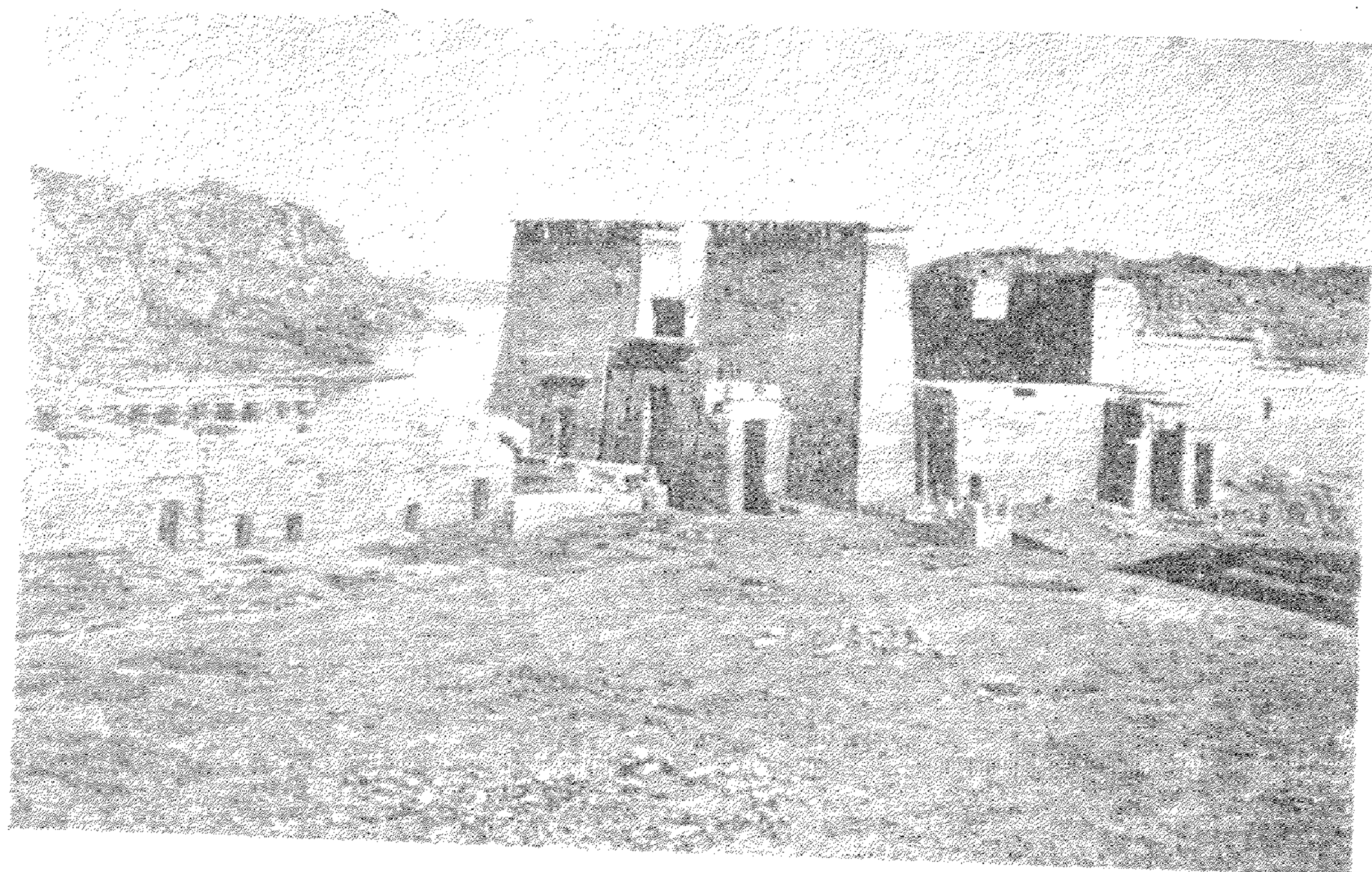


لوحة (٢٧) قصر أبريم



لوحة (٢٨) فيلة



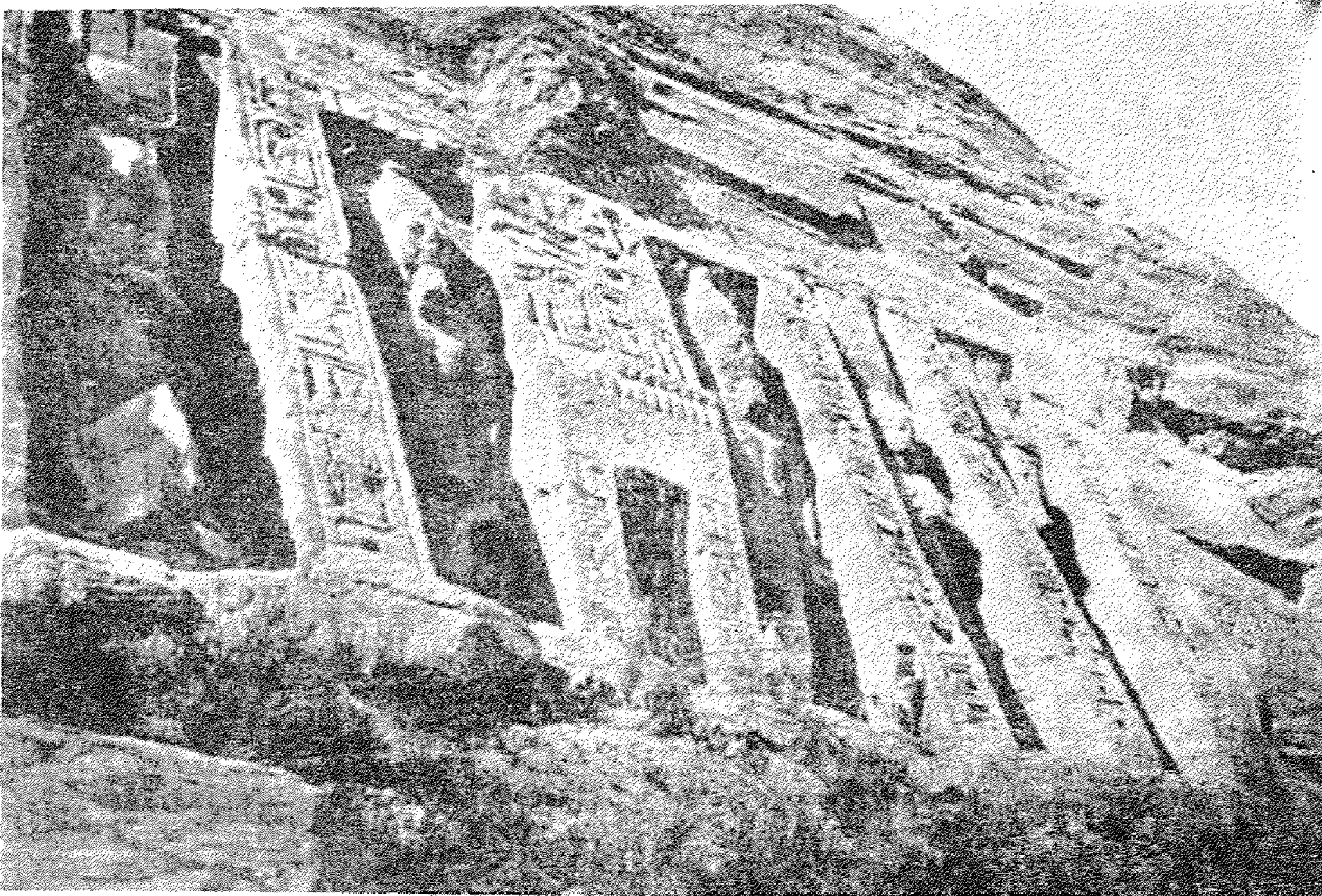


لوحة (٢٩) فيلة وكلابشة





لوحة (٣١) أبو سمبل





لوحة (٣٢)
الجند في الدولة الوسطى



الإشراف اللغوى : عبد الرحمن حجازى
الإشراف الفنى : حسن كامل
التصميم الأساسى للغلاف : أسامة العبد



ولتر إمري

مهـر وبلاد النوبة

قد نفهم من العنوان الأصلي للكتاب أنه يتناول آثار الحضارة المصرية في منطقة بلاد النوبة في العصور القديمة، في حين أنه لا يتناول الحضارة المصرية في الواقع إلا من حيث آثارها وتاريخها في منطقة النوبة: السفلى، والعلية، في العصور القديمة. كما يتناول إلى جانب ذلك حضارات نوبية مستقلة، مثل: حضارات كوش، وناياتا، ومروى، وغيرها.

وقد كرّس مؤلف هذا الكتاب حياته للتقريب في المواقع الأثرية على طول وادي النيل بين عامي: 1923، و1970 م، وعمل أستاذاً للمصريات بجامعة لندن في المدة من 1951 إلى 1970 م.